تفاحة أيوب
كاردينيا الغوازي
إبداع
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

# الإهداء

إهداء إلى سارة وجهاد، من حقِّ كلٍّ منّا أن يحلم ببطولة حكاية خيالية لا تمتُّ لحياته بصلة، مغامرة وربما مقامرة عندما تَمَنَحُ كاتبة حق رسم حياة خيالية أخرى لك على الورق.

***

# تنويه

الحكاية كلها، بشخوصها وأحداثها، هي من وحي خيالي
وتدور في أي بلد عربي دون تحديده.

***

# الفصل الأول
## تفاحة حمراء

مقال في جريدة محلية

فاتكة خاتون، الابنة الوحيدة للباشا عبد الفتاح نصيف؛ أثرى أثرياء زمانه في البلد، وقد كانت فاتكة وريثته الوحيدة قبل مئة عام.

في وقت كانت يُكثر تداول ألقاب الاحترام بكنايات تركية الأصل كـ(الخاتون) تأثراً بالدولة العثمانية، والخاتون لقب تركي قديم استخدم ليطلق على السيدة عريقة النسب والسيدة المهذبة أو سيدات المجتمع من الطبقة الراقية في بعض البلدان الاسلامية، وقد أطلق أيضاً على زوجة الخليفة أو السلطان وأمه وباقي الاميرات وكذلك زوجات الوزراء والأعيان والباشوات، وظل هذا اللقب يحمل تعبيراً عن الاحترام والرفعة وعلو الشأن، وما يزال يستخدم حتى يومنا هذا في تركيا.

ولفاتكة خاتون خصوصية، هذه المرأة الشابة في عهدها الزاهي بعد أن ورثت أباها، قررت أن تنهج نهجاً مختلفاً عنه، فبدلاً من نهج التجارة والمال قامت فاتكة خاتون

بشراء أرضٍ شاسعة خالية على أطراف العاصمة وبنت قصراً فلكلورياً فخماً وسطها بهندسة معمارية أذهلت كل من رآه في ذاك الزمن، ثم بدأت الخاتون بحملة لم يصدق جدّيتها أحد! حملة لبناء حيٍّ سكني كامل يجتذب المثقفين وغير المثقفين، من كافة الأديان في البلد فلم تفرق بينهم في العقيدة والدين والمذهب، وقد ركزت على فئة المعلمين تحديداً فباعت لهم أجزاءً من الارض الشاسعة حول قصرها كقطع مفروزة منفصلة وبأسعار زهيدة، لكنها اشترطت عليهم ان يبنوا البيوت على نفس طراز القصر الفلكلوري، ولم تمانع لمن يريد الاستفادة أكثر من تشييد مبانٍ من عدة طوابق على ألّا تتجاوز الثلاث، وقد اهتمت بالإشراف على بناء المدارس بنفسها وأقامت مستشفى عام على حسابها الشخصي لتجتذب شريحة الاطباء أيضاً، ولاحقاً شجّعت إقامة محلات البضائع والمكتبات ثم أخذت تمنح الأراضي أحياناً مجاناً! وهكذا أنفقت فاتكة خاتون كل ثروتها لتبني حيّاً مميزاً عريقاً متكاملاً.

ولأجل كل ما فعلته؛ أكرمها الناس وأحبوها من كافة الفئات، أقاموا جامعاً على اسم والدها؛ (جامع عبد الفتاح باشا)، والمسيحيون أقاموا كنيسة وأطلقوا عليها اسمها؛ (كنيسة الخاتون)، بل أنّ الحي بأكمله حمل اسمها؛ حي فاتكة خاتون.

هذه المرأة العظيمة ماتت وهي شبه مفلسة! فلم يتبقَ من

ثروتها إلّا مكتبة صغيرة بالإضافة طبعاً الى (قصر الخاتون) الذي عاشت فيه حتى أنفاسها الأخيرة، ورغم أنّ القصر كان قد فقد رونقه لقلة الصيانة وتقادم الزمن؛ لكنه حافظ على هيئته الفلكلورية وشرفاته الأنيقة.

ماتت الخاتون وقد أنجبت البنين والبنات ثم تفرقوا كل لحاله ودربه، لكن فاتكة خاتون لم تمت حقاً ولم تكن مفلسة في الواقع! لقد ظلّت حية بما بنته وشيّدته، بما فتحته من أبواب الرزق الحلال ومراكز الثقافة والتآلف الاجتماعي، فكانت ثروتها الحقيقية التي حملتها معها لآخرتها، ثروة لا تنضب على مرّ السنين، وفي هذا أثبتت فاتكة خاتون أنها (ابنة ابيها)، بل تفوقت عليه كـ(تاجرة) وقد ربحت تجارتها مع رب الناس أجمعين.

حي فاتكة خاتون ربما لم يعد راقياً لكنه ظل عريقاً بتاريخه، وذكرى الخاتون تعمّ الأماكن والشوارع، حتى ولكأنك عندما تسير في طرقات الحيّ تشمّ في الهواء رائحة (خيرات الخاتون) وعبق مالها الحلال الذي فرّقته بطيب خاطر في خدمة الناس.

أما قصر الخاتون فقد انتقلت ملكيته من شخص لآخر، ولا أحد بات يعرف أو يهتم بهوية المشتري الجديد، وقد تحوّل القصر الضخم الى مبنى من ثلاثة طوابق منفصلة، وتم تقسيم الطابقين الأرضي والأول الى عدة شقق

**سكنية، بينما احتفظ الطابق الثاني بمساحته كاملة ليكون شقة واسعة يقطنها دوماً صاحب القصر الجديد.**

داخل الشقة في الطابق الثاني من قصر الخاتون؛ رمى أيوب الجريدة من يده بعد أن قرأ المقال، ثم وقف على قدميه متكئاً بعصاه كي يتقدم بخطوتين من الشرفة القريبة من كرسيه والمطلّة على الشارع الضيق، فتح أيوب ضرفتي باب الشرفة، ودون أن يخطو للأمام تجد عيناه ما أطلّ من شرفته كي يراه، في هذا التوقيت الصباحي اليومي.

رآها بثوبها الأزرق اللطيف المألوف الذي يغطي نحول قدها وقصر قامتها، شعرها البنيّ الداكن الذي تربطه اليوم للخلف كذيل حصان.

تؤدي أولى مهامها الصباحية وهي تكنس أمام باب المكتبة التي افتتحتها قبل قليل ومعها تفتح مسامع أيوب فيدرك ضجيج الحي المزعج من حوله! هي التي باتت؛ مفتاح السمع له للحياة التي اختارها كي يستمر فيها.

عيناه تراقبانها كيف تبتسم لصاحب عربة الفول والحمص وهو يمر من أمامها فتبادله تحية الصباح ثم تتبعها بتحية مماثلة لصاحب المقهى الحاج عبد الصادق الذي ينادي على صبيه نعمان كيّ يرتب الكراسي والموائد وهو يتمتم ببضع الآيات يستفتح بها رزقه باستقبال الزبائن.

ربما ابتسامة.. مجرد ابتسامة.. تريد أن ترتسم على شفتيّ أيوب لكنها لا تجد فرشاة جريئة ولا ألواناً بريئة، فتكتفي الابتسامة ان تقبع حيث هي؛ في أعماقه المظلمة؛ حتى اضمحلت من شدة الدكنة وتلاشت من ثقل العزلة.

تحرك أيوب متكئاً على عصاه ليعود الى عمق الشقة الواسعة التي يعمّها شبه ظلام دائم، وكأنّ نور الصباح من الشرفة المفتوحة يأبى أن يجلو خيال الظلمة القابع بين أركانها.

وأمام المرآة البيضاوية الكبيرة المعلقة في البهو يواجه نفسه ككل اليوم، يذكّرها بما لا ينساه! لكن السعي للتذكرة يمنحه حطب الصمود كي يبقى حياً في هذه الحياة وينال نصيبه من العذاب.

للمرة الأولى يلحظ أن لحيته الداكنة قد خطها بعض الشيب كما يوشك أن يخطّ سنّ الأربعين عمره، شعر رأسه الداكن استطال كثيراً ليغطي جزءاً من أثر التشوه في الجانب الأيمن من وجهه، يبتسم بتحدٍّ مرير ساخر فيزداد وجهه قبحاً.

رفع أيوب معصمه الايسر كي يحدّق في ساعة يده ثم قال لنفسه "ما يزال هناك ربع ساعة حتى تأتي وتطرق

بأناملها الصغيرة الباب «

مرّت الدقائق وهو ينتظر وكفه فوق قمة العصا تتلاعب بها، يجلس على أريكة صغيرة مُنجدّة بقماش بنيّ ثقيل وحوافها الخشبية محفورة بالزخارف، موقعها قبالة باب الشقة مباشرة فيسمح له ذاك الموقع أن يراقب دخول سارة باستمتاع خاص وقراءة لغة جسدها المفضوحة بالاضطراب والحيرة وأشياء أخرى لا تُحصى تزداد كثافة كل يوم.

ثم.. ومع اول طرقة؛ تحتد نظراته بلهفة الانتظار للوجع، إنه استحقاقه الذي اختاره، وعيناها هما نبض ذاك الوجع! ريح الماضي تهب وتعصف وهو يقول بنبرة اغواء غامضة مظلمة "ادخلي سارة، الباب مفتوح «

فُتحت الباب وأطلت عيناها بلونهما البنيّ الفاتح ونظراتهما البريئة الخائفة منه، ورغم الخوف فأنها بطريقة يائسة تقع في هواه! حتى وبراءتها وتركيبتها تمنعانها إدراك هذا الهوى و.. الهاوية.

***

« جهاااد.. جهاد!»

ترفع جهاد الوسادة فوق رأسها وهي تتمتم بحنق "ليت جهاد تختفي من وجوهكم»

« جهاد.. كفاك نوماً!»

تشعر بدخول جدتها ياقوت الى غرفتها لكن جهاد لا تحرك ساكناً لتلبية نداءات الجدة المتكررة، ولماذا تلبي ولماذا تصحو باكراً؟! ما الذي سيحصل في العالم من تغيير إنْ فعلت؟! سيبقى هو ذات العالم العفن الذي تعيشه، عالم ماديّ فارغ من أي روح.

ثم أنها لا تهتم لإحداث التغييرات، تركت المهمة لشريكة الرحم والحياة؛ توأمها سارة، من تدّعي حملها لرايات النضال في الحياة وتنتظر تعليق نياشين البطولة والشجاعة على صدرها والجدّة تزغرد!

ليت جدتها تعلم كم أنّ سارة لم تُخلق لتحمل أي راية!

تساءلت جهاد في سرها بمزاج مشاكس؛ ترا لماذا لم يختر والدها لتوأمها اسم نضال بدلاً من سارة؟! لأصبحتا أكثر تناغماً؛ نضال وجهاد.

تبتسم جهاد بخبث من تحت الوسادة وهي تتشبث أكثر بها كي تقاوم محاولات جدتها لانتزاعها منها وكشف رأس

حفيدتها العنيدة الكسول، لكن ابتسامة جهاد لم تكن لأجل مقاومتها الطفولية للجدة؛ بل تبتسم وهي تتخيل توأمها السمراء تقف اللحظة على باب ذاك المخيف أيوب وهي ترتعد خوفاً منه!

***

« مرحباً أيوب، هذا إيراد هذا الاسبوع، كان أسبوعاً جيداً ورب العالمين بارك فيه ليزداد عن الأسابيع الماضية ما شاء الله»

كلمات سارة أخذته لكلمات أخر..

**(خذه يا أيوب، إنّه من مال أبي، مال مبارك.. خذه.. إنّه حلال طيب)**

جملة جدته وهي على فراش الموت ترنُّ في اذنيه لتتكرر مراراً كلمة (حلال) وهو يحدق في يد سارة السمراء الممتدة نحوه بحفنة صغيرة من المال.

ابتسم بسخرية من نفسه رغماً عنه وهو يفكر ان ما يصفه بـ(حفنة) يُعيل عائلة كاملة في هذا الحي لأسبوع وربما حتى لشهر.

حقاً بعض العادات لن تتغير ولو حتى بالحرق!

عقد أيوب حاجبيه وعيناه لا تفارقان تلك (الحفنة) لتتحول بغتة امام ناظريه الى تفاحة! تفاحة حمراء شهية، مُغرية.. مُغوية!

يبتلع أيوب ريقه ومذاق التفاح من الماضي ما يزال عالقاً في ذاكرته، عالقاً كما علق الشيطان في انتقامه الأزلي من بني آدم!

وها هو أيوب بعد كل ما جرى وكأنه يشتهي الوقوع مجدداً في سحر اغرائه ولذة اغوائه، تفاحة تخفي في عمقها العفن حيث ينخرها (الحرام) من الداخل متنعماً بغفلة الغافلين.

احتدت نظراته دون شعوره فمد يده ليختطف المال بخشونة غير مبرّرة من يدها.

سحبت سارة يدها بهلع غريزي وهي تضمُّ كفها الى صدرها حيث قلبها يخفق بعنف هناك.

إنه يرعبها حرفياً، في كل مرة تشعر بنفس الرعب و.. نفس الاغواء! اغواء أنها تريد رؤيته، اغواء الاقتراب الشديد منه، لكن الرعب هذه المرة كان أشد وأوقع من

سابقاتها.

اعتصر أيوب (الحفنة) في كفه وهو يحني وجهه قليلاً يرمق قبضته هامساً "الاغواء العفن!»

ارتدت سارة للخلف وهي تغرق بالاضطراب، احمرّت وجنتاها وهي تفكر بمعنى ما قال، تتساءل إنْ كانت أفكارها مكشوفة ولو بنسبة ضئيلة! كيف قال كلاهما كلمة (إغواء) بهذا التتابع؟! وان كانت قد قالتها هي سراً بفكرها بينما هو صرّح بها جهراً في وصف غامض مخيف منفر.

لكنه بدا بعيداً تماماً عنها اللحظة وهو يحدّق في قبضته التي تعتصر المال كأنه يمقت ما يراه، يودُّ لو يشعل فيه النار ويحرقه!

نفضت سارة رأسها من غرابة ما يعتريها مع أيوب ويجذبها إليه في ذات الوقت، أخذت نفساً عميقاً ثم زفرته ببطء كي تتجاوز توترها ثم قالت بثبات وهي تتجاهل جملته كما تفعل بالعادة عندما تنتابه حالات مشابهة تشي بغرابة أطواره «هل تحتاج لشيء آخر مني يا أيوب؟»

انطفأت عيناه وهو يرفع نظراته عن حفنة المال المجعدة في كفه ليعيد تركيزه الى سارة.

عيناها دون شعورها تسلّلتا بالنظر الى ما ظهر من التشوه في جانب وجهه الأيمن، لم تكن تعرف أن تلك النظرات الإجبارية المُسترقة منها تُسليه، تؤلمه حتى نخاع العظم لكن تسليه! تُرضي حاجته للوجع الذي يتعمق فيه بمرور السنوات، وكأنها تمنحه متنفساً كي يصرخ.

بدلاً من الصراخ رمى (الحفنة) على الطاولة الصغيرة جوار الأريكة ثم أسند كلتيّ كفيه على قمة عصاه ليقول بنبرة متبجحة مغرورة رداً على جملتها اللطيفة المتسائلة في أدب رفيع "أجل أحتاج، أريد كوب شاي "اللون البنيُ لعينيها شعّ بالغضب لترد عليه وهي تواجهه "أنا لستُ خادمة عندك كي تطلب مني هذا!»

يربّت بأطراف أصابعه على قمة العصا وهو يتساءل باستفزاز "ألا تقدمين كوب شاي لـ عاجز؟!»

شيء ما أزعجها من كلمة (عاجز) التي وصف بها نفسه بينما ترتسم ابتسامة جانبية على فمه وهو يقرأ ما يعتريها ككتاب مرّت صفحات مشابهة لصفحاته امام عينيه عشرات المرات في حياته بينما ترد سارة بحمائية عفوية تعكس شخصيتها الحمائية الشفافة "أنتَ لستَ عاجزاً»

استرخي بظهره للخلف وتحركت يده اليسرى من قمة

العصا لتستقر فوق فخذه المعتل بينما يظل كفه الأيمن يتلاعب بالعصا، إنه يعرف.. يعرف أنها ليست حمائية نحو الجميع، بل نحو أشخاص معينين في حياتها، أشخاص لهم خصوصية عندها، وهذا ما يجعله يفعل ما يفعل معها، فيتعذب بالماضي معها ولا يرحمها وهو يقحمها بعذابه دون أي شعور بالذنب نحوها! لقد مات ضميره واحترق مع من ماتوا.

قال بنبرة عجيبة جمعت الوقاحة والسخرية من الذات والتدلل "أشعر هذا الصباح بالعجز»

عيناه شريرتان وهما تتخفيان خلف ستار الضعف بينما عيناها حائرتان وفي ذات الوقت مُغتاظتان من تلك الحيرة.

تبادلا النظر للحظات قبل ان تفعل سارة حركتها المفتعلة المعتادة عندما تقرر الانسحاب فتنظر أولاً إلى ساعة يدها ثم تحرك ناظريها للخلف نحو باب الشقة المفتوح وبعدها تختار مقدمة مقتضبة لتصريح الانسحاب "انا أدير لك مكتبتك فقط، ولأجل هذا لا وقت لدي لشؤونك الخاصة، لقد تأخرت "

أوشكت ان تضيف باعتداد (عن إذنك) عندما سبقها بالقول ويده اليسرى ترتفع الى جانب وجهه الايمن "أنت

لا تديرين المكتبة فقط يا سارة (خاتون)، بل تديرين لي حياتي كلها حرفياً، تلاحقين المتأخرين بدفع الإيجار من سكان هذا القصر الخرب كما تلاحقين صيانته ضمن المُتاح كي لا ينهدّ فوق رؤوسنا جميعاً! "

تسمّرت حواسها بارتباك انثوي بحت، كانت المرة الاولى التي يُلحق اسمها بلقب (خاتون)، إنها تعرف أيوب منذ ثلاثة أعوام عندما دخل الى حيّهم كمالكٍ جديد غامض لمبنى هذا القصر العتيق بعد شرائه من آخر مالكيه، كما اشترى المكتبة المقابلة للقصر والتابعة بملكيتها له، وعندما أنتشر الخبر في الحي أن المالك عاجز لا عائلة له ويبحث عمّن يدير المكتبة ويعتني بالمبنى شجّعها والدها رحمه الله على التقدم لهذا العمل كي تكسب الخبرات، وقد اكتسبت الكثير بالفعل، لا تنكر هذا، لكن.. أحياناً تشعر، كما الآن بالضبط، وكأنها عالقة! مربوطة به بطريقة ترهقها وتستنزفها!

ما يزال أيوب يلامس جانب وجهه المشوه وكأنه يلمس وتراً شديد الحساسية عندها ليضيف بمزيد من السخرية "وعلى المستوى الشخصي تهتمين بوصول البقالة إليّ وتدفعين الفواتير وتنجزين المعاملات الورقية، تحاسبين الخادمة بصرامة إنْ لم تنظف شقتي العتيقة هذه كما يجب "

صوته بدا لوهلة وكأنه يعبّر عن حياته الباردة الكئيبة والوحدة القاسية التي يعيشها، مسّ نفس الوتر من سارة فتقع في فخ التأثر لتسأله باهتمام انثوي "هل تريد تجديد الشقة؟ إنها فعلا كئيبة، أستطيع البحث عمن يفعل هذا بأجور مناسبة "نظرات عينيه تُحير سارة وتربكها لتضيف بمزيد من الاهتمام المنفلت "وإن كنت تحتاج لمن تطبخ لك فسأجد لك امرأة مناسبة في الحي "

لا تزال يده تتلاعب بقمة عصاه بينما يرخي أجفانه كأنه يوشك على الإغماض قائلاً "أجور مناسبة وامرأة مناسبة؟! امم.. كل ما اريده اللحظة هو.. كوب شاي.. مناسب»

كالثعلب يدّعي السكينة بينما عيناه متيقظتان تراقبان حيرتها وارتباكها المتزايدين من بين جفنيه شبه المطبقين، ردت بعد لحظات وهي تتنهد بقلة حيلة صادقة منها "لا أستطيع البقاء هنا بمفردي معك لفترة طويلة، انت تعرف السبب «

ابتسامة صغيرة رقّقت قسوة فمه دون ان يغير من جلسته المتراخية المخادعة ليقول بعدها "أجل أعرف.. هو نفس السبب الذي يجعلك تتركين باب الشقة مفتوحاً وتحرصين على البقاء قريبة منه وعلى مرأى أي عين فضولية تجرأ على الصعود الى هذا الطابق فقط كي تتأكد من حفاظك على

عفّتك الغالية! "عقدت سارة حاجبيها وقد شعرت فجأة بالنفور من حالته لتقول له مغتاظة من صبرها عليه أكثر من غيظها من تصرفاته "لا أعرف ما بك اليوم؛ لكن جُمَلك الصادمة لم تعد تؤثر بي، فجد تسلية اخرى تشغلك هذا الصباح "فتح عينيه ليقول متسائلا بخبث "لا أدري لماذا حقاً تصبرين علي؟!» ردت بعصبية وهي تشعر بوجهها يتوهج غيظاً "جزء من ضريبة العمل؛ الصبر على الصعاب "احتدت نظراته وهو يقول باستفزاز "لو حظيتُ يوماً بصاحب عمل (مثلي) لكنتُ حشرتُ مفتاح المكتبة في حنجرته "سقطت هذه المرة في فخّ استفزازه لها لترد عليه بتهور "ربما سأفعلها قريباً جداً يا أيوب وعندها لن تجد أحداً يدير لك حياتك البائسة!»

انفجر ضاحكاً بينما تستدير سارة حانقة كي تغادر شقته الكئيبة، حتى ضحكته في أذنيها تبعث على الكآبة!

***

خرجت سارة من بوابة مبنى الخاتون وهي عابسة الوجه حانقة التعابير بينما تستمع بذهن مشتت لشكوى أُمّ احمد الساكنة في إحدى شقق الطابق الأرضي حول الرطوبة التي تأكل الجدران فاكتفت سارة بتمتمات وعد أنْ ترسل لها من يستكشف السبب ويصلحه بينما تمضي في طريقها نحو المكتبة.

مرّت من أمام ورشة تصليح السيارات في المبنى المجاور لمبنى الخاتون وألقت سلاماً عابراً الى حمزة فيرد لها حمزة السلام وهو يمسح السخام الأسود عن خدّه بكم بدلة العمل الزرقاء المتسخة بالزيوت، ثم ينحني نحو ماكينة السيارة المكشوفة أمامه ليدقّق فيها النظر أو هذا ما يدّعيه!

يشتم في سره وقد تشتت تركيزه مع سارة، كل يوم جمعة ينتابه نفس الضيق والتوتر وهو يرى سارة تتوجه نحو مبنى قصر الخاتون، إلى ذاك الرجل المعتوه المشوه الذي لا يعرف له أحد تاريخاً ولا أصلاً مُذ وطأت قدماه الحي! بل يكاد لا يراه أحد رغم تقبل الجميع لوجوده كما يتقبلون أصوات السيمفونيات اليومية المزعجة التي تنطلق أحياناً حتى بعد منتصف الليل من جهاز الجراما فون القديم الذي يملكه.

تمنّى حمزة للمرة الألف (ربما) لو كان له سلطة على سارة كي يمنعها عن هذا العمل، لكنها كل يوم تتورط أكثر بإقحام نفسها في حياة ذاك الرجل الغريب؛ غريب عنهم وغريب الأطوار وغريب النظرات نحو سارة!

زفر حمزة بقوة ثم أخذ يصرخ في أحد عماله كي يحضر له العدة كاملة بينما تتحرك عيناه من سارة التي دلفت للمكتبة على الجهة المقابلة من ورشته؛ إلى الأعلى حيث الطابق

الثاني من مبنى قصر الخاتون المجاور، تحديداً نحو إحدى الشرفات لتلك الشقة وخيال أيوب يكاد يكون مرئياً لعينيه، يكاد فقط!

كفُّ حمزة يرتفع إلى جيبه العلوي يبحث عن علبة سجائره بينما عيناه لا تحيدان بعيداً عن تلك الشرفة ثم تمتم بتوبيخ للذات وهو يُخرج سيجارة من العلبة "أنت أبله يا حمزة! ألن تفعل شيئاً يا غبي؟! ألن تتحرك؟! ألن نتكلم وتصارح؟! متى ستتعلم الكلام؟! "

***

ابتسامة أيوب الكئيبة تلامس فمه وهو يراقب عودة سارة للمكتبة، باتت سلوته الوحيدة في الحياة هي مراقبة سارة، ليست سارة وحسب، بل كل هذا الحي.

صبي القهوة يغني وهو يقدم الطلبات للزبائن لا بدّ أنه يتدرب على حفل عرس أصغر بنات الأستاذ هلال الذي سيقام الليلة في الحي، أطفال يلعبون كرة القدم في طرقات الحي المتربة ويتصايحون فيما بينهم، صاحب عربة الحمص ينادي الزبائن بصوته النشاز المزعج، شجار بين مراهقين ربما على فتاة من فتيات الحي وصاحب القهوة الحاج عبد الصادق يحاول الفكاك بينهم، امرأة بملابس سوداء كئيبة، شابة بملابس ضيقة مبهرجة وشعر داكن

ببضع خصل صفراء فاقعة لا بد أنها نقعتهم في سائل الأوكسجين الرخيص، رجل بملابس مهترئة يستجدي النقود من الناس كل يوم وهو يبثهم بعض جمل السجع غير المفهومة كأن في عقله مسٌّ من الجنون.

من كتب المقال هذا اليوم في الجريدة لم يذكر أن حي الخاتون لم يعد يملك من آثار العراقة الكثير، بل بات أقرب الى حي شعبي تعمّه فوضى الهوية وتسوده الضوضاء ليل نهار.

ضوضاء.. ضوضاء عالية مختلطة ومتجددة يسمعها أيوب وهو يراقب كل يوم من شرفته، ضوضاء أصوات البشر هنا تمتزج بغوغاء عطورهم! كل العطور المنبثقة من هذا الحي هي غوغائية بامتياز، تثير فيه رغماً عنه شعوراً قديماً بالأنفة والترفع.

أرخى أجفانه وأخفض نظراته أكثر لتقع عيناه على زاوية (صورة الحي) التي يراقبها، حيث ذاك الشاب الضخم الذي يميل للامتلاء صاحب ورشة تصليح السيارات، يبتسم ايوب بخبث وهو يرى حمزة كيف يحترق بعجز غاضب كما تحترق السيجارة في فمه، ثم لم يهتم أيوب لأمر حمزة أكثر من دقيقة فيطبق أجفانه بالكامل وضوضاء أخرى ترتفع في مخيلته تناديه بتحسّر على الملذّات!

ملاهٍ ليلية تغرق بالعبث الراقي، ضحكات مدروسة وعروض مهموسة من نساء عاهرات على أعلى و(أنظف) المستويات، وجوه متلونة ونفوس في عمقها مظلمة، عاقدي صفقات المال والمجون يرفعون كؤوس الكريستال التي تأبى الاكتفاء من الامتلاء خمراً، وعلى رنّات تلك الكؤوس تُمهَر الصفقات بمباركة الشيطان في انتصار جديد له.

رائحة سيجار فاخر في يده اليمنى بينما اليسرى تمر ببطء فوق انحناءات انثى جواره تدعوه بصمت صبور مُحترف كي يمزق فستانها ويعريها.

و.. تفاحة، تفاحة حمراء بلون فستان (الانثى العاهرة) يلتقطها من إناء زجاجي كبير مقعر معروض على الدوام امامه، يرفعها الى فمه ويقضم منها فيفتح شهيته للمزيد، وكم علّمه هذا (المزيد) خطيئة الشراهة! شراهته كانت تخيفه، ترعبه، حتى وهو غارق في لذّتها للنخاع.

فتح أيوب أجفانه فتشتت تلك الصور من الماضي، لكنه يفكر بقساوة تنبض بها عروقه، إنّ ضوضاء البشر واحدة، هنا في الحي أو هناك في الملهى الليلي الفاخر، كل ما في الأمر أنه اختار الصيام!

***

ترفع جهاد نظراتها الى سقف غرفتها في غيظ بينما تضع قدميها في فردتيّ حذائها الأبيض على التتابع وهي ترد على نداء جدتها الغاضب القادم من غرفة المعيشة قائلة "انتهيت جدتي.. أقسم بالله انتهيت «

خرجت جهاد من غرفتها ليطالعها منظر مألوف في غرفة المعيشة؛ جدتها في الزاوية حيث كرسيها وماكينة خياطتها، اما والدتها فعلى الاريكة في الوسط تقرأ أحد الكتب التي تحضرها لها سارة من المكتبة، وكلتاهما ترتديان النظارة الطبية، كم بدتا مختلفتين!

فتحت جهاد فمها لتتكلم فتسبقها الجدة ياقوت بالنبرة المرتفعة الصارمة "إيّاك أن تحضري أي شيء مخالف لما كتبته لك في القائمة، ولا تتأخري.. أنا أعرفك عندما تذهبين للسوق؛ تحبين التسكع هنا وهناك وتنسين ما وراءك من مسؤوليات "زمّت جهاد شفتيها قبل ان ترد بغيظ "حاضر جدتي.. فهمت.. فهمت! "أخذت الجدة تنظر بامتعاض من فوق نظارتها الطبية الى سروال جهاد فتقول مُظهرة امتعاضها الواضح "لماذا تلبسين هذا السروال الكريه؟! "فردت جهاد كفيها الى جانبي جسدها النحيل وهي ترد بدفاع "لأنه على الموضة جدتي "ازداد عبوس الجدة وهي تعلق بصراحة فظة "لم يعجبني، بشع ولا يناسب نحولك وقصر قامتك على الاطلاق "لكن جهاد وقد اعتادت تسلّط جدتها عليها وعلى كل من في البيت

ردّت عليها بعناد "بل يليق بي ويظهر أُنوثتي «

مطّت الجدة فمها جانباً في تعبير استهجان واستهانة لتقول بعدها "الفستان هو ما يظهر الأنوثة، السراويل للذكور فقط، لماذا لا تلبسين واحداً من الفساتين التي أخيطها لك؟! أم كبرتِ علي وتكابرتِ على فساتيني؟»

زفرت جهاد بقوة وهي تنقل نظراتها المستنجدة الى امها فتجدها غارقة بما تقرأ ولا تهتم بهذه الحوارات المتكررة بشكل يومي تقريباً فتتقدم جهاد ناحية أمها وهي ترد على الجدة "لا أنكر براعتك بالخياطة جدتي لكنك تصرين دوماً على خياطة نسخة من كل فستان لي طبق الأصل لسارة، وصدقيني كبرنا على تحمل هذا! عندما كنتُ مراهقة في الثالثة عشرة صارحتك مراراً أني لستُ هذا النوع من التوائم، يكفيني تطابق وجهي وجسدي مع سارة، لا أحتاج لتطابق ملابسي أيضاً "تأففت الجدة وهي تقول بتوبيخ "أنت فقط عنيدة وتحبين ادعاء الاستقلالية والتمرد "

وصلت جهاد الى امها بينما ترد على توبيخ الجدة بالقول المُجادل "أنا فقط اقول رأيي "ثم تميل لامها فتقبل خدها ثم تهمس في أذنها "لا أدري من أين ورثتِ رقتك ونعومتك "تخبئ الأم ضحكتها وهي ترفع نظراتها عن الكتاب وتهمس لابنتها قائلة بوجهها الرقيق الصبوح "تأدّبي يا ابنة كرم ولا

تزعجي جدتك، احضري لها كل ما تريد ولا تتأخري "ارتفع صوت الماكينة والجدة تعود لعملها المحبب الى نفسها بينما جهاد ترد على أمها بغمزة "حاضر»

***

بفخر انثوي عنيد تمسّد جهاد بأصابعها فوق سروالها البيج بتصميمه الفضفاض الأنيق، تشعر بالخفة وهي تنزل آخر الدرجات برشاقة.

سلمت على إحدى الجارات التي كانت تدخل المبنى للتو بينما تخرج جهاد بانتعاش الى شمس صباح الصيف، حسن.. هي ليست منتعشة لهذا الحد، لكنها فقط تريد أن تشعر هكذا فترغم نفسها على الشعور بما تريد، كإرغام نفسها على تجاهل (مصمصة الشفاه) المعتادة من تلك الجارة ام وجدان التي سلمت عليها قبل لحظات ونظرات الإشفاق التي تطفح من عينيها كلما وقعت نظراتها على جهاد (المسكينة)!

أخذت تسير في طرق الحي وهي تفكر بالتغييرات الكبيرة التي حصلت فيه، هو ليس ذات الحي الذي اختاره والدها قبل أكثر من عشرين عاماً كي يشتري هذه الدار الواسعة القديمة بتصميم فلكلوري عتيق، كحال كثير من الدور التي بنيت في هذا الحي على نمط (قصر الخاتون)،

مؤكد ليست بنفس وجاهة القصر وسعته، لكن تصميم الدار والزخارف والشرفات هي ذاتها، ثم مع ضيق الحال فعل أبوها ما فعله كثير من سكان الحي، تم تحويل الطابق الأرضي الى شقتين للسكن لتكون مصدر دخل إضافي، وهكذا فقد أمّنَ لعائلته سقف دار ملك تأويهم وتسترهم بالإضافة الى مصدر دخل يعينهم في أعباء الحياة، فكانت هذه كل تركته لهم بعد وفاته.

دمعة عفوية لامست جفنها وهي تتذكر أباها وأياماً تراها جهاد اليوم حتى في مُرّها حلوة! لم تشعر بأهمية هذا الرجل الحنون العنيد المستبد بأحكامه في حياتهم إلّا بعد وفاته.

**« جهاد»**

تلاشى أثر (دمعة التأثر الدافئ) تلقائياً مع البرد القارص الذي اكتسح جسدها وهي تسمع صوت غيث، دون أن تلتفت الى تلك الزاوية القريبة تمتمت بسخرية مسموعة "يا صباحك المظلم يا جهاد! "تحركت خطوة متجاهلة وقفته بانتظارها ليقطعها غيث وهو يتقدم خطوتين قائلاً بتوسل بات يثير اشمئزازها، بل غثيانها "كلميني بالله عليك «

كان عليها ان تنكر وجع جرحها الذي لم يندمل بعد وهي تواجهه بالقول الساخر الوقح "غيث، أغرب عن وجهي! لدي قائمة تسوق طويلة ويجب أن أعود لعملي "

لكنه لم يتركها في حالها كما يفعل في كل مرة عندما يقف بانتظارها هكذا، حتى المارّة من سكان الحي لم يعد يستهويهم متابعة الموقف المتكرر ولا حتى يثير فضولهم كي يعرفوا نهايته (المعروفة)، بينما غيث بعينيه الجميلتين التي أوقعت قلب جهاد يوماً يحاول أن يؤثر فيها بالقول الرقيق والنظرات المتوسلة "جهاد لا تكوني عنيدة هكذا "رفعت جهاد حاجبيها قليلا ثم قالت بتذمر مُصطنع "ما بال الجميع ينعتني بعنيدة اليوم؟! "هتف بحرقة "لأنك عنيدة بالفعل! أنت ما تزالين تحبينني كما أحبك لكنك تنكرين لتعاقبيني "

للحظة.. للحظة فقط.. تذكرت عندما هوى قلبها الى قاع الحمْق لتحب غيث وتفعل المستحيل لأجل الارتباط به، كم كانت مندفعة عنيدة! في هذا عليها الاعتراف أنها كانت عنيدة بالفعل ولم تستمع لنصح أبيها.

تنهدت بضجر وهي تقول ساخرة "بلا.. بلا.. بلا.. ألم تتعب من تكرار نفس الثرثرة المغرورة؟! على الاقل غيّر المكان لا يعقل ان تنتظرني في نفس البقعة كي تنشد نفس الأغنية "تقبضت يدا غيث وبدا شديد التوتر والندم فيقول وعيناه تتوسلان الصفح مجدداً "إنها ليست ثرثرة وليست أغنية، يجب أن تصدقي بأني.. بأني لن أفعلها مجدداً «

مرّت لحظات وهي تنظر إليه بجدية هذه المرة، قد لا يراها هو لكن هي تشعر بها حتى تكاد تراها في نفسها واضحة جلية.

شعور الوجع ارتفع للسطح وجهاد تصارعه لا تريد ان تمنح غيث فرصة رؤيته فاختارت المواجهة مع غيث لتشغله عن رؤية وجعها قائلة باتهام جدّي شرس "إنها في دمك يا غيث، هل تسمعني؟ الخيانة في دمك "

لم تكن تحاول جرحه أو حتى توبيخه؛ ببساطة لقد عنت ما قالته، هذا ما تؤمن به بعد مراجعة طويلة لكل ما حصل بينهما منذ أول مرة وقعت عينا جهاد على غيث في الجامعة.

لم تشفق عليه وهي تراه غارقاً بالندم ثم أخذ يحاول الدفاع عن نفسه قائلا بتعثر "بل هي غلطة.. نزوة.. كنتِ حاملاً و...» لقد ضغط قلب الوجع وقد حذّرته سابقاً من عدم ذكر الأمر فانفجرت أمامه تصرخ "أو تجرؤ على ذكر طفلي الذي قتلته! إلّا طفلي يا غيث؛ إيّاك ان تذكره مجدداً، كم أنت حقير ووقح كي تعلّق ذنوبك على شماعة حملي به، أنت لم تحترم حتى حزني على أبي ولو كان حياً وقتها لانتقم لي ولطفلي منك»

هذه المرة توقف بعض المارة ليتابعوا وقد علا صوت

جهاد هكذا، كانت تهتز من شدة الألم، لكن غيث فقد أعصابه هو الآخر ولم يعد يحتمل حمل وزره أكثر فيهدر فيها "طفلي.. طفلي! إنّه طفلنا، أنا وأنتِ، لماذا تنسين هذا على الدوام؟! "تجمدت تعابير وجهها لترد بما تمناه "ربما لأني أريد أن أنسى أنك كنت أباه! "

تحركت نصف خطوة لحاول إيقافها مجدداً لكنها منعته بنبرة عنيفة "قسماً بالله إنْ حاولت إيقافي اللحظة سأمسح بكرامتك أرض الحي كي يتفرج عليك القاصي والداني، ابتعد.. ابتعد!»

تجمدت تعابيره هو الآخر وهو يدعها تبتعد عنه مرغماً، ينظر اليها بمشيتها المُعتدّة، لكنه يعرف حجم الألم الذي تكابده وتكتمه، إنها محطمة، تظنه لا يعرفها.. تظنه لم يحبها.

أخذ يشتم وهو يفكر أن وفاة والدها قبل حصول المشكلة بينهما كان أثره اسوأ عليه وعليها، ثم أجفل وهو يشعر بكف أحدهم على كتفه وصوت صاحب القهوة الحاج عبد الصادق يقول له بحزم "اتركها لحالها، لم يُعد لك نصيب معها "نظر غيث للرجل الذي كان شاهداً على عقد زواجه من جهاد كما كان من سعى لتطليقها منه بعد إصرار جهاد، يزمُّ غيث شفتيه وهو يقول "يا حاج أنا ما زلت اريدها "فرد الحاج ببعض الإشفاق "لكنها لم تعد تريدك، مضى عام كامل ولم تغير رأيها فانسها وامضي في

حياتك ودعها تمضي في حياتها "حاول غيث اقناعه "لكن يا حاج اريدك أن.. "فقاطعه الحاج عبد الصادق "لا أنا ولا غيري سيغير رأيها، أنا أعرف الفتاتين منذ صغرهما، ووالدهما أوصاني بهما خيراً وهو على فراش الموت لذلك أقول لك ابتعد عنها ولا تزعجها وإلّا سأقف لك بنفسي»

صمت غيث بينما الحاج عبد الصادق يعود أدراجه عائداً باتجاه مقهاه في الجهة الاخرى من الحي.

لا يعلم غيث هل مرّ الحاج من هنا صدفة أم أنّ أحدهم أبلغه، في كل الأحوال لقد اختصر عليه قطع المسافة للمقهى فقد كان يريد الذهاب إليه ومحاولة كسبه الى صفه في مساعيه لاستعادة جهاد.

تحرك غيث كي يغادر هذا الحي الشعبي وهو يفكر بالمرة الأولى التي دخله قبل ثلاث سنوات؛ يتذكر إحساسه ببعض الصدمة عندما اكتشف أين تسكن هذه الفتاة التي شدته من النظرة الأولى.

ربما غيث لا ينتمي الى طبقة الحي الراقي لكن مؤكد هو من حي عصري مختلف وأجواء اخرى تميل للهدوء واحترام الخصوصية، بعيدة كل البعد عن أجواء الأحياء الشعبية المتداخلة الفوضوية، ورغم هذا لم توقفه صدمته كي ينال جهاد.

وصل سيارته المركونة عند اول الحي وبينما يفتح الباب نظر للحي وهو يهمس "سأنتزعك من هنا مُجدداً يا جهاد، مكانك معي وليس هنا، أنتِ أيضاً لا تحبين هذا الحي «

يقود سيارته مغادراً وهو يفكر بتلك الغلطة التي وقع فيها، غلطة جعلته يخسر زوجته وطفله في نفس اللحظة، كله كان في لحظة.. لحظة الخسارة لأغلى ما لديه هي ذات اللحظة التي ضعُفَ فيها أمام اغواء امرأة لا تعني له شيئاً، تفاحة الاغواء التي خدعته كي يذوقها، فدفع ثمنها أضعاف قيمتها.

***

# الفصل الثاني
# نسخة طبق الأصل، مختلفة!

من خلف واجهة المكتبة الزجاجية تنفض سارة الغبار عن الأرفف في العرض بمكنسة الريش اليدوية وتعيد ترتيب الكتب المعروضة هناك على مهل، تعمل بوتيرة بطيئة كي تمنح نفسها المساحة الكافية والوقت اللازم لتعيد تنظيم أفكارها غير المستقرة ومشاعرها المضطربة المشوّشة، كلمات أبيها ترنُّ في أذنيها كأنها القشة الأخيرة التي تتعلق بها (**أنت الأقوى سارة، أعتمد عليك دوماً كي تحمي أختك جهاد من اندفاعها**)

توقفت يدها عن العمل للحظات وخنقتها غصةُ تَذَكُّرِ وجه أبيها، ربما لم يكن الأب المثالي في حياته لكن بعد وفاته اكتشفت هي وجهاد كم كان وجوده داعماً لإحساس الأمان عندهما، اكتشفت أنه ببساطة كان مجرد إنسان يُخطئ ويصيب؛ لكنه تحمل دوماً مسؤولياته وحاول حقّاً أن يكون الأب المثالي لهما فأفلح غالباً وأخفق قليلاً.

وكم من الأشياء نكتشفها عمّن نحب حينما يختفون من حياتنا؟! وكأنّ الرؤيا تكون ضبابية بإحساس التعود على وجودهم، ثم تصبح فجأة شديدة الوضوح باختفاء أصواتهم

ورحيل أنفاسهم.

أغمضت عينيها وتمتمت في حيرتها "ما الذي يشدّني إلى هذا الرجل يا أبي؟! رجل غريب غامض لكن تلك المرارة التي تتدفق منه بوضوح تؤذيني وتؤرقني "

رعشة مرّت بجسدها وهي تتذكر كيف ينظر إليها أيوب، عندما ينظر في عينيها تحديداً ينتابها إحساس.. مخيف! لكنّه إحساس متفرّد فيه لذّة؛ لم تشعر بمثله من قبل، وهذا يخيفها أكثر من نظراته، يخيفها تعلقها المتزايد به، يخيفها أنها ربما تقع في هواه دون أن تشعر.

همست باستنجاد غريزي "ليتك هنا يا جهاد "

« وأنا تركت قائمة التسوق وترجمة تلك الرواية المأساوية التي تنتظرني على الحاسوب وأتيت إليك مهرولة، ولا أدري أيهما سيكون أسوأ بردة فعله؛ جدتي أم صاحب دار النشر»

فتحت سارة عينيها وهي تسمع صوت شقيقتها جهاد بنبرتها الساخرة وأسلوبها المشاكس، لكن قبل أن تلتفت رأت حمزة أمامها عبر زجاج النافذة في الجهة المقابلة من المكتبة، كان ينظر إليها بعبوس قلق! لم تهتم سارة به وهي تستدير بجسدها الى شقيقتها التوأم فتشعر بارتياح فوري

حال رؤيتها لتقول الى نسختها (المُختلفة) "هل مجيئك الآن صدفة أم أتيتِ هرباً من الاثنين معاً؟ "نفس الارتياح تراه على وجه جهاد لكنها تلونه بأسلوبها الخاص في الكلام وهي ترد عليها "وربما جئت استجابة للنداء الخفي بيننا يا توأمتي»

ارتمت إحداهما في حضن الأخرى، هكذا دون كلمات.. دون شروح.. دون تفسيرات. سألت جهاد "هل يحيرك المخيف أيوب؟ "فترد سارة على سؤالها بسؤال آخر "هل قابلتِ الحقير غيث مُجدداً؟ "تشدّد كلتاهما من احتضان الأخرى وكأنهما تردان على بعض، قالت سارة أخيراً وهي تتنهد "تقبّلي فقدانك لطفلك يا جهاد وعندها لن تتألمي كلما التقيتِ بغيث، لقد كانت نظرة أبينا صائبة حوله، رجل سطحي، ضعيف الإرادة ينقصه النضوج "ردت جهاد "لا تجعلي تشوّه أيوب يُشعرك بالضعف أمامه، لا تنجذبي لغموضه، الرجال يحبون أحياناً التلاعب بنا عبر جهلنا، وعندما تصلين إلى عمقهم تتفاجئين أنك طوال الوقت كنتِ هناك! سطحهم وعمقهم في مستو واحد «

تهزّ كلتاهما رأسيهما في صمت، كانت هذه طريقتهما المعتادة بالحوارات، لا يفهمها إلّا هما، تسألان عن أمرين مختلفين بنفس الوقت، وتردّان على بعضيهما بتقاطع قد يبدو مُشوّشاً لغيرهما لكن واضح ودقيق في عقل كل

منهما، وكأن هناك حوارات سريّة مفتوحة دائمة بينهما وعندما ينطق اللسان يكون تتمة فقط لتلك الحوارات.

***

بعد عشر دقائق خرجت جهاد من المكتبة على حال غير الذي دخلت به، خرجت منفرجة الأسارير والابتسامة تعلو ثغرها حتى تلألأ بياض اسنانها، أخذ حمزة يمسح كفيّه من أثر دهون محرك السيارات ثم لحق بخطواتها وهو يناديها كي تتوقف، بطارف عينها تنظر إليه جهاد وهي تواصل السير وترد بمشاكسة "شيئاً فشيئاً ستتحول الى دبٍّ حقيقيّ يا حمزة، تشعرني وكأني طفلة الى جوارك! ما الذي تأكله على الافطار لتصبح بهذا الحجم؟! خروف كامل؟! "لم يبالِ بممازحتها التي اعتاد عليها منذ الصغر ليسأل بلهفة مفضوحة وهو يواكب خطواتها بسهولة "هل ستحضران أنتِ وسارة عرس ماريا ابنة الاستاذ هلال هذه الليلة؟ "توقفت خطوات جهاد لتلتفت إليه ترفع عينيها الى وجهه تمعن النظر فيه وكأنها تحاول رؤيته بشكل مختلف لتقول أخيراً "هل تعلم ما هي مشكلتك يا حمزة؟! أنك لا تفهم سارة، ليس هناك لغة مشتركة بينكما، هل تفهم ما أعنيه؟ "تجهّم وجه حمزة قبل أن يقول ببعض العدوانية "أنا لستُ بجاهل كي لا أفهم كلامك! دوماً لسانك كان سليطاً "ثم غمغم بكلمات غير مفهومة قبل أن ينسحب بحركة حادة انفعالية من جسده الضخم.

ارتفع حاجبا جهاد ببعض الدهشة ثم هزت كتفيها وهي تستدير تكلم نفسها "بدلاً من اصلاح الأمور ها قد أفسدتها! "ثم أكملت طريقها وهي تلقي السلام على الحاج عبد الصادق صاحب المقهى.

أشعل حمزة سيجارة بينما أحد العاملين عنده بالورشة يثرثر جواره، لم يكن يستمع فكلام جهاد أوجعه وشغله، ينفث الدخان من فمه وتوتره يزداد، ثم شعر بالضيق فرمى السيجارة التي أشعلها للتو ودعسها بقدمه وهو يتمتم في سره "ربما لا أقرا الكتب وليس لي أي اهتمامات ثقافية أو أدبية كسارة، ربما لا أجيد الكلام الذي يعجب الفتيات، بل دوماً أتصرف كالثور معها! لكني.. أحبها "ثم رفع عينيه للطابق الثاني من مبنى الخاتون حيث خيال ذاك الرجل الذي يقلقه فيضيف في حديثه لنفسه "أحبها ولن أسمح لمخلوق أن يستغلها أو يسيء إليها "

ما يزال العامل يثرثر بينما يُخفض حمزة نظراته جانباً الى المكتبة المقابلة فيخفق قلبه بالوجد، متيّم بحبها منذ المراهقة وهي لا تشعر به، لا تفكر حتى أن تشعر به، تقبضت يداه وشعور كريه ينتابه اللحظة؛ أنّ سارة لن تحبه لا اليوم ولا غداً ولا في أي يوم آخر!

خيالها يتحرك كفراشة نشطة داخل المكتبة ثم تمسك

بأحد الكتب تقرأ فيه باندماج كامل وكأنها انعزلت عن الدنيا وما فيها، فيتجهم وجه حمزة ولا يعرف كيف السبيل إلى فتاة مثلها.

***

راقب أيوب دخول جهاد الى توأمها، ثم خروجها بعد ربع ساعة لا أكثر، التوأم المتشابه بالظاهر ومختلف في الباطن، لقد التقاها عدة مرات من قبل؛ عيناها ليستا كعيني سارة، فعينا جهاد فيهما جرأة وصلف، ربما في وقت مضى كان ستعجبه فقد كان يفضل هذا النوع الوقح الأناني من النساء، حيث لا يضيّع وقته ولا وقتها في كلام عن العاطفة لا قيمة له، مجرد علاقة جسدية لذيذة لمنفعة متبادلة ترضي الشهوات والغرائز.

ورغم النفور الشديد الذي يشعر به اللحظة إلّا إنه أعترف أنّ جهاد بكل تأكيد ليست من النوع الذين يمكن أن يقيم علاقات شائنة كهذه، لكن في بيئة (مناسبة) غير بيئتها هذه في حي الخاتون؛ كانت ستصبح (إحداهن) بلا شك.

**(هل كنتَ مع إحداهن؟ مرة أخرى يا أيوب!).** سحق أسنانه بعنف مباغت للذكرى القاتلة بينما يضغط على قمة عصاه يكاد يحطمها بين أصابعه وهو يتمتم "كُنّ أدواتي كي أقتل البراءة والطيبة، كي أحرق الحب اللامحدود بالخيانة

وأطعن الوفاء العظيم بالغدر، فما قتلت وما أحرقت وما طعنتُ إلّا نفسي! كنتُ أُذنب وأعاقب نفسي في ذات اللحظة! كنتُ أجني على نفسي في كل مرة لعبت فيها دور الجاني "

كره مألوف أخذ ينضح منه، كره موجه نحو ذاته وهو يتذكر كل أولئك النسوة اللواتي اشترى متعته منهن، بزمجرة رهيبة رفع العصا ثم ضرب بنهايتها عمودياً للأسفل كأنه يود أن يشقّ الأرض من تحته فعسى أن تبتلعه مع ذنوبه!

**(حاذر من المال الحرام يا أيوب.. حاذر.. إنه مُخادع غدّار كالبحر، يخدعكَ لتشرب منه فلا يروي ظمأك، بل يزيدكَ عطشاً، فتشربُ بلا توقف وتعطشُ بلا نهاية، يُغريكَ كي تسبح بين أمواجه المغرية لكنه يسحبك للعمق حتى تقطع النفس، فلا يردُّك إلى الشاطئ إلّا جثة غريقٍ عاصٍ!)**

يتمتم أيوب وهو ينهت "ليتني أطعتك جدتي، ليتني استمعت! لكن فات الأوان.. فات الأوان»

***

**مساء، عرس ماريا ابنة الأستاذ هلال**

تحت أنوار الزينة التي عُلّقت على طول الشارع من الجانبين، تجمّع الناس من أهل الحي لحضور حفل عرس ابنة الاستاذ هلال مدرّس مادة الكيمياء في (ثانوية الخاتون للبنين)، وما بين مُهنئ ومُحتفل يتلقّى الاستاذ التهاني والتبريكات وتصدح الزغاريد والأغاني.

ترك حمزة أمه تثرثر مع باقي النسوة بعد أن أتمّا واجب المباركة للعروسين ثم تحرك بين الناس وعيناه تجولان في وجوه بنات الحي بحثاً عنها.

وبعد بحث لعشر دقائق كاملة كاد خلالها أن يصيبه اليأس والاحباط من حضور سارة، أخيراً أطلت بفستان حلو بلون الفراولة جعلت قلبه يتضخم في صدره، ثم يقع في فخ خيالات (العاشق) وهو يتتبع خصلات شعرها البنيّ المفرود على كتفيها فيراها وكأن نسائم الربيع تتلاعب فيها وأنوار العرس تمنح لون عينيها لون الذهب وتلك الابتسامة.. رباه! كادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو لا يصدق ان سارة تنظر إليه وتبتسم في وجهه كما لم تفعل طوال السنوات التي عرفها فيها.

أخذ يشتم نفسه وقد تسمّرت قدماه بغباء وهو يقف هكذا عاجزاً عن الإتيان بأي خطوة للأمام! هتف يوبخ نفسه وسط زغاريد النسوة "أبله أحمق عديم النفع و.. "خرس لسانه.. (سارة) تتقدم ناحيته وتلك الابتسامة الغامضة

منها جعلته مشتتاً لا يفقه ما يحدث!

وصلت إليه وعقله لا يسعفه كي يجد الكلمات التي يبتدأ بها حواراً طال انتظاره، وعندما باتت قبالته مباشرة برقتها الشديدة مالت ناحيته في ألفة وقبل أن يفسّر الأمر كانت تقول له "تعرفنا منذ الطفولة يا حمزة وما زلت لا تفرق بيننا! "

وكأن دلو ماء بارد مثلج رُمي في وجهه ليستفيق من غيبوبة الغباء! فتح فمه ثم أغلقه، ليعاود فتحه لكنه ما يزال لا يدرٍي ما يقول وهو يكتشف للتو فقط أنها جهاد وليست سارة!

أشفقت عليه جهاد لتقول له بحماسة وكأنها تشجعه "اتبع اللون الأخضر يا مفضوح»

ابتلع ريقه ورفع عينيه يبحث بلا حول ولا قوة عن اي لون أخضر، لا.. بل تحديداً يبحث عن فستان مماثل لفستان جهاد لكن بلون أخضر، حتى وجدها أخيراً وميّزها دون أن يرى وجهها، هذه المرة كان واثقاً أنها سارة، نفس تفصيل الفستان الذي ترتديه جهاد، نفس الشعر البني وبنفس التسريحة البسيطة بينما يسمع جهاد تضيف بضحكة حلوة "الحمد لله أني عقدت الصفقة مع جدتي، أن تخيط لي فستاناً مطابقاً لسارة لكن بلون

مختلف أنا وحدي أختاره، لكن ما رأيك؟ التفاح الأخضر يغلب أم الفراولة؟ «

ما تزال سارة لا تلتفت وهي تضحك على فكاهات الأستاذ هلال التي يدسّها عرضياً كعادته وسط حواراته الجادة المنفعلة بينما يتمتم حمزة بارتباك مؤثر في القلب "ماذا أقول لها؟! "تنهدت جهاد وهي ترد بتعاطف "قل لها مشاعرك ببساطة، لا يحتاج الامر للكثير "ردّ حمزة وهو يحتار أكثر "لكني أشعر أنها شخصية تحتاج الكثير، إنها تقرأ الكثير من الكتب!»

لا شعورياً رفعت جهاد رأسها الى الطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون القريب فرأت ظل أيوب هناك، إحساس بغيض مُنفر انتابها أنه يقف هكذا فقط كي يراقب شقيقتها لا غير! ضايقها الأمر أكثر عندما نقلت نظراتها إلى حيث تقف سارة لترى توأمها هي الأخرى تتحين الفرص كي ترفع نظراتها بين الفينة والأخرى نحو الشرفة حيث يقف أيوب.

تعبس جهاد وهي تتذكر ارتباك سارة الليلة وهي تستعد لحفل العرس البسيط، كانت متحمسة للغاية لأنه سيكون في الشارع قبالة مبنى الخاتون تحديداً، كانت المرة الأولى التي تشعر فيها جهاد أنّ سارة توشك على ارتكاب حماقة ما لا تقل عن حماقتها هي مع غيث! لكن أيوب المخيف هذا

أخطر من غيث بمراحل.

هتفت جهاد دون شعورها "كلّمها "ثم التفتت الى حمزة الواقع في غرام توأمتها لتحثّه بجدية "أنت تبدو الليلة وسيماً ولطيفاً بعطرك وملابسك هذه بعيداً عن هيئتك الدائمة ببدلة العمل المتسخة ورائحة زيوت السيارات التي تفوح منك في الورشة "نظرت بتقيم سريع الى قميصه الابيض البسيط وقد فتح بضع أزرار علوية عند الرقبة، سرواله الكحلي لا بأس به، في الواقع أن حمزة قد تجده بعض الفتيات (أقل مستوى) من الناحية الاجتماعية والثقافية، وقد تجده الأخريات جذاباً على نحو رجولي ملفت بطريقة خشنة، المشكلة أن سارة ليست من هذا النوع ولا ذاك! فهي لا تراه على الاطلاق.

تلكأت عينا جهاد عند منطقة بطنه لتتمتم في سرها "من الأفضل ألّا تتنبه سارة لهذا (الكرش) الذي يكبر! فأختي الرقيقة تميل للرشيقين، كذاك المشوّه المرعب الذي يترصدها من شرفته "فجأة سمعت صوت زمجرة من حمزة قبل أن يقول باندفاع أهوج "أنا ذاهب إليها الآن «

كانت تريد أن توقفه لتخبره أن ينتظر فرصة أفضل لكن حمزة كان يتقدم كالثور الثائر وكأنه مقدم على حرب ضروس وليس على مصارحة عاطفية مع فتاة يحبها! أخذت تهز رأسها بإحباط وهي تتمتم "لا فائدة منك يا

حمزة! أكره أن أرى توأمتي تكسر قلبك المندفع»

***

ينظر أيوب الى ثوبها الأخضر بنظرات رجل، كان يتعمّد فعل هذا وهو يراها كيف تسترق النظر إليه من تحت شرفته، نظراتها خجلة مرتبكة وتوّاقة، لقد ارتدت الفستان لأجله وحده، لا تهتم لأيٍّ ممن حولها في العرس، لقد حضرت كي يراها وهي متأنقة انثوية، حلوة كتفاحة! لكنها تفاحة خضراء ليس فيها إثارة واغواء الأحمر.

عيناها اللحظة تعلقتا بعينيه وكأنها تنتظر منه أي شيء، أي فتات من عاطفة تمنحها الأمل، فعوى ذئب قديم داخله كي يمنحها ابتسامة، لم تكن إلّا ابتسامة، فيرى تأثيرها جليّاً وهي تفقد تركيزها تماماً في حوارها مع الأستاذ هلال.

فجأة ابتعد أيوب خطوة للخلف، ثم تبعها بخطوتين، يعتصر قمة عصاه وهو يكلّم نفسه "ما الذي تريد أن تفعله بها يا أيوب؟! لماذا تضيف المزيد لحطب جهنم الذي ينتظرك؟! هذه النظرة في عينيها تجعل الذئب داخلك يودُّ نهشها حيّة، فما الذي تفعله بالضبط يا خسيس؟! أ تريد معاقبة نفسك بمزيد من الذنوب؟ أم أنك تتلاعب مع الشيطان كي ترضي رغباتك المقرفة الحقيرة التي لم تمت بعد كل ما جرى عليك! وما ذنبها هي لتستغلها هكذا؟!»

صراع عنيف مهول ينهكه فيرفع يده الى صدغه يضغطه بقوة وعيناه تبرقان، صوت خطوات مألوفة شدّته في بُعْدٍ كونيّ آخر، كأنه يدخل عبر باب سريّ الى حياة موازية، إنها خطوات طفلة تركض في شقته! لهث وهو يتلفّت برأسه في حدة، صوت الخطوات الراكضة لم يتوقف، بل تخلّله صوت ضحكات.

اختض جسد أيوب بقوة وكأنه يعاني المرض الشديد، بل ويوشك على التقيؤ من شدة المرض! انعزل كُلياً عن تفكيره بسارة، بل حتى اختفت كل الأصوات والضوضاء والضجيج القادم من العرس في الشارع أسفل شرفته ليرهف السمع مع تلك الأصوات التي تخدعه!

معدته تغلي بالسموم فيتألم حرفياً من أوهامه، تحركت كفه الى موضع بطنه يعتصرها بأصابعه عصراً، احمرت عيناه وكأن بياضهما يحترق بينما يتمتم مستسلماً لخدعة عقله "أفنان.. طفلتي»

وعند اسم ابنته دارت به الدنيا ثم أظلمت، ولم يعد فيها إلّا صوت خطوات أفنان وضحكاتها وهي تنادي (بابا)، الألم يشتد فيشعر وكأنه يتهاوى في غياهب المجهول ليتوه فيه، لا يزال نداء طفلته (بابا.. بابا) وهو عاجز حتى عن الرد، ثم صوت أمها.. البريئة.. (**مرة أخرى يا أيوب!**

**ستقتل نفسك بكل هذا الخمر المسموم الذي تحتسيه)**، ما يزال لسانه ثقيل وذهنه تائه وعجز جسده أقوى منه، ثم علا الصراخ، صراخ رهيب، صراخ لن يسمعه مرة أخرى إلّا في جهنم حيث سيكون مصيره بعد الموت، لقد كان صراخ طفلته وهي تحترق!

أطلق أيوب صرخة مدوية وهو يستفيق من إغمائه ليجد نفسه مُلقى أرضاً، حدّق فيما حوله فيرى نفسه وحيداً في قصر الخاتون الحزين الموحش وأصوات الضوضاء من الحي تقترب منه ببطء لتعيده الى الحياة من جديد، لم تكن المرة الأولى التي يحصل له فيها هذا الإغماء، ولن تكون الأخيرة.

مُسجّى على الأرض وعيناه شاخصتان للسقف والعذاب ينهش في روحه كما نهشت النيران في جسده، منذ أربعة أعوام لم يمر يوم دون أن يتمنى لو مات مُحترقاً بالكامل معهما.

***

تركها الأستاذ هلال وهي ما تزال تقف مكانها تختلس النظر الى الشرفة، تتوجع برهافة أنثى قلبها ما يزال بِكْراً، كانت المرة الأولى التي ينظر إليها أيوب هكذا، نظرة رجل لأنثى، ثم.. ابتسم!

لكن.. لماذا اختفى فجأة هكذا؟! هل ندم؟ أم ربما استكثر على نفسه الشعور مجدداً بـ.. أوقفت سارة سيل أفكارها وهي تكاد لا تصدق الى أين مضت بها تلك الأفكار!

« سارة»

أجفلت بقوة وهي تلتفت الى حمزة لتقول له بتوبيخ "لقد أرعبتني! هل كان يجب أن تصرخ اسمي هكذا؟! "يعبس في وجهها وهو يرد بانفعال خشن أفلت منه "لم أصرخ اسمك! كنت فقط أناديك بصوت مرتفع كي تسمعيني وسط ضجيج العرس "زفرت نفساً ثم قالت وهي تعقد حاجبيها "سمعتك الآن.. فماذا تريد؟ "بدى كقنبلة على وشك الانفجار وهو يرد بحدة عجيبة لا تعرف سارة أسبابها "لا.. أنتِ لا تسمعين! «تخفف عبوسها وهي ترفع حاجبيها تتساءل بحيرة وبعض الانزعاج "ما بالك يا حمزة؟! "زمّ شفتيه وكأنه مغتاظ! ثم دسّ كفيه في جيبي سرواله الكتّاني وكأنه يداري ارتباكه أو ربما عجزه عن التعبير، تنهد ثم أدار وجهه جانباً وهو يقول بإحباط غاضب "ما بالي؟! اريد أن اتكلم معك "ردت سارة وهي تبحث بعينيها عن توأمها "لا أحب أسلوبك هذا في الكلام "وقبل أن تمنحه فرصة الرد تساءلت "هل رأيت جهاد؟ "هتف حمزة وهو يعاود النظر إليها قائلاً "دعي جهاد الآن وأخبريني، كيف

تريدين أن يكون أسلوبي بالضبط؟»

أخيراً وجدت توأمتها، لتعبس سارة قليلاً وهي ترى جهاد تقف بصحبة وائل، مدرس الألعاب الرياضية في ثانوية الخاتون للبنين، في داخلها لم تكن سارة ترى أي مشكلة، فوائل شاب جيد وتظنه معجباً بجهاد، لكن وضع شقيقتها لا يسمح بهذا التبسّط، هي ليست مجرد شابة قد يخطب ودّها اي شاب، بل هي (امرأة مطلقة) وعليها الحذر من نظرة الجميع لها بمن فيهم وائل نفسه، توصيات الجدة كانت مُشددّة بهذا الخصوص رغم أنّ سارة تخالف جدتها الرأي وترى المجتمع تغير ولم تعد (المطلقة) تعاني من وضعها كما كان يحدث في السابق.

صدمة أعقبت تأوهاً أطلقته سارة عندما قبض حمزة على ساعدها وهو يكزّ على اسنانه ويقول "انت لا تسمعينني على الاطلاق! "برقت عينا سارة وهي تنظر إليه فتتجاوز صدمتها لترد عليه "لقد تجاوزت حدودك ولا بد أنك فقدت عقلك! اترك ذراعي فوراً يا حمزة "لكنه اعتصر ساعدها أكثر كأنه يتألم قبل أن ينفضه من كفه قائلاً بحرقة "أنا غبي وأحمق! "ثم تركها ومضى مبتعداً عن العرس بأكمله وسارة تدعك ساعدها وهي تتمتم بعبوس "مؤكد غبي وأحمق! وسترى مني في الغد ما لا يعجبك»

***

ينظر إليها وائل بنظرات لامعة وهي تضحك من مزحته، منذ ستة أشهر تحديداً وهو يفكر جدياً بطلب يدها لكنه أراد الصبر أكثر كي تتجاوز نهائياً تجربتها المؤلمة، كما أراد التأكد أن لا نيّة لديها لمسامحة مطلقها والعودة إليه.

والداه يعارضان رغبته الزواج من جهاد، خاصة أمه، بل اقترحا ببساطة أن يتزوج اختها التوأم سارة! وكأن التطابق الخارجي بالشكل بينهما هو فقط ما يجذبه، فلماذا لا يتزوج سارة التي لم تخضْ أي تجربة سابقة؟!

ربما هو حاله كحال الجميع؛ لا يفرقهم أحد من بعضهما، لكنه حالما يتكلم معها يميزها عن توأمها، جهاد أكثر انطلاقاً وانفتاحاً بينما سارة تميل للتحفظ والجدية أكثر، جهاد تبدو الأضعف والأكثر تأثراً بينما سارة الأصلب في المحن، كما حصل في وفاة أبيهما فكانت سارة هي الصامدة الثابتة بينما جهاد غارقة في حزنها تبكي وتنتحب حالما يكلمها أحد عن أبيها.

لكن وائل منذ معرفته بهما قبل سنوات بحكم الجيرة وهو يرى جهاد قوية بما يكفي لتتصدر المواقف الصعبة عند اللزوم، وكل ما في الأمر أنها اعتادت على فكرة أنّ (توأمها سارة) هي التي تتكفل بالتصرف دائماً.

« أين سرحت؟»

ابتسم وائل وهو يرد عليها بالقول "كنت أفكر بالتطابق الخارجي بينك وبين سارة "ثم خطوا معاً الى الجانب ليبتعدا عن طريق بعض الناس الذين يتجهون للعروسين فتميل جهاد إليه قليلاً كي يسمع كلامها وسط الضجيج قائلة "ولنا نقاط تشابه أخرى من الداخل "بحركة من رأسه دعاها ليبتعدا قليلاً الى زاوية أهدأ بينما يرد عليها بالقول "مؤكد، فالإخوة يتشابهون في كثير من الخصال بالوراثة والتربية والتطبع، إنه أمر طبيعي، لكن الناس مع التوائم أظنهم يحتارون، شدة الشبه حدّ التطابق يخدع الذهن أنهما متطابقان من الداخل أيضاً، أو على الأقل يتعاملون مع التوائم المتطابقة تلقائياً بفكرة مسبقة كهذه "

أعجبها كلامه، في الواقع.. إنّ وائل يعجبها من نواح كثيرة أخرى، ولا تستثني الناحية الجسدية، رغم أنه ليس بشاب وسيم الملامح لكن له رشاقة رياضية وعضلات مفتولة دون مبالغة، والأهم من الخارج هو داخله المنفتح وتوازن آرائه، هو واضح دون محاولات (الذكور) المزعجة لادعاء العمق الكاذب وكأنها وسيلتهم الوحيدة للجذب! هذا ما تراه فيه حتى الآن.

استندت بظهرها الى إحدى الجدران بينما تخبره بابتسامة عفوية "ذكّرتني بمدرّسة مادة العلوم الاحيائية

وكيف كانت نتعجب لماذا تبرع فيها سارة وتحبها بينما أنا أعاني الأمرين كي أنجح فقط! لم تكن تفهم أننا شخصان منفصلان غير مرتبطين بحاسوب واحد ينسخ لنا نفس الصفات والقابليات الذهنية والقدرات المعرفية "

يتنبه وائل لنظرات أمه غير الراضية نحوهما وبضع نسوة من صديقاتها يتهامسن معها، تجاهل الأمر بينما يعيد تركيزه الى جهاد وهو يسألها بغمزة فكاهية "ألم تخدعا أحداً من قبل بشبهكما الشديد هذا؟ "رغم ابتسامتها إلّا أنه شعر بتوترها الذي تحاول إخفائه لتقول وهي تحاول مجاراته بالفكاهة "فعلناها مرة واحدة بعمر تسع سنوات، وقد كانت عواقبها أكثر من كافية كي لا نكررها مدى الحياة! "تساءل وائل "تقصدين انكشفتما وعوقبتما؟»

هزت رأسها ثم تبعثرت نظراتها رغم أنها تتشبّث بحسّ الفكاهة وهي توضح له "نعم لسوء الحظ وسواد البخت انكشفنا! والعقاب من أبي كان قاسياً للغاية "صمتت للحظة ووائل يراقب تعابيرها حتى أضافت بأسلوب غامض "عقابه جعلنا نتعاهد أنا وسارة ألّا نفعلها مجدداً طيلة حياتنا "لم يستطع منع السؤال "أثرتِ فضولي، بماذا عاقبكما؟»

تبسمت جهاد وهي تلتزم الصمت، غريزياً أخذت تبحث عن سارة لتجدها بصحبة حمزة، يبدو جلياً أن الوضع بينهما

ليس (لطيفاً)!

كان وائل ذكياً كفاية ليغير الموضوع ثم انضم إليهما الحاج عبد الصادق وابنتيه بينما جهاد تكتفي بالصمت وهي توزع الابتسامات، تفكر أن ربما وائل خمّن العقاب بالضرب، وإنْ خمّنه بالفعل فقد حزر، لكنه ربما لن يحزر أنها كانت المرة الوحيدة التي عاقبهما فيها والدهما بالضرب، ارتعش جسدها رغماً عنها وهي تتذكر صفعاته القاسية لجسديهما، هي كانت تصرخ وتتألم تطالبه بالتوقف بينما سارة لم تنطق بحرف، بل كانت تتلقى عقاب أبيهما بالدموع والاستسلام، وقد نامتا تلك الليلة في حضن بعض ومنع عنهما أمهما أو جدتهما من التدخل، لكنّ جهاد استيقظت بعد منتصف تلك الليلة على صوت بكاء مكتوم قادم من غرفة المعيشة، فتسلّلت من حضن توأمتها وسارت على أطراف أصابع قدميها ومن شقِّ باب غرفتهما رأت أباها على سجادة الصلاة يرتعش ويبكي طالباً الغفران من الله، لقد كان نادماً على ما فعل بابنتيه.

***

**بعد بضع ساعات**

تبتعدان عن قصر الخاتون بعد انتهاء العرس، الضجيج يتلاشى والعوائل تعود الى بيوتها، تسير جهاد وسارة في

طريق العودة الى البيت بينما بدت سارة منزعجة وبمزاج عصبي وهي تؤنّب توأمتها بالقول الخافت "لم يكن يجب أن تطيلي الكلام مع وائل هكذا، لقد لازمتِه طول العرس، لا يجوز هذا وغير لائق "ردّت جهاد وهي تشبك ذراعها بذراع شقيقتها قائلة بمشاكسة "هل هذه سارة تتحدث أم الجدة ياقوت؟ "تنهدت سارة وهي ترد عليها باهتمام "أمي وجدتي تقلقان عليك كثيراً يا جهاد "ردّت جهاد "لو كانتا تقلقان حقاً لرافقتانا للعرس بدل جلوسهما الدائم في الدار وكأنهما قلّصا العالم كله بين أربعة جدران "ألقتا السلام على بعض الجيران وهما تواصلان المسير لتقول سارة رداً على كلام شقيقتها "من بعد وفاة أبي لم تعودا تحبذان الخروج كثيراً فدعيهما لشأنهما "عندها شاكست جهاد بالسؤال "ما الذي دار بينكما أنت وحمزة جعله يختفي لباقي العرس؟! "انزعجت سارة أكثر وهي تهتف بأختها بينما تدخلان شارعاً أضيق يختصر عودتهما للبيت "كفاك جهاد "لكن جهاد شعرت فجأة بالقلق وهي تدور بعينيها فيما حولها لتقول لسارة "كفاك أنتِ واسرعي الخطى، لا أدري لماذا أتيتِ بنا من هذا الطريق؟! "ردت سارة وهي توضح "لأنه يختصر المسافة الى البيت، لا تخافي؛ عشر دقائق وسنصل "

لكن جهاد لم تطمئن، دوماً تخاف من الظلام ولا تحبه، وطرقات الحي تحديداً لم تعد آمنة كما السابق، توترت ذراعها حول ذراع شقيقتها وهي تتمتم "كان يجب

أن نطلب من أحدهم إيصالنا "فربتت سارة على ذراع توأمتها لتحاول تخفيف توترها وقد تذكرت خوف جهاد من الظلام ثم قالت لها وهي تنظر الى جانب وجهها "لن نحتاج لأحد إذا أسرعنا، لذلك سلكت هذا الطريق المختصر»

فجأة تجمدت تعابير جهاد وهي تحدق في الظلمة أمامها بينما تهمس اسم توأمتها برعب "سارة "التفتت سارة لترى أمامها خيال شابين لم تتبين ملامحهما تماماً في الاضاءة شبه المعدومة هنا لكنها لم تسترح لوقفتهما تلك وقد خشيت أو خمنت أنهما يتعاطيان شيئاً! رغم أن الرعب دبّ في سارة إلّا إنها تماسكت ولو ظاهرياً لتقول لشقيقتها بنبرة ثابتة "اهدئي جهاد، فقط واصلي السير ولا تنظري إليهما»

لم ترد جهاد، بل اكتفت بتنفيذ ما قالته سارة وقد بلغ توترها أقصاه، ولسوء الحظ فإن توصيات سارة لم تُجدِ نفعاً، فاقترب الشابان يحومان حولهما وهما يتفوهان بعبارات بذيئة!

كانت سارة ترتجف كارتجاف جهاد، بل وأكثر! لكنها تواصل المسير وهي تجرُّ خطواتها مع خطوات شقيقتها، الشابان كانا تحت تأثير الكحول بلا شك وربما بعض المخدرات وقد دعت سارة الله أن يكتفيا بالكلمات الفجة والمعاني القبيحة حتى تصلان نهاية هذا الطريق، لكن

أحدهما قال بلسان ثقيل "لنرى ما تحت هذا الفستان "ثم مد يده ليمسك جانب فستان جهاد، وحالما فعل صرخت جهاد فهمّت سارة تلقائياً لتدافع عن أختها بينما أخرج الشاب الثاني سكيناً من جيبه! أخذت جهاد تصرخ بكل قوتها بينما الشاب الذي يحمل السكين يهدّدها لتتوقف، أما الآخر فيتشابك بالأيدي مع سارة! لكن جهاد لم تتوقف عن الصراخ حتى أتاهما الإنقاذ من حيث لا تدريان ليهجم حمزة ويطرح أولاً الشاب الذي يحمل السكين أرضاً فتقع جهاد مغمى عليها وقد انخفض ضغطها من شدة الانفعال والصراخ، وأما سارة فقد أخذت دموعها تسيل وهي تلتصق بالحائط تحمد الله على حضور حمزة الذي أوسع الشابين ضرباً وحالما استطاعا الإفلات منه هربا.

كان حمزة يلهث وهو يقترب من سارة ويسألها بقلق رهيب "هل أنتِ بخير؟ "كانت ملتصقة تماماً بالحائط والصدمة تكبّل قدرتها على التحرك بينما تمتم لحمزة بقلق غريزي "جهاد "التفت حمزة ليرى جهاد مغمى عليها فيطمئنها بالقول "أغمي عليها فقط، لا تقلقي "شعرت وكأنه بجسده الضخم يمنعها من الحركة فتهمس بخفوت ودموعها تجري "دعني.. اذهب إليها»

لكنه لم يستطع وقد كان قلقه عليها يفوق قدرته على التصرف بعقلانية، فقال وهو قريب منها جداً "سارة، أنا آسف لما فعلته الليلة "شعرت سارة بساقيها تتراخيان من

هول ما مرت به هي وجهاد بينما ترد على حمزة بالقول "لا داعٍ للاعتذار "لكنه ضرب بكفه على الحائط خلفها وهو يقول بارتباك عنيف "لا أريد الاعتذار فقط، بل.. "تنظر إليه ولا تفقه ما يحصل معه، لا تفقه الوضع برمته وهما يقفان هكذا في الظلمة وجهاد مغمى عليها على بعد مترين!

تحاول السيطرة على ارتجاف جسدها بينما حمزة يدور في ارتباكه ليضيف بنفس العنف "منذ كنا أطفالاً وأنا.. "عاود ضرب الحائط بينما شعرت سارة باسترجاع قوتها لتقول له بتوبيخ "ماذا دهاك؟! هل هذا وقت حديث الطفولة؟! دعني أذهب كي أطمئن على أختي "لكن حمزة لم يفعل وهو يحتجزها هكذا ويواصل كلامه بنبرته الخافتة العنيفة المنفعلة "في المراهقة عانيت الأمرين وأنا أبعد عنك الأولاد "

على بعد مترين كانت جهاد تستمع وتستمتع! لقد استفاقت من الإغماء حالما هرب الشابان لكنها لمحت حمزة يقترب من سارة فآثرت الادعاء أنها ما تزال مغمى عليها، وعندما سمعت جملته الأخيرة كادت تضحك وهي تقول في سرها "لحسن حظي! حظيت بحماية حمزة تلقائياً مع توأمتي، وكم خدعتك يا مسكين عندما ظننتَ في العرس أني هي "يواصل حمزة مصارحته العجيبة في توقيت أعجب قائلاً باندفاع عاطفي "عند دخولك الجامعة كنت سأجن!

واحياناً كنتُ أذهب الى هناك لأتأكد "تسمع شقيقتها سارة تمتم بغباء "تتأكد؟! "ثم تضيف بانفعال وهي تلهث بغضب واضح "لا أظنه الوقت المناسب كي أفك شيفرات كلامك عن الماضي "لتؤازرها جهاد في سرها أيضاً وهي ما تزال في دور ادعاء الاغماء وكأنها تتوسط لحمزة عند شقيقتها الغبية "أعلم أنه غبي لكن امنحيه فرصة يا سارة، فأنت لا تقلين غباء عنه! "رجف قلب جهاد تأثراً وهي تسمع تصريح حمزة الناري "أنا فاشل باختيار الوقت والمكان والكلمات، لكن.. تزوجيني سارة "

ارتفع صوت سارة وهي تهتف "ماذا! "لم تحتمل جهاد أكثر من هذا ففتحت عينيها لتقول بغيظ "يقول لك (تزوجيني) فاحفظي الكلمة كي تفكري فيها فيما بعد في البيت "ثم وقفت جهاد على قدميها وهي تنفض عن ثوبها التراب وتمنح أختها فرصة كي تتجاوز خجلها من الموقف كله.

قالت جهاد أخيراً وهي تتقدم منهما "هيا بنا توأمتي، كان بودّي منحكما مزيداً من الوقت لكن لم أستطع تمثيل دور المغمى عليها أكثر من هذا، لجدتنا ستبلغ الشرطة إن تأخرنا عشر دقائق أخرى "تقترب جهاد من شقيقتها المصدومة لتجرها من ذراعها بينما تقول لحمزة "شكراً للإنقاذ، تصبح على خير لكن لا تخبر أحداً عن مغامرتنا الصغيرة هذه "

لم يرد عليها حمزة، بل عيناه لا تفارقان النظر الى سارة التي أخرستها المفاجأة بينما صدره يعلو ويهبط وهو يتحرك خلفهما يؤمِّن وصولهما سالمتين للبيت.

***

# الفصل الثالث
# هاوية الجحيم

**اليوم التالي، السبت**

سماعة الهاتف الأرضي على أذنه وصوت توفيق الأعرج يأتيه بنبرة يعرفها، إنه يسعى لتحقيق غاية! يستمع أيوب الى مناورات توفيق الكلامية وقد غلبه طبع (المحامي) بينما يفتح مكبر الصوت ليضع السماعة جانباً وهو يفكر بابتسامة باهتة أن توفيق رغم كل عيوبه وأساليبه القذرة في العمل (عند الحاجة) إلّا أنّ أيوب يشهد له بالولاء والكتمان.

يحدّق أيوب بجهاز الهاتف الأرضي، إنه وسيلة التواصل الوحيدة التي أبقاها فعّالة في حياته.

منذ ثلاث سنوات يعيش أيوب كأصحاب الكهف، فقد غادر عصر التكنولوجيا الذي يتطور على مدار الايام، بل الساعات، ليعود بإرادته الى عصر جده، حيث لا انترنت ولا حاسوب ولا حتى هواتف نقالة! لا أحد قد يصدق أنه هو تحديداً يعيش هكذا في زمن بات لا يتنفس إلا من خلال شبكات متداخلة وغير مرئية في الهواء للهواتف النقالة والانترنت، لقد رماهم جميعاً على عتبة (كهف

العزلة) قبل أن يدخله ثم.. انقطع عن العالم.

حتى التلفاز لا يشغله، الخادمة تكتفي في كل مرة بمسح الغبار من فوقه لتسأل نفس السؤال (**هل التلفاز عاطل يا سيد أيوب؟**) فلا يرد عليها بشيء، بل يغلق عينيه ويتركها تكلّم نفسها حتى تنتهي من عملها وتغادر.

تنحنح توفيق قبل أن يصل إلى بغيته من هذا الاتصال ليقول بنبرة خاصة فيها (عاطفة) لا تليق بمحامٍ شرس بارد مثله "إنهم يسألونني عنك مجدداً "اتّسعت ابتسامة أيوب وهو يرد بوقاحة "لا بدّ أن (الصغار) لديهم مصلحة ما كي يفعلوا! ذكّرني متى آخر مرة حاولوا بها معرفة مكاني؟!»

قال توفيق بعقلانية "إنهم إخوتك يا أيوب، ليست المصلحة وحدها ما تربطهم بك "لمعت عينا أيوب وهو يستعيد بعضاً من مكره القديم ليسأل "وماذا عنك أنتَ يا توفيق؟ كم ستكون جائزتك إن كشفت لهم أين أنا؟! "رد توفيق بانفعال "أيوب! أ تقول هذا الكلام لي أنا؟! أنا صديق عمرك وعِشْرة السنوات الطوال "ببرود قاس قال أيوب "لا صداقة ولا عِشْرة، المصلحة القذرة فقط ما جمعتنا، فلا تظهر الصدمة هكذا يا توفيق فلن أصدقها! "لكن توفيق بدا متأثراً بالفعل وهو يرد عليه بانفعال حقيقي "أنت أصبحت أسوأ من أي وقت مضى! ظننت انعزالك سيكون له أثراً في شفائك، ما الذي تبغيه من

حياتك أنا لم أعد أفهم!»

انطفأ أيوب بالكامل وتحجرت عيناه وجفناه لا يرمشان، فيبدو لمن قد ينظر إليه اللحظة وكأنه ميت! مجرد جسد فارغ بارد مشوه مُلقى على كرسي عتيق في حجر قصر الخاتون، قال أخيراً بخفوت كأنه يكلّم نفسه "لا أريد إلّا أن أبقى حياً ما استطعت، أتعذّب وقد دُفِنْتُ تحت تراب الذنوب، أتعذب وأنا أنظر من بعيد للملذات التي تنعّمت فيها حدّ الغرق في طوفانها، وما أزال أهواها حتى وأنا أمقتها، أتوق إليها كعبد حتى وأنا أجاهر بالكفر بها»

حاول توفيق إقناعه بطريقة مختلفة فقال "فكّر مجدداً يا أيوب، إن كانت ثروتك وثروة عائلتك حراماً وسُحتاً من وجهة نظرك فتستطيع أن تحلّلها بالتصدق والتبرع للمؤسسات الخيرية "ضحكة بشعة أطلقها أيوب قبل أن يقول ساخراً "أضحكتني يا توفيق، (التصدق بجزء من الحرام يُحيل الباقي منه حلالاً!)؛ من أين أتيت بهذه الفتوى يا رجل؟! "ما يزال توفيق يحاول إقناعه بـ(المنطق) قائلاً "لكن لا يعقل أن تترك كل شيء خوفاً من العقاب! ما جرى لابنتك وزوجتك كان مجرد حادث يحصل كل يوم لكل أنواع البشر، الفقراء والاغنياء»

لم يرد أيوب إلّا على الشقِّ الأول من كلام توفيق ليقول بصيغة تساؤل انفعالي "أ تظن حقّاً أني لا أقرب المال

الحرام لهذا السبب؟! "وقبل أن يرد توفيق أضاف أيوب بانفعال أشد وأقوى "انا انتقم منه، انتصر على لذة امتلاكه وأهزمه عندما لا أقربه، ذاك المال الملعون قتل طفلتي.. قتل.. سارة»

كان أيوب اللحظة يلهث انفعالاً وقبضتاه تتوتران بشدة فوق ذراعيّ الكرسي، عاد صوت خطوات طفلته تعذبه بينما يسمع توفيق يقول باهتمام حقيقي "رحمهما الله لكن أنت ما تزال حياً يا أيوب، فلماذا تقتل نفسك؟!»

أخذ العرق يتصبب من جبين أيوب وصوت ضحكات (أفنان) يعلو، أغمض عينيه ليغرق في عذابه بينما يهمس بإجهاد جسدي "أقتلها؟! من قال هذا! بل أنا أحييها، ألم أقل لك أني أريد البقاء حياً ما استطعت؟! "تنهد توفيق بيأس ليعبر عن يأسه وحيرته بالقول "أنا لم أعد أفهمك! كلامك بات شديد التعقيد والغموض، أنت تتخبط، يجب أن تذهب الى طبيب نفسي، أو حتى الى شيخ دين يساعدك كي تخرج من هذه الحلقة المفرغة من شعور الذنب نحو ابنتك "العرق يتصبب من كل جسده حتى بلل قميصه بينما يرد على توفيق قائلاً بوجع من طعم آخر "وسارة.. أنسيت سارة يا توفيق؟ الكلُّ كان ينساها، وأنا أسوأ منكم جميعاً، كنتُ أنساها وهي تقف أمامي تكلمني!»

عينا سارة وهما تنظران إليه بعتب (العاشقة) هما هاويته!

هاوية الجحيم التي يلقي فيها نفسه كل يوم، تجمعت دموع جبارة في عينيه المغمضتين وهو يقول في سره "احترق كل شيء فيها، عيناها البريئتان وقلبها الكبير "جاء صوت توفيق خافتاً غريباً بعض الشيء وهو يقول "كانت امرأة.. طيبة ومُسالمة "فتح أيوب عينيه ليهدر بقسوة يعبر عن كرهه ومقته لنفسه "كانت شابة بريئة أحبتني بكل ما أحمله من رذائل، وأنا رددت لها الحب بقتلها حيّة عشرات المرات، قبل أن ترتاح مني وتموت مُحترقة أمام ناظري! "لم يجد توفيق ما يقوله إلّا تكرار نفس النصيحة "اذهب لشيخ دين يا أيوب وتحدث إليه، انت تحتاج مساعدة "قسوة أشد وسواد مُخيف ينبعث من كلماته وهو يرد "مساعدة؟! صدقني كلنا نحتاج لمساعدة حين نكتشف ونعترف بلعنتنا في لعبة كبرى اسمها (الدنيا)، كلنا ملعونون بغرائزنا وشهواتنا، بإدماننا للذّة امتلاك النفوذ والمال، نحمل كروموسوم اللعنة منذ الولادة ولا نكتشف وجوده إلّا حين ننال استحقاقنا من العذاب الذي خُلقنا لأجله! أما النادرون من الأبرياء كأمثال سارة فلا نراهم حتى ونحن نسحقهم تحت أقدامنا "هتف به توفيق بتوتر "ما هذا الكلام الجنوني؟! "

استعاد أيوب سيطرته على نفسه ليغلق بجهد جبّار أبواب الجحيم ثم قال ببرود قارص "قل لإخوتي (الصغار) أن ينسوني، أنا لن أعود، وقل لهم ما زرعه أبونا وجدُّنا كان شيطانياً وليس حراماً فحسب، والشيطان لن يرتضي مشاركة

الحلال حتى تنتهي الخليقة»

***

من تحت الوسادة التي تضعها جهاد فوق رأسها تراقب بتمعن توأمتها وهي تمشط شعرها بنظرات شاردة، عندما عادتا بالأمس كانتا قد اتفقتا أنهما لن تخبرا أمهما وجدتهما بتعرض الشابين لهما في الطريق لكن حالما دخلتا الغرفة وأرادت جهاد فتح موضوع حمزة حتى أغلقته سارة تماماً وهي تدّعي التعب وحاجتها للنوم، وقد فعلتها سارة وتركت جهاد في غيظها، فعندما تكون سارة في هذا المزاج المنغلق تعلم جهاد عندها أن لا فائدة حتى من المحاولة.

اليوم تراها كمن استوعب الصدمة وغارقة بإيجاد مخرج! وحالما بدأ صوت ماكينة خياطة جدتها يعلو حتى استغلته جهاد لترفع الوسادة عن رأسها وتهب بجسدها لتتربع فوق سريرها، التقت عيناها بعيني سارة عبر المرآة لبضع ثوان قبل أن تسألها دون مقدمات "ماذا تنوين؟ "أرخت سارة جفنيها وهي تلتقط رباط الشعر "بخصوص ماذا؟ "

راقبت جهاد شقيقتها كيف تعقد شعرها بإحكام خلف رأسها كذيل حصان، ففكرت كم تكره هذه التسريحة الكلاسيكية لكل فتيات المدرسة! دوماً سببت

لها وجع رأس في الصغر، وجدّتهما كانت تصر عليها وقد أقنعتهما إن لم تفعلا ستلتقطان القمل من شعور الفتيات الأخريات.

نحت جهاد تلك الأفكار لتركز مع سارة فقالت بنبرة مواجهة "أنا وأنت تحديداً لا ينفع بيننا الادعاء بالجهل "رفعت سارة أجفانها لتلتقي بعيني توأمتها مرة أخرى عبر المرآة فترد دون مراوغة "أنت تعرفين أنّ حمزة أبعد ما يكون عن تفكيري به كزوج "تساءلت جهاد بأسلوب عملي "لأنه ميكانيكي سيارات؟ "تنهدت سارة لتقول ببعض الانفعال "لا أعلم ربما هي إحدى الأسباب، أليس من حقي الاعتراض على مهنته؟! "تعقد جهاد حاجبيها وهي تذكر سارة بالقول "إنه يحمل شهادة جامعية كما تحملين انتِ "ردت سارة بخفوت "أعلم هذا "فتضيف جهاد للتأكيد "وورشته سيكون لها مستقبل "هتفت سارة دون شعورها "أعلم جهاد.. أعلم! "

مرت خمس ثوانٍ وهما تتبادلان النظرات عبر المرآة قبل أن تطالبها جهاد بحزم "قولي السبب يا سارة "استدارت سارة بكل جسدها لتواجه توأمتها مباشرة قائلة بتوتر ملحوظ "لأني لا أحبه! لا أميل إليه على الاطلاق، هل هذا يكفي؟! "

تحركت جهاد لتترك السرير وتقف على قدميها الحافيتين

ثم تتقدم من سارة وتقول ببعض العتب "انتظرت منك أن تقولي الحقيقة التي نعرفها كلتانا دون كلمات "تقف أمام نسختها لتكون لها مرآة الحقيقة التي تتهرب منها فتقولها لها "أنا وأنت مرآة بعض يا سارة، أستطيع قولها نيابة عنك فقط كي تسمعها أذناك وتواجهي الأمر "تعض سارة شفتها السفلى بعجز لم تشعر به من قبل بينما تقولها لها جهاد بتعاطف كبير "أنت وقعتِ في هوى أيوب أو هذا ما تظنين "وحالما قالتها جهاد شعرت بقلبها ينقبض! فأضافت دون تردد "وسواء كان حقيقة أم ظن فإنه لا ينفعك "لم تستطع سارة السيطرة على نفسها لتسأل بانفعال عاطفي أقلق جهاد أكثر "لماذا تكرهينه؟! "ردت جهاد بهدوء "أنا لا أكرهه "

كان من النادر أن تتبادلان الأدوار، فدوماً سارة هي الهادئة التي تتعامل بحكمة، أما اللحظة فقد كانت جهاد من تتبنى هذا الدور في مرحلة صعبة تمر بها توأمتها، إنها مشفقة للغاية على سارة، بينما سارة لا تفهم بالضبط لماذا جهاد تعارض مشاعرها لأيوب، فسألت سارة ببراءة "بسبب غيث؟! أ ترينه شبيهاً بغيث؟ "مدّت جهاد يدها لتمسك يد توأمتها في تواصل خاص، إنه التواصل الأنقى والأصدق الذي يجمعهما، حيث تُرفع كل الحواجز التي قد تفصل البشر على اختلاف علاقاتهم؛ لتكونا معاً في حيز منعزل عن الجميع دون استثناء، قالت جهاد ونبض قلبها يجد صداه في نبض قلب سارة المرتبك "لا.. لا يشبهه "ما يزال

النبض بينهما متواصلاً بقوة وجهاد تضيف "إنه اسوأ!»

انقباض قلب جهاد اعتصر قلب سارة فتسألها بصوت خافت "كيف أسوأ؟! "ردّت جهاد "على الأقل غيث رغم عيوبه ونواقصه قد أحبني بالفعل وتقدم للزواج كأي رجل محترم وجِدّي، لكن أيوب هذا يتلاعب بك، يتسلى ببراءتك "

الحيرة.. الحيرة تغلف قلب سارة وهي تتساءل "ولماذا قد يفعل هذا؟! أنا مجرد فتاة عادية "بذات الحيرة ترد جهاد "لا أعلم السبب لكني أشعر فقط يا سارة "ثم اعتصرت جهاد يد سارة لتضيف بإحساس كريه منفر موجه لأيوب "إنه رجل مخيف ويؤثر عليك بغموضه ويثير أنوثتك بادعائه الضعف أمامك، لكنه في الواقع قوي.. قوي جداً «

في حركة مباغتة نفضت سارة يدها من يد جهاد وهي ترفض كلامها بالقول العاطفي الذي يعمي بصيرتها "من أين لك كل هذا؟! انت لا تعرفينه، لم تلتقي به إلّا مرات قليلة "تألمت مشاعر جهاد لهذا الرفض فقد كانت المرة الأولى التي تفعلها سارة! بينما تضيف سارة بتوتر وتشوش "أنا أعلم أنك أكثر خبرة مع الرجال لأنك كنت متزوجة، لكن.. هذا لا يعني أنك تعرفين كل شيء "ثم أعادت جملتها وهي تنظر في عيني جهاد بتمرد غريب "أنتِ لا

تعرفين أيوب "تجاوزت جهاد شعور الألم برفض سارة الاول لتواصلهما ثم قالت لها تخفي احساسها بالوجع "لكني أعرفك أنتِ، أم ستقولين الآن أنه يعرفكِ أكثر مني! "تهرّبت سارة بعينيها من نظرات توأمتها العاتبتين لتقول بإصرار "كل ما تقولينه لا يجعلني أرضى بحمزة»

لم تيأس جهاد لتعاود النقاش بمنطق معها قائلة "كل ما أقوله أنْ تفكري جدياً بحمزة، هو رجل يُعتمد عليه كما لن تجدي أطيب من قلبه يحبك بطريقة يائسة هكذا! منذ كنا مراهقات وهو يحبك يا سارة "تفاجأت سارة للغاية، بل كانت مصدومة وبدا جلياً أنها لم تكن تعرف وهي تتمتم "ماذا؟! "هزّت جهاد رأسها بإحباط وهي تقول "كله بسبب ياقوت "عبست سارة وهي تتساءل "ما علاقة جدتنا بالأمر؟! "تنهدت جهاد وهي تشرح لها "دوماً كانت تؤثر فيك بكلامها وتوصياتها كي تمنعك من رؤية مشاعر الذكور نحوك، كنتِ ترفضين كلامي البريء عنهم وتمنعينني بحزم، تُقصين التفكير بأي شاب يحاول التودّد إليكِ، تتجاهلين الأمر حتى بينك وبين نفسك وكأنه عار!»

توردت سارة وهي تعترف بصمت أن جهاد مُحقة في هذا بينما تضيف جهاد بنفس شعور الانقباض "لكنها غفلتْ عن أيوب! أخطر ما يمكن من الرجال الذين قد يؤذونك، أو ربما تصورت أنكِ كبرتِ وصرتِ قوية كفاية فلن تقعي في فخ الغرام وضعف المشاعر "عادت

سارة لتدافع عن أيوب دون اقتناع حقيقي ووجهها يحمر بشدة وكأنها لم تعد تستطيع إخفاء مشاعرها التي تؤثر على تفكيرها واحكامها عليه "أيوب لن يؤذيني، قلت لكِ أكثر من مرة أنك لا تعرفينه»

تأففت جهاد وقد بدأت تفقد صبرها لتقول لها بحدة هذه المرة "المشكلة فيكِ أنتِ يا سارة، هو أو غيره لن يستطيع أذيتك إذا لم تسمحي له بهذا، وقد كنتُ أثق دوماً أنك قادرة على حماية نفسك حتى ليلة الأمس كنتُ سأصدق هذا عنك، لكني راقبتك عن كثب البارحة، أنتِ قد لا تعترفين بهذا لكنكِ من الداخل تنتظرين منه خطوة لن يُقدم عليها»

كانت جهاد تنهت بانفعال بينما سارة تنظر إليها بتخبط، ثم قررت الانسحاب وهي تتحرك مبتعدة وتقول "لقد تأخرت على عملي "التقطت سارة حقيبتها الجلدية علّقتها على كتفها ثم غادرت الغرفة.

تخصرت جهاد وهي تتساءل بوجه عابس قلق "كيف أجعلك تؤثر فيها يا حمزة؟! ليس هناك غيرك ليشدّها من أوهامها وانبهارها بذاك الرجل»

توقفت ماكينة الخياطة وخلال لحظات دخلت الجدة الى الغرفة بينما جهاد تتحرك ناحية سريرها، التفتت جهاد

لترى جدتها عند الباب تحمل بكل فخر ثوبين متطابقين بلون زهري! كزّت جهاد على أسنانها بينما الجدة ياقوت تقول بكل بساطة "الثوب أعجب سارة فلا بد أنه سيعجبك أيضاً، سأعلقهما في الخزانة، ربما مناسبة قريبة تذهبان إليها "دخلت جهاد تحت الغطاء وهي تتمتم بغيظ "علقيه يا ياقوت! علقيه الى جوار أخواته التوائم ليأكله التراب! عنادك هذا لن يجدي نفعاً معي»

***

### مبنى قصر الخاتون

شدّته قراءة كتاب (الاغتيال الاقتصادي للأمم) للاقتصادي جون بيركنز، كتاب أعجب أيوب للغاية وشدّه كي يقرأ فيه رغم شعوره بالتعب والإرهاق اليوم بعد مكالمة توفيق، الكاتب كان يشرح الأمور الخفية في المناهج الاقتصادية التي تتبعها السياسات الأمريكية كي تسيطر على الدول الاخرى عن طريق التدخلات في اقتصاد تلك الدول، من خلال الاستثمارات والتمويلات المستمرة، أسلوب اقتصادي سياسي معروف لتنفيذ ما يريدون في المُستقبل.

لم يكن كلاماً مفاجئاً أو غريباً على أيوب، خاصة عندما يكشف الكاتب عن الجانب غير المنظور، في خطط

القروض والاستثمارات، حيث يتم العمل على تكوين مجموعة من العائلات الثرية، ذوات النفوذ الاقتصادي والسياسي، داخل الدولة المَدينة بهذه القروض، ثم تصبح هذه العائلات امتدادًا للنخبة الأمريكية باعتناق أفكارها ومبادئها.

شعر أيوب بالتقزز وهو يقرأ، لقد كان هو شخصياً جزءاً من هذه المنظومة العملاقة التي تبتلع العالم في الخفاء وتستعبده، ويعلم جيداً أن ليست امريكا فحسب اللاعب الوحيد فيها، كثيرون توسخت أيديهم وهم يدخلون اللعبة الكبيرة القذرة؛ فإن لم يشتركوا بصنع الوساخة والترويج لها فهم يشاركون بغسلها لتبدو نظيفة برّاقة من الخارج تثير شهية الرائي وطمعه!

وضع أيوب الكتاب جانباً وقد استكفى مما قرأ، كم هو غريب عندما تغادر حلقة فوهة الشيطان ثم تقرأ عنها وعمّن فيها وأنت خارجها! هو خارج اللعبة لكن إخوته (الصغار) من سلالة آل عَرِيم لا يزالون يمارسون دور أبيهم وجدهم في غسيل الاموال القذرة ويحاولون شدّه كي يعود.

شعر أيوب بإرهاق أشد من أي وقت مضى، فأمسك عصاه التي يضعها جواره ليقف ثم يتحرك صوب جهاز الجراما فون، هذا الجهاز القديم واسطواناته العتيقة كان

خير رفيق في عزلته على أرض جهنم التي اختارها.

شغّل سيمفونية (ضربة القدر) لبيتهوفن، وعلى صوت تلك الأنغام التي تصدح من الجهاز أغمض عينيه وبضع حبات عرق تتجمع على صدغيه، إنه يشعر بمرض روحه الملعونة يشتد اليوم.

***

رفعت سارة رأسها تلقائياً عن الرواية التي تقرؤها حالما تناهى لسمعها صوت السيمفونية من الشرفة المفتوحة في الطابق الثاني لقصر الخاتون.

أغلقت كتاب الرواية التي حاولت الاندماج فيها دون فائدة ثم وضعتها على طاولة المكتب الذي تجلس خلفه لتستمع الى تلك الأصوات الخافتة القادمة كأنّها همس شجيّ حزين، تدمع عيناها وهي تشعر بالغباء! لم تكن يوماً من مُحبي السمفونيات، لكن مع أيوب بدأت تشعر بكل شيء على نحو مختلف، وكأن ذوقها يتغير، فكرها يتطور، عالمها يتفتح.

عضت طارف شفتها السفلى وهي تعيد التفكير بكلام جهاد، هل تستطيع أن تنكر أنها هي نفسها خائفة من أيوب؟ هي مشدودة بقوة لحالته الخاصة؛ تشوهه واكتئابه،

عزلته البائسة ووحدته المظلمة في شقته، تفرده و.. اختلافه! رجل ليس كمن رأتهم أو تراهم في حياتها العادية، ساخر لئيم ويملك قساوة مخيفة وغموض مربك لكن.. أطلقت سارة نفساً وهي تتمتم بحنق "وكأني أصف رجلاً من رواية رومانسية غربية مترجمة! "

«لقد مررتِ بي كأني حائط ولم تلقي حتى السلام! انتظرت ثم انتظرت، لكني لا أستطيع حتى التركيز في عملي»

التفتت سارة الى (الغول) الذي يسدُّ بضخامته وامتلاء جسده باب المكتبة المفتوح وهو يرميها كمدفع رشاش بتلك الكلمات الجافة، شعرت سارة بالحصار لتقف على قدميها وترد بحنق "كفاك يا حمزة! اتركني وشأني "أطلق حمزة صوتاً مزمجراً قبل أن يقول "سأتركك عندما تعطيني رداً على ما قلته ليلة الأمس "لكنها هدرت فيه بعصبية "أنت بلا إحساس ولا.. "خانتها الكلمات وهي تستشيط غضباً لتضيف بعد لحظة «ارحل»

في تلك اللحظة رنّ هاتفها النقال فالتقطته بحركة حادة ويدها ترتجف من شدة الانفعال، عبست وهي لا تتعرف على الرقم المتصل لتقول لحمزة بخشونة "أرجوك أظنها مكالمة من زبون، دعني بمفردي لأستعيد هدوئي "توقف رنين الهاتف وما يزال كلاهما يحدق في الآخر بتوتر، ليقول حمزة

أخيراً قبل أن يغادر "أظن أسبوعاً أكثر من كافٍ لتفكري في طلبي الزواج منك "ثم تركها ومضى وسارة تتنهد لتعاود الجلوس على الكرسي وهي تحاول استعادة هدوئها قبل أن تتصل بالرقم المجهول، إنه رقم هاتف أرضي ورجّحت من الأرقام الأولى أن يكون من ساكني حي الخاتون.

دقيقة أخرى وكانت تضغط على زر الاتصال وحالما أتاها صوت رجل بكلمة مقتضبة غير واضحة؛ عرّفت عن نفسها بالقول "معك سارة كرم من مكتبة الخاتون، اعتذر لأني لم أتمكن من الرد على اتصالك قبل دقائق "تجمدت حواسها وهي تسمع صوته للمرة الاولى عبر الهاتف قائلاً بنبرة آمرة "اصعدي إلي، احتاجك "ثم أغلق الخط!

تمتمت سارة اسمه وهي ما تزال مشدوهة "أيوب!»

لثلاثة أعوام كانت تعمل معه دون أن يتصل بها يوماً! تؤدي كل الواجبات دون أن يحدّدها لها ثم تعطيه التفاصيل وجهاً لوجه دون أن يطلبها، هي كانت المُبادِرة دوماً للتواصل ضمن ما يسمح به هو من وسائل، إنها حتى لم تكن تعرف رقم هاتفه؛ لا الأرضي ولا النقال.

الهاتف ما يزال في يدها بينما تقف على قدميها ببطء لتضعه في جيب تنورتها الواسعة، لبضع ثوانٍ شعرت وكأنها عالقة داخل أفكارها المزدحمة فأخذت لا شعورياً تحرك

الأشياء فوق طاولة المكتب دون هدف حتى استقرت عيناها على غلاف تلك الرواية الرومانسية التافهة، تحدق في صورة البطل المرسومة ثم همست بدهشة "البطل كان مشوهاً! أصيب بالتشوه في حريق تسببت به حبيبته التي هجرته فيما بعد»

نفضت رأسها وهي تتحرك من خلف الطاولة ثم خلال لحظات غادرت المكتبة وأقفلت بابها بالمفتاح.

***

(يُقال أنّ معظم النساء إذا مررنَ بتجربة الاجهاض فإنهن يشعرن بالفراغ؛ بالخواء، نفسياً وجسدياً، وهذا يؤدي الى إصابتهن بحالة من الاكتئاب؛ في حالتي أنا لا أشعر بهذا ولا ذاك، كل ما أشعره أني سُرِقت! أحدهم سرق عضواً من أعضاء جسدي ثم تركني منقوصة ومعيوبة؛ بعاهة مستديمة، وعليّ التعايش معها لآخر عمري، وهذا يُشعرني بالغضب.. الغضب الشديد!)

كتبت جهاد هذا الحوار الداخلي للبطلة في الرواية بعد أن ترجمته عن الكاتبة، ثم توقفت أناملها عن ضغط أزرار لوحة المفاتيح للحاسوب وقد أصابها إحساس مباغت بالتبلُّد وهي تعيد قراءة الكلمات، حرّكت يدها لتنقلها الى موضع بطنها ثم تكلم نفسها بغصّة مخنوقة "أجل.. هذا ما

أشعره! الغضب وليس الحزن والاكتئاب كما وصفته لي أمي عندما تعرضت هي للإجهاض قبل سنوات، إحساس الفراغ موجود لا أنكر؛ لكن إحساس أنّ أحدهم سلبني طفلي موجود بشكل أقوى؛ وكما وصفته الكاتبة بالضبط؛ أشعر كأنّ أحدهم سرق مني جزءاً من جسدي دون أن يمنحني فرصة لأستوعب أو أفكر»

دفعت جهاد الحاسوب بعيداً عنها ثم تحركت بجسدها كي تغادر السرير وقد شعرت فجأة أنّ قلقاً يداهمها على حين غرّة، أغمضت عينيها وهي تقرأ الآيات القرآنية بخفوت تحاول مواجهة ذاك القلق غير المُفسّر، كان شعوراً كريهاً للغاية دون أن تستطيع تحديد أسبابه، لكنه يتكرر معها بين الحين والآخر منذ أجهضت طفلها.

«هل عاودك ذات الإحساس يا جهاد؟»

صوت أمها الحاني كان مؤثراً فيها اللحظة لتهرع الى حضنها دون كلمات وتلتجئ لصدرها ثم تسترخي على صوت تمتماتها الناعمة بالأدعية والتحصينات.

«كفاكِ تدليلاً لها يا منى! دعيها تركز بعملها المتأخر، الناشر يشتكي منها؛ لقد أتصل ثلاث مرات على الهاتف الأرضي لأنها تغلق هاتفها النقال تهرباً منه "شعرت جهاد بالحنق من جدتها فتشبثت بأمها كي لا تتركها (استجابة

للأوامر) بينما ترد بتمرد "أنا لا أتهرب منه ولا من غيره جدتي، أنا فقط أحتاج لمساحتي الخاصة دون أن يقتحمها أحد ويشوّش عليّ كما تفعلين أنتِ وهو "سمعت جهاد تمتمة جدتها الغاضبة "قليلةُ الأدب! "ثم تركتها مع أمها وغادرت الغرفة.

حاولت الام بطيبتها المعهودة (غير المجدية في هذه المواقف) "لا تتضايقي من جدتك، هي تريد مصلحتك، ويجب أن تنصتي لنصائحها يا نملاوي»

رغم أن كنيّة (نملاوي) تبعث دوماً في نفسها البهجة وشعوراً حلواً يذكرها بطفولتها وقد كانت أمها من ميزتها بهذه الكنية عن توأمتها سارة إلّا أنها اللحظة رفضتها! فهي لم تعد جهاد الصغيرة، ملكة كوكب النمل، كما تحكيها الأسطورة التي ألّفتها أمها، جهاد اليوم ترى نفسها امرأة.. امرأة مختلفة كلياً من الداخل عما يظهره خارجها النحيل الصغير.

وبينما هي مستكينة في حضن أمها تأبى إفلاتها بعناد مع جدتها، خطر ببالها وائل فجأة، ثم سرحت أفكارها حول نواياه نحوها، إنه منجذب إليها وهي تبادله هذا الانجذاب، لكنها خائفة، أو ربما ليست واثقة تماما أ هي منجذبة إليه لشخصه أم لإرضاء أنوثتها التي جرحها غيث؟ لكنها ليست من أولئك النسوة اللواتي يقعن بهذا المطب بعد زواج

فاشل، إنها تعرف نفسها جيداً، لكن مع هذا تشعر بالقلق!

***

شعرت سارة بالقلق فجأة وهي ترفع يدها كي تطرق باب الشقة لكن يدها لا تطاوعها في لحظات تردد مبهم الاسباب! أرخت يدها الى جانبها وهي تكلم نفسها همساً "ماذا جرى لي؟! "أغمضت عينيها وكأنه ترد على السؤال داخلها لتبرّر ذاك النبض المرتبك في صدرها "لقد بدا صوته متعباً كأنه مريض، وأنا لم أره مريضاً في أيّ يوم! ربما رشح بسيط أصابه بضع مرات في كل سنة، عدا هذا لم يشكُ يوماً من علّة "أعادت فتح عينيها لتضيف بتبرير جديد يرضيها أكثر "يجب أن أذكّر نفسي أني لم أسمع صوته عبر الهاتف يوماً، والأصوات تتغير عن حقيقتها عبر السمّاعة»

فجأة تلاشت أهمية التبريرات ليرتفع نبض القلق عندما سمعت صوت خطواته من خلف باب الشقة المغلق، نبضها باتتْ تشعر به في حلقها وهي ترهف السمع الى تلك الخطوات، لم يكن يخطو! بل يجر قدميه جراً ليُصدر صوتاً واضحاً من احتكاك حذائه بالأرضية، شعرت بالخوف وهي ترفع يدها على عجل لتطرق الباب وهي تنادي اسمه ثم في اللحظة التالية كان أيوب يفتح لها ليقف هناك متهالك الجسد وبوجه شديد الشحوب، العرق يتصبب من جبينه

وعيناه زائغتان.

هتفت بلهفة دون شعورها "ماذا هناك؟! ما بك! "أخذ يهذر "انا.. أظن أني محموم»

ثم لجمعها وهو يتهاوى في حضنها وعصاه تسقط منه أرضاً، اسمه خرج من فمها مخنوقاً بالصدمة "أيوب! "بينما تلقفت جسده الصلب النحيل بين ذراعيها.

لا تعرف سارة من أين أتتها القوة والقدرة لتتحرك به الى الداخل وهي تنهت، لم تتوقف وهي تجره بجهد يستنزفها كلياً لكنها لا تستسلم لذاك الاستنزاف وهي تسنده هكذا كي لا يقع أرضاً.

وصلت به الى أقرب أريكة وهو يهذر باسمها (سارة)، وعندما حاولت وضعه على تلك الأريكة شعرت بذراعيه تثبتانها بما تبقت له من قوة فرفعت سارة عينيها الى عينيه القريبتين ليتمتم أيوب كمن يهذي وهو يحدّق في عينيها "يا الله.. كم عيناك بريئتان! "كان جسده ساخناً وقوته تتبعثر منه سريعاً وهو يطلب منها بإلحاح مشيراً بسبابته "احمليني الى سريري سارة "للحظة غريبة وعجيبة شعرت وكأنه لا يكلمها هي! كأنه غير مدرك من معه بالضبط.

لكنها نفذت وبذلت جهداً أكبر في إسناده وجرِّه خاصة

وقواه تكاد تخور كلياً حتى دخلت به الغرفة التي أشار إليها، وعندما وضعته في السرير أخيراً كانت تتصبب عرقاً مثله.

ارتمى أيوب على ظهره فارداً ذراعيه، تراخت أجفانه وتناثر شعره الطويل على وسادته، تشوهه كان مريعاً بشعاً منفراً، امتد من جانب وجهه الأيمن وحتى نهاية عنقه وحدود صدره الذي ظهر من تحت ياقة القميص، لحيته لم تستر الكثير من ذاك التشوه، شعرت سارة رغماً عنها بالتقزز! فأدارت وجهها جانباً ودمعة تكاد تفر من عينيها لإحساسها ذاك نحو تشوهه.

حاولت الهرب من ردة فعلها وهي تتمتم "سأتصل بطبيب "لجأة أنته حالة صحوة وهو يهتف بعنف "إيّاك "التفتت إليه ذاهلة من رفضه الحاد بينما يعود لهذيانه مضيفاً "العلّة ليست في الجسد سارة.. ليست في الجسد "ثم انقلب على جانبه وهو يواصل الرفض "لا اريد طبيباً، أكرههم جميعاً "حاولت إقناعه "لكن أيوب.. أنت مريض! "ضرب بقبضته على السرير وهو يهتف "لا أطباء.. سأقتل أي طبيب يدخل بيتي "ثم أخذ يتأوه ويهذر بكلمات غير مفهومة بينما سارة تقف عاجزة عن التصرف والتفكير، ثم لم يُخرجها من حيرتها إلّا صوت أحدهم ينادي من عند باب الشقة المفتوح.

***

### قبلها بدقائق

نظر حمزة الى ساعة يده وهو يغلي، عيناه لا تفارقان النظر الى تلك الشرفة البغيضة في الطابق الثاني من مبنى الخاتون، يكاد يحترق وهو يتمتم في سره "ماذا تفعل عنده كل هذا؟!»

كان يعلم أنه يبالغ، فلم تمضِ إلّا قرابة العشر دقائق على صعود سارة إلى ذاك الرجل، لكنه قلق! يشعر أنها في خطر ويودُّ حقاً اللحظة لو يصعد إليها ويجرها من شعرها كي يبعدها عن دائرة أيوب هذا، ثم يعيدها الى بيتها ويطلب من جدتها ياقوت إمّا أن تحبسها أو تزوّجها له!

يناديه العامل وهو يجره من كم بدلة العمل "حمزة.. حمزة! "التفت حمزة هادراً "ماذا؟! "فيرد العامل بدهشة "أنتَ ماذا دهاك؟! الزبون ينـ.. "قاطعه حمزة وهو يشوح بيده "ليس الآن»

وجه سارة عندما غادرت المكتبة قبل قليل يربكه ويشتته ويُغضبه! لم تكن في حالة طبيعية، حتى أنها لم تتنبّه للحاج عبد الصادق صاحب المقهى وهو يلقي السلام والتحية.

لم يعد يحتمل أكثر فتحرك بخطوات حادة نحو بوابة مبنى الخاتون وكاد أن يصل عندما شعر بكفِّ أحدهم على كتفه فالتفت يكاد يصرخ في العامل لكن لسانه انعقد وهو يرى وجه الحاج عبد الصادق الهادئ الذي سأله "الى أين تذهب يا ولدي؟ "الحاج عبد الصادق كان يعلم برغبته الزواج من سارة لذلك لم يراوغ حمزة ولم يحاول المداراة على مشاعره ليرد باقتضاب "سارة تأخرتْ "للحظة ارتفعت عينا الحاج عبد الصادق عالياً لينظر الى شرفة الطابق الثاني ثم قال بتعابير غريبة كأنه غير مرتاح "عُد الى ورشتك، أنا ذاهب بنفسي كي أطمئن على السيد»

وقد كان لقب (السيد) هو ما يُنادى به أيوب في الحي دون إضافة اسمه، قال الحاج عبد الصادق كلماته تلك ثم تحرك دون أن ينتظر رداًّ من حمزة.

يرتقي عبد الصادق درجات السلم وهو يلقي التحية على من يلتقيهم من سكان المبنى، شعر بالضيق فيخرج المسبحة من جيب جلبابه الشعبي ثم أخذ يترحّم للحاج كرم ويكلمه في سره "رحمك الله يا صديقي وجاري، تركت ابنتيك وهما ما تزالان بحاجة إليك، كلتاهما يقلقني حالهما «

وصل للطابق الثاني فارتاح قليلاً لرؤية الباب مفتوحاً، تمتم مستعيناً بذكر الله وهو يعبس قليلاً بتفكر.

***

# الفصل الرابع
# النوع البريء الذي لا يجذبه!

**بعد ساعة..**

خرج الحاج عبد الصادق كي يشتري بعض الفاكهة للسيد وهو يوصي زوجته أم علية بالإسراع لإنهاء ما تفعله كي يغادروا جميعاً حال عودته، وبينما أمّ علية مشغولة في الطبخ وقد أصرّت على طهو عدة وجبات أخرى للسيد كي يحفظها في البراد للأيام المقبلة؛ استغلت سارة الوضع كي تنسحب من المطبخ وتتسلّل إلى غرفة أيوب وتطمئن على حاله.

كانت تعلم أنّ ما تفعله ببقائها هنا قد يُساء تفسيره، كانت تعلم أنها تتصرف بمشاعرها المشوّشة فلا تحتكم لمنطق، بل تندفع كطفل يخطو أولى خطواته في المشي دون حسابات السلامة، كانت تعلم أنها.. تُخطئ! تنغمس قدماها في وحل ناعم من الأخطاء.

لكنها لا تستطيع منع نفسها، حتى نظرة الحاج عبد الصادق وهو يدخل الشقة قبل ساعة لم تردعها كي تصر على البقاء والعناية بأيوب، وامتلأت نظراته بمزيد من

المعاني المُقلقة بعد هذا الإصرار منها، فالتزم هو الصمت للحظات قبل أن يُخرِج الهاتف النقال من جيب جلبابه ويتصل بزوجته يطلب منها الحضور لتقديم الرعاية والعون إلى (السيد).

وطوال هذه الساعة لم يسألها الحاج عبد الصادق إلّا عن حالة (السيد) الصحية فأجابت سارة بتلعثم تشرح ما حصل ثم أخبرته أن أيوب رفض تماماً استدعاء أي طبيب.

بعدها أتت أم علية فانشغل الثلاثة بمراعاة (السيد) ما بين دواء وطعام، أو الأصح ما ارتضى أيوب أخذه حسب مزاجه أو ربما قناعته، فقد شعرت أنه لا يعاند، بل يقرأ كل دواء يعرضونه عليه ويتأكد منه بنفسه قبل أن يقرر.

شعرت سارة بارتياح كبير حال دخولها عليه غرفته لترى اللون الطبيعي قد عاد الى وجهه، كان مسترخياً نصف مستلقٍ في السرير مستنداً بظهره على الوسادات خلفه، صينية الطعام ما تزال على حجره بينما يغمض عينيه كأنه ينعزل بنفسه في عالم غامض خاص به.

أوشكت أن تنسحب وتتركه لانعزاله أو غفوته عندما فتح عينيه فجأة ليقول بنبرة متعالية "من يصدر كل هذه الأصوات المزعجة في المطبخ؟! "ردّت سارة وهي تشعر

ببعض الامتعاض منه "إنها الخالة أم علية ما تزال تجهز لك وجبات طعام للأيام المقبلة»

عيناه تحدقان فيها فترتبك سارة وهي تتذكر كيف احتضنت جسده عندما انهار بين ذراعيها من أثر الحمى قبل أن تقوده الى غرفته، شعرت بحرارة في خديها وهي تتقدم منه لتقول بنبرة عادية "هل تشعر بتحسّن الآن؟ "دون أن تنتظر رده مالت بجذعها قليلاً لتحمل الصينية بينما تضيف كي تداري على خجلها "اتفقت مع امرأة اسمها مرجانة، ستأتي إليك مرتين أو ثلاث بالأسبوع كي تطهو لك طعامك، أنت لا تأكل جيداً وربما هذا سبب توعك اليوم "سألها بخفوت خطير "لماذا لا تطهين لي أنتِ يا سارة خاتون؟ "تنحنحت وهي تستقيم بظهرها في تشنج لترد ببعض الحدة وهي تبعثر نظراتها في أنحاء الغرفة "عدا أني لا أجيد الطبخ فهذا ليس عملي "لكنه لا يتوقف عما يفعله وهو يقول لها بنفس الخفوت "وهل اهتمامك بي الآن من واجبات العمل؟ "خطت للخلف دون شعورها وهي تقول بإصرار "استرح، أنت مرهق "تمتم ساخراً وابتسامة تتلاعب على فمه "حاضر امي! "تجاهلت ما يفعله ويقوله لتقول بنبرة رسمية كأنها معلمة مدرسة غير صبورة أو ربما ممرضة نزقة "ستجد طعاماً على الموقد وباقي الحساء وضعته لك في البراد، حاول أن تأكل المزيد قبل المساء "نصف استدارة من سارة عندما أوقفها أيوب بالسؤال "وأين صاحب المقهى الشكوك المُرتاب؟! "التفتت إليه مجدداً

لتقول بحاجبين معقودين "العم عبد الصادق ليس كما تصف! إنه رجل طيب وصاحب فضل، عليك أن تكون ممتناً له وقد كان من يضع الكمادات على جبينك بنفسه لنصف ساعة كاملة حتى انخفضت حرارتك، كما أرسل في طلب زوجته كي تترك بيتها وتأتي هنا لتساعدني في طهو الطعام "بهدوء شديد رد عليها بصوت منخفض "وضع الكمادات بنفسه كي يمنعك أنتِ من فعلها، وأرسل في طلب زوجته كي لا تبقي بمفردك معي، إنه يحميك.. مني »

خافتْ! فقط خافتْ.. ولا تعلم بماذا تفسر لنفسها هذا الخوف المقيت!

لم يكن أمامها اللحظة إلّا الهروب لتميل بنظرتها الى ساعة يدها بالحركة التي يعرفها أيوب جيداً عندما تريد سارة الهرب ثم قالت له بنبرة غير مستقرة "يجب أن أعود للمكتبة، منذ أكثر من ساعة وهي مغلقة»

شيطان يهمس في أذن أيوب (نوع آخر يا أيوب لم تذق إلّا السطح الباهت منه دون الولوج للعمق، نوع بريء لا يجذبك! والمفارقة أنّ عدم انجذابك لنوعها هو سرّ جاذبيتها الآن!)

وجد نفسه يهاجمها بضراوة قاسية "أتخافين مني أم من

نفسك؟ "اهتزت أمام ناظريه فاشتعلت ذكرياته السوداء، نار.. جحيم.. ورائحة احتراق جلد بشري! لكن سارة لم ترد، بل صمدت وهمست بارتجاف وكأنه (لم يهجم هجمته) "معافى إن شاء الله، عن إذنك "

ثم غادرت غرفته على عجل متجهة الى المطبخ وهي ترفع صوتها بالسؤال "خالتي.. هل انتهيتِ؟ "لترد ام علية بطيبة "أجل يا ابنتي ورتبت كل الوجبات في البراد، سيأتي ابو علية الآن ونغادر سوية «

اكتفت سارة بهز رأسها بينما تضع الصينية والصحون في حوض الغسيل، وبرتابة تبدأ بغسلهم حتى وصول العم عبد الصادق ثم مغادرتهم دون أن تجرؤ سارة على دخول غرفة أيوب مجدداً، لقد نالت اليوم كفايتها منه وتحتاج الابتعاد كي تلتقط أنفاسها.

***

بعد رحيلهم عاد أيوب ليغلق عينيه مسترخياً بجسد ضعيف على سريره، ظلام روحه كسا محياه بتعابير كريهة، إنه يشمئز من نفسه! يشمئز مما فعله في حياته السابقة وما يفعله في حياته الحاضرة.

**(ما الذي يجب أن أفعله يا أيوب كي.. تحبني؟! أنا**

زوجتك وأم طفلتك)

مع تذكر كلماتها بتلك النبرة المتوسلة البائسة تقبّضت يداه وهو يتمتم اسمها "سارة»

(النوع البريء الذي لا يجذبه)، سارة الطيبة التي كانت دوماً مادة للتندر بينه وبين إخوته، سارة الشفافة التي لا تُرى حتى في وضح النهار! كأنها كانت مجرد روح هائمة تطوف بهم، سارة الصامتة، حتى في كلامها صامتة فلا أحد يسمعها، كلماتها القليلة الذابلة إذا نطقتها فهي خرساء، خرساء لا تمسُّ اذن لاهٍ في قصر آل عريم.

يتمتم أيوب وعلّة روحه تفوق الجسد "فلتتمرغ محترقاً يا أيوب، ولتجر معك المزيد كي يُضاف إلى حطب جهنم التي تنتظرك! "

***

وسط سوق الخضار والفواكه تقلّب جهاد حبّات الطماطم وهي تهمس بغضب مع نفسها "لن أنسى لك هذا يا ياقوت!»

لا تصدق حتى اللحظة كيف تكلمت جدتها عنها مع الناشر مجدداً! وكأنه مدير المدرسة الابتدائية وأتصل ليشكو

تصرفات ابنتهم غير المنضبطة فتؤيده الجدة وهي تصف حفيدتها بالكسل وتدعوه كي يقسو عليها بالعقوبة! لقد جنّ جنون جهاد وأخذت سماعة الهاتف من يد جدتها لتقول للناشر دون مقدمات (أنا مستقيلة) ثم سلمت السماعة الى جدتها وغادرت الشقة برمتها على أنغام (صوت ياقوت الهادر).

نظرت الى الفاكهة فقررت أن تشتري بعض التفاح، اقتربت من سلة التفاح التي يعرضها البقّال جوار باقي سلال الفواكه، فتبدأ بانتقاء حبات التفاح الأفضل وهي تتأكد من كل تفاحة قبل أن تضعها في الكيس، كانت عابسة وهي تبحث بتركيز ولم تهتم لاعتراضات البقال على تدقيقها حتى سمعت صوتاً ضاحكاً يقول لها بخفوت "خفّفي عنك وعن البقال المسكين، إنه مجرد تفاح "التفتت جهاد لترى وائل يقف خلفها تقريباً وهو يبتسم ابتسامة حلوة، شعرت بخفقة قلب.. بحلاوة ابتسامته بينما ترد عليه تدّعي الجدية "التفاح مُخادع، ألا تعلم هذا؟! "

بدت عيناه وكأنهما تنطقان بكثير من الكلام غير المُعلن ثم قال بخفوت "أقنعيني "ردت والشقاوة البريئة في عينيها تلمعان "(احذروا من الدودة المُتسلّلة في الخفاء الى قلب التفاحة فتنخرها من الداخل دون أن يعلم بوجودها أحد)، هذه كلمات أبي لي أنا وسارة عندما كنا أطفالاً ونأتي معه الى السوق»

عينا جهاد لمحتا امرأتين تعرفهما من الحي وهما تنظران نحوها ونحو وائل بريبة وتتهامسان بتعابير مُتعضة مُستهجنة، تجاهلتهما جهاد وهي تستمع لرد وائل الذي يحكي هو الآخر عن ذكريات الطفولة مع والديه، ثم سارت معه وهو يحمل معها أكياس البقالة ويثرثران وعينا المرأتين تطلقان الأحكام كالرصاص!

بعد أن ابتعدا قليلاً ووصلا نهاية السوق تقريباً صمتت جهاد وهي تفكر بحالها، تشعر بالفراغ والملل هنا، تعترف أنها اشتاقت الى الحي الذي سكنته مع غيث، كان حيّاً أرقى والناس فيه لا يتدخلون في شؤون بعض، إنها لا تحب حي الخاتون، لا تكرهه.. لكن لا تحبه أيضاً.

« يبدو أنني أصبتكِ بالملل!»

التفتت جهاد إليه وهي ترسم ابتسامة وتقول "اسفة، سرحت قليلاً أفكر بحي الخاتون "سألها بفضول "ما به حي الخاتون؟ "ردت جهاد وهي تنظر حولها لجدران البيوت ووجوه المارة "أحياناً يغيظني الناس هنا، لا أدري لماذا يحشرون أنفسهم في كل شيء "علّق وائل بتفهم "هو أمر مزعج لكن.. "دون شعورها هتفت جهاد بعصبية تقاطعه "لكن ماذا يا وائل؟! أ يجب أن أرضيهم على الدوام؟! ألا يكفيني جدتي ياقوت في البيت؟! "اقترب منها عفوياً

عينا جهاد لمحتا امرأتين تعرفهما من الحي وهما تنظران نحوها ونحو وائل بريبة وتتهامسان بتعابير مُتعضة مُستهجنة، تجاهلتهما جهاد وهي تستمع لرد وائل الذي يحكي هو الآخر عن ذكريات الطفولة مع والديه، ثم سارت معه وهو يحمل معها أكياس البقالة ويثرثران وعينا المرأتين تطلقان الأحكام كالرصاص!

بعد أن ابتعدا قليلاً ووصلا نهاية السوق تقريباً صمتت جهاد وهي تفكر بحالها، تشعر بالفراغ والملل هنا، تعترف أنها اشتاقت الى الحي الذي سكنته مع غيث، كان حيّاً أرقى والناس فيه لا يتدخلون في شؤون بعض، إنها لا تحب حي الخاتون، لا تكرهه.. لكن لا تحبه أيضاً.

« يبدو أنني أصبتكِ بالملل!»

التفتت جهاد إليه وهي ترسم ابتسامة وتقول "اسفة، سرحت قليلاً أفكر بحي الخاتون "سألها بفضول "ما به حي الخاتون؟ "ردت جهاد وهي تنظر حولها لجدران البيوت ووجوه المارة "أحياناً يغيظني الناس هنا، لا أدري لماذا يحشرون أنفسهم في كل شيء "علّق وائل بتفهم "هو أمر مزعج لكن.. "دون شعورها هتفت جهاد بعصبية تقاطعه "لكن ماذا يا وائل؟! أ يجب أن أرضيهم على الدوام؟! ألا يكفيني جدتي ياقوت في البيت؟! "اقترب منها عفوياً

ليسأل باهتمام من نوع مختلف "ما الذي يزعجك بالضبط يا جهاد؟ "كانت ما تزال تنظر إليه وسؤاله يتردّد في رأسها أكثر من مرة، وكأنها تسأل نفسها نفس السؤال وتضيف عليه "ما الذي يزعجك يا جهاد؟ أ هو الملل.. الوحدة.. العجز عن التصرف بحرية.. أم ماذا بالضبط؟!»

أطالت الصمت ووائل ينظر إليها بحيرة واعجاب في ذات الوقت، فجأة باغته شعور بالتلهف ففكر بتهور، لماذا لا يخبرها الآن دون أن ينتظر موافقة والديه؟ في اللحظة التي فتح فمه فيها ليتكلم قاطعه صوت رجل حانق "من هذا يا جهاد؟! "

التفت وائل الى مصدر الصوت في نفس اللحظة التي التفتت فيها جهاد، ولم يكن يحتاج ان تنطق جهاد باسم الشاب حتى يميزه، الحي كله تقريباً كان يعرف غيث، زوج جهاد السابق.

بهدوء لا يُظهر إحساس الضيق الذي انتابه تقدّم وائل خطوة وهو يمدُّ يده مصافحاً "مرحباً غيث، أنا وائل، جار جهاد، أسكن نفس الحي، لكن أظن أنك لا تعرفني "تجاهل غيث يد وائل الممدودة وهو يرد عليه بعنف "أنا لم اسألكَ أنت لترد! أنا اسألها هي "أعاد وائل كفه الى جانبه بينما يشعر بالحنق والقلق من تجمع بعض الناس حولهم، جهاد كانت أكثر انفعالاً وأقل قدرة على اخفاء

غضبها وهي ترد على غيث بعصبية "ومن أنت لتسألني من الأساس؟! "رد غيث بصوت عالٍ "أنا زوجك "بعض النسوة شهقن وشعر وائل بالحرج والغضب من موقفه السيء، فلا يستطيع الدفاع عنها أو عن نفسه وإلّا سيسوء الموقف أكثر، بينما جهاد توقع أكياس البقالة التي تحملها لتهتف بانفعال متزايد "بل مُطلقي، ولا يشرفني أنك كنتَ زوجي في يوم من الأيام، كفاك مُلاحقة لي في كل مكان، لماذا أتيتَ خلفي للسوق؟! ألا تفهم معنى جملة (أنا لن أعود إليك)؟! "حاول وائل أن يهدئها وقد رآها ترتجف والناس تراقب "عودي للبيت جهاد وأنا سأرسل لك البقالة مع أحد الصبيان من السوق»

لكن جهاد لم تكن تستمع إليه لتواصل هجومها على غيث "لا أريدك في حياتي، دعني وشأني "الحقد والغيرة سيطرا على غيث خاصة وهو يرى المدعو وائل يحني ليلتقط أكياس البقالة ويهمس بخفوت "عودي للبيت بالله عليك "لم يحتمل غيث أكثر خاصة مع نظرات هؤلاء الناس الشعبيين نحوه فردّ الاهانة لجهاد بأسلوبه وهو يرفع صوته ساخراً بالقول "ذوقك تدّنى كثيراً عن السابق يا جهاد، كنتِ تختارين شباناً من مستوى رفيع كي تثيري غيرتي أيام الجامعة حتى جعلتني أتقدم لخطبتك حال تخرجنا، هل تذكرين؟ "هذه المرة كان وائل من فقد أعصابه ليوقع أرضاً ما حمله من أكياس البقالة ويهاجم غيث بعنف وهو يهتف "أيها الحقير السافل "

نشب عراك شديد واشتبك أكثر من رجل فيه فلم تحتمل جهاد لتهرول راكضة عائدة الى بيتها ودموع الغضب والقهر تسيل على خديها.

***

## أول المساء، بيت الحاج كرم

دخلت جهاد الى غرفتها المشتركة مع توأمها بوجه مكفهر يميل للشحوب، سارة التي كانت تجلس على حافة سريرها بتشنج كامل هبّت لتقف على قدميها وهي تسأل شقيقتها "ماذا جهاد؟ هل استطعتِ سماع شيء؟ هل علمتِ بماذا يتكلم العم عبد الصادق مع أمي وجدتي منذ ساعة؟ "أغلقت جهاد باب الغرفة خلفها وهي تحدق في شقيقتها لبضع ثوانٍ قبل أن تسألها بنبرة ذات معنى "أ تخافين؟ "خسف قلب جهاد تأثراً وهي ترى سارة تحمر ونظراتها تتبعثر في كل اتجاه بينما تتمتم بارتباك شديد "أنا... أنا.. "لم تستطع سارة قول شيء بينما جهاد تواصل التحديق فيها وغضبها من غيث يتحول اللحظة نحو الحقير الآخر أيوب! كلاهما نذلان وبلا رجولة، يكفي أن ترى سارة بهذا الضعف والارتباك غير المعهود منها لتشعر بالغضب لأجلها، وإن كانت هي نجت من غيث عاطفياً لكنها لم تنجُ من تبعات تجربتها السخيفة بالزواج منه، فكيف

ستمنع سارة من الانجراف لتقع بتجربة أسوأ بكثير.

أخذت جهاد نفساً عميقاً ثم أطلقته ببطء وهي تتقدم من توأمتها وتقول بنبرة مطمئنة "لا داعٍ لكل هذا القلق يا سارة، الحديث كله عني أنا وتبعات ما جرى اليوم في السوق من إساءة لسمعتي "وصلت الى سرير شقيقتها لتجلسا معاً جوار بعض وبحركة عفوية تلقائية كانتا في حضن بعض تشدُّ إحداهما الأخرى، تمتمت جهاد بتعب حقيقي "سئمت تدخل الجميع في حياتي "ثم شدّدت أكثر من احتضان سارة وهي تضيف بنبرة أقرب للتوبيخ والضيق "وأنتِ ماذا حلّ بك؟! أشعر بالضعف يتملكني بسببك، كأنها عدوى تسري بيننا»

ذاك الحوار الخاص بينهما وجد بدايته، دون أن تسأل كانت سارة على يقين أن الخبر وصل الى جهاد حول ما حصل لها هي الاخرى اليوم، فأغمضت عينيها وهي تستند بذقنها فوق كتف جهاد النحيل قائلة بخفوت "أيوب كان مريضاً اليوم و.. "حشرج صوتها ثم من حيث لا تدري أخذت دموعها تسيل دون سبب واضح، تواصل جهاد شدها بقوة بينما تسألها بخفوت أيضاً كي لا يسمعهما أحد "أ تبكين هكذا لأجله أم لأنك خائفة؟ "بارتجاف تترك سارة لجهاد معرفة الرد بطريقة تواصلهما الخاصة بينما تسألها "أما تزالين منزعجة من الشجار بين وائل وغيث؟ "تتنهد جهاد وهي تكمل (الحوار) "احذري من الوقوع يا

سارة، انت ما تزالين على السطح تستكشفين، يا إلهي! كم يمكن لتجربة واحدة أن تعلمكِ الكثير عن العواطف بين الرجل والمرأة "تنهدت ثم أضافت ببساطة "لا أعلم عن باقي تجارب النساء المُطلقات لكن أنا أصبحت واقعية أكثر "جاء دور سارة لتقلق على توأمتها وهي تقول لها "إن كنتِ معجبة بوائل فدعيه يتقدم لك رسمياً، وإلّا ستسوء سمعتك بسبب أفعال غيث غير المنضبطة "بينما ترد جهاد لتحث سارة على إعادة التفكير "أنت تتوهمين الوقوع في أيوب، أنتِ أقوى من هذا الانبهار الذي يؤثر على رؤيتك ويشوشها "تنهدت سارة هذه المرة وهي تهمس بقلب منقبض "انا قلقة "فينقبض قلب جهاد في صدرها وهي تتمتم "وانا محتارة بهذا القلق!»

ظلتا هكذا تستمدان من طاقة بعض في تواصل جمعهما منذ وُلدتا بفارق ثلاث دقائق لا غير، فجهاد كانت (المتهورة) التي تعجّلت للخروج أولاً وسارة كانت (الحذرة) التي أخذت وقتاً أطول لتستعد قبل أن تغادر رحم أمها الى الدنيا.

هذه الحكاية سمعتاها عشرات المرات من أمهما وأبيهما وحتى جدتهما، وكم من الأفكار تُزرع في ذهن طفل دون أن تكون حقيقية بالفعل، لكنها بمرور (التلقين) تشكّل نوع التصرفات المتوقعة منه للكبر!

***

**بعد ساعة..**

دون استئذان دخلت عليهما جدتهما بملامح عابسة تتبعها أمهما وهي تحاول ثنيها عن فتح الموضوع الآن "امي.. فلنؤجل الكلام حتى الصباح فجهاد تبدو مرهقة "هتفت الجدة ياقوت في ابنتها "كفاك تدليلاً لها، دعيني أتكلم معها يا منى، هي لم تعد فتاة صغيرة»

وقفت جهاد على قدميها ووقفت معها سارة تحتضن كفها في مؤازرة تلقائية، تدّعي جهاد الهدوء وهي تقول "قولي ما تشائين جدتي؛ أنا استمع "لم تتهاون معها جدتها وهي تقول بنبرة صارمة "سيتصل الحاج عبد الصادق بمُطلقك غيث كي يبلغه أنه غير مُرحّب بقدومه في حي الخاتون، وإن خطاه بقدميه لن يلوم إلّا نفسه "فسألت جهاد وهو تكتم حاجتها للصراخ "وماذا عني أنا؟ "ردّت الجدة باتهام مجحف "ما حصل في السوق اليوم تتحملين مسؤوليته بالكامل، أنتِ امرأة مُطلقة فماذا تفعلين مع شاب كوائل وتتسكعين معه في السوق؟!»

شعرت جهاد بالاختناق وهي تكتم المزيد من الصراخ ولولا يد سارة التي تمسك يدها لكانت انفجرت، بل وجدت في تلك المؤازرة قدرة لتقتبس من طباع سارة

وتتكلم بمنطقها الهادئ "لقد التقيت به صدفة بالسوق وحاول مساعدتي بحمل البقالة لا أكثر، ثم أنّ وائل نعرفه ونعرف أهله ليس بغريب "لكن حتى (اسلوب سارة) لم ينفع مع الجدة التي ثارت أكثر وهي تقول لحفيدتها بقسوة "لا يهم غريب أم قريب، وضعك كمطلقة لا يحتمل تصرفات رعناء متهورة كهذه خاصة في الحي "حاولت سارة التدخل وقد شعرت بألم اختها في صدرها هي "جدتي..» قاطعتها الجدة بحدة "اسكتي سارة ولا تتدخلي "ثم نظرت الجدة لجهاد تقسو عليها بالمزيد "انت يا جهاد من أعطيت غيث فرصة كي يسيء إليكِ وإلينا معك، منذ البداية فرضتِه علينا ووالدك حذّرك منه، دوماً كنتِ متهورة وأنانية ولا تفكرين إلّا برغباتك، وبعد كل ما جرى تتصرفين بنفس الأنانية! إن كنتِ لا تهتمين لسمعتك ففكري بشقيقتك، أ تريدين أن تُتعسي حظها كما جرى عليك؟»

تتجمع دموع في عيني جهاد ومثلها تماماً في عيني سارة بينما الأم تراقب ابنتيها في عجز وقهر لتسيل دموعهما على خديها هي، سألت جهاد في شعور كريه بالهوان والذل "ما هو المطلوب مني جدتي كي لا أسيء إليكم ولا أتعس حظ سارة بالزواج.. مثلي؟ "لم يترقّق قلب الجدة وهي ترى في القسوة ضرورة لمصلحة الجميع لتقول بنبرة آمرة "لن تخرجي من البيت لأسبوع حتى ينسى أهل الحي ما حصل، وبعدها لن تكلمي وائل ولا غيره في الشارع، التزمي بحدود

الأدب وتصرفي كما يفترض لامرأة مطلقة أن تتصرف»

لم تحتمل سارة لتعترض على كلام الجدة بالقول "هل كل هذا العقاب لجهاد لأن غيث تعدّى عليها في السوق وأساء بالكلام والفعل؟! ما ذنبها هي جدتي؟! "أخذت دموع سارة تجري وهي تعترض بالمزيد "هي لم تفعل ما يسيء إلينا، وكثير من الفتيات يخدعن في اختيارهن لشريك العمر، وجهاد دفعت الثمن غالياً وخسرت طفلها "أجهشت الأم بالبكاء بينما تشحب جهاد وسارة معاً، فقط الجدة ياقوت متماسكة لترد دون تراجع عن قراراتها "بعض الأخطاء تلازمنا توابعها للممات يا سارة وشقيقتك جهاد حتى اللحظة لم تستوعب تلك الأخطاء ولا أعلم متى ستفعل!»

لم تنطق جهاد بحرف بينما تجرّها سارة الى حضنها ثم تغادر الجدة لتقترب الأم وتحتضن كلتاهما وهي لا تملك إلا الدعاء.

***

**بعد أيام، مكتبة الخاتون**

كان اليوم الأول الذي تخرج فيه جهاد بعد أيام من (الحبس الإجباري)، وقد قطعت مدة الأسبوع التي

قررّتها الجدة بعد أن تمكنت سارة من إقناعها أنها بحاجة إلى جهاد كي تساعدها في المكتبة اليوم فلديها طلبات كثيرة للزبائن، وقد كانت سارة صادقة في الحجة ولم تكذب فيها، وهكذا وافقت الجدة بشرط ان تلازمها جهاد في المكتبة وحالما تنتهي الحاجة إليها تعود للبيت مباشرة.

قريباً من باب المكتبة كانتا تعدّان حُزم الكتب وتنظمان الطلبيات عندما دخل عليهما حمزة وهو يلقي التحية بخشونة غير مُبررة "صباح الخير "كانت سارة توليه ظهرها فلم تلتفت بينما جهاد وهي الأقرب إليه أخذت تنظر نحوه في غيظ وتكاد تحضر السلم القصير في أقصى المكتبة لتصعد فوق درجاته الثلاث ثم تضرب حمزة على (أُمّ رأسه)!

ردت جهاد تحيته ببشاشة وهي تحاول جعله يبتسم قليلاً بدلاً من التجهم الذي يصيبه كلما كانت سارة موجودة "صباح الخير حمزة "يهزّ رأسه وعيناه لا تفارقان ظهر سارة ليسأل بغيظ "ألن تردّي عليّ يا سارة؟ "التفتت سارة أخيراً برأسها فقط لتقول ببرود "آسفة لم أتنبه، صباح الخير "عضّ حمزة على شفته السفلى وتقبضت يداه ليأتيه همس جهاد يهدئه "لا تتهور "يهزّ رأسه مجدداً وتتراخى قبضته ثم يتنحنح قبل أن يقول بارتباك يأسر القلب "سارة.. أريد بعض.. الكتب»

كانت جهاد متأثرة للغاية بارتباكه ومحاولته التقرب من شقيقتها لكن سارة ألقت دلو ماء بارد فوق رأسها ورأس المسكين حمزة عندما استدارت بكُليتها وهي تتساءل بدهشة كبيرة "كتب؟! منذ متى وأنت تقرأ؟! "نفض حمزة (الماء البارد) الذي ألقته سارة من (دلوها) ليشتعل غضبه هاتفاً "أنا لست بجاهل! "عبست سارة من هجومه وهي ترد عليه بحنق "أرجوك حمزة أنا حقاً مشغولة اليوم "هتف حمزة بمزيد من الغيظ والغضب "وهل أنا المتفرغ؟! أنا أعمل منذ الصباح الباكر وحتى أواخر العصر "سارعت جهاد لتحاول الإصلاح بالقول "سارة لا تقصد هذا يا حمزة فلا تغضب سريعاً هكذا، كل ما في الأمر أنّ هناك طلبيات كثيرة على كتب جديدة نزلت السوق بعد معرض الكتّاب الأخير ويجب أن تُجهز حتى تُرسل إلى الزبائن في محل سكناهم، وعامل شركة التوصيل سيكون هنا خلال نصف ساعة، ولهذا أتيتُ اليوم لمساعدتها»

رنّ الهاتف فاتخذتها سارة ذريعة كي تنسحب وترد، ابتعدت ناحية منضدة المكتب بينما حمزة يتابعها بعينيه وقلبه يوجعه من تجاهلها له، يعتصر أصابعه داخل راحتيّ كفيه وهو يشعر بإحساس كريه موجع أنه يذلّ نفسه والأمل يتضاءل كل يوم كي يكسب قلب سارة.

« لا تفقد عزيمتك الآن يا حمزة»

التفت حمزة الى جهاد التي ما تزال تقف قريباً منه بسروالها الجينز والقميص الأبيض الفضفاض، ينظر إليها بعجز غاضب بينما تضيف بخفوت حتى لا تسمعها سارة "أنا سأساعدك "

سمع كلاهما صوت سارة وهي تدير ظهرها اليهما وتتحدث عبر الهاتف الأرضي بنبرة توتر واضحة "أجل أيوب، حاضر "لم يستطع حمزة كبح السؤال فيطرحه على جهاد بخفوت شديد التوتر "ماذا بينها وبين هذا الرجل أيوب؟»

توتّرت جهاد هي الأخرى، كان حمزة من أخبرها قبل يومين عن مرض أيوب ومساعدة سارة له مع الحاج عبد الصادق وزوجته أُم علية، لكن لم يجرؤ على قول المزيد وقتها، أما اليوم لحمزة يسأل بصريح العبارة ويريد إجابة مُحددة، قد يكون فيها نهاية لآخر فرصة بينه وبين سارة.

تمثّل لجهاد وجه غيث الحقير وهو يشوّه سمعتها في السوق، وردة فعل وائل الذي رأته اليوم وهي في طريقها الى المكتبة مع سارة وقد اكتفى برفع كفه في سلام عابر دون أن ينظر ناحيتهما، لا تعرف هل فعل هذا لمنع الحرج عنها أم لأنه غضّ الطرف عن أي مشروع ارتباط بينهما.

سارة بعيدة تستلم مكالمة أخرى، وهذه المرة عبر هاتفها النقّال، بينما حمزة يطالب جهاد بجدية الرد وقد بدا وكأنه

على وشك الانفجار رغم صوته المنخفض "أخبريني الحقيقة جهاد ولا تخفي عني «

تنظر جهاد الى توأمتها وهي الوحيدة التي تشعر بتلك الطاقات المتوترة التي تنبعث منها، مكالمة أيوب وترّتها وبنفس الوقت منحتها هالة خاصة، إنها هالة انثى تقع في الحب، لكن جهاد عاندت وهي تنفي لحمزة وكأنها تنفي لنفسها "ليس هناك ما تخيله، أنت واهم "وكأنّ حمزة يتعلق بقشة فيتشكّك بالقول "لكن جهاد.. "التفتت إليه جهاد لتقول دون تراجع "اسمعني حمزة وثق بكلامي دون أن تسألني أرجوك، ليس هناك أيّ شيء بين سارة وأيوب، لا أستطيع التوضيح أكثر لكن الأمر مختلف عما يبدو لك "

بدا واضحاً أن حمزة مُحتار في تفسير كل المعاني لكلام جهاد، لكنها استطاعت زرع الأمل فيه أو ربما هو كان أرضاً خصبة لتلك الآمال التي تُرضي قلبه المُتيم.

غادر حمزة خلال دقائق وقد واصلت سارة التهرب منه عبر الانهماك المبالغ فيه في الرد على طلبات الزبائن من خلال تطبيق الواتس أب.

أمّا جهاد فالتزمت الصمت وهي تساعد شقيقتها بحزم الكتب حسب الطلبات، حتى قالت سارة بارتباك

واضح وهي تحمل مجموعة كتب اقتصاد وسياسة كانت قد وضعتها بنفسها جانباً "هذه الكتب لأيوب، سأذهب بها إليه "لكن جهاد لم تعطها أي مجال لترفض فتأخذ الكتب منها عنوة وهي تقول لها بحزم "أعطني الكتب سارة سأحملها الى أيوب بنفسي "حاولت سارة الاعتراض وأناملها تربت فوق تنورتها السوداء في حركة توتر "لكن جدتنا قد تتضايق، انت تعرفين أنها..» استدارت جهاد وهي تحمل الكتب لتوقف سارة عن الكلام وهي تقول لها بعبوس "الجدة لن تعرف بأمر صغير كهذا، ثم أن لديك زبائن يطلبون المزيد ومندوب شركة التوصيل سيصل خلال دقائق وانت من يجب أن تتعاملي معه»

خرجت جهاد من المكتبة وشقيقتها تراقبها بحزن وهي تقف وسط المكتبة، قلبها يتألم وقد أرادت الذهاب كي تراه، لقد.. اشتاقت له.

أحمرت وهي تعترف بهذا الشوق، قلبها يخفق بعنف وهي تحاول المقاومة تلقائياً، تمتم لنفسها "هذه ليست أنا! ليست أنا، لم أكن يوماً ممن يضعفون هكذا ليسلكوا طريقاً محفوفاً بالمخاطر، مجهول العاقبة "ارتاحت قليلاً وهي تستعيد بعض القوة بينما تشدُّ بها أزر (مقاومتها) أكثر بتذكير نفسها بثقة أمها فيها، ثقة جدتها ياقوت، بل حتى ثقة أبيها الذي أوصاها كثيراً على نفسها وعلى جهاد.

تحرّكت بعزم وهي تعود الى عملها لتصفَّ حُزم الكتب جنب بعض بانتظار مندوب شركة التوصيل.

***

### مبنى قصر الخاتون

عند بداية السلم التقت جهاد بالخالة ام إسطفان، امرأة مسيحية جميلة في أواخر الخمسين، وقد كانت تسكن شقة في الطابق الاول من مبنى الخاتون مع ولدها الوحيد الذي تزوج مؤخراً وظل معها في الشقة، ألقت جهاد التحية وهي تحمل الكتب وكما توقعت فإن المرأة اعتقدت أنها (سارة) لترد عليها بوجه حلو بشوش "مرحبا سارة "صحّحت لها جهاد "أنا جهاد ولستُ سارة يا خالة "اعتذرت ام إسطفان بمحبة "عفواً يا ابنتي، تعودت أن أرى سارة دوماً وهي تصعد السلم إلى السيد أيوب، إنها تهتم به كثيراً»

انزعجت جهاد من تلك الملاحظة البريئة، الأمر بات لا يطاق ويجب أن تفعل شيئاً كي توقفه، اكتفت جهاد بالابتسام بينما الخالة أم إسطفان تكمل طريق النزول للطابق الأرضي وجهاد تكمل طريقها للطابق الثاني حيث يعيش (السيد)!

تذكرت آخر مرة رأته، كان قبل شهرين ربما، رافقت سارة يومها دون سبب محدد، وكلما وقعت عيناها على أيوب شعرت بالنفور منه، فيه شيء يسبّب لها حالة من القلق والخوف، وهذا يجعلها تشعر بالغثيان، فمعدتها دوماً لا تحتمل مشاعر ثقيلة كهذه.

تشوهه لم يكن السبب، لكنها لا تحبه ولا تشفق عليه حتى، بل تراه يستخدم هذا التشوه كي يمنح نفسه الأعذار لأفعاله وغرابة أطواره.

عند وصولها باب شقة أيوب لمحته موارباً فافترضت تلقائياً أنه فتح الباب بهذا الشكل بانتظار سارة، دون أن تطرق الباب كانت تدفعه بقدمها بهدوء لتدخل وهي تقول بنبرة مُحايدة "مرحباً"

وجدته يجلس على الأريكة الصغيرة أمام الباب وكفه فوق قمة عصاه، بالضبط ككلِّ مرة رافقت بها سارة إلى هنا، تحوُّل النظرة في عينيه قَبَضَ قلبها، في البدء كانت نظرة خاصة ثم انقلبت الى اشتعال بالغضب البارد، ابتلعت جهاد ريقها بإحساس كريه ثم قالت تعرّف عن نفسها كي لا يختلط عليه الأمر "انا.. "فاجأها وهو يقاطعها بنبرة شديدة البرود "جهاد»

عاصفة من النفور هبّت بينهما، ورغم اعتراف جهاد

لنفسها أنها أضعف بكثير من مواجهة رجل كريه غريب معقّد كأيوب لكنها لم تحتمل حقيقة تمييزه لهما عن بعض بهذه السهولة! حتى جدتها ياقوت لا تميز بينهما هكذا، بل إنّ أمها أحياناً تخطئ بينهما ولا تعرف إحداهما من الأخرى حتى تتكلما! فقط أبوهما من كان يستطيع التمييز بهذه السرعة، لقد أغضبها الأمر أكثر مما تستطيع تحمله لتقول بتهور وعدائية ساخرة "صحيح! فأنت تراقب دوماً من شباك الشرفة، مؤكد رأيتني أحضر لاحقاً "ثم أضافت ببعض الاستهانة "والكلّ يعرف أنّ سارة لا ترتدي السراويل على الاطلاق»

أرادت الإثبات أنّ الامر لا يحتاج لذكاء أو إحساس خاص ليميّز بينهما، أرادت أن توصل إليه أنها تعرف ألاعيبه التي يؤثر بها على سارة، لكن بدا واضحاً أنها لم تمسّه ولا بشعرة وهو يرد عليها بما أثار غضبها أكثر "لا أحتاج إلى كل هذا كيّ أميّزها عنكِ، أنتِ لا تشبهينها»

(لا تشبهينها)..

وكأنه صفعها بكفه، اهتاجت جهاد وثارت بالقول "جيد أنك تعرف أني لا أشبهها! "ما تزال نظراته تحمل النفور نحوها كنفورها منه وهو يسألها بترفع وتعالٍ "والمعنى؟ "ردت بعنف وكلمات صريحة "المعنى أنت تفهمه؛ باختصار دع أختي وشأنها "لمعت عيناه بشكل

مخيف بينما تضيف جهاد وهي تواصل الهجوم لتحمي شقيقتها من براثن هذا الكريه المُتعالي "أنا أفهم الرجال أمثالك "فيسألها بنبرة غريبة "وكيف يكون الرجال أمثالي يا خبيرة؟ "كانت جهاد قد فقدت السيطرة بالفعل ولم تعد تهتم بما يعتريه لتهدر فيه وعيناها في عينيه "لا أعرف من أين أتيتنا لكنك مختلف عنّا، وتؤثر فيها لأنك مختلف لا أكثر، هذا في ظاهركَ فقط أمّا من الداخل فأنتَ تتشابه مع معظم الرجال إن لم يكن كلّهم "صدرها يعلو ويهبط من فرط الانفعال وهي تضيف "(أمثالك) يستغلون أي فتاة بريئة كي يرضوا عُقدهم الذكورية السخيفة ورغبة مريضة في الإحساس بالتفوق»

ساد الصمت.. جهاد لا تزال على وقفتها بمواجهته وبين ذراعيها تحمل الكتب وهي تنظر إليه بشراسة الدفاع عن توأمتها، بينما هو جالسٌ على أريكته بجسد متشنج وملامح وجهه كأنها نُحِتت من الصخر، يده اليمنى فوق عصاه واليسرى فوق ذراع الكرسي وأصابعه تضغط.

فجأة أجفلت جهاد وتمايل جسدها وقد كادت أن توقع الكتب عندما انفجر أيوب ضاحكاً، كانت ضحكة مريعة! أخذت جهاد تنظر إليه بعد أن استعادت توازنها بينما قلبها يخفق بجنون، إنه.. مخيف.. مُخيف شيطانيّ الروح!

أخذت تبحث عن وجه الإنسانية فيه خلف ضحكة

الشيطان لتقول باندفاع جديد "لا تؤذها، إنها فتاة طيبة وتستحق.. "قاطعها ساخراً وآثار الضحكة الشيطانية ما تزال عالقة على وجهه المشوّه "تستحق الميكانيكي مثلاً؟! "أغضبها كثيراً لتردّ عليه بقوة وانفعال "الميكانيكي الذي تعيب عليه مهنته حاصل على شهادة جامعية ويكدّ ويتعب ليكسب قوته، ليس مثلك يجلس في داره ليل نهار، يختبئ من مجهولٍ لا نعرفه "برقت عيناه بينما يرد عليها بتهديد صريح رغم أسلوبه الفكاهي "أحببت منكِ جملة (مجهولٍ لا نعرفه)، فاحذري مما تجهلينه، وأول ما تجهلينه عني أني رجل غير متسامح "خوفها على سارة في هذه اللحظة كان أقوى من شعور الخوف منه لتقول له ما يجول بخاطرها دون أن يردعها تهديده "أنت مجرد رجل تقبع بين أربعة جدران، لا تنتج أي شيء وتقضي يومك تراقب فتاة بريئة بلا تجارب تدير لكَ مكتبتك وشؤون حياتك، فلماذا لا تدير شؤونك بنفسك؟! "ردّ باستفزاز "أنا رجل حر، كسول للغاية ولا أريد العمل، هل هناك المزيد لتقوليه قبل مغادرتك "تقدّمت جهاد حتى كادت تصل إليه وهي تقول له وعيناها تجولان في المكان "من بنتْ هذا القصر قبل مئة عام كانت امرأة ثرية، أثرى أثرياء عصرها في البلد، وقد ورثت ثروتها عن والدها، ومع هذا ظلت لسنوات طويلة تعمل وتبني لتقيم على أرض جرداء هذا الحي المزدهر، فتحت أبواب الرزق لألوف البشر دون تمييز بينهم، منحتهم الأراضي ليبنوا بيوتهم وأقامت لهم المدارس ودور العبادة، واليوم أنت تجلس في قصر هذه

المرأة العاملة الكريمة الاستثنائية وتتفاخر بكسلك؟! فقط لأنك رجل حر؟! «باتت قريبة منه فينظران في عيني بعض والكره متبادل! اكتفى بالقول الساخر "محاضرة جيدة تنفع في الجمعيات النسوية التحرّرية أو تلك المطالبة بالمساواة "وقبل أن ترد عليه أضاف بنبرة آمرة "ضعي الكتب على الأرض، وغادري»

للحظات لم تستجب وهي تنظر إليه عن كثب، تنظر الى تشوهه دون أن تهتم أنه يراها، إنه مشوّه بشع بالفعل لكن من الداخل، من العمق.

قلب جهاد أخذ يوجعها وهي تتساءل، كيف لا ترى سارة كل هذا الظلام في أيوب؟! لو كانت مكانها لهربت مئات الأميال بعيداً عنه، لكن توأمتها وقعت في إغواء الشيطان!

تحرّكت خطوة الى اليسار لتضع الكتب على المنضدة القريبة منه وهي تقول "لن أضعها على الأرض، فهذه الكتب باهظة الثمن ويجب أن تحافظ عليها "ثم استدارت لتخطو بعيداً عنه مغادرة، أغلقت باب الشقة خلفها دون أن تلقي تحية وداع، ولم ينتظرها أيوب منها، كل ما فعله حال سماعه صوت خطواتها الهابطة على الدرجات أن انحنى جانباً ليدفع الكتب عن المنضدة بعنف ويوقعها أرضاً، أخذ يتمتم والغضب ينتشر في شرايينه "قبرُكَ تكثر

ثعابينه يا أيوب، وروحك المعلولة بجسدك، ما تزال تتجرع السمَّ الزعاف»

أغمض عينيه واستند برأسه للخلف ليغرق في الظلام الدامس الذي لا تضيئه إلّا ومضات خاطفة من صوت خطوات صغيرته أفنان فتلامس أجفانه دموع حارقة، إنها دموع جهنم.

***

# الفصل الخامس
# رغبات (الداهية) أوامر

نهاية الأسبوع، يوم الجمعة

للتو كان يزرّر قميصه عندما رنّ الهاتف الأرضي، رفع معصمه لينظر إلى الساعة بينما يسحب عصاه باليد الأخرى ليتكئ عليها في خطواته من غرفة نومه إلى بهو الشقة حيث الهاتف يرن بصوت مزعج.

يكلم أيوب نفسه بصوت مسموع وهو يشعر بالضيق تلقائياً "هل يمكن أن تعتذر سارة عن الحضور اليوم؟ "ثم تلاشى ضيقه ليتحول الى استغراب عندما سمع صوت توفيق يلقي عليه تحية مبتهجة "صباح الخير يا كبير آل عريم "لم يرد أيوب التحية، بل قال بأسلوب عملي "هات ما عندك يا توفيق، لا بد أنه أمر مستعجل لتتصل بهذا الوقت المبكر "جلس على الكرسي وهو ينتظر الرد، لكن توفيق لم يتخلَ عن اسلوبه المبتهج الذي أثار ريبة أيوب أكثر "يا رجل لا تكن جديّاً هكذا، كل ما في الأمر أني أرسلت لك طرداً حلواً فهل وصلك؟ "عفوياً عينا أيوب تحركتا نحو باب الشقة وهو يرد بصبر "لا لم يصلني شيء "بدا توفيق حانقاً بطريقة مفتعلة مكشوفة وهو يقول "الأغبياء! أخبرتهم

أن تكون عندك قبل السابعة صباحاً "توتر أيوب، للحظة فكر هل يمكن أن يفعلها توفيق ويخبر إخوته عن مكانه؟ اكتفى بإلقاء السؤال البارد المُقتضب "من أخبرت؟ "رد توفيق ببهجة باتت تزعج أيوب حقاً "شركة التوصيل بالطبع! "أوشك أيوب أن يغلق الهاتف في وجه توفيق فقد ملَّ أسلوب الإثارة الرخيص هذا، ومع هذا وجد نفسه يسأل "وما أهمية أن يصلني قبل السابعة صباحاً؟ "لم يسأل أيوب عن محتوى الطرد عن عمد، توفيق يريد إثارة اهتمامه لسبب معين ولا يدري ماذا يدور في رأس محاميه، ضحك توفيق بسماجة ثم ردّ عليه "لأني أعرف موعد استيقاظك يا صديقي وأردتها أن تكون أول ما تراه عيناك اليوم تحديداً "صمت لحظة ثم أضاف بنبرة خاصة "إنّها هدية "

يعرف أيوب هذه النبرة ويميزها؛ إنها (نبرة الثعلب)، ما يزال يجاريه ليسأل مُظهراً الفضول "هدية؟! "ليخدع (الثعلب) بفضوله فيكشف توفيق الأوراق؛ ورقة بعد ورقة، وأولاها عندما رد بانتصار "إنه عيد ميلادك الأربعون "لمعت عينا أيوب وهو يتساءل ساخراً "منذ متى وترسل إليّ هدايا في عيد ميلادي يا توفيق؟! لم تفعلها يوماً كما لم احتفل به يوماً! "يلعب توفيق على نفس الوتر قائلاً "إنها ليست مني "اشتد لمعان عيني أيوب كأنّ الوحش داخله يتربص بمن يريد مباغتته بهجوم غير مُعلن، سأل باختصار "أ هي من (الصغار)؟ "يبالغ توفيق بدوره وهو يرد بصبيانية "وليست من إخوتك "خفت اللمعان الشرس

وقد تحولت نظرته الى فضول حقيقي، قال أخيراً ليدفع توفيق الى كشف الورقة التالية "باتت الأحجية سخيفة وسمجة، عد الى نومك يا توفيق "وقد أراد أيوب غلق الهاتف مباشرة ليدفع توفيق على الاتصال مُجدداً وكشف اللعبة عندما أتاه صوت توفيق وهو ينطق اسماً "سحر»

أعاد أيوب السماعة على أذنه وقد تنبّه ذهنه فجأة فنطق هو الآخر اسمها بتساؤل "سحر..» رد توفيق بنبرة انتصار حقيقي "توسلت إليّ كي أوصلها إليك، حتى أني لا أعرف ما فيها "كان أيوب يشعر أنه يوشك على الوقوع في فخٍّ من نوع ما، فسأل بخشونة "أ هذه لعبتكم الجديدة يا توفيق لإغرائي بالعودة؟! "يتساءل توفيق مُدعياً البراءة ببراعة "اي لعبة؟! "ما تزال قدما أيوب تحومان حول الفخ وهو يرد "أنت والصغار، استعنتم بسحر كي أحِنّ! لا بُدّ أنكم يائسون للغاية في صفقة مهمة تستدعي وجودي شخصياً "افتعل توفيق التنهد بإحباط ثم قال "إنك تعطي الأمور أبعاداً أكبر من حجمها بكثير يا صديقي»

صمت أيوب للحظات وصورة سحر المغوية تتسلّل عبر ثغرات أسواره فيشعر بقدمه تزل! سأل بخفوت ويده الأخرى تعتصر عصاه عصراً "ما الذي ذكّرها بي بعد هذه سنوات؟ "أغمض أيوب عينيه وهو يشعر بالمرض، يتذكر تفاصيل تلك المتعة الجسدية المذهلة مع سحر فيهتز من الداخل رغم شعور الغثيان المناقض! عقله نصف

مُغيب بينما يستمع لرد توفيق "وما أدراني؟! ربما تمرّ بضائقة مالية وألقت نظرة بدفتر مواعيدها القديم "زلّت قدمه الأخرى ليسقط في فخ الكِبر والغرور فيقول "عندما كانت معي لم يكن هناك دفتر مواعيد، كانت لي فقط "فيسقي (الثعلب) ذاك الشعور الذي نبت مُجدداً في أيوب ليقول بمكر "أجل.. أنتَ فقط من كان لديك دفتر مواعيد لنسائك كيّ تنظم استقبالهن في تلك الشقة»

تجمع العرق على صدغيه وهذه المرة انتقل خياله الى تلك الشقة الفارهة حيث مارس مُجونه وأكل ما لذّ من الحرام ولم يطِب.

يتلاعب به توفيق أكثر وأكثر ليثير شهيته مضيفاً "اعترف أنك تحن يا أيوب "كانت أنفاس أيوب تتسارع وصيامه يتصدع لكن مرضه يشتد، رباه.. إنه معلول ولا أحد على الاطلاق بقادر على فهم علته ومنحه الشفاء! شدة المرض جعلته يتشبث ويقاوم ليقول بتشكك رداً على جملة توفيق الأخيرة "عندما تعترف أنت بالمخطط الذي يدور "يبرئ توفيق نفسه من تهمة هو صانعها وبائعها وشاريها! "ليس هناك أيّ مخطط، صدقني أيوب "شعر أيوب بجسده يكاد يخذله بينما يواصل توفيق بذل الجهود لإقناعه أو (خداعه) "لن أحاول إثبات شيء لك، لقد رضيت أن أرسل هديتها إليك فقط لأبهجك لا أكثر، كنا نضحك كثيراً تلك الأيام من مواقف كهذه»

يفتح أيوب أجفانه حتى المنتصف فتبدو الرؤيا أمامه ضبابية ليغرق في رؤية من الماضي فيبتلع ريقه باشتهاء ثم يتمتم بخفوت "كنّا نأكل التفاح الأحمر "فينفخ توفيق في جمرة (الاشتهاء) ليُعلّق بنبرته الثعلبية الخاصة "نلتهمه التهاماً "وحالما قالها رنّ جرس باب الشقة لتوقظ أيوب من رؤى الماضي ويعود الى رؤيا الحاضر في حي الخاتون.

قال مُنهياً الحوار "لقد وصل الطرد»

تحرك أيوب مستنداً على عصاه وهو يكاد يخفي لهفته حتى عن نفسه، ما يزال عالقاً في ذاك الفخ يتساءل (ماذا أرسلتْ له سحر؟).

***

**بعد ساعة..**

كان جالساً على نفس الأريكة في البهو وبمواجهة باب الشقة عندما طرقت بأناملها عالمه المظلم..

لم يفتح عينيه وكأنه لا يريد الخروج من محنته بينما يعطيها إذن الدخول "ادخلي سارة»

سمع صوتها الخافت وهي تلقي التحية باضطراب شديد "صباح الخير "لم يجد رغبة ولا قدرة كي يرد، فاقترب صوتها منه وذبذبات قلق شديد تنطلق من عندها "تبدو شاحباً! هل أنت بخير يا أيوب؟ "حريق يشتعل فيه وهو يفتح عينيه أخيراً لينظر إليها، كما في خياله دوماً، بسيطة غير مُلفتة وتلك البراءة في عينيها تشعُّ بالغرام نحوه، سأل وهو يتشبث بما يراه "كأني لم أركِ منذ سنوات يا سارة "

رأى الخوف في عينيها ويعترف أنّ عليها أن تخاف منه، فتداري على خوفها وهي تقترب على عجل لتمدّ يدها الصغيرة بحفنة المال "هذا إيراد الأسبوع "قال بتعب وهو يشير للمنضدة جواره "ضعيه هنا "وبينما تميل لتضع النقود لمحت على الارض جوار الأريكة ذاك الصندوق المغلق الذي وصله كطرد مُرسل، غلبها فضول حواء فتسأل "هل وصلك هذا الطرد اليوم؟!»

يراقبها عن كثب، خياله الملتهب الثائر اللحظة يدفعه ليحاول أن يجد منفذاً وحاً الى ما تحت فستانها الربيعي، كم تحب ارتداء هذه الفساتين السخيفة كأنها طالبة مدرسة حالمة! التقت عيناها البريئتان بعينيه فلم تدرك ما يدور بخلده وهي تنتظر رده ليمنحها الجواب قائلاً "أجل اليوم، تخيلي.. هناك من تذكرني وأرسل لي الهدايا!»

تلك العاطفة التي أطلّت من عينيها جعلته كمن ينازع

على فراش الموت! لتعرض عليه كأنها تشجعه "هل أفتحها لأجلك؟»

كم هي مغفلة! أ يمكن للبراءة ان تجعل البشر يعيشون داخل مغلف وردي من مشاعر نبيلة ذابلة؟! لعن توفيق في سره بينما يشعر بالاستنزاف وهو يرد على سارة "لا.. أتركيها، سأفتحها بنفسي فيما بعد، احتاج لمزيد من وقت "كان يكلمها ويكلم نفسه! فتتوه سارة وهي تسأل بدهشة "مزيد من الوقت؟! "فجأة وقف على قدميه مستعيناً بعصاه فابتعدت سارة خطوة بينما يقول أيوب وهو يحدق في الصندوق "إنها هنا منذ ساعة وأقاوم فتحها بضراوة لو تعلمين! "مرة جديدة تشعر سارة أنه يكلمها ولا يكلمها! تسأله ودوامات الحيرة تسحبها إلى المجهول "لا أفهمك.. أ تعرف من أرسلها؟»

ظل يحدّق بالصندوق للحظات قبل أن يرد بنبرة غريبة "أجل أعرف (المُرسِل)؛ لكن الأهم من هوية المُرسِل هو أنها هدية عيد ميلادي "

كانت مفاجأة غير متوقعة لتقول سارة بتأثر "عيد ميلادك اليوم؟ "تمتم أيوب وعيناه لا تفارقان الصندوق "أجل.. بلغت الأربعين "فجأة رفع عينيه إليها وقد بدت النظرة فيهما مخيفة وهو يسأل بخشونة "هل ستُحضِرين لي هدية يا سارة؟»

لا تعلم سارة ما يجري له اللحظة! فكرت ربما هناك حدث مُحزن مرتبط بعيد ميلاده ليتصرف بغرابة أكثر المعتاد اليوم، حاولت التهرب من سؤاله بالقول "عيد.. ميلاد سعيد.. أيوب "ثم نظرت لساعة يدها تلقائياً ليأتيها صوت أيوب الغاضب "لا تنظري الى ساعتك مُجدداً، كم أمقتها! سأخلعها من معصمك يوماً وأكسرها تحت قدميّ "

رفعت عينيها إليه فوجدته يعاني! هكذا ببساطة يعاني من المجهول المخيف، لم تعرف ماذا يجب أن تفعل! خفقات قلبها تضاعفت وهو يقترب منها ويقول بنظرات غير مفهومة "هل ستتركينني وحدي اليوم؟ "تتراجع هي الأخرى وتهمس "أنا.. "يقاطعها ليضرب كل الأوتار الحساسة فيها قائلاً بحشرجة "أنا وحيد للغاية، وحيد الى درجة تفوق قدرتي على احتمال العقاب»

كانت ترتجف الآن وهي تنظر الى تشوهه تلقائياً حالما ذكر (العقاب) فتنقلب معدتها تلقائياً أيضاً بينما شفتاها تتحركان بالهمس الضعيف "العقاب؟! "تجرأ ليمسك مرفقها وهو يتوسل بنبرة أمر! "أبقي قليلاً سارة، أعدّي لنا بعض الشاي أو القهوة، ساعديني "تحاول تخليص ذراعها والارتجاف يشتد بينما تتمتم "لا.. أستطيع "يشدُّ على مرفقها بقسوة وهو يهدر "بل تستطيعين وتريدين.. لكنهم يمنعونك عني "صوتها مخنوق وهي ترد عليه "لأنهم

يحبونني ويخافون عليّ "تشتد قساوته وهو يهاجم دون رحمة "توأمتك تغار منك لأنها مرّت بتجربة حب وزواج سيئة وفشلت في حياتها»

هذه المرة ولاؤها نحو جهاد كان أقوى من أي ارتجاف، من أي خفقات تائهة لقلبها الذي فقد البوصلة؛ صرخت فيه وهي تدفع كفه بعنف عن مرفقها "لا أسمح لك أن تتكلم عنها هكذا، إياك يا أيوب.. إلّا جهاد!»

كانت عيناها البريئتان تقدحان بشرارات شرسة للدفاع عن أختها فأثارت أيوب دون أن تدري ليهاجم أكثر يطعنها فيمن تعتبرهم أقرب الناس إليها "وصاحب المقهى يدّعي أنه (الأب الروحي) لكِ لكنه في الواقع يريد الشعور بأهميته وكأنه كبير الحي الذي له كلمة بينما هو في الواقع مجرد رجل جاهل يدير مقهى شعبي لا يساوي أجرة عامل فيه "عيناها تدمعان وهي تهتف به في ألم "كفى أيوب! كفاك إهانة، أنت تؤلمني "لكنه لم يبالِ، بدا كوحش يجرحها بمخالبه دون أن يشعر "وذاك الميكانيكي بكفيه القذرين! يريد نيلك كي يرضي عقدة النقص داخله نحوك "شهقت سارة وهي تغمض عينيها وترفع كفيها كي تغلق أذنيها ثم توسّلت إليه "كفى أرجوك، لا أريد أن أكرهك "هدر بجنون "أكرهيني! لا أهتم.. فليذهب الجميع الى الجحيم ومعهم أنتِ! «

سالت دموعها حالما فتحت عينيها وأنزلت كفيها الى جانبيها، رأته كمن يعاني المرض العضال! فسال المزيد من دموعها هامسة "أيوب.. "لكنه لم يتأثر بما تعانيه منه ولأجله فيواصل زئيره الغاضب "أنتِ مثلهم.. لا تختلفين عنهم بشيء! كلكم لا تملكون الشجاعة للاعتراف برغباتكم الحقيقية التي تخفونها خلف أفعالكم (النموذجية) "ثم طردها وهو يشير للباب "أغربي عن وجهي! لا أريد أحداً منكم»

لم تحتمل سارة أكثر لتهرع مغادرة الشقة وهي تهرول على السلم، قابلت أم إسطفان بالطابق الأول التي أوقفتها لتسألها بقلق "ماذا جرى للسيد يا ابنتي، لماذا كان يصرخ فيكِ هكذا؟! "نظرت سارة بارتباك الى ام إسطفان وقد انضمت لها أُم أدور في الشقة المقابلة وكلتاهما تحدقان في سارة بحيرة وتساؤل مرتاب، استجمعت سارة قوتها لتمسح دموعها وتقول بارتجاف أول كذبة خطرت ببالها "أنا آسفة لإزعاجكم، لكن السيد أيوب كان.. غاضباً مني.. لأنّ إيراد المكتبة لم يكن بالمستوى»

تعوّج أم أدور فمها يميناً وشمالاً وهي تمتم بتوبيخ مجحف لسارة "معه حق يا سارة! الرجل يريد أن يتربّح وأنتِ بصراحة لا تنفعين لهذه المهمة، إنها مهام الرجال لا الفتيات أمثالك أنتِ وجهاد، وبصراحة أكثر وجودكما قريباً من رجل يسكن بمفرده يضرّ بسمعتكما، كل يوم نجد

واحدة منكما تصعد إليه ولا نميز إحداكما من الأخرى!»

رمتها أم إسطفان بنظرة حانقة فانسحبت أم أدور عائدة الى شقتها وهي تتذمر بكلمات غير مفهومة بينما تربّت أم إسطفان على كتف سارة وتخفف عنها بالقول "لا تهتمي بكلام أم أدور، إنها تتصرف هكذا منذ هجرة آخر ابنائها الى استراليا وبقائها وحيدة في الشقة "تهز سارة رأسها بينما تضيف أم إسطفان بطيبة ومواساة "والسيد أيوب أيضاً رجل وحيد؛ كما إنه صعب المزاج، فلا تتأثري بتوبيخه يا ابنتي، عودي إلى عملك وانسي ما حصل، أنتِ تقومين بعمل ممتاز، حتى شقيقتك جهاد حماها الله تساعدك في المكتبة على نحو رائع»

اكتفت سارة بأن هزّت رأسها مُجدداً ثم شكرت الخالة أم إسطفان لتكمل نزول الدرجات وهي تستعيد هدوءها تدريجياً، وعند بوابة مبنى الخاتون توقفت قدماها وهي تفكر بجملة أم إسطفان (رجل وحيد).

***

عصراً

مضت الساعات منذ صدامه مع سارة وأيوب كالمجنون يحوم في أرجاء الشقة، حتى لا يشعر بالألم الذي اشتد

في فخذه المعطوب، كان غاضباً ثائراً ويودُّ لو يحرق العالم بأسره! يودُّ لو يجعل جميع البشر يتذوقون ألم الحريق الذي جربه ويعيش فيه منذ ثلاث سنوات، اتصل به توفيق فصرخ فيه وشتمه ثم أغلق الهاتف في وجهه، ولم يكتفِ بهذا، بل قطع السلك كي يوقف استقبال أي مكالمة جديدة.

في النهاية لم يستطع تجاهل ما يحصل معه، إنه ذاك الصندوق اللعين وما يحتويه، قد لا يعرف حقاً ما في داخله لكنه.. يريده! إنه ينتكس!

على بعد متر واحد وقف وهو يحدق بالصندوق ولم يقاوم بعد هذه الساعات من الاستسلام اللذيذ لذاك الانتكاس.

بأنفاس لاهثة انفعالاً عاد الى البهو ثم حمل الطرد الى الطاولة الكبيرة في غرفة المعيشة، جلس على الأريكة الواسعة قبالة الطاولة مباشرة ورمى العصا أرضاً قبل أن يبدأ بتمزيق الورق المغلف للطرد، بعد أقل من دقيقة كان يحدّق ملء عينيه فيما يراه أمامه داخل الصندوق الأنيق المفتوح، عيناه محمرتان تكاد تخرجان من محجريهما!

مدّ يده ليلامس أولاً قنينة شراب من أرقى الأصناف التي كان يفضلها، وقد التف حول عنق القنينة الضيق شريط أحمر مشع، جفَّ ريقه عطشاً وأصابعه تتحرك

إلى جوار القنينة حيث كأسان من الكريستال الأصلي، والأهم من كل هذا كانت هناك.. تفاحة! تفاحة حمراء مشعة كالشريط حول القنينة، تفاحة حملت إغراء الدنيا وما فيها!

لم يجرؤ على لمس التفاحة وأصوات الحي تختفي من حوله لتصدح أصوات الماضي تعربد في مقاومته المتهاوية، جملة مطبوعة باللون الذهبي على بطاقة سوداء أنيقة مرفقة مع التفاحة (عيد ميلاد سعيد حبيبي أيوب، اخترتُ لك المشروب الذي تحبه، اتصل بي في أي وقت وسأكون عندك أينما كنت في مكانك السريّ لنتشارك الكأسين.. حبيبتك للأبد سحر)

عاد الماضي برمته وتلاشت صورة سارة من حاضره كما كانت تتلاشى (سارة) قبلها في ماضيه، كلتاهما خُلقتا لتتلاشيا أمام شيطانه.

مدّ يده ليلتقط القنينة أولاً يشمُّها ببطء فتنتعش حواسه وتثور صارخة وقد صحا حنينه، يضع القنينة أمامه وللحظات ينظر إليها وهو يرتعد أمامها! مدّ يداً مرتجفة لتختطف كأس الكريستال ويضعه جوار القنينة، ثم يلتقط القنينة على عجالى والعطش يشتد، وحالما فتحها فاحت الرائحة فأخذ يصبُّ منها في الكأس في ارتجاف أشد حتى تناثر بعض قطرات الشراب على المنضدة، لم يستطع التوقف، ولم يُرِد اللحظة

حتى التفكير بالتراجع، رفع الكأس إلى فمه ومع أولى قطرات الشراب تبلّل بها ريقه بعد هذا الصيام، سالت دموع جهنم على خديه، وآه من دموع جهنم التي تلاحق ذنوبه اللعينة، تترصدها وتتصيّدها، ذنباً.. ذنباً.

***

## مقهى الحاج عبد الصادق

بجلبابه الرمادي والكوفية التي يلفّها حول رأسه يجلس الحاج عبد الصادق خلف المنضدة المستطيلة الخاصة به في المقهى وهو شارد الذهن، من يراه يظنه يحدق في كومة من أكياس صغيرة للسكر وضعها أمامه على المنضدة ويحركها واحدة تلو الأخرى من اليمين الى اليسار، وعندما ينتهي يعاود فعل المثل بالاتجاه المعاكس، وهكذا.

سأل أحد عاملي المقهى بحيرة "هل هناك خطأ في أكياس السكر يا حاج؟! لماذا تعيد عدّها مراراً وتكراراً؟! "رفع الحاج عبد الصادق رأسه ليسأل بغتة "هل سمعتم موسيقى (السيد) اليوم يا نعمان؟ "أمال نعمان رأسه جانباً وهو يرفع يده الى ذقنه بحركة تفكير ثم قال "موسيقى السيد؟ لا.. لا أظن سمعنا شيئاً اليوم؟ غريب! إنها تقارب السادسة، ليس من عادته "قال آخر جملة وهو يتطلع الى ساعة الحائط، يعبس الحاج قليلاً وهو يتمتم "أخشى أنه

توعّك من جديد»

جاء صوت الاستاذ هلال بنبرته البشوشة "مرحباً يا صدوق»

وقف الحاج عبد الصادق على قدميه ليصافح صاحبه ولم يكن هناك أحد غيره يناديه بـ (صدوق) "مرحباً أستاذنا "ثم دعاه وهو يشير الى طاولة في زاوية منعزلة من المقهى "تعال لنشرب الشاي هناك "جلسا جوار بعض بينما هلال يسأل "من الذي تخشى توعكه من جديد؟ "ردّ عبد الصادق "(السيد) "رفع الأستاذ هلال يده ليعدل نظارته الطبية وهو يعرض قائلاً "أ تود أن نذهب إليه ونطمئن عليه؟ "صمت عبد الصادق لبضع لحظات قبل أن يرد على صاحبه بفطنة "لا أظنه سيرحب بتدخلنا، أشعر أنه يستهين بنا جميعاً "أخذ هلال يطوي كمّي قميصه وقد شعر ببعض الحر فبرز وشم قديم في ساعده بكلمة واحدة (المسيح) قبل أن يرد على عبد الصادق بالقول المتفكّر "لا أدري يا صدوق؛ لكنه رجل غريب الأطوار ومنطوٍ على نفسه بشكل يثير الريبة "صارحه عبد الصادق ببعض أفكاره قائلاً بخفوت "أنا مُحتار في (السيد) يا هلال "يميل هلال إليه ليسأله بنفس الخفوت تلقائياً "ما الذي يثير حيرتك بالضبط؟»

بتآلف طبيعي بينهما عمره أكثر من ثلاثون عاماً كانا

يتحاوران بصوت منخفض "أنا أتفهم اعتزاله الناس بسبب تشوهه، لكن أليس له أهل؟ أصحاب؟ أليس لديه من يزوره ويسأل عنه؟! يا هلال إنه هنا منذ ثلاث سنوات ونحن لا نعرف عنه شيئاً إلا اسمه الأول؛ أيوب "صمت هلال لبضع لحظات قبل أن يقترح أكثر من فكرة "أم اسطفان ابنة خالتي كما تعلم فهل تود أن أسألها عنه؟ أم هل تريدني أن أجرب حظي معه وأقتحم خلوته بنفسي؟ "رد عبد الصادق ببعض الحيرة "لا أدري يا استاذ ربما سيحترمك ويتقبلك أكثر مني لأنك متعلم "عبس هلال وهو يرد بحمائية لصديق عمره "لا تقل هذا! عقلك يساوي عشرة متعلمين من مُدّعي الثقافة وأولهم أيوب هذا! "تبسّم عبد الصادق ليقول بتسامح وطيبة "جبر الله بخاطرك، لكن الناس تأخذ بالعناوين؛ وما عنواني إلّا (صاحب مقهى شعبي) "

أخذ هلال ينظر لعبد الصادق بتدقيق قبل أن يسأل "ألن تخبرني بما يقلقك حقاً من (السيد)؟ "أرخى عبد الصادق أجفانه وهو يرد بنبرة عادية "أقلق على ابنتيّ الحاج كرم؛ أنت تعلم أنّ سارة تعمل عنده وتدير شؤونه "سكت لحظة ثم أضاف وكأنها تتمة الجملة "وتوأمتها جهاد أيضاً أحياناً تساعد»

العشرة الطويلة بين الصاحبين تجعل أحدهما يحفظ حركات الآخر ويفهم أسلوبه في الكلام عند كل موقف،

لحركة الأجفان هذه التي تدل أنه يخفي شيئاً و(التتمة) التي أضافها للجملة ليعطي انطباعاً جلياً عن أنّ البنتين في الصورة، فلا يخصّ هذه دون تلك فتضيع بينهما (المقصودة)، أدرك هلال كل هذا فيقول وهو يمعن النظر في صاحبه "وماذا بعد يا عجوز؟ "وكما يحفظه هلال فعبد الصادق أيضا يعرف صاحبه، فيزيد من غموض المقاصد وقطع منبع الفضول وهو يرد عليه "هذا كل شيء يا هلال "هتف هلال بحماسة وهو يضرب بكفه على الطاولة "اقسم بمريم العذراء أنت تخفي الحقيقة عني "التفت عبد الصادق عن قصد وهو ينادي أحد عامليه "الشاي يا ولد»

أخذ هلال يضحك وقد علم أنّ عبد الصادق لن يزيد عمّا قال فآثر أن يُعينه بدلاً من أن يتدخل فيما لا يريده ليقول ووجهه الأبيض البشوش يبتسم بفخر "حسناً يا صدوق سآخذ علبة الشطرنج وأزوره

لمعت عينا عبد الصادق باستحسان الاقتراح وهو يرد عليه "فكرة ممتازة، أظنه من هذا النوع الذي يفضل لعبة مملة كهذه "دافع هلال بجدية عن (لعبته المفضلة) وهو يقول "إنها لعبة الأذكياء يا رجل! فقط لو تطاوعني مرة وتجعلني أعلمك إياها "شوّح عبد الصادق بيده في ملل وهو يقول "لن أفعل ولو ملأت جيوبي مالاً، إنها اسوأ لعبة قسماً بالله "عبس هلال ليقول بحمائية صبيانية "لا تتكلم عن لعبتي المفضلة هكذا يا صدوق "ليرد عبد الصادق

بنفس الصبيانية "وأنت لا تجبرني أن أحبها رغماً عني يا هلال! "ازداد عبوس هلال وهو يهتف أسم صاحبه بتحذير "صدوق! "فيردها عبد الصادق بنفس النبرة والعبوس "هلال! "ثم التفتا في نفس اللحظة ليناديا معاً دون اتفاق "أين الشاي يا ولد؟!»

لحظات أخرى من العبوس ثم انفجر كلاهما بالضحك!

***

على أطراف العاصمة تزهو أرض زراعية عامرة ومعزولة عمّا حولها، محمية بسور عالٍ من كل الجهات ورجال أشداء على درجة عالية من القدرات الأمنية، وقد تربّع قصر العريم الأبيض عالياً نخوراً بمعماره الفريد وسط تلك الخضرة الغنّاء كأنها قطعة من الجنّة.

ومن الداخل رفاهية مخيفة وترف مُرعب، عطور غامضة ثقيلة فاحت من نفوس تعددت أهواؤها وتباينت صراعاتها وتكالبت على مغانمها.

وفي أهم جزء من القصر حيث يجتمع الأخوة العريم وتُعقد أهم الصفقات وتدور أكثر الاجتماعات سرية، واليوم كان اجتماع الأخوة مع المحامي توفيق الأعرج الذي كان يقرأهم ويُظهر لهم قوته بينما من الداخل

يرتاب منهم ويتوجس من أي حركة غدر، ورغم المخاطر إلّا أنه يستمتع باللعبة، (اللعب مع الصغار) كما يسمّيهم أيوب.

يجلس توفيق مستريحاً على الكرسي قرب طاولة المكتب الفخمة وقد اعتلى الكرسي الرئاسي خلف تلك الطاولة كبير آل عريم؛ قابيل العريم؛ أو هذا ما يأمله بعد احتجاب كبيرهم أيوب عنهم وانسحابه من كل شيء.

قابيل رجل ليس بالسهل، لكن يخونه ذكاؤه وقت الغضب، فيحاول جاهداً السيطرة على طباعه، وعلى بعد بضعة أمتار كان الأخ الآخر هارون يتوسّط الجلوس على أريكة ضخمة تضيع فيها ضخامته الملفتة وأمامه طاولة بيضاوية فخمة وقد نثر عليها أوراق اللعب! تلك الأوراق هي هاجسه ونقطة ضعفه ولولاها لأزاح قابيل عن اعتلاء (الكرسي الرئاسي).

وأخيراً ذاك الأكثر غموضاً بين (الصغار)؛ آدم العريم، الذي بلغ الثلاثين ولم يتزوج حتى اللحظة ولا يعلم أحد شيئاً عن علاقاته النسائية، على عكس أخويه المعروفين بتعدّد الزيجات والخيانات! ورغم استقرار قابيل مع زوجته الأخيرة (جيلان المُراد) منذ سنوات؛ إلّا أنّ (الخيانات) مستمرة.

لا يدري توفيق لماذا يثير آدم اهتمامه أكثر من شقيقه، وربما يثير مخاوفه لأنه لا يستطيع قراءته بوضوح، وها هو يقف قرب الستائر المفتوحة يحدق عبر الشباك في الظلام الذي يرخي سدوله، يبدو للمراقب كأنه منعزل عما يجري لكن توفيق يعلم عن يقين أنه يستمع بتركيز لكل ما يُدار هنا ولا يتكلم إلّا بمثقال.

ينقر قابيل بقلمه فوق سطح طاولة المكتب وقد كانت هذه إحدى أساليبه للسيطرة على غضبه من الإفلات ثم قال بهدوء ظاهري وعيناه البنيتان تلمعان بالتهديد “لماذا لا تخبرنا عن مكانه بدلاً من اللف والدوران “يناور توفيق بالرد قائلاً بمزحة ثقيلة على نفوسهم “من الممتع رؤية لهفتكم (المفاجئة) عليه بعد ثلاث سنوات أوشكتم أن تنسوا اسمه! “اشتعلت عينا قابيل وهو ينقر بالقلم نقرة واحدة حادة ثم يميل قليلاً للأمام ينظر الى توفيق بشراسة قائلاً “ننسى أيوب العريم؟! لقد خرّفت يا توفيق»

لم يرهب توفيق، لا لشيء إلّا لعلمه أنّ قابيل يحتاجه، فرد بمهاجمة ناعمة وهو يضرب على الوتر الحساس “لكنك ترحّب بأخذ مكان أخيك الأكبر يا قابيل، أنت فقط تحتاج إليه في (صفقة الانطلاق) ”

تدّخل هارون بذكائه المشع ليعلق “أ تظن أنك تحمل الجوكر يا توفيق وأنت تخفي أيوب عنّا؟ “التفت توفيق

الى الناحية الأخرى فيرى هارون ينظر نحوه ويرفع ورقة الجوكر بيده اليسرى، ليرد عليه بابتسامة هادئة ومعانٍ مبطنة "انا لا ألعب الورق ولا أقرب القمار يا هارون، أنا محامٍ وواجبي أن أحمي مصالح موكلي وأنفذ رغباته "انفجر هارون ضاحكاً ثم عاد الى أوراقه يجمعها قائلاً بسخرية "اضحكتني اقسم بالله "ثم أخذ يعيد ترتيب تلك الأوراق بخفة ومهارة المحترفين وهو يقول بجدية "انت لا تحمي مصالح موكلك وتنفذ رغباته؛ بل تريدنا أن نحتاج إليك على الدوام "أخذ توفيق ينقل نظراته بين الأخوة الثلاث وهو يشرح "أنتم لا تفهمون أخاكم، طباعكم خشنة ومتعجرفة مثله لكنكم لا تفهمونه! "عاود هارون الضحك وهو يرفع عينيه المظلمتين قائلاً "اشرح لنا تركيبتنا الجينية التي لا نفهمها يا فيلسوف "ردّ توفيق وقد أدار دفّة الحوار نحو الكلام العقلاني والحجّة الدامغة "لو أطلعتكم على مكانه وذهبتم إليه ستخسرونه، بل نخسره جميعاً والى الأبد هذه المرة»

عندها فقط استدار آدم في وقفته قرب الشباك ليدلي بأول تعليق منذ بداية الجلسة قائلاً "أنا مقتنع بكلام توفيق من هذه الناحية، إنه ضمانتنا الوحيدة كي لا يختفي أيوب إلى حيث لا نعلم على الاطلاق "تنهد قابيل وهو يقول بقسوة "لا أفهم لماذا يحمّل نفسه هذا الذنب العظيم! لقد كان مجرد حادث»

تذكّر توفيق تلك المرأة الرقيقة (سارة) والإعجاب الخفي الذي كان يُكنّه لها، شعر بالغيظ من كلمات قابيل ليرد عليه ببرود "حادث تسبب أيوب فيه بإهماله، فقُتلت فيه زوجته السيدة سارة والصغيرة أفنان، أ تستغرب إحساسه العظيم بالذنب وقد كان تحت تأثير الخمر والمخدرات بينما زوجته وابنته الوحيدة تحترقان أمامه حتى الموت في ذاك البيت الصغير المنعزل بين الجبال؟!»

عاد آدم لوقفته الأولى المُغلّفة يحدّق عبر الشباك مُدلياً بتعليقه الثاني "يظن المال المُختلط حلاله بحرامه هو السبب، فيعاقب نفسه ويعاقب كل آل عريم "أيّده توفيق بالقول "بالضبط، هذه الفكرة هي التي تسيطر على أيوب، إنه يعاقب حتى هذا المال بعدم الاقتراب منه، أنتم تعرفون كم أنّ أفكاره معقدة وله أسلوبه الخاص في التعامل معها وإخراجها كأفعال»

مرّت لحظات صمت ثقيل قبل أن يضيف توفيق "أخشى أن أقول، أني لست متفائلاً كثيراً بعودة قريبة لأيوب "ساد توتر متباين صامت بين الأخوة ولم يقطعه إلّا سؤال غير متوقع وغريب من هارون "هل تعلم معنى اسم عريم يا توفيق؟ "رد توفيق "لا أعلم، أخبرني أنت "فقال هارون وهو يرفع بيده اليسرى ورقة (الشاب) من أوراق اللعب ليقول "معناه داهية! "ثم أضاف بقوة وجدية "وأيوب هو داهية آل عريم، بدونه لن تتم صفقة التاريخ وسنخرج منها

ولن نعود الى الملعب "شعر توفيق أن الأمور بدأت تفلت منه ويخشى من تهور قد يقدمون عليه من وراء ظهره، لحاول تحذيرهم بالقول "اصبروا قليلاً، أظنه تأثر بهدية سحر، ثورته عندما اتصلت به قبل ساعة تعني تأثره "عاد هارون الى طبيعته ليقول بابتسامة عريضة ونظرة لامعة وهو يرفع ورقة (البنت) قائلاً "دوماً كانت (المفضلة) "ليبادله توفيق الابتسام المصطنع وهو يقول بإقناع "دعوه يأتينا بنفسه، أيوب إذا لم يعد بإرادته سيعاند ولو فيها موته "فيعلق قابيل بخبث "وحتى يحدث هذا سيبقى المفتاح في يدك»

يرخي توفيق أجفانه ويكتفي بالصمت والابتسام بينما يتساءل هارون بنبرة لاهية في ظاهرها وهو يتلاعب بالورق في خفة يد "على الأقل أخبرنا في أي بلد هو، أم أنّه لم يغادر من الأساس؟! "فقالها آدم بتصريح ثالث منه قبل أن يتحرك كي يغادر قاعة الاجتماع برشاقة أنيقة تليق بالملوك "لا تتعب نفسك يا هارون، فتوفيق لن يفرط بالمفتاح في استدراج ساذج كهذا، كما لن تفيدنا المعرفة بشيء "يتمتم توفيق وهو يرفع عينيه الى قابيل "رغبات (الداهية) أوامر»

***

# الفصل السادس

# لا خروج من الفخ!

## بيت الحاج كرم

شعرت جهاد بالضيق وهي تفقد تركيزها في عملها أكثر من مرة بسبب حالة القلق الغامضة التي تسيطر على سارة، تركت حاسوبها لتنظر الى شقيقتها التي لم تكف عن الحركة في محيط الغرفة وقد انغمست في مراسلات واتس أب بينها وبين (مجهول)، فقط أصوات متتابعة لاستلامها المزيد من الرسائل فهتفت جهاد "مع من تتكلمين كل هذا الوقت؟! أكاد أجن من هذه الأصوات "تأففت سارة وهي ترد باختصار "أكلم هنادي لأمر عاجل؛ سأترك لك الغرفة "

عبست جهاد وهي تراقب مغادرة شقيقتها للغرفة، تفكر بصوت عال مع نفسها متسائلة "منذ متى وسارة على تواصل حميمي مع هنادي؟! "ثم هزّت كتفيها وعادت إلى التركيز على عملها حتى سمعت صوت جدتها وأمها وهما تغادران الشقة وتوصيان سارة ألّا تتأخر عند هنادي.

عادت سارة على عجالى الى الغرفة وهي تقول "سآخذ

حماماً، جدتي وأمي خرجتا لزيارة قريبتنا بثينة، زوجها مريض وتحتاج للعون "ودون أن تنتظر رداً من جهاد كانت سارة تغادر ثانية وهي تحمل ملابسها ومنشفتها الى الحمام.

زفرت جهاد نفساً ثم غيرت جلستها على السرير وهي تضع حاسوبها على حجرها، وقبل أن تستجمع تركيزها للعمل أتاها صوت تنبيه لرسالة على الفيسبوك.

أمالت نظراتها جانباً حيث تترك هاتفها النقّال جوارها على السرير فلمحت اسم (وائل)، خفق قلبها بارتباك وهي تلتقط الهاتف وتفتح الرسالة لتقرأ (مرحباً جهاد، اعتذر عن التواصل معك عبر الفيسبوك لكن هل يمكنني التحدث معك لو سمحت؟ أُفضل ان نتكلم بدلاً من الكتّابة إن أمكن هذا بالطبع)

لم يأخذ منها التفكير خمس ثوانٍ قبل أن تضغط على (اتصال) عبر تطبيق المحادثات للفيسبوك، وهو كان بانتظارها على ما يبدو ليرد مباشرة وجاء صوته لطيفاً للغاية وهو يلقي التحية "مرحباً جهاد "غادرت سريرها وقد توترت وهي ترد عليه بنبرة عادية "مرحباً "سألها بصوت أجش رقيق "كيف حالك؟ "

توترت أكثر، كانت المرة الأولى التي تشعر بمغازلة رجل

لها منذ انفصالها عن غيث، ومما زاد من توترها أن الأمر يعجبها وتتمنى حقاً ألّا يخيب وائل أملها، مع هذا ستكون حريصة، شديدة الحرص حتى لا تنجذب إليه أكثر مما يجب قبل أن تطمئن.

ردت عليه ببعض الخشونة "لا أظن الوقت مناسباً لتسألني عن حالي يا وائل، ظننت أن لديك أمراً مستعجلاً ولهذا اتصلت "سارع للقول يحاول استرضاءها "هو أمر مستعجل وإلّا ما كنت سأجرؤ "قالت بنبرة حازمة "إذن قله لو سمحت دون أن نطيل الحوار، لا أحب فعل أمور كهذه خاصة وأن عائلتي أيضا لا يحبون "فاجأها وهو يقول طلبه مباشرة "هل تقبلين الزواج مني يا جهاد؟»

شعرت بحرارة مفاجئة وارتعش قلبها بقوة في صدرها، نظراتها حادتا نحو باب الغرفة وكم تمنّت أن تكون سارة معها اللحظة لتساعدها، سارة أقوى منها وعقلها أكثر رجاحة، لولا براءتها الشديدة لما استطاع ذاك الحقير أيوب أن يوقعها بفخه.

أخرجها من أفكارها صوت وائل وهو يسألها بقلق "لماذا تصمتين؟ "تنحنحت قبل أن تسأله بجدية "منذ متى تفكر في الزواج مني؟ «رد بصدق دون أي مراوغة "منذ مدة، لا بدَّ أنك لاحظتِ اهتمامي بك "هي أيضاً اتخذت طريق الصدق وهي ترد عليه "أجل لاحظت، كما لاحظت أنك

تجاهلتني وعاملتني ببرود طوال الأيام الماضية، لقد التقيتك مرتين في الحي وكنت تتجنبني بوضوح! "كانت نخورة بنفسها وهي تواجهه بنبرة هادئة عملية فيبرّر لها ببعض الارتباك "أردت حمايتك من الأقاويل فقط بعد ما جرى مع.. زوجك السابق "ارتباكه أقلقها لتسأله وهي تضع يدها على قلبها توجساً من إجابته "أم كنتَ تعيد التفكير في رغبتك الزواج مني؟ "نفى قائلاً "هذا ليس صحيحاً، كل ما في الأمر أني انتظرت الوقت المناسب "ما يزال هناك شيء ما يقلقها فتسأله وهي ترمي حجارة في الظلمة عسى أن تصيب الحقيقة "هل والداك موافقان؟»

مجرد (لحظتان) تأخرَ فيهما بالرد عليها كانتا كافيتين لها، ليأتي رده المراوغ بعدها كتأكيد "حصلتُ على موافقتهما "

خنقتها العبرة للحظة خاطفة وهي تشعر بذاك الشعور الكريه أنها (مرفوضة) لكنها لم تستسلم لها وهي تواجه الأمر قائلة "حصلتَ على الموافقة؟ اذن أقنعتهما لأنهما رافضان "رد وائل بعقلانية "جهاد، أنا وانت من سنتزوج، ولي شقتي الخاصة التي سنسكن فيها إن شاء الله، ولن يزعجك أحد على الاطلاق أعدك بهذا "رغم كلامه المطمئن لكنها شعرت بحاجة للتفكير جيداً في ارتباطها به، قالت ما يجول بخاطرها "أحتاج وقتاً لأفكر، وقت قد يطول "حاول وائل الاعتراض "لكن.. "لكنها قاطعته بالقول "هذا حقي يا وائل، لقد تسرّعت في التجربة

الأولى ولا أريد أن أكرّر نفس الخطأ»

صمت، وحدسها الأنثوي جعلها تضيف رداً على صمته "أنت مدرك أني لستُ فتاة، بل امرأة مُطلقة كان لها تجربة مؤلمة "قال بهدوء "مؤكد مدرك "كم تمنت جهاد لو رأت وجهه وهو يقول هذه الجملة تحديداً، تقبلت الأمر وهي تحاول إضفاء بعض الفكاهة في وصف حالها "لا تقلق كثيراً، لم تكن سيئة الى هذا الحد، غيري من النساء يعانين الأمرين في تجارب مريعة، كل ما في الأمر أني.. "هو من قاطعها هذه المرة ليكمل نيابة عنها "أنتِ حذرة، أنا متفهم لهذا»

للمرة الثانية تمنت لو رأت وجهه وهو يقولها، بل تمنت لو كان هذا الحوار برمته وجهاً لوجه كي تقرأ تعابيره مع كلماته، اكتفت بالقول العملي "شكرا لتفهمك "حاول إضفاء بعض المرح للحوار فقال "لا يليق بك الكلام الجدي يا جهاد، أنتِ خفيفة الروح "ردّت والابتسامة تشق فمها رغماً عنها "هذا جزء خفي مني تعرّف عليه وتقبّله في صمت "ليرتعش قلبها وهو يقول بصوت أجش "حاضر»

***

حالما أغلق وائل الاتصال مع جهاد أجفل من صوت أمه خلفه عند باب غرفته وهي تقول له بسخرية لاذعة

"ما شاء الله! أ تكلمك هكذا ببساطة عبر الهاتف وليس بينكما أي ارتباط؟ "تنهد وائل بإحباط بينما تضيف أمه بكراهية واضحة "ألا تستحي امرأة مُطلقة مثلها أن تكلم شاباً في الخفاء؟»

وضع وائل هاتفه في جيبه وهو يصحّح لها بهدوء "أمي أنا من طلبت المكالمة وليس العكس "لم يزِدها كلام ولدها إلّا تشبثاً برأيها في جهاد لتقول بانتقاد "وكيف حصلت على رقم هاتفها؟ إنها قليلة الحياء لتعطيك الرقم "بصبر وضّح وائل "أنا لا أعرف رقم هاتفها، لقد تكلمنا عبر حساب الفيسبوك "

بدت والدته غير مستوعبة للفرق وقد رأته بالفعل يتكلم عبر الهاتف، لقد كانت من الاشخاص الجاهلين بعالم التواصل عبر الانترنت والتكنولوجيا الحديثة والتطبيقات وأقصى ما يمكنها استيعابه هو الهاتف النقال في أبسط صوره، لتشوّح بيدها وهي تقول "أنا لا أفهم هذه الأمور، وسواء أنتَ اتصلت أو هي من فعلت فالنتيجة واحدة؛ إنها تواصلت معك وتمزح وتضحك وكأنك بتَّ خطيبها "شعر وائل بالضيق وهو يعود لنفس الحلقة المفرغة التي تصور أنه خرج منها ليقترب من أمه وصبره يكاد ينفد قائلاً "أمي ألم نتفق؟ "عيناه في عيني أمه يعاتبها بصمت لتقولها الأم صريحة "نعم اتفقنا؛ لن نقف بطريق سعادتك لكني لا أطيقها يا وائل، حاولت ولم أستطع، لا أطيقها ولا أطيق

فكرة أن يكون نصيبك في الزواج مع (امرأة مطلقة)، لماذا لا تدعني أختار لك عروساً كما فعلت لأخويك قبلك؟ ألا تراهما كم هما مرتاحان مع زوجتيهما؟ جرّب فقط "

حاول وائل تكرار كلام سابق يذكرها به "جهاد فتاة جيدة أمي "هتفت الأم بغيظ "لا تقل فتاة! إنها امرأة، امرأة عاشرت رجلاً قبلك وحملت منه "كان والده اللحظة قد دخل الغرفة أيضا لكنه لم يقل شيئاً بينما وائل يرد على أمه بعبوس "ما تفعلينه لن يغير شيئاً من رغبتي فيها وقناعتي بها "ادّعت الأم أنها لا تفهم مقصده وهي تتساءل "وماذا أفعل؟ "زمّ وائل فمه في حركة عناد قبل أن يقول "محاولاتك المستمرة لتذكيري أنها (امرأة مطلقة)»

يطرق الأب برأسه بينما المسبحة في يده يحركها ببطء والأم ترد على ولدها بغيظ أكبر "لا أفهم سر إصرارك عليها! "حاول وائل من جديد وقد بلغ صبره أقصاه "تعجبني جدا أمي، أحب احساسي معها، إنها مؤنسة للقلب وطيبة ونقية، عدا هذا هي ابنة أصول، هي وعائلتها تشبهنا ومن طبقتنا، وقد كان والدها الحاج كرم صاحب فضل على كثير من الناس في الحي ويذكرونه بالخير دوماً "ببعض التراجع عن حدّة موقفها قالت الأم "رحمه الله، أنا لا أنكر أفضال أحد يا ولدي "لكنها عادت لتحاول ثنيه عن الارتباط بجهاد وهي تضيف بمنطق لا يُعقل "لكنّ ابنته جهاد لا تعجبني، ليتك اخترت سارة، إنها الأنسب

لك ونسخة من جهاد "انفجر وائل ولم يعد يحتمل ليهتف بغضب "ها قد عدنا لنفس الكلام الغريب! لا أصدق أنك تكررينه! التطابق بالشكل بينهما لا يعني أنهما واحد، لا يعني أني أستطيع أخذ نسخة جديدة غير مستخدمة من جهاد متمثلة في توأمتها سارة! بالله عليك أمي إنهما شخصان مختلفان وأنا قلبي مال لجهاد وليس سارة "أذعنت الأم بعض الشيء لكنها تصر على رأيها "كما تشاء يا وائل، تزوجها ولن أقف في طريقك، لكن الأيام ستثبت لك أني محقة، وجهاد ليست كما تظنها، إنها امرأة تفهم الرجال وليست فتاة بريئة تشكّلها على يديك "

زفر وائل بقوة بينما تحركت الأم لتغادر الغرفة وهي تضرب كفاً بكف وتندب حظ ابنها قائلة "يا حسرة عليك وقد لعبت بك تلك (المرأة المُجربة) لتكسب قلبك وتطلبها للزواج بهذا الإصرار "تبادل وائل النظرات مع أبيه الذي رفع عينيه وقال له "لا تغضب يا ولدي، أمك تحبُّك وتريد لك الأفضل "لم يرد وائل بشيء بينما يضيف الأب "سأقول لك فقط تأكد جيداً قبل أن تقدم على هذا الزواج "ثم استدار الأب ليغادر الغرفة لاحقاً بزوجته بينما وائل يقف وسط غرفته وشعور الانزعاج الشديد يسيطر عليه.

***

**بعد نصف ساعة**

بملابسها الداخلية والمنشفة ملفوفة حول جسدها النحيل كانت سارة تجفف شعرها وتسرحه بينما جهاد تراقبها، للمرة الاولى تشعر بسارة بعيدة عنها كثيراً، بل تكاد لا تشعر بها!

تريد أن تخبرها عن وائل، تريد أن تأنس برأيها وتبادل الكلام معها، فسارة هي الجزء الخفي الثابت الرصين منها، ولا تجد جهاد هذا الجزء إلا بالكلام معها، ولا تشعر بالاستقرار النفسي الكامل إلا بوجوده كركيزة اساسية في حياتها.

قالت جهاد وهي تأمل أن تستعيد التواصل مع سارة "هل يجب أن تزوري هنادي اليوم؟ كنت اريد أن اخبرك بموضوع "لكن سارة كانت لاهية تماماً لترد على شقيقتها وهي تضع بعض التبرج الخفيف على وجهها "ليس الآن.. عندما أعود يا جهاد، يجب أن أذهب الى هنادي لأستلم طلبي "تساءلت جهاد بفضول "وما هو طلبك بالضبط؟ "ارتبكت يد سارة النحيلة وهي ترد بتردد ملحوظ "إنه.. شيء مستعجل وهنادي هي الأفضل لتوفيره بهذه السرعة "تتربع جهاد فوق السرير وهي تقول بعبوس لتلك المراوغة من شقيقتها "أنا أعلم أن هنادي تجيد الوصول الى بضائع نادرة بتعاملها مع بعض المواقع

للبيع على الانترنت، لكني أسألك، ما هو هذا الشيء المستعجل؟! ولمن؟ "تمتمت سارة بارتباك أشد وهي تستدير لتتحرك ناحية خزانة الملابس "لد.. مكتبة "هتفت جهاد وقد فاض كيلها "سارة! منذ متى تكذبين عليّ؟!»

كانت سارة تبحث بعجالى بين الملابس المعلقة وقد بدت مشغولة الذهن للغاية رغم ارتباكها من اسئلة جهاد، لكن ما يشغل سارة كان أقوى حضوراً في ذهنها وهذا أقلق جهاد أكثر!

أخذت سارة تنتقي فستاناً تلو الآخر تحدق فيه ثم ترميه على الارض لتبحث عن غيره في الخزانة بينما ترد على توأمتها "أنا لا أكذب، قلت لك إنه مستعجل بالفعل ويجب أن استلمه اليوم لأسلّمه الى صاحبه في صباح الغد "نظرت سارة مُطولاً الى فستان أرزق ثم رمته أرضاً مع الباقين بينما تضيف دون تفكير "في الواقع كان يفترض أن اسلّمه اليوم ايضاً إلى صاحبه "علّقت جهاد وهي تنظر لكومة الفساتين على الأرض "يبدو أنه طلب هام ليجعلك مشتتة هكذا "هتفت سارة بعصبية غريبة "مؤكد هام! منذ الصباح اتصلت بها وطلبتِ توفيره اليوم تحديدا وهي بذلت جهوداً مُذهلة كي يصل "تحرّكت جهاد لتغادر السرير وهي تسأل بحاجبين معقودين "وهل صاحب الطلب يهمك لهذه الدرجة؟ "قالتها وهي تشعر عن يقين أن الأمر يخصّ أيوب ولا غيره، وهذا أثار حنق جهاد

للغاية، خاصة وأنّ سارة لا ترد عليها ولا تنتبه من الأصل لوجودها!

أخرجت سارة الفستان الزهري الجديد الذي خاطته الجدة لتقول بقرار سريع "سأرتدي هذا، إنه مكوٍ وجاهز فليس لدي وقتاً لأكوي غيره "سألت جهاد بدهشة اعتراض "هل ستلبسين الفستان الزهري الجديد؟! لكن..» قاطعتها سارة وهي تتذمر بالقول "ما بك اليوم جهاد؟! تبدين كالجدّة ياقوت حين تحاسبنا على كل صغيرة وكبيرة "ثم خلعت عنها المنشفة لتلبس الفستان بينما جهاد ترد عليها "أنا لا أحاسبك فقط أستغربك! إنه فستان خاطته الجدة للمناسبات "تحركت سارة لتبحث عن حذاء يلائم الفستان وهي تشرح لجهاد "بعض الصديقات من أيام المدرسة موجودات بالفعل في بيت هنادي ليباركن لها شقتها الجديدة، ففكرت أن أتأنق عند لقائي بهن "وجدت الحذاء المناسب وبينما تلبس الفردتين على التوالي رفعت وجهها أخيراً لتوأمتها وكأنها تذكرتها للتو قائلة بشعور الذنب "هل ستبقين بمفردك؟ يمكنك القدوم معي، أستطيع انتظارك حتى تجهزي»

بنظرة ذات معنى رمقتها بها جهاد قبل أن تعبّر عن تلك النظرة بالكلمات قائلة "لا.. لا تستطيعين "ثم تحركت لتعود الى السرير وهي تضيف "وفي كل الأحوال (لا شكراً) للدعوة غير الشيّقة، ليس لي مزاج لأرى نظرات التعاطف

والإشفاق في عيونهن وكأنني في مصيبة لن ينقذني منها إلا الزواج برجل آخر "زاد شعور سارة بالذنب نحو جهاد لتحاول تغيير رأيها "انهن طيبات، صديقات الثانوية، لا تكوني حساسة زيادة عن اللزوم، هيا ارتدي الفستان الزهري مثلي ورافقيني "

رغم طيب الدعوة إلّا إنّ جهاد كانت واثقة أن سارة لا تريد حضورها، لا لشيء إلّا لأنها لا تريد جهاد أن ترى ذاك (الطلب المستعجل)، وتشعر حتى أن سارة حال عودتها ستتجّه نحو المكتبة مباشرة لتخبئ الطلب هناك قبل عودتها للبيت. لا تعرف جهاد ما أهمية ذاك الطلب بهذا الشكل المُلح اليوم لكنها تبصم بأصابعها العشر أنّ الطلب يخصّ أيوب دون أدنى شك، هذه اللهفة من توأمتها، هذا الحرص أن تتأكد من الطلب بنفسها، هذا الإخفاء الذي تتّبِعهُ سارة، كلها دلائل صارخة تشير إليه؛ أيوب الحقير!

انقبض قلب جهاد بقوة بينما تتطلع الى شقيقتها المحتارة لترد عليها بالقول "النفوس تتغير يا سارة، والليلة تحديداً أنا لست مؤهلة لتحمّل تصرفات سخيفة من أحد "ثم شوّحت بيدها بلا اهتمام لتخفف عن شقيقتها شعور الذنب لتركها وحدها مضيفة "اذهبي ولا تتأخري كثيراً»

تمتمت سارة بنعم وهي تتحرك بصخب لتبحث عن حقيبتها وتعيد تمشيط شعرها البني الرقيق، فنادتها جهاد

“سارة “التفتت إليها ترد “نعم “نظرت جهاد مطولاً وقلبها يزداد انقباضاً على نحو غامض لتقول لها وهي تنظر لعينيها “عيناك تلمعان “ردت سارة بابتسامة واسعة وتورد في الخدين “ربما أنا متحفزة لأرى الهدية “ارتفع حاجبا جهاد بحركة استدراك مفتعلة وهي تقول “اذن هي هدية وليست طلب! “تحول التورد الى احمرار لتضيف جهاد سؤالاً لحوحاً “لمن الهدية سارة؟ “هتفت سارة وهي تتهرب “كفى جهاد أنت تؤخرينني»

تحركت سارة لتغادر الغرفة وجهاد تلاحقها بإلحاح من نوع آخر “ليتك تلتقين بخطيبك حمزة ليراك وأنت جميلة هكذا “زمجرت سارة بغضب عند باب الغرفة “حمزة ليس خطيبي ولن يكون “ثم غادرت بخطوات متعجلة بينما جهاد تعدها بالقول “إن لم أزوّجك حمزة يا سارة فلن أكون جهاد نملاوي “ثم تنقبض كفاها وهي تضيف بكُره “ولتجد لنفسك يا أيوب لعبة جديدة تلهو بها وتقضي معها وقتك الفارغ الطويل بعيداً عن بنات الناس»

***

**شقة حمزة**

تحت صنبور الماء المفتوح يدعك حمزة أصابع كفيّه ببعض في محاولة جديدة لإزالة آثار السخام الأسود لزيوت

السيارات، يعقد حاجبيه ببؤس وهو يفكر بتوبيخ ذاتي "مؤكد أن سارة تقرف كلما فكرتْ كيف ليدك هذه أن تلمسها! سارة تميل لنوع من الرجال مختلف تماماً عنك يا (مصلّح السيارات)، إنها تحب الأنيق اللبق المتحدث، القارئ المثقف، تحب المُغازل ببيت شعر لا من يقول لها (تزوجيني) بنبرة كأنه على وشك صفعها!»

زفر أنفاسه بقوة وهو يمدُّ يده ليغلق الصنبور وقد يئس من محو كل السواد من شقوق بشرة أصابعه وحواف أظافره، ثم التقط المنشفة يجفف يديه وهو يسير نحو الصالة وسط الشقة وعيناه مُثقلتان بنظرة عاشق غاضب.

رمى المنشفة على الاريكة حيث تجلس أمه تكوي الملابس ليلتقط حمزة إحدى القمصان التي كوتها ويشكر أمه في صمت بقبلة يلثم بها أعلى رأسها، توقفت الأم عن الكيّ وهي تنظر الى ولدها الوحيد بحسرة! كان يلبس القميص فوق البلوزة القطنية البيضاء وقد بدا ساهماً شارداً، ولم يغب عنها وجع قلبه، فتكتم الـ آه وهي تسأله "الى اين يا ولدي؟ هل ستذهب للمقهى؟ "ردّ بلا روح "ربما.. لا أدري امي، سأخرج لأتمشى قليلاً وقد أمر بالمقهى لأجالس بعض الأصحاب "ثم تحرك نحو باب الشقة لكنه سرعان ما عاد أدراجه وقد تذكر أمراً، توجّه إلى إحدى الأرفف حيث وضع العطر الجديد الذي اشتراه فيتعطر ببذخ وأمه تراقب ما يفعل بقلب مكلوم،

كانت تعلم أنه يحاول الاهتمام بنفسه أكثر من طبيعته فقط كي يرضي من يحبها قلبه، نادته وهي تقف على قدميها وتزيح منضدة الكيّ قليلاً "حمزة "توقفت خطوات حمزة قبل وصوله إلى الباب وهو يلتفت لأمه التي أضافت دون مقدمات "ربما سارة ليست نصيبك "انعصر وجهه ألماً فانعصر قلبها معه ثم قال بصوت مبحوح كأنه يتوسل إليها "لا تؤلميني أكثر من هذا بالله عليك "نتقدم منه بعينين دامعتين وهي تقول له بقلب الأم "لا تجعلني أكرهها لأنها تؤلمكَ هكذا "تنهّد تنهيدة طويلة ثم نظر في عيني أمه قبل أن يقول بخفوت "ليتني أملك القوة والقدرة مثلك كيّ أكرهها يا أم حمزة "ثم أطرق وهو يقلب كفيّه ويتفحص فيهما "ربما سارة تخجل من مهنتي ولا تراني من مقامها، انظري ليدي مهما نظفتها فالسخام الاسود لا يزول تماماً»

تعضّ شفتيها تمنع نفسها البكاء ثم تميل إليه تحتضنه وهي تقول له بقناعة حقيقية "الرجل لا يعيبه آثار السخام الأسود في أصابع كفيّه، الرجل لا يعيبه إلا نظافة قلبه يا ولدي، وأنت قلبك ناصع البياض لا تشوبه شائبة "ثم تضيف بحشرجة قهر غلبتها "إن لم تر فيك سارة هذا يا حمزة فهي لا تنفعك، أعلم كم يؤلمك هذا لكن صدقني يا ولدي، هي لن تنفعك»

أرخى أجفانه وهو يستسلم لأحضان أمه فقط كي يرضيها، ويا ليته يستطيع إرضاء قلبه بنفس السهولة، فلا القلب

يستمع ولا عن أمانيه يمتنع.

***

ترجلت سارة من سيارة الأجرة على مشارف الحي وهي تكاد تطير فرحاً وحماسة، تضمُّ (الهدية) إلى صدرها وكأنها تضم كنزاً! قلبها يرتجف سعادة حتى لم تعد تستطيع البقاء أكثر مع الفتيات دون أن تفضح نفسها، فغادرت مُدعية أنها لا تريد التأخر أكثر كي لا تثير غضب الجدة.

قدماها أخذتاها ناحية المكتبة بدلاً من ناحية البيت، لقد قرّرت إخفاء الهدية هناك كي لا تراها جهاد الفضولية وتلح بالأسئلة عند عودتها.

نظرت للأسفل حيث تضم الى صدرها هدية أيوب بفخر طفولي، اسطوانة قديمة لجهاز الجراما فون؛ سمفونية بحيرة البجع، لقد بحثت وقرأت الكثير، بل باتت تحفظ المعلومات عن ظهر غيب، فأرخت أجفانها وهي تعيد بهمس خافت تلك المعلومات ببراءة أو ربما سذاجة!

سمفونية بحيرة البجع هي إحدى روائع الموسيقى للموسيقار الروسي الشهير تشايكوفسكي، والتي قام بتأليفها عام ألفٍ وثمانمائة وسبعة وثمانين، إنها واحدة من التراث الموسيقي الثري للموسيقار، والتي تضمّ كسّارة البندق

والجمال النائم والأميرة النائمة.

عيناها تلمعان وابتسامتها مشعّة، تشعر وكأنها تحفظ حتى نغمات السمفونية نفسها وقد أعادت سماعها عشرات المرات اليوم، تشعر اللحظة أنها خفيفة ولا شعورياً رفعت نفسها على أطراف أصابع قدميها كأنها تؤدي رقصة باليه كـ(بجعة) وهي تسير بين طرقات حي الخاتون! شعور شديد اللذة والبهجة أنها دخلت على استحياء الى عالم أيوب واهتماماته المختلفة عن غيره من الناس الذين تعرفهم طيلة حياتها.

وصلت سريعاً للمكتبة وفجأة توقفت خطواتها وهي ترفع وجهها الى شرفة الطابق الثاني من المبنى المقابل، مبنى قصر الخاتون، أخذ قلبها يقرع بقوة وهي تنظر للإنارة الخافتة من خلف الستائر الكئيبة لتلك الشرفة، صدى صوته يؤلمها (**أنا وحيد للغاية، وحيد الى درجة تفوق قدرتي على احتمال العقاب**)، تزايدت النبضات في صدرها جنوناً و.. هلعاً! أخذت تتطلع حولها يميناً ويساراً وفكرة مجنونة تجنون قلبها تسيّطر عليها، نظرت إلى ساعة يدها فتتمتم لتقنع نفسها أولاً "إنها السادسة فقط"

ثم وكأنها مخدرة بذاك الجنون؛ كانت تعبر للناحية الأخرى من المكتبة وللحظة عيناها تطلعتا بهلع متزايد الى ورشة حمزة المقفلة وكأنها تتوقع أن يقفز منها حمزة في أي

لحظة كي يصرخ فيها ويمنعها! ابتلعت ريقها وهي تسرع الخطى وتتلفت كي تتأكد أن لا أحد يعرفها يراها اللحظة تتجه نحو مبنى قصر الخاتون!

عند أولى درجات السلم تسمرت! أخذت تتمتم "ما الذي سأقوله إذا رآني أحدهم؟! "فجاء الرد وكأنها (وسوسة شيطان) (قولي أنّ (السيد) طلب تسليم الأسطوانة اليوم، وتذكري أنّ الساعة لا تزال السادسة)

صعدت درجتين ونبض قلبها في سباق مجنون، توقفت لحظة تلتقط أنفاسها قبل أن تواصل الصعود، تشعر بكل درجة تصرخ بها (عودي) لكنها لا تفعل! تعجز عن الاستجابة للتحذير الصارخ فلا تقوى على العودة، لا تقوى على تركه وحيداً يوم عيد ميلاده دون أن تُفرحه بهذه الهدية؛ تريده أن يعلم أنه ليس وحده.

تخدّرت الموانع فصمتت عن احتجاجها ثم تقهقرت وعندها علا صوت عاطفة غريبة غامضة لا تفهم سارة أبعادها لكن تشدّها إليه فتشدُّ قدميها نحو الفخ!

لا تصدق كيف وصلت الى شقته في الطابق الثاني دون أن يراها أحد، وكأن الجميع تحالف مع اغواء الفخ! وقفت عند الباب طويلاً تكاد دموعها تنزل ومن شدة التوتر كانت تعتصر الاسطوانة المُغلّفة عصراً بين أصابعها دون أن

تشعر، أخذت ترتجف وهي ترفع كفها الأيسر لتدقّ على الباب؛ تفعلها دون أن تصدق حتى اللحظة أنها تفعلها!

سمعت خطواته تقترب من خلف باب الشقة، خطواته اليوم كانت عجيبة أشاعت في حدسها الذعر فانتابتها رغبة الهرب وأوشكت أن تفعل لكنّ قدميها تجمدتا حتى انفتح الباب ووقعت حرفياً في الفخ.

لم تستوعب ما تراه؛ بل لم تفهم ما تراه! كان وجهه غريباً، هيئته أغرب، يتمايل بطريقة غريبة منفرة، عيناه محمرّتان وشعره مشعث كأنه قضى الساعات يشدُّ فيه، تشوهه كان يصرخ بالقبح من فتحة قميصه وقد تقطعت أزراره! بدا شيطانياً مُخيفاً يثير الاشمئزاز والاشفاق معاً! شهقت عفوياً وهو يمد يده ويمسكها من أعلى ذراعها الأيسر يهذر بلسان ثقيل "أتيتِ في وقتك.. تعالي»

بغباء كانت تتمتم "أحضرتُ لك.. هدية "لكنه سحبها بقوة للداخل وأغلق باب الشقة بكتفه، تجمدت سارة وتوقف استيعابها، عيناها تكادان تخرجان من محجريهما في حالة صدمة تشلُّ ردود أفعالها المستنفرة بينما يجرّها أيوب بخشونة وهو يترنح على عصاه فسقطت الاسطوانة منها أرضاً دون أن تعبأ بها، تدير رأسها للخلف لتنظر الى باب الشقة المغلق وهو يبتعد عن ناظريها فتداهمها رغبة متأخرة للخروج حالاً من هنا.

لكن باب الشقة اختفى وأيوب يدخل بها الصالة فأخذت سارة تتطلع حولها بنوبة هلع وكأنها نسيت طريق الخروج بينما يرمي أيوب عصاه أرضاً ثم ينحني لفجأة ليلتقط شيئاً ما من الطاولة الوسطية وفي اللحظة التالية كان يستدير إليها حاملاً تلك القنينة بيده اليمنى وهو يهتف بتهريج "نخب عيد ميلادي "

تحدّق سارة بذهول في الزجاجة وأيوب يرفعها الى فمه ويتجرع منها بشراهة ورائحة كريهة تثير غثيانها تملأ المكان، ولم يكن هناك أدنى شك أنه يحتسي الخمر!

الضعف والوهن يسريان بمفاصلها كأن حالة الصدمة تصيبها بالشلل المؤقت، لكنها تحاول أن تنزع ذراعها من بين أصابعه وهي تهمس بارتجاف "أنتَ تشربُ.. خمراً؟! "فيضحك أيوب عالياً والشراب يسيل من فمه الى رقبته ثم قميصه ليهتف عالياً "وقعتُ في قعر الفخ! أربع سنوات من الامتناع كأنها دهراً بأكمله!»

إحساس مريع خانق ينتاب سارة حتى أخذت دموعها تسيل دون أن تحدد لدموعها سبباً بينما هو لا يشعر بها، بل يميل ليُعيد القنينة مكانها ثم يلتقط شيئاً آخر ويعود إليها قائلاً بعينين مخيفتين "لكني لم آكل التفاحة بعد..» كانت ما تزال تحاول نزع ذراعها وهو لا يفلتها، بل أخذ

يجرّها إليه ويقرب التفاحة بيده الأخرى من فمها مضيفاً بهمس خشن كريه “أ تشاركينني إياها؟ مرة لفمك ومرة لفمي “دموعها لا تتوقف وهي تجد بعض القوة لتصرخ فيه “دعني أيوب.. أنت سكران “ثم ظلت تمتم بحرقة دون إدراك حقيقي لما تقوله “يا خسارة يا أيوب.. يا خسارة!»

رنّ هاتفها فجأة داخل الحقيبة المعلقة بكتفها فيغضب أيوب وهو يوقع التفاحة من يده لتدحرج على الأرض ثم ينزع عن كتفها الحقيبة ليرميها بشكل عشوائي فتستقر عند باب الصالة بينما يهدر بنبرة رهيبة والرنين مستمر “أنا الذئب.. أنا الداهية.. بل أنا الشيطان الذي وسوس لآدم بأكل التفاحة المحرمة “ثم بيده التي أوقعت التفاحة كان يمسكها من شعرها الناعم ليجرّها إليه وهو يضيف بنفس النبرة “تعالي يا بريئة، الزهري يجعلك أشهى للأكل، براءتك هدية عيد ميلادي الأربعون، براءة لذيذة حمقاء!»

دبّت المقاومة فيها وقد أدركت، بل استوعبت أخيراً خطورة ما يحصل، إنه ليس وهماً، ليس كابوساً وسينتهي؛ أنها حقيقة وواقعاً يحصل وعليها أن تواجه وتدفع عن نفسها هجوم أيوب؛ لقد كان يعتدي عليها بجدية. بعنف أخذت ترفسه وتدفعه وتضربه بكل ما أوتيت، تبتعد بوجهها عن مرمى محاولات فمه لتقبيلها، نتألم وهو يشدُّ شعرها بقسوة ثم أخذ يشتمها بعبارات قذرة!

كان.. بشعاً.. بشعاً جداً.. تهجّمه.. كلماته.. رائحته.. تشوه جلده وهي تلمسه بيديها بينما تدفع رقبته، لم تعد تحتمل لتصرخ بعلو صوتها تطلب النجدة فصفعها أيوب صفعة مدوية على خدها أخرستها!

تراجعت للخلف من هول الصفعة بينما فقد أيوب توازنه ليسقط أرضاً، ولم تفكر مرتين قبل أن تستدير لتهرب، انحنت لتلتقط حقيبتها من الأرض وهي تركض ثم في طريقها الى باب (النجاة) داست على اسطوانة (بحيرة البجع) لتنكسر وينكسر معها قلبها.

***

كانت تهرول على درجات السلم، لم تكن تسمع شيئاً، لكن لا.. لقد سمعت! أم أدور تناديها وتسأل "ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟! "تكاد سارة تلطم على خديها وأم اسطفان هذه المرة من تناديها "توقفي يا ابنتي ماذا جرى؟! "

لكن سارة تجري وتجري على الدرجات والنداءات تكثر من سكان الطابق الأرضي فلا تملك هي إلا الهروب، هل ظنّت أنها هربت من الفخ حقاً؟! رباه.. هذا الفخ الذي دخلته بقدميها ليس له مخرج ولا نجاة!

عاد رنين هاتفها بينما تواصل الركض وهي تغادر مبنى قصر الخاتون، ومع رنين الهاتف يخرج الحاج عبد الصادق من المقهى ويناديها أيضاً "يا ابنتي توقفي "ثم صوت حمزة يصرخ!

لكنها لن تتوقف لنداء أحد، ستظل تركض حتى تصل.. جهاد! عند تذكرها لشقيقتها شعرت بالدموع تسيل على خديها فأخرجت الهاتف وهي ما تزال تركض لتشهق بالبكاء وهي تقرأ رسالة نصية من شقيقتها وَردتْها للتو (لماذا لا تردين على مكالماتي يا سارة، الجدة اتصلت وقالت ستعود هي وأمي خلال ساعة، فمتى ستعودين أنتِ؟)

أخذت تخفّف من سرعة ركضها وهي ترتجف ثم اتصلت بجهاد وحالما أتاها صوت توأمتها انهارت سارة وهي تخبرها عن كل ما جرى بخفوت الخزي والعار! لم تكن تدري ما الذي كانت تقوله لجهاد بالضبط، لم تكن تستوعب الكلمات المشوشة التي كانت تخرج من بين شفتيها لكن جهاد على الطرف الآخر فهمت واستوعبت.

***

الحاج عبد الصادق وبعض رجال الحي كانوا يكبّلون حمزة بأذرعهم كي يمنعونه عن ضرب أيوب (المخمور)

مرة أخرى، وقد كانت لكمة واحدة أكثر من كافية لتجعل أيوب يفقد الوعي في حالته تلك.

الاستاذ هلال كانت حاضراً معهم وبنظرة تفاهم متبادلة بينه وبين عبد الصادق اخرجا الناس من شقة (السيد) ومعهم حمزة الذي كان يقاوم ويشتم، لكن الحاج عبد الصادق أمر عامله نعمان أن ينقل (السيد) الى سريره وينتظر معه حتى يعود الحاج إليه، كما أمره ألا يفتح الباب لأحد على الإطلاق.

غادر من صعد من أهل الحي الى شقة (السيد) ما بين هامس وضاربٍ كف بكف! عند الطابق الأول من المبنى كان حمزة يضرب بقبضته في عنف على الدرابزين بينما أم أدور تتبرع للكلام بعبوس شديد "لم أسمعها وهي تصعد إليه "أم اسطفان قالت وحالة الصدمة لم تفارقها "ارحمنا يا رب! لا أدري ماذا جرى لهذا الرجل؟! كُنا لا نسمع له صوتاً "وقبل أن يسأل الحاج عبد الصادق سأل الأستاذ هلال ابنة خالته "وهل حصل شيء آخر منه اليوم؟! "تبرعت أم أدور للرد قائلة "لقد تشاجر معها صباحاً شجاراً عنيفاً رغم أننا لم نفهم كلماته، فخرجت من عنده باكية وقالت إنه كان يوبخها على إيراد المكتبة القليل، ولا أدري ما الذي جعلها تعود إليه ليلاً؟! عيب على فتاة محترمة شابة ما فعلته "تدخلت أم اسطفان وهي ترمقها بنظرات استياء "ليس ليلاً يا أم أدور، إنها

السادسة والنصف لا أكثر، كما إنها تعمل لديه ومؤكد كانت هنا لأجل عمل ولم تدرِ أنه سكران هكذا!»

يستمع حمزة الى كل هذا وهو يستند بكفيه على الدرابزين وعيناه جاحظتان في غضب وقهر، لقد قتلت سارة قلبه اليوم.. قتلته! كاد يفقد آخر ذرة عقل ويذهب خلف سارة اللحظة ربما يخنقها بكفيه هاتين من شدة غضبه وألمه.

تحرّك خطوة عندما قالت أم أدور فجأة "وقد تكون جهاد، فالفتاتان باتتا تتناوبان الحضور هنا! "التفت حمزة برأسه بقوة إلى أمّ أدور التي زجرتها أمُّ اسطفان بالقول "كفاك يا أم أدور، عيب أن تشيعي كلاماً بمعانٍ سخيفة كهذه "ليتدخل الحاج عبد الصادق قائلاً بحزم "أظن يا أم أدور أنت تعرفين الفتاتين منذ الصغر، ووالدهما رحمه الله كان من ساعدك يوماً لدفع الإيجار عندما تعسرتِ بالدفع لأشهر الى المالك القديم لمبنى قصر الخاتون، أ تردّين فضله في بنتيه هكذا وأنت تسيئين لسمعتهما بالكلام الباطل؟! "احمرت أم أدور لترد بدفاع عن النفس "رحم الله روحه الطيبة، أنا لم أقصد أي إساءة، فقط أنبّه لخطأ التصرف، وانظروا جميعاً ماذا حصل اليوم؟! لقد اعتدى عليها وهو مخمور "زجر حمزة وهي ينزل درجات السلم كالمجنون والحاج عبد الصادق والأستاذ هلال يركضان في إثره.

***

# الفصل السابع
# الفستان الزهري

## بيت الحاج كرم

على طارف سرير جهاد تجلسان، ما تزال سارة ترتجف وهي في حضن توأمتها، فتشدّد جهاد من احتضانها وهي تهتف بالشتائم لأيوب القذر، تهطل دموع سارة وهي تتمتم "لقد فُضِحتُ يا جهاد في الحي، كلهم رأوني، حمزة كان يصرخ! "أبعدت جهاد شقيقتها عن حضنها وامسكتها من ذراعيها وهي تقول لها بقوة "اهدئي وسنحلُّ الأمر "لكن سارة أخذت تبكي أكثر وهي تقول بخوف رهيب "ماذا سأقول لجدتي؟! ماذا سأقول لأمي؟! سمعتي بين أهل الحي! يا ربي ماذا سأفعل؟! لن يرحمني أحد "عقدت جهاد حاجبيها وهي تقول "سنفكر بكل شيء لا تخافي، لن أسمح لأحد أن يؤذيك أو يمسّك بسوء "كانت ربما المرة الأولى التي تلعب فيها جهاد دور (الحامي)، فدوماً سارة هي العاقلة في هذه المواقف، المُنقذة من أي موقف.

قالت جهاد أخيراً وهي تمدّها بالقوة "اذهبي الى الحمام واغسلي وجهك بالماء البارد ثم عودي لأخبرك بما سنفعل "هزّت سارة رأسها بينما تقف لتغادر الغرفة الى الحمام تتبع

كلام شقيقتها، أما جهاد فقد أخذت تتحرك بعصبية في أرجاء الغرفة وهي تشعر بالعجز عن إيجاد مخرج لسارة، شعرت بالغيظ وعيناها تقعان على الخزانة المفتوحة كما تركتها سارة منذ ساعات وبعض الفساتين ما تزال مُلقاة على الأرض، ثم استقرت نظرات جهاد بمزيد من الغيظ على الفستان الزهري المُعلق داخل الخزانة، أو.. (توأم) الفستان الزهري الذي تلبسه سارة في هذه الليلة المشؤومة! لقد كرهت الفستانين منذ اللحظة التي حملتهما الجدة الى غرفتهما.

فجأة سمعت جهاد جلبة خارج الشقة، ثم أصابها الفزع وهي تسمع صوت حمزة ينادي ويضرب بقبضته يطلب فتح الباب.

أخذ قلب جهاد يقرع بقوة وهي عاجزة عن التصرف، أغمضت عينيها وأحنت رأسها وهي ترفع كفيها إلى صدغيها تضغط من الجانبين تحاول التركيز بعيداً عن صوت حمزة الغاضب لتقول تكلم نفسها "جدي حلاً يا جهاد، جدي حلاً"

ثم اختلط صوت حمزة بأصوات أخرى كأنه صوت الحاج عبد الصادق معه وشخص آخر ربما، فتفتح جهاد عينيها وهي تشعر أنها باتت محاصرة! وليزداد الضغط عليها عندما عادت سارة الى الغرفة ممتقعة الوجه وهي تهمس

كأنها توشك على الموت "لقد ضعتُ يا جهاد!»

أخذت جهاد تحدق في سارة، تمعن النظر فيها، من أعلى شعرها البنيّ المشعث قليلاً حتى وجهها الأسمر بآثار بكاء خفّت كثيراً مع غسل وجهها بالماء البارد، ثم جسدها النحيل المرتجف في.. الفستان الزهري!

الفستان الزهري؟!

تحركت نظراتها من سارة الى الخزانة ولم تشعر جهاد إلّا وهي تنفذ فكرة مجنونة خطفت في رأسها خطفاً فتعلقت بها! فكّت رباط شعرها على عجل ثم نكشته قليلاً بأصابع كفيها بينما سارة تحدق فيها وكأن توأمتها جُنّت.

تحركت جهاد والقرع على الباب مستمر مع صوت حمزة الثائر لتخلع ملابس البيت عنها على عجل وتسحب الفستان الزهري المُعلق ثم ترتديه بسرعة بينما سارة لا تستوعب ما تفعله شقيقتها بالضبط! وأخيراً أخذت جهاد تدعك عينيها بقوة حتى أحمرتا ثم فعلت المثل بأنفها وخديها قبل أن تتحرك لتغادر الغرفة ناحية باب الشقة وسارة تتبعها في ذهول كامل! قلب جهاد يقرع بجنون وهي تفتح الباب لتواجه العاصفة بجسدها النحيل وفستانها الزهري الجديد الذي تكرهه.. كم تكرهه!

حالما وقعت عيناها في عيني حمزة رأت فيهما غضبه الثائر يطفو على السطح بينما في العمق كان يعيش عذاباً لا يوصف (بسببها) وعشقاً (لها) يدمّره، يُريدُها أن (تكذب) عليه، أن (تنفي) ما فعلته بذهابها المُخزي الى أيوب، كل هذا كان موجهاً الى توأمتها (سارة) وقد خلط كعادته بينهما.

ارتجفت جهاد حتى العمق وحمزة ينظر إليها هكذا يظنها (سارة)! وفي هذا الذي تراه وتشعره منه نحو سارة كان ما يكفيها حتى تغلق باب جبنها فلن تتراجع عن إنقاذ الموقف ولو أصبحت هي (كبش الفداء)!

تقدّم حمزة للداخل رغم محاولات العم عبد الصادق والأستاذ هلال لمنعه وهو يهتف ثائراً "ماذا كنتِ.. تفعلي.. "توقفت كلماته عندما لمح (سارة الحقيقية) على بعد بضعة أمتار، فتاه بينهما كما تاه العم عبد الصادق والأستاذ هلال، الثلاثة ينقلون نظراتهم بين (النسختين) في حيرة وصدمة!

لقد كانتا نسخة طبق الأصل اللحظة، لا يمكن لأحد أن يصدّق مدى الشبه الفظيع بينهما حتى في أدق التفاصيل! بل أن حتى تعابيرهما بدت متطابقة بشكل يصيب العقل بالذهول والانشداه.

كان العم عبد الصادق أول من نطق وهو يتقدم متجاوزاً حمزة ويسأل بحذر ممعناً النظر فيهما "من منكما سارة؟! "فردّت سارة بارتجاف وهي متسمّرة في مكانها كالمشلولة "أنا سارة.. يا عم "هتف حمزة وهو مُشتت بثورته "ماذا يجري هنا؟! من منكما كانت في شقة الحقير أيوب؟! "قالتها جهاد بثبات وشجاعتها تكاد تخونها "أنا.. "هتفت سارة بلوعة دون شعورها "جهاد! "فالتفتت إليها جهاد بنفس الثبات لتقول لها "لا تهلعي سارة، أنا قادرة على مواجهة الأمر "تهزّ سارة رأسها يميناً وشمالاً في رفض مختنق وهي تقول "هذا ليس.. "لكن جهاد قطعت عليها أي محاولة لإفشال خطتها وهي تقول بصوت مرتفع "سارة كانت عند صديقتها هنادي وزميلات المدرسة اللواتي اجتمعن هناك عصر اليوم "عندها فقط نطق الأستاذ هلال وهو يتساءل بحيرة كُبرى "أنا لا أفهم شيئاً! أ تفهم يا عبد الصادق؟! "صدر حمزة يعلو ويهبط وهو يحدق في سارة دون غيرها بينما الحاج عبد الصادق يسأل جهاد بنبرة شديدة الوقع "يا ابنتي اشرحي ما يجري لأنّ الوضع خطير للغاية»

تبتلع جهاد ريقها وهي تحاول حبك الأكاذيب مع الحقائق بشكل مُقنع فتقول بنبرة تهوين للحدث "يا عم ليس خطيراً كما تظن، كل ما في الأمر وصلتْ طلبية مستعجلة إلى هنا تخُصّ السيد أيوب بعد خروج سارة بساعة ربما، فقررتُ أن أذهب بنفسي لأوصلها إليه ثم

التحق بالصديقات في بيت هنادي»

فاجأها حمزة بالقول وهو ما يزال يحدّق في وجه سارة الممتقع "أنت كاذبة! "ادّعت جهاد الحنق وهي تلتفت الى حمزة وتقول "عيب أن تقول عني كاذبة يا حمزة! ولماذا أكذب؟!»

برقت عينا حمزة وهو يدير نظراته الى جهاد وكأنه يكررها (انتِ كاذبة)، الكذبة تجرها كذبة، والمُبتل لا يخشى رذاذ المطر! وجهاد اللحظة شعرت أنها مُبتلة حتى العظم، شعرت بالبرد وبحاجة ماسّة الى أبيها كي يغطيها ويسترها، لقد اساءت لقيمتها أمام نفسها وأمام الناس منذ أخطأت الاختيار وأصرّت على الزواج من غيث واليوم تتلطخ سمعتها بما هو أسوأ بكثير من سوء اختيار زوج.

ابتلعت ريقها وتذكرت كلام سابق بينها وبين حمزة عن علاقة سارة بأيوب، فقررت أن تحبك كذبة جديدة بمعانٍ مختلفة عن مقاصدها الأولى فتقول بخفوت "أنا لستُ كاذبة يا حمزة، هل تذكر عندما قلتُ لك أني لا أستطيع التوضيح أكثر، لكن الأمر مختلف عما يبدو لك؟ هل تذكر؟ "تنظر في عيني حمزة وكأنها توصل إليه رسائل صامتة هو وحده يفهمها (أنا المعنية مع أيوب وليست سارة يا حمزة)، لكن حمزة رفض تصديقها وهو يحاول تفنيد ادعائها أنها من كانت عند أيوب "ولماذا لم ترافقي سارة

منذ البداية؟! لا تقولي لي أنك تبرعتِ لانتظار الطلبية بدلاً عنها!»

من السهل أن تكذب عندما تكون سعادة من يهمونك على المحك، فتتساقط قيم الصدق كأوراق الشجر في الخريف عاجزة عن الحماية المنشودة، ولا يتبقى إلّا حبل الكذب القصير نمدّه في يأس، أ تراها حقيقةً واقع أم تبرير الضعيف الجبان؟!

كانت ترتجف من الداخل بينما تسمع صوت نحيب سارة الخافت خلفها فودّت لو تستدير إليها وترتمي في حضنها تنتحب معها، إنها ليست قوية كما يظنون، ليست كما يظن الجميع على الاطلاق!

ردت بصلابة متزعزعة "بل كان لدي عمل أنهيه يا حمزة وحالما انتهيت ارتديت ملابسي وأخذت الطلب وخرجت "ثم تنهدت بتعب وهي تنظر للرجال الثلاثة وتسأل "لماذا لا تصدقون؟! أنا التي ذهبت الى أيوب وليست سارة، كنت أعلم أنها مهتمة بإيصال الطلبية اليوم إلى السيد أيوب فهي حريصة أشد الحرص على عملها»

ساد الصمت ونحيب سارة يشتد وهي تتمتم بهمس مجروح "أنا السبب.. أنا السبب "فيرمقها حمزة بنظرات مشتعلة بالثورة العارمة والتخبط المؤلم فلم يعد يعرف أين

الحقيقة! بينما تبادل الحاج عبد الصادق النظر مع الأستاذ هلال ليسأل عبد الصادق بعدها بحذر وهو يوجّه كلامه الى جهاد "ماذا حصل هناك يا ابنتي؟»

ردت جهاد وهي ترفع يدها لجبينها تحاول تذكر التفاصيل التي سردتها سارة قبل قليل قائلة "كان الخطأ خطئي لأني ذهبت بمفردي الى هناك، بدلاً من أخذ سارة معي أو الانتظار للصباح "ترتجف وهي تتخيل نفسها مكان سارة تصعد درجات السلم الى ذاك الفخ الذي أوقعهما معاً في هذه المصيبة ثم أضافت "لم أتوقع ما جرى! كان مخموراً لا يشعر بما حوله»

بعدها التفتت الى سارة التي توقفت عن النحيب لتنظرا في عيون بعض بينما تكمل جهاد سلسلة الأكاذيب والأدوار المتبادلة بينها وبين سارة "كنت أكلّم سارة للتو عما جرى، وقد أخبرتني أنها لم تره مخموراً من قبل، بل لم تر أي زجاجة شراب كحولي في شقته، لا أدري من أين أتته لكن لا يهم "هتف حمزة بصراخ "لا يهم؟! "ردت جهاد بقوة وقد استنزفت تماماً "هو لم يفعل لي شيئاً.. دفعته وأوقعته أرضاً ثم خرجت "وهنا كان دور الحاج عبد الصادق ليهتف منفعلاً "الحي بأكمله يتحدث عمّا حصل؛ أ تستوعبين حجم المصيبة؟! "رفضت جهاد أن تفكر اللحظة فيما ينتظرها لتقول باندفاع "لا تبالغ عمّاه، الحي يتحدث طوال الوقت، وسينسون غداً صباحاً كل شيء عن

اليوم»

لقد حاولت أن تقلل من أهمية ما حدث لكنها أخطأت التقدير وخانها التعبير لتظهر كَمُستهترة فيقولها لها الحاج عبد الصادق وقد أفلت غضبه "لم أظنك مستهترة وعديمة المسؤولية لهذه الدرجة يا جهاد! إن كنتِ لم تعودي تهتمين لسمعتك فاهتمي لسمعة شقيقتك والكل بات يظن أنها هي من كانت عنده لا أنتِ، اهتمي بجدتك ووالدتك وكيف ستواجهان الناس بعد هذه الفضيحة التي تسيء إليكِ وإلى سارة، اهتمي بسيرة أبيك العطرة؛ الحاج كرم رحمة الله عليه، لا يستحق منك اليوم أن تلوك فيه الألسن بالباطل»

تجمّعت الدموع في عيني جهاد بينما تهب سارة توشك على فضح الأمور بالقول "عماه جهاد ليست.. "بشراسة هتفت جهاد والدموع تنزل على خديها قائلة "كفى سارة؛ لا تحاولي الدفاع عني، لقد أخطأت بالذهاب؛ اعترف بهذا، ولا أعرف ماذا بوسعي أن أفعل لإصلاح الأمر»

قالت جملتها الأخيرة وفي قلبها تعنيها ولو بشكل مختلف، إنها لا تعرف بالفعل كيف ستصلح الأمر! حتى وإن تحملت ذنب سارة لكن الفضيحة وقعت وهي تمسّها وتمس شقيقتها وأمها وجدتها، فماذا سيحصل غداً؟!

تمتم حمزة بغضب مستعر وهو يرى عجز الفتاتين "سأقتله!" تدّخل عبد الصادق ليمنع وقوع المزيد من الفضائح فيقول بنبرة صارمة "أنت لن تفعل شيئاً يا حمزة كما لن تفعلي أنتِ يا جهاد، بل أنا من سيفعل، كفانا فضائح يرحمكم الله! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم "كان الأستاذ هلال يهز رأسه بأسف بينما الحاج عبد الصادق يأمر حمزة قائلاً "غادر يا حمزة وخذ معك هلال، عليّ أن أنتظر عودة الحاجة ياقوت لأكلمها "أخذ هلال يسحب حمزة من ذراعه وهو يتمتم "هيا بنيّ، بقاؤنا هنا خطأ وسيزيد الأمور تعقيداً "عينا حمزة لا تفارقان سارة، ودموعها التي تجري تذبحه ذبحاً، لكنه ترك الأستاذ هلال يسحبه خارج الشقة بينما الحاج عبد الصادق يقول للفتاتين وهو ينسحب أيضاً "أغلقا الباب خلفنا، أنا سأنتظر في الخارج»

***

كل واحدة تجلس على طارف سريرها، متقابلتان متواجهتان، ما تزالان بالفستان الزهري وكل واحدة تشدّ بأصابع كفيها على حافة سريرها كأنها تخشى الوقوع عنه، نظرات جهاد شاردة في تفكير عميق، تعيد تنظيم الأمور لمواجهة جدتها، بينما سارة أكثر تشتتاً ورعباً والأهم إحساساً بالذنب والعجز!

تمتمت سارة دون شعورها "لماذا فعلتِ هذا يا جهاد؟!

"بنفس النظرات الشاردة ردّت جهاد "انت تعلمين لماذا "بانفعال مكبوت وصوت خافت قالت سارة "لكن أنا التي أخطأت بذهابي إليه، أنا الغبية! لا أعرف كيف فعلت هذا؟! "

التفتت جهاد ناحية باب غرفتهما المغلق لتقول وهي غارقة بأفكارها "منذ عشر دقائق وهم في غرفة الضيوف، هذا الهدوء لا أحتمله "أما سارة فقد كانت مشتتة وهي تدور في حلقات متكررة فتعيد تذكر ما حصل بأشكال مختلفة، لتقول فجأة وعيناها تلمعان وكأنها ما تزال لم تتجاوز صدمة الأحداث التي جرت "رباه.. من أحضر له الخمر؟! لا بدّ أنه ذاك الصندوق، الهدية التي..» هتفت بها جهاد تقاطعها بحدة "كفى سارة! لا أريد أن أعرف شيئاً عنه، ليتَهم أهدوه سُمّاً يخلصنا منه ذاك الحقير النذل "غمرت سارة وجهها بين كفيها في خزي وما تزال الحلقات المغلقة تحاصرها فتهمس ببكاء مخنوق "عقلي لا يقو على التفكير بمخرج من هذا المأزق، لقد توقف بالكامل! "ردّت جهاد بوجه مكفهر قائلة "كفي عن البكاء واسمعيني يا سارة، أنت يجب أن تظلي صفحة بيضاء دون أي نقطة سوداء تلوّثها، جدتي وأمي لن تحتملا رؤيتنا نحن الاثنتين موصومتين أمام الناس "أبعدت سارة كفيها عن وجهها وهي تقول بشهقات البكاء "وماذا عنك أنتِ؟! ألا يكفي ما تعرضتِ له لتحملي أوزاري أنا أيضاً؟! "بابتسامة كئيبة قالت جهاد "سجلي كما يبدو حافلاً بالنقاط ولن يضيره

نقطة زيادة، الناس ستحبُّ التصديق أنها كانت أنا وليست أنتِ! فأنتِ البريئة الهادئة العاقلة الملتزمة بينما أنا المُطلقة المتهورة التي توقع الرجال في بعض فيتشاجروا بسببها "تقول جهاد هذا وهي لا تستطيع الافصاح عن شديد خوفها من مصير مجهول ينتظرها، تذكرت لجأة وائل! فغامت عيناها وهي تفكر أن لا مستقبل لها معه بعدما سيصله الخبر، أو ربما وصله بالفعل! أجفلت برعب تلقائي على صوت باب غرفة الضيوف يفتح وصرخة جدتها ياقوت "جهاااد "

لقد هبّت العاصفة، بل الإعصار! وقفت جهاد وسارة معاً ودون تفكير كان كفّاهما متشابكين ومع اقتراب الأصوات من باب الغرفة أخذت جهاد ترتجف رغماً عنها لكنها توصي شقيقتها بتشديد، بل حتى توسل "إياك يا سارة، إياك وتكذيبي، ستزيدين الموقف سوءاً على كل الأطراف»

فُتحت الباب بقوة واقتحمت الجدة ياقوت الغرفة بوجه لم ترياه منها على الاطلاق! لم تدرِ جهاد أ كانت هي أم سارة من نطقت بخفوت "جدتي "ثم انطلقت آهة ألم من فم جهاد مع صفعة مدوية من جدتها! والصفعة لم تكن إلّا البداية، فتنهال الجدة ضرباً لجهاد وهي تصرخ فيها "فضحتِنا.. فضحتِنا.. سوّدتِ وجوهنا في الحي بفعلتك "

يحاول الحاج عبد الصادق إبعاد الجدة عن جهاد وهو يناشدها بالقول "يا حاجة ياقوت.. اذكري الله، بالله عليك يا حاجة اذكري الله وصلي على رسول الله "لكن الأمر أفلت من الجدة ياقوت وهي تضرب حفيدتها عشوائياً وتهدر بأنفاس لاهثة "كنت أعلم أنك ستجلبين لنا العار يوماً بعنادك وغرورك وتمردك، وشقيقتك المسكينة ستدفع الثمن معك، من سيتزوجها وأختها المطلقة كل يوم بفضيحة جديدة مع رجل جديد "سارة تبكي بشهقات وهي تحاول حماية توأمتها وتتوسل للجدة بالقول "جدتي بالله عليك كفى، جهاد لم تفعل شيئاً "ومنى تتشبث بذراع بأمها وهي تكاد تقع مغشياً عليها "أمي أتوسل إليك، قلبي سيتوقف!»

كل هذا وجهاد لا تدافع عن نفسها فقط تنظر لعيني سارة والوصية تكرّرها بصمت (مهما حصل لا تتراجعي، إياك يا سارة، دعيني أتصرف للنهاية)، لكن سارة تكاد تنهار وهي تحمي توأمتها بجسدها وتهتف بالجدة في بكاء مرير "اضربيني أنا بدلاً منها، أتوسل إليك لم أعد أحتمل "ما تزال جهاد تنظر في عيني سارة وتقول لها بالنظرات (أنا لا أشعر بالألم من الضرب، صدقيني لا يؤلمني هذا!)

ثم أغمضت جهاد عينيها بقوة والجدة تواصل ضربها وشدّ شعرها بينما جسدها النحيل يتمايل ويتهاوى بين الأيادي التي تتلقفها تارة وتشدّها وتدفعها تارة أخرى، تمازجت

الأصوات وجهاد لم تعد تهتم بسماع ما يقولون، تنتظر فقط أن ينتهي الإعصار لتواجه الخرائب.

***

صباح اليوم التالي

صداع رهيب في رأسه فيمتنع عن فتح عينيه مُجبراً، يشعر بمن يحومون حوله، يصله همس أصواتهم وبرودة تواصلهم، فهل وجودهم حقيقة أم خيالات متضاربة؟! أم تراه مات والتراب يُهال عليه في قبره ولا يرافقه اللحظة إلّا بضعة غرباء ما بين دفّان مأجور ومتبرع عطوف!

هو.. أيوب العريم؛ يتعطف عليه حثالة من حي الخاتون ليدفع ثمن دفنه تحت التراب، ثم يتمنّن المتبرع متفاخراً أمام الناس بالقول (إكرام الميت دفنه)!

يقاوم بضراوة إحساس الموت، لا.. ليس بعد.. ما يزال الوقت باكراً لينال استحقاقه من نار جهنم في الدنيا! لا ليس بعد.. لا يريد من أحد (إكراماً) بالدفن؛ فليدعوه يموت وحيداً في شقته، تتفسخ جثته ولا يكتشفون موته إلّا عندما تفوح رائحة العفن من لحمه!

بتشبث عنيد يفتح عينيه شاهقاً يبحث عن هواء يسحبه

عنوة الى رئتيه، كان هلعاً يقاتل بضراوة ذاك الألم الرهيب في رأسه كي يصحو من (موته) ويواجه ما هو أكثر إيلاماً ووجعاً، أنفاسه متسارعة، صدره يعلو ويهبط وهو ينظر إلى ما حوله على ضوء النهار، إنه ليس في قبر حقيقي، بل هو فقط في قبر الخاتون!

أدار وجهه بحدة ناحية الباب عندما سمع صوتاً من هناك يقول "حضّر قهوة قوية للسيد واجلبها الى غرفته ثم ارحل بعدها يا نعمان "يحدق أيوب عند صاحب المقهى بجلبابه الكحلي الذي لا يتخلى عنه وقد وقف في باب الغرفة بينما يرد عليه أحدهم بالقول "حاضر يا حاج»

تبادل أيوب النظرات الحادة مع الحاج عبد الصادق الذي سمح لنفسه أن يدخل غرفته دون أن يستأذن، ولم يكن بمفرده، بل لحق به مباشرة الأستاذ هلال، تقدّم كلاهما من سرير أيوب وبينما كانت تعابير صاحب المقهى متجهّمة على غير عادته، بدت تعابير الاستاذ أكثر ليناً وتلطفاً، أو ربما أراد الايحاء بهذا اللين واللطف لتخفيف تجهم تعابير صاحبه.

لم يهتم أيوب لهلال، بل اكتفى بتوجيه السؤال الى عبد الصادق بنبرة حادة مُتعالية "ماذا تفعل في بيتي؟! "لم يرد الحاج عبد الصادق وكأنه يتفكر بالإجابة بينما تنحنح الأستاذ هلال قائلاً "أعرّفك بنفسي فربما لا تذكرني من

المرة الوحيدة التي تكلمنا فيها قبل عامين، أنا..» بنبرة قاطعة قال أيوب "الاستاذ هلال.. أنا اعرفك.. أعرفكم جميعاً "

عند تلك اللحظة دخل عامل المقهى (نعمان) وهو يحمل صينية يتوسطها فنجان قهوة وقدح ماء ليشير إليه الحاج عبد الصادق أن يضعها على المنضدة جوار السرير، ففعل الشاب ثم انسحب قائلاً "أنا سأغادر يا حاج، هل تحتاج لشيء آخر مني؟ "فرد الحاج "لا بنيّ، عد الى بيتك ونم بضع ساعات، أنت سهرت طوال الليل تعتني بالسيد "فهزّ نعمان رأسه ثم غادر بصمت وأيوب يراقب ما يجري وعقله يشقُّ غيوم الألم ليستذكر ما حصل ليلة الأمس فلا يجد إلا صوراً مبعثرة في الذاكرة تكاد تكون هواجس أو كوابيس!

حاول أيوب النهوض بجذعه لكنه وجد صعوبة، وبعد محاولتين نجح، نظر إليهما بحاجبين معقودين وقد سحب كلّاً منهما كرسياً ليجلس عليه قبالة السرير فيسأل أيوب بتركيز "هلا تشرحان لي ماذا يحدث هنا وماذا تفعلان في بيتي؟ "سأل الحاج عبد الصادق بهدوء غريب "ألا تذكر شيئاً مما حصل بالأمس يا سيد؟ "ضربة ألم صدمت رأس أيوب فيحني وجهه ويغمض عينيه مُجبراً بينما يرفع كفه الايمن الى صدغه يدلكه بأصابعه وهو يرد بصدق "لا أدري.. الصور مشوشة "أول اسم التمع برأسه كان اسم (سارة)! أخذ عقله يوضح بعض التفاصيل المشوشة في صور غريبة،

وكأنه كان يحمل تفاحة حمراء ويحاول تقريبها عنوة من شفتيّ سارة البريئتين المرتجفتين!

ثم جاء السؤال من صاحب المقهى "من أحضر لك الخمر؟ "تجمّعت الصور ثم تناثرت وتبعثرت من جديد ليرفع أيوب رأسه في حدة هاتفاً "ومن أنت لتحاسبني في عقر داري.. آه...»

ضربة ألم أقوى من الأولى جعلته يتأوه بصوت عالٍ وهو يغمض عينيه بقوة يحاول السيطرة على وجعه، صوت حركة الفنجان فوق صحنه مع رائحة القهوة تقترب منه ثم صوت الحاج قائلاً "اشرب بعض القهوة يا سيد، ستريحك "لم يرفض فالألم أقوى من أن يكابر، كما إنه يحتاج لاستعادة تركيزه وتجميع صور ذاكرته لما جرى بالأمس، أخذ فنجان القهوة من يد عبد الصادق دون أن يشكره ثم ارتشف بضع رشفات حتى بدأ يشعر بالتحسن قليلاً.

أول ما تذكره بوضوح هو (الهدية) ثم.. انتكاسته! أطبق اسنانه بقوة وهو يمسك صحن الفنجان بتوتر شديد، جاءه صوت عبد الصادق بنبرة لم تعجب أيوب على الاطلاق "أ تذكر يا سيد عندما دخلت حي الخاتون لأول مرة قبل ثلاث سنوات؟ قبلناك بيننا ولم نسأل حتى من أين أتيت، قلنا رجل وحيد وله ظروف خاصة»

بنظرة مباشرة حملت ترفّعاً مقصوداً وغروراً مُكتسباً قال أيوب بنبرة إهانة "أنت تشعر بالشفقة عليّ أنا؟! هزُلت! "لم يستطع هلال الصمت امام إهانة صاحبه ليهتف بعصبية وهو يقف على قدميه "نعم أشفقنا عليك، لكن يبدو هذا أكثر بكثير مما تستحقه "أمسكه عبد الصادق من ذراعه يحاول سحبه كي يجلس مجدداً على الكرسي وهو يقول "اهدئ هلال، لدينا ما هو أهم "لكن هلال كان غاضباً للغاية وهو يشوح بيده قائلاً "من يحسب نفسه ليكلمك هكذا؟! لم أظنه بهذا الخلق السيء "لم يهتم أيوب لغضب الاستاذ هلال، بل ارتشف من الفنجان وهو يصرفهما بنبرة آمرة "غادرا.. كلاكما، حالاً "بنظرة ذات معنى من عبد الصادق الى صاحبه فاستجاب هلال ليعاود الجلوس بينما يقول عبد الصادق بحزم موجهاً كلامه لأيوب "لن نغادر؛ ليس قبل أن نتكلم فيما جرى بالأمس "رد أيوب بلا مبالاة وكل تركيزه على فنجان القهوة "ما جرى بالأمس أنا حرٌّ فيه، ولن تحاسبني انت يا صاحب المقهى؟! "قال عبد الصادق عندها بنبرة قوية "بل نحاسبك وما جرى لا يحدث في حيّنا "

ضحك أيوب بخفة وهو يرفع نظراته للرجلين يتطلع إليهما بما يشبه التسلية أو هذا هو الانطباع الذي أراد منحه ليدفعهما المغادرة، لكنهما لم يستجيبا وكأنهما اتفقا عليه ولن يفقد أحدهما أعصابه مرة ثانية!

أعاد أيوب الفنجان الى الصينية فوق المنضدة وهو يشعر أن الصور التي تتجمع في رأسه ليست كلها هلوسات، لكنه غير قادر حتى اللحظة على فهم دور سارة فيها، يشعر عن يقين أنّ وجود هذين الرجلين هنا له علاقة مباشرة بسارة وتلك التفاحة الحمراء!

نظر إليهما أخيراً وهو يرد على كلام صاحب المقهى بابتسامة ساخرة باردة "لا يحدث في حيّكم؟! قد لا أخرج من هذا المبنى إلا نادراً لكني أعرف كل ما يجري فيه، اذهب وانصح الشباب الضائع التائه عند الأطراف المظلمة في الحي، الحبوب المخدرة أحياناً تقع من جيوبهم! أما زجاجات الخمر الرخيص الملقاة في الأزقة الضيقة فحدث ولا حرج، مع تحياتي لحي الفضيلة الذي تحمي سمعته!»

يراقب الأستاذ هلال هذا الرجل المشوه عن كثب، يعترف أنه تفاجأ من دقة ملاحظته لما يجري في الحي رغم أنه لا يغادر شقته تقريباً! فكّر هلال أنّ أيوب هذا رجل ليس بالهين، بل يشعر أنه رجل خطير، ولم يعد هلال يدري هل ما يسعى إليه عبد الصادق صحيح أم خطأ؟!

عبد الصادق لم يسكت على كلام أيوب ليرد عليه بالقول "نعم لسنا في حي (الفضيلة) وشباب كثير هنا ضائعون كما وصفتهم؛ لضيق الحال وانتشار الفساد، لكن هذا ليس

موضوعنا، ولستُ هنا لأوبّخك أو حتى أنصحك، أنت حرٌّ في شقتك كما قلتها أنتَ بنفسك، لكن أنا هنا لفعل أقدمتَ عليه بالأمس وأنت سكران، وتوابعه وخيمة يا سيد، وخيمة للغاية»

صوت سارة فجأة صرخ في ذاكرته (**دعني أيوب.. أنت سكران**) اتسعت عينا أيوب بينما عبد الصادق يضيف المزيد "رغم انتشار المخدرات والخمر كما وصفت لكن ما تزال بناتنا خطاً أحمراً وسمعتهن نحميها بأرواحنا "هذه المرة صوته هو من علا من ذاكرته (**أنا الذئب.. أنا الداهية.. بل أنا الشيطان الذي وسوس لآدم بأكل التفاحة المحرمة**) امتقع وجه أيوب والصور تتلاحق من الأمس، لقد كانت سارة معه بالفعل وليست هلوسات!

عبد الصادق يختم كلامه بتهديد صريح "ومن يحاول الاعتداء عليهن نقطع عمره "نظر أيوب في عيني عبد الصادق فيرى فيهما عينيّ سارة المصدومتين المرتعبتين مساء الأمس، كانت تلبس فستاناً زهرياً! (**تعالي يا بريئة، الزهري يجعلك أشهى للأكل، براءتك هدية عيد ميلادي الأربعون، براءة لذيذة حمقاء!**)

رباه.. لقد حاول الاعتداء على سارة وهو سكران! أ ليس لهذه الذنوب من نهاية؟! أرخى أجفانه يخفي ارتجافه الداخلي بينما يتساءل "أ تهددني! "هتف عبد الصادق

وهو يمسك أعصابه بكل ما أوتي من قوة "البارحة أتت إليك جهاد بحسن نية لإيصال طلب مستعجلٍ إليك وأنت تهجمّت عليها ولولا رحمة الله لا ندري ماذا كان سيحدث أيضاً، ثم تقول لي الآن بكل برود (أ تهددني)؟! "

كلمة واحدة، اسم واحد، أخرجَ أيوب من ارتجافه ليرفع نظراته وهو يسأل بدهشة أقرب لعدم التصديق "جهاد؟! "تنبه هلال لتلك النظرة والنبرة من أيوب ليرد هو عليه بالقول "أجل جهاد توأم سارة، ألا تذكر؟ "فيهز أيوب رأسه وهو ينفي قائلاً "لكن لم يحصل "هبّ الحاج عبد الصادق على قدميه ليقول بعنف "بل حصل! وقد رآها تخرج من عندك سكان الحي وكانت فضيحة! "بدا أيوب في حالة عجيبة غير مفهومة، يتمتمٍ بالقول "جهاد! لكنها.. لم.. "قاطعه عبد الصادق قائلاً وهو يرفع سبابته يهزّها بانفعال "اسمع يا سيد، لقد وعدتُ والدها بحمايتها هي وشقيقتها، لم أكن راضياً عن عمل سارة معك بالآونة الاخيرة، ثم ترددُها هي وشقيقتها عليك في شقتك، لكن كانت لي حدودي معهما فلم أستطع فرض شيء عليهما، وما كنت أخشاه حصل! والفأس وقعت بالرأس كما يقال في الأمثال، وسمعة عائلة كاملة كلهن نساء باتت على المحك»

عقل أيوب تشتت! لا.. لم يتشتت، هناك خطأ، بل خطأين بالأحرى، هتف أيوب بتصميم "اريد أن أكلم

سارة "وقف هلال على قدميه هو الآخر وهو عابس بتفكير، يشعر أن الامور ليست في نصابها الصحيح بينما عبد الصادق يردُّ على طلب أيوب رافضاً بشكل قطعي "سارة لن تستمر بالعمل معك بعدما حصل "فيهدر أيوب وهو يحاول مغادرة سريره "لا يهمني عملها اللعين، أريد أن أكلمها "ثم أخذ يبحث عن عصاه وهو يشتم ويلعن فيرد عليه عبد الصادق بقوة "لن تكلمك ولن تراها لا هي ولا جهاد حتى نصحّح هذا الوضع امام أهل الحي "ضرب أيوب بقبضته على السرير وهو عاجز عن الوقوف ليسأل بعنف "ما المطلوب مني الآن لـ (تصحيح الوضع)؟ "حاول هلال تهدئة الأمور والجنوح للتعقل وهو يقول لأيوب "جهاد امرأة مطلقة يا سيد أيوب "

نظرة أيوب جعلت الاستاذ هلال يشعر أكثر بوجود الخطأ! لم يفهم ما يجري بالضبط، شعر للحظة أن أيوب يوشك على قول شيء لكنه تراجع ليقول بغموض "أعلم هذا "فيضيف هلال "وأنت تعرف كيف يفكر الناس "ضرب أيوب بقبضته مرة أخرى على السرير متسائلاً بعصبية "ما أزال اسأل عن المطلوب مني؟! "تبادل عبد الصادق النظرات مع هلال قبل أن يقول لأيوب بمعنى مفهوم ضمنياً "أظنك تعرف المطلوب، فأنت شديد الذكاء والفطنة يا سيد "استوعب أيوب المعنى، ضيّق عينيه وهو ينظر في عينيّ عبد الصادق يسأله "هل هذا تهديد أم ابتزاز؟ "زمَّ عبد الصادق فمه قبل أن ينهي الحوار بالقول

“أنتظر ردّك بعد يومين، جدتها وأمها أيضاً تنتظران»

ثم استدار عبد الصادق ليغادر فلم يكن لهلال إلا أن يفعل المثل رغم أنّه أراد البقاء والاستفسار أكثر من (السيد)، عند باب الغرفة التفت عبد الصادق الى أيوب ليقول أخيراً “سارة لن تستطيع أن تعود للعمل عندك بعدما جرى، نحتاج كلنا إلى رد اعتبار لأختها جهاد يا سيد، الحي منذ الصباح لا حكاية في أفواههم إلّا جهاد»

ثم غادر مع هلال وأيوب يضرب بقوة على سريره وهو يتمتم بغضب مهول انفجر “جهاااد..»

***

ينزلان على الدرجات بينما هلال يقول بحيرة “هذا الرجل لا يريحني “يهز عبد الصادق رأسه وهو يقول بتجهم “كم حذرت الحاج كرم من السماح لابنته بالعمل معه، لكنه أشفقَ عليه ولسبب ما اطمأن إليه ولا أعرف كيف! “توقفت خطوات الاستاذ هلال منتصف السلم ما بين الطابق الثاني والأول ليمسك بذراع صاحبه ويقول له بخفوت “يا عبد الصادق ألا ترى أنك تلقي بجهاد الى مصير مجهول؟ “فيرد عبد الصادق بتجهم أشد “أفضل من أن أرميهن كلهن في مصير أسوأ! هي أخطأت بما فعلت ويجب أن نلملم خلفها النتائج “حاول هلال الاعتراض

بالقول "لكن.. "قاطعه عبد الصادق قائلاً بحزم "لا يوجد لكن يا هلال، ليس أمامنا خيار آخر، جدتها وأمها تريدان ستر الفضيحة، وكلما أسرعنا بسترها كلما قلّت الخسائر ونسيها الناس»

عاود عبد الصادق النزول وهلال يلتزم الصمت بعبوس، وفي الطابق الأول فُتِحَ باب شقة أم أدور لتقول دون مقدمات "لقد كانت جهاد أليس كذلك؟! هذه الفتاة لم ترتدع من تجربتها السيئة، رحم الله والدها كم أتعبته! "يرد عليها الأستاذ هلال بضيق "جهاد فتاة جيدة يا أم أدور، كلنا نخطئ "تعوّج أم أدور فمها يميناً وشمالاً ثم ترد قبل أن تعاود الدخول الى شقتها "لكن خطأ عن خطأ يفرق يا أستاذ هلال "حالما أغلقت أم أدور باب شقتها تأفف الأستاذ هلال وهو يخلع نظارته الطبية لينظفها بكم قميصه وهو يقول بحنق "هذه المرأة لا أطيقها! ولا أدري كيف انتشر الخبر بهذه السرعة في الحي، أعني كيف بات الناس يعرفون أنها جهاد وليست سارة»

فجأة علا صوت جلبة قادمة من الشارع فتمتم عبد الصادق وهو ينزل السلم "هذا شجار، وكأني أسمع صوت حمزة! استر يا رب»

***

لم يكن الشجار إلّا بين حمزة وبعض شباب الحي، هرول الحاج عبد الصادق ليفك التشابك بالأيدي بينما يمسك حمزة بخناق أحدهم يرفعه من مقدمة قميصه ليصرخ به في تعابير غاضبة ثائرة "عاودوا الكلام بهذه الطريقة وسأدفنكم أحياءً أنت واصحابك الحثالة "حاول الشاب التملص وهو يلهث بينما أصحابه ينسحبون بعد أن أمرهم الحاج عبد الصادق، قال الشاب أخيراً والدم ينزف من فمه "أنا لم أكن.. أعني.. "أمسك الحاج عبد الصادق بكتف حمزة وهو يسأله بنبرة حازمة "كفى يا ولدي، دع الشاب لحاله وأخبرني بماذا أزعجوك؟! "كان بعض المارة قد تجمهروا والهمس يرتفع بينما حمزة صرخ باهتياج وهو يهز الشاب "هذا الحقير قال عن جهاد كلاماً قذراً وأصحابه يضحكون، قال إن السيد أغتصـ..» هتف الأستاذ هلال عندها يمنع حمزة قول الكلمة البشعة بينما يوجه كلامه للشاب "ما هذا؟! ألا تخجل؟! أ هكذا تحافظ على سمعة بناتنا؟! "ما يزال الحاج عبد الصادق يحاول تحرير الشاب من قبضة حمزة لكن حمزة يأبى إفلاته ليحشره الى حائط مبنى قصر الخاتون وهو يهدر بحمائية "بنات الحاج كرم أطهر وأشرف من أن تذكرهما على لسانك القذر»

إحدى النسوة من المتجمهرين قالت بغيظ "لماذا تضربه يا حمزة؟! هو لم يخطئ، وهل الشريفة تذهب في منتصف الليل لتزور رجلاً أعزباً؟! "التفت الحاج عبد الصادق ليرد عليها ويُسمِـع أهل الحي "لم يكن منتصف الليل، لقد

كان وقت الغروب، وجهاد بحسن نية كانت توصل طلباً مستعجلاً للسيد، ما حصل بالأمس كان حادثاً لا أكثر "ليهتف رجل هذه المرة "لماذا لا تقول إنه كان مخموراً واعتدى عليها "ترك حمزة الشاب ليقع أرضاً بينما يطلق صوتاً مزمجراً وهو ينوي ضرب ذاك الرجل فيوقفه الحاج عبد الصادق وهو يلفّ ذراعه أمام جسد حمزة ثم يرد على الرجل بالقول الحازم "السيد رجل شريف، لم يعتدِ على أحد، عرفناه لثلاث سنوات ولم يفعل ما يُشين، كل الأمور ستصبح في نصابها الصحيح قريباً»

وقبل أن يكثر اللغط والكلام أخذ الحاج عبد الصادق يفرقهم وهو يطلب منهم الانصراف إلى شؤونهم بينما الأستاذ هلال يراقب في توتر مسار الأحداث، شعر بمن يقف جواره فالتفت ليرى وائل بوجه شاحب وتعابير ذاهلة بينما يسأله بخفوت "هل صحيح ما أسمعه يا أستاذ هلال؟! هل حقاً.. جهاد.. ذهبت للسيد مساء وكان مخموراً وحاول أن.. "لم يستطع وائل أن يتم كلامه فترك للأستاذ هلال أن يفهمها دون أن يطلبها صريحة منه، نظر هلال مطوّلاً الى أستاذ الرياضة البدنية، هذا الشاب اللطيف بعضلاته المتناسقة وأفكاره الهادئة، لكن ما رآه الاستاذ هلال منه اليوم لا يبعث على التفاؤل! سأله هلال بدلاً من أن يجيب على سؤاله المبتور "وهل يهمك الأمر يا وائل أم أنك أصبحت تحب القال والقيل؟ "تقبّضت يدا وائل وهو يرد "بل يهمني.. "ثم التمعت عيناه بنظرة غريبة

كأنه فقد عزيزاً ليصحّح جملته بالقول "أو كان يهمني! "أراد الاستاذ هلال أن يتكلم فسبقه وائل بالقول وهو يحني رأسه "عن إذنك يا استاذ، سأذهب لشؤوني كما قال الحاج عبد الصادق»

تحرك وائل مبتعداً بينما يحاول الأستاذ هلال مناداته ووائل لا يرد! فأخذ هلال يضرب كفاً بكف، ثم التفت الى حيث يقف الحاج عبد الصادق مع حمزة يتحاوران بهمس منفعل قبل أن يتركه عبد الصادق وهو يقول بصوت مسموع "ليس الآن، سأخبرك لاحقاً يا ولدي»

التفت حمزة الى الأستاذ هلال ثم تقدم نحوه وقد بدا ثائراً مهزوماً بشكل مؤلم بينما يطلب من الاستاذ هلال بهمس "ماذا جرى بالأمس يا استاذ في بيت الحاج كرم؟ الحاج عبد الصادق بمزاج متعكر ولا يريد الكلام معي الآن، لكن أنت تعرف فأخبرني بالله عليك، أنا لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من هذا، لم أنم ليلة الأمس حتى أوشكت على الجنون "رفع الاستاذ هلال يده ليربّت على كتف حمزة قائلاً بتعاطف "لا تقلق بنيّ ستكون الأمور بخير، اترك عمك صدوق يرتاح قليلاً ثم سيخبرك بنفسه "ثم تركه هلال ومضى ناحية المقهى يلحق بصاحبه بينما حمزة يرفع رأسه الى تلك الشرفة اللعينة في الطابق الثاني من قصر الخاتون وعيناه تقدحان شرراً، سيقتل أيوب بالفعل إن لم يفعل شيئاً لحماية جهاد من ألسن الناس.

***

كان يستمع دون أن يرى، باب الشرفة مفتوح ومع نسائم الربيع تأتيه روائح البشر العفنة، صداعه ما يزال مستمراً دون رحمة وكأنّه سياط أهل الحي تضرب داخل رأسه، يخطو ببطء ناحية الهاتف الأرضي فقد كان جسده مستنزفاً، لمح اسطوانة بحيرة البجع مكسورة على الأرض فيتجهّم أكثر وكل تفاصيل ما حصل بالأمس تتضح معالمها، رفع سماعة الهاتف وهو يشتم توفيق ويشتم سحر ثم أخذ يشتم نفسه؛ ضعفه وانتكاسته وشيطانه.

يضغط الأرقام المطلوبة فيرن الهاتف بينما يتمتم أيوب بتوتر غاضب "ردي سارة.. ردي عليّ"

يعاود الاتصال مراراً لكن سارة لم ترد! جلس على الأريكة قبالة الباب حيث ينتظرها باستمرار ثم يميل برأسه للخلف ويغمض عينيه ليقول مُحدثاً نفسه بصوت خشن "أنتَ لعنة يا أيوب، نارٌ تحرق كل من يقترب منك!»

***

ظهر اليوم التالي

دخلت سارة الغرفة وهي تخلع عن وجهها (قناع) الفتاة الصلبة القوية التي تحسن التصرف في المواقف الصعبة، لطالما اعتقدت أنها كذلك بالفعل لكن ما تشعر به منذ الأمس جعلها تشكُّ في نفسها، في قدراتها، في مصداقيتها! أغلقت باب الغرفة خلفها ليبرز الشحوب تحت ذاك القناع المخلوع، نظرت إلى شقيقتها المستلقية على السرير وهي تحدّق في السقف فتقول بصوت محشرج "كلتاهما لا تغادران غرفة النوم، الصدمة لا تفارق تعابير وجهيهما "ثم تقدمت لتجلس على طارف سريرها وهي تضيف بإنهاك "لقد رفضتا الافطار، وبعد أداء الصلاة عادتا للنوم.. أو ادعاء النوم»

التفتت جهاد ناحية توأمتها لتسألها بوجه شاحب كوجهها "هل ما تزال أمي تبكي؟ "تعض سارة طارف شفتها السفلى كي تمنع نفسها البكاء وهي تقول بوجع "وجدّتي أيضاً! لم أرها يوماً ضعيفة بهذا الشكل "عاودت جهاد النظر للسقف وهي تتمتم "إنهما خائفتان "

اعترفت جهاد لنفسها أنها هي الأخرى خائفة، كما سارة خائفة، كلهن يرزحن تحت سقف الخوف ولم يعد سقف بيت الحاج كرم يمنحهن الأمان المألوف.

غمرت سارة وجهها بين كفيها وهي تقول باختناق "لم أعد أستطيع لعب هذا الدور يا جهاد، ادّعي أني

أواسيهما وأخفف عنهما وأنا السبب في هذه المصيبة "هبّت جهاد من السرير لتنزل ساقيها عنه وتجلس على طارفه كما تفعل سارة قبالتها بينما تقول لها بحدة "يجب أن تستطيعي "تجري دموع سارة على خديها لتجد متنفساً من هذا الكبت الذي تمارسه خارج حدود الغرفة بينما تقول بجلد للذات "ماذا فعلتُ يا ربي.. ماذا فعلت؟! أين كان عقلي؟! لقد ورطتُك بكلِّ هذا، ورطتُكم كلكم معي "تنهدت جهاد وهي تقف على قدميها لتقترب من شقيقتها وتجلس جوارها وبدلاً من منحها (حضن مواساة) أزاحت كفي سارة عن وجهها لتقول لها بطاقة مستنزفة "اسمعيني سارة.. أنا لم يعد لدي طاقة لأخفّف عنك، فطاقتي؛ أو ما تبقى منها، أريد ادخارها للقادم الذي لم تتضح معالمه لكن يجب أن نستعد له "أخذت سارة تهز رأسها بموافقة فترفع جهاد يدها لتمسح دموع سارة وهي تضيف "شعوركِ بالذنب لتهورك لن يفيد فقد حصل ما حصل ولن نستطيع تغييره، أما شعورك بالذنب نحوي ففكري أن هذا هو الافضل للجميع، واحدة منا كان يجب أن تحمل التهمة، وحملي لها هو أهون الشرين وأنتِ تعلمين "قالتها وخوف يقبض قلبها لكنها تكتمه!

تساءلت سارة وهي تحاول أن تتماسك رغم انقباض قلبها المفاجئ "لماذا جدتي لا تفصح عما اتفقت عليه مع العم عبد الصادق ليلة الأمس؟ وتمنع أمي من الكلام معنا! أشعر أن هناك ما يدور "ردّت جهاد والحيرة تؤرقها

منذ الفجر "وأنا أيضاً أشعر بهذا، أظن العم عبد الصادق سيسعى لنوع من الإعلان في الحي واعتذار صريح من أيوب، وحتى يتم هذا الأمر ليس لنا إلّا الصمت والجلوس على السرير في هذا الحبس الإجباري المفروض علينا إلى ما شاء الله!»

بعفوية قالت سارة "المكتبة مغلقة اليوم أيضاً ولا أدري متى سأفتحها مُجدداً "شعرت جهاد لأول مرة بالنفور من توأمتها! أ هي أنانية أم تخشى فقد آخر خيط يربطها بذاك النذل؟! هبّت جهاد لتقف على قدميها وهي تقول بحنق "فلتحترق المكتبة وصاحبها "لكن سارة قالت بلوعة "لا تقولي هذا يا جهاد، المكتبة هي تعبي وكدّي، بذلت فيها الكثير على مدار ثلاث سنوات "تنظر جهاد بعبوس الى وجه سارة فتسألها بحدة "وماذا عنه؟ أم إنه ليس في حسابات (تعبك وكدّك)؟! "تورد خدا سارة وهي تتطلع للأعلى في وجه توأمتها، ماذا تفعل في نفسها؟! هتفت جهاد وحنقها يشتد "تحمرين مرة أخرى! "تشعر سارة بالتيه وهي ترد عليها بخفوت "أشعر بالخزي وبنفس الوقت.. "تتلكأ الكلمات ثم تضيف بصدق "لا أدري جهاد.. لا أدري كيف أعبّر فكل شيء مختلط داخلي "بقسوة قالتها جهاد "حقيقة واحدة ثبتيها في رأسك يا سارة، أيوب ليس لك، منذ البداية لم يكن، ولن يكون مستقبلاً، خاصة بعد ما جرى "تبتلع سارة غصّتها وتحاول دحر تخبطها لكنها تعترف بالقول "أعلم.. وسامحيني إن قلت أنّ هذا.. يؤلمني "

أجل يؤلمها، يؤلمها أنها في عقلها الباطن كانت تحلم أن يُكِنّ لها أيوب مشاعر كفاية ليفكر فيها على محمل الجد، أن يسمح لها لتصبح جزءاً من حياته؛ تعينه على تخطي ماضيه المجهول! مؤكد له ماضٍ يجعل رجلاً مثله يعيش حياة كهذه، لقد تعلقت به لهذا السبب؛ إحساس أنه يحتاج إليها بطريقة ما، وظل هذا الاحساس مطموراً في الباطن يخجل أن يطلّ برأسه إلى السطح، وها هي تتألم لفكرة أن أيوب سيختفي من دائرتها دون رجوع. أغمضت عينيها وموجة غثيان مفاجئة تنتابها وهي تتذكر ما حصل أول الأمس، لمس تشوهه كان.. بشعاً! ليس تشوه جلده فحسب؛ بل تشوهه من الداخل كان أبشع ومنفراً أكثر، شعرت بحضن جهاد يحتوي ألمها وكالبلسم يخفف عنه وهي تقول لها بتشجيع "إنه ألم الشفاء، اصبري عليه وستبرئين من هذا الوهم "رنّ هاتف سارة في جيبها لتتوتر وهي تبتعد عن حضن شقيقتها، أخرجت الهاتف وهي تتطلع الى اسم (أيوب) ينبض على الشاشة.

سألتها جهاد بحنق تلقائي وهي تحاول النظر إلى الشاشة "هل هو المتصل من جديد؟ "كلتاهما تنظران الى اسمه، لتقول سارة بنبض خافق "لم أعد أحتمل! منذ البارحة لم يتوقف، سأغلق الهاتف نهائياً "لكن جهاد خطفت الهاتف من يد سارة لتقول بغضب مستعر "لا.. أعطني إياه "تحركت جهاد لتهرب من محاولة سارة لاستعادة

الهاتف وهي تقول لها "لا تفعلي جهاد.. بالله عليك لا.. "تراوغها جهاد بجسدها وهي تتحرك في الغرفة بينما تهتف سارة بمزيد من الحنق والخوف "قلت لك أعطني إياه "أخيراً تمكنت جهاد من حشر نفسها في الفسحة الفارغة الضيقة بين نهاية الخزانة والحائط لتتمكن من فتح الخط بعيداً عن محاولات سارة، فوضعت نفسها وسارة أمام الأمر الواقع وهي تبدأ الكلام بالقول البارد "نعم.. تفضل»

تجمدت سارة وقد وقع الأمر ولم يعد هناك ما تفعله، دون شعورها تراجعت للخلف وركبتاها تتخبطان ببعض لتنهار على حافة السرير فتجلس بجمود وهي تحدق في جهاد المحشورة هناك، أما جهاد فعيناها تشعّان كُرهاً وهي تسمع صوت أنفاس أيوب بوضوح، مرّت لحظات وهو صامت حتى قال بنبرة عجيبة "فعلتِها يا جهاد»

صدمها وهو ينادي اسمها بمعرفة اليقين! لكن صدمتها لم تسمح لها بالاستمرار لأكثر من بضع ثوانٍ قبل أن ترد عليه بنبرة ساخرة "جيد أنّكَ تميز صوتي "فردٌ بنفس النبرة المُحيّرة "أنا أميّز سارة وليس أنتِ "أراد اهانتها بطريقة ما فشمخت جهاد بأنفها تلقائياً لتكتم الآهة وأنفها يحشر في جانب الخزانة، وقبل أن تجد ما تشتم به أيوب كان هو يضيف ما جعل جلدها يقشعر "حتى وأنا مخمور يا جهاد أستطيع تمييزها عنك "أخذ قلبها يخفق بجنون وهي

تلتفت جانباً لتنظر الى توأمتها فترى انعكاس شحوبها في شحوب سارة، تحاول جهاد التماسك في مواجهته وهي تسأل بادعاء الجهل "ماذا تقصد؟ "فوقعت الصاعقة على رأسها وهو يرد بخشونة "لقد كانت سارة من جاءت إليّ ذاك المساء، واسطوانة بحيرة البجع المكسورة ما أزالُ احتفظ بها، لقد جاءت بها إليّ لأجل عيد ميلادي أليس كذلك؟ "

أخذ صدر جهاد يعلو ويهبط وعقلها يحاول إيجاد مخرج، سؤال مرعب يجول في خاطرها اللحظة (هل يمكن لأيوب أن يفضح الأمر ويقول أنّ سارة من كانت عنده وليست جهاد؟) لكنها عادت وحاولت طمأنة نفسها بالتفكير (مهما قال فلن يصدقه أحد، الكلّ لا يميز إحداهما من الأخرى، كما لا يعقل أن يُصرّ على فضح سارة بهذا الشكل) اتخذت طريق الهجوم لتفرض عليه الأمر الواقع قائلة بنبرة تحد وتشفٍ "هل تعلم يا أيوب، وسط كل هذا الذي أواجهه بسببك إلا أني سعيدة لما آلت إليه الأمور، مهما قلت الآن فاللعبة انتهت "

تحدق سارة في جهاد بتعابير الصدمة وهي لا تصدق ما تفوهت به جهاد للتو، لم تفهم ما يجري من حوار عبر الهاتف لأنها لا تسمع أيوب لكنها مذهولة من اسلوب جهاد الصادم وكلماتها الرهيبة معه.

كانت جهاد بعيدة عن صدمة توأمتها وهي تستمع بتركيز الى أيوب الذي قال بغضب ساخر "وهل تظنين بإبعاد سارة عني أنها سترضى الزواج من الميكانيكي؟! أنت لا تعرفين توأمتك "تقبّض كف جهاد الحرّ ثم ضغطته في جانب الخزانة كأنها تودّ لكمه، هتفت به وكلها يشتعل "بعد خمسة وعشرين عاماً قضيتها في هذه الحياة كروح واحدة منقسمة في جسدين تأتي أنت وتقول لي أني لا أعرف سارة! "

وسط الصدمة دمعت عينا سارة وهي تسمع ما قالته جهاد للتو، أجل.. هما روح واحدة منقسمة الى جسدين متطابقين، كلتاهما تكمل إحداهما الأخرى، دوماً شعرت أن جهاد هي.. ابنتها! شعور أمومي جارف تحمله لها، لكن سارة اللحظة تشعر وكأنها هي (الابنة)! ابنة خائفة تتوارى بجبن مؤلم خلف قامة (أمها) النحيلة القصيرة؛ تحتمي بها!

صمت أيوب طال بشكل مُقلق لكنه لم يقلق جهاد كثيراً في الواقع فقد كانت في حالة ثورة وغضب لتكيل له المزيد من الهجمات قائلة "وحتى لو لم يتحقق (حلمي) كما وصفتَه فيكفيني أن أراكَ خسرت كل محاولة حقيرة معها؛ والى الابد "

كتمت سارة شهقتها بيدها وقد راعها مستوى الحوار الصريح المُفجع بين جهاد وأيوب! أما أيوب فقد جاء

صوته مبحوحاً في حدّة وهو يسأل جهاد "وماذا عن خسارتك أنتِ؟ "كانت جهاد صادقة ولو لحظياً وهي ترد بعنفوان واندفاع "مهما كانت خسارتي فهي لا تعادل سعادتي بمعرفة أنك لن تنال سارة ولا بأي طريقة قذرة سعيت بها إليها، ويوماً ما عندما يرتد إليها عقلها وتمييزها ستكون لحمزة، الرجل الذي تستحقه ويستحقها، وسأراك عندها كيف تتلوى وأنتَ تراقب عرسهما من شرفتك، وهذا ما تستحقه يا أيوب "

كانت جهاد مهتاجة كما لم يحصل معها يوماً ولا تعلم من أين أتاها الجبروت لتقول كل هذا الكلام له، لم تهتم حتى بالصدمات المتتالية التي توجهها الى سارة التي تستمع للكلام بينما جلّ تفكير جهاد مع رد أيوب الذي قال لها بنبرة فاح منها الغضب الشديد والوعيد "وأنت ستنالين ما تستحقين "فاستهانت به وهي تتساءل ساخرة رغم أنفاسها اللاهثة انفعالاً "وماذا أستحق برأيك؟ "لجاء رده الصاعق "تستحقيني أنا! "تشوشت جهاد ومستوى القلق ارتفع لجأة الى أقصاه فتسأل "ماذا تعني؟! "ليرد بغموض والوعيد الغامض منه ترتفع وتيرته الى مستوى مجهول لإدراك جهاد "ستعرفين اليوم تحديداً يا جهاد، ستتمنين لو لم تنقسم روحك في جسدين، بل ستتمنين لو لم تُخلقي من الأصل "ردة فعلها كانت تلقائية وهي ترد بأول ما خطر في بالها "أنت لست برجل طبيعي، أنت معتوه ومختل ومكانك مستشفى المجانين "أوشكت أن تغلق الخط في

وجهه عندما رد عليها بنفس النبرة "يسعدني جداً قولك هذا! "

صمتت لحظة قبل تسأل بنبرة فكاهية تغطي بها على حالة الخوف والقلق التي بدأت تثقل عليها "وماذا يجب أن يعني هذا بالضبط؟! فزورة العيد؟! "ردّ بخفوت عجيب كأنه يقف جوارها وفمه بمحاذاة أذنها "أنتِ جعلتني أخسر وجود سارة حولي وهو يعني لي الكثير؛ لذا أهنئك على نجاحك الباهر، لكني سأحرص يا جهاد على أن أجعلك تخسرينها أنتِ أيضاً، وسيظلُّ هذا سرّنا الصغير القذر نحن الثلاثة»

# الفصل الثامن
# الوحش الذي استيقظ

كان هو من أغلق الخط، مرّت بضع لحظات وجهاد محشورة مكانها والهاتف في يدها! ولم تشعر إلّا بسارة تسحبها بحذر كي تخرجها وهي تسألها بهمس مرتعب "ماذا كان يقول لك لتتخشبي هكذا؟! "لم تستجب جهاد فتهزها سارة وهي تكاد تفقد أعصابها "ماذا كان يقول يا جهاد؟ ردّي عليّ.. أنتِ تقتلينني قلقاً!»

وقفتا قبالة بعض هكذا لتنطق جهاد أخيراً بوجهها الممتقع "لا أدري ما يخطّط، لكن وكأنه.. "كانت ستقول (وكأنه سينتقم) لكن الكلمة كانت صعبة ومريعة بمعانيها فلم تستطع البوح بها، سارة امسكتها من كتفيها بقوة وهي تطالبها بارتجاف "وكأنه ماذا؟! "لم تحتمل جهاد لترمي بنفسها في حضن سارة تشدها بقوة وتشبث وهي تقول بنبرة غريبة "لا تسأليني سارة.. فقط ضميني إليكِ.. أنا.. أنا خائفة!»

***

**بعد بضع ساعات**

تدّعي الجدة ياقوت أنها تعود إلى منهاجها اليومي المألوف فتمسك بقطع قماش جديد أبيض فصّلته قبل ساعة لتبدأ خياطته، في الواقع كانت تقاتل على أكثر من جبهة، وأصعب الجبهات أن تكتشف للمرة الأولى أنها كبرت! بل شاخت وهي تشعر بهذا العجز عن حماية أحبائها، اليوم فقط أدركت أنها في منتصف السبعين؛ وكم هو قاسٍ أن تشعر بثقل عمرك فجأة! هكذا دون مقدمات تباغتك الشيخوخة.

الشيخوخة ليستْ عمراً تحدّده سنة ميلادك، الشيخوخة تطارد الروح قبل أن تصيب الجسد بالوهن، وتُقاس بمقدار احساس وجود (القدرة) من انعدامها، واليوم هي ياقوت (ذاتُ القدرة) كما كان يداعبها زوج ابنتها الوحيدة، هي ياقوت من كانت لا تفكر بما غزا شعرها البني وأحاله الى بياض الثلج، هي ياقوت؛ (أمُّ البنات)؛ تشعر أن ضعفها أقسى عليها من الممات.

بطارف عينها تلمح ابنتها منى الجالسة على الأريكة القريبة من الشباك وهي تقرأ في المصحف الذي كان يقرأ فيه الحاج كرم، تقرأ ودموعها تجري في صمت.

تنهدت ياقوت في صمت وهي تحدق في قطعتي القماش الابيض وهما تلتحمان ببعض تحت إبرة الماكنة، منى

وابنتيها، هن الثلاثة بناتها، تقبلت ضعف ورقّة (الكبرى) وآلت على نفسها أن تحميها، وعندما رزقت منى بسارة وجهاد، تلقائياً انضمّتا الى عشِّ الحماية تحت جناحيّ ياقوت، لكن ريش ياقوت تساقط ولم يعد يستر!

علا صوت نشيج بكاء منى لتتوقف ياقوت عن الخياطة وهي تهتف بها بخفوت "توقفي عن البكاء يا منى، لا اريد جهاد ولا سارة أن ترياكِ بهذا الضعف "لكن قلب الأم ملتاع فتميل منى الى امها وهي تقول لها بوجع "أ هذا نصيب جهاد يا أمي؟! من رجل تافه خائن الى رجل مشوه يشرب الخمر؟ "زفرت الجدة ياقوت نفساً قوياً وهي ترد بصرامة وحنق لا يهدأ "أجل هو نصيبها، ومن يدها هي! الاول أصرّت عليه بعناد، والثاني استهترت بتصرفاتها معه "

تدافع منى بحمائية أم وتحيزها "لكنها فتاة طيبة، إنها تربيتنا، هي كانت تريد مساعدة سارة بالعمل، لم تخطئ في شيء!»

شهقت الجدة باستنكار ثم قالت بغضب مكبوت "متى ستتوقفين عن التبرير؟! ألا يكفي ما جرى؟! جهاد يجب أن.. "توقفت الجدة عن اتمام جملتها على صوت قرع مفاجئ على الباب فتساءلت منى بحرج وارتباك "من أتانا الآن؟! لا أود رؤية احدى الجارات تأتي لتستقصي

الأخبار خاصة أم وجدان "لكن الجدة ياقوت تحركت من خلف الماكنة لتقف على قدميها وهي تشير لابنتها "بل أظنه الحاج عبد الصادق، أحضري لي عباءتي ووشاحي بسرعة، أنا من سيفتح الباب «

تحركت منى على عجل وهي تمسح وجهها وتدعو الله بالستر فغابت للحظات قبل أن تعود بالعباءة والوشاح لتهمس لها أمها وهي تلبس العباءة "اذهبي واغسلي وجهك والبسي عباءتك ثم الحقي بنا الى غرفة الضيوف، أنا واثقة أنه الحاج عبد الصادق»

تحرّكت المرأتان كل في اتجاه، وعند الباب دعت الجدة الله ان تسير الامور على خير ويعينها لتستر البنتين قبل أن تلاقي وجهه الكريم.

ما إن فتحت الباب حتى تسمّرت الجدة مكانها وهي تنظر الى الرجل الغريب، غريب في كل شيء حتى انقبض قلبها في صدرها وهي تسأل بتحفز تلقائي "من أنت؟ "

كان حريصاً أشد الحرص ليظهر بأفضل صورة ممكنة، ارتدى ثياباً انيقة تظهر وسامته الغاربة دون مبالغة، صفّف شعره بعناية كي يخفي ما يستطيع من تشوهه في الجانب الايمن، يستند بعصاه بطريقة توحي ببعض الضعف

ليكسب (التعاطف) وأخيراً ابتسامة صغيرة وهو يرد بألفة خادعة "أنا أيوب»».

***

## غرفة الضيوف

يتطلع أيوب فيما حوله بهدوء وهو يرتكز بكفيه فوق قمة عصاه، لقد كان يدرس ما يراه، يفهمه ويستوعبه في أدقّ تفاصيله، البيت كما تخيله بالضبط؛ يعكس اسرة متوسطة الحال تعيش من دخل يكفيها، أثاث جيد النوعية لكن قديم الطراز يحتاج الى ثورة تجديد، وببعض التمعن سترى لمسات انثوية عصرية هنا وهناك وكأنها تتخفى حياء لكنها تضفي الحيوية المطلوبة فتحيي القديم وتجدّد روحه، يكاد يقسم أيوب أنها لمسات سارة، فهو أعرف الناس بذوقها، بأسلوبها.

غضب بارد يتأجّج بلهيب الشيطان الذي لا يطفئه شيء، غضب وحش كان يتوارى في قمقم قصر الخاتون، وهم جميعاً من أخرجوه من ذاك القمقم، دعكوه بأصابعهم الجاهلة، فأطلقوه من أسره، كانت سارة حارسة المارد وصمام أمانه؛ ويا ليتهم يعلمون!

حرّك رأسه بحدة لتتلاقى عيناه بعيني (الحاج كرم) في

صورة كبيرة معلقة ذات إطار مزخرف، تتوسّط تلك الصورة أحد الجدران حتى تكاد تملأه، في دلالة واضحة على أنّ أهمية الرجل ممتدة حتى بعد مماته، لقد تجنبها أيوب منذ دخوله، لكنه اللحظة يواجه ذاك الأب الذي رحل، بوجهه السمح ولحيته الطويلة ونظراته التي استقر في عمقهما طمأنينة غريبة! من أين له أن يطمئن هكذا؟! لقد مات وترك ابنتيه لوحوش الأرض! أتُراه يتقلّب في قبره اللحظة وقد فارقته تلك الطمأنينة؟!

ثم لمحت عينا أيوب صورة صغيرة محشورة في زاوية إطار صورة الأب، يمعن النظر فيميز طفلتين متطابقتين ضاحكتين وهما تحتضنان بعض حد الاعتصار، الخدّ على الخدّ والضحكة على هذا الفم تُكملها الضحكة على الفم الآخر.

اشتدّ بريق عينيّ أيوب وهو ينظر للأذرع الصغيرة المتشابكة في التحام! سيستمتع في كل لحظة بفكّ اللَحمة بينهما!

أرخى أيوب أجفانه مع دخول الجدة ياقوت بعد أن غابت لدقائق منذ أن أدخلته غرفة الضيوف، ليقف متكئاً على عصاه في حركة احترام مدروسة فناظرته الجدة وهي تتنحنح "تفضل اجلس «

لكنه لم يجلس قبل أن تجلس هي، بتقيم سريع كان عقل أيوب يسجل (امرأة عجوز تذكّره بجهاد، فيها بقايا قوة وعناد، أو هذا ما تحاول منحه كانطباع أولي عنها، محاولة ساذجة بالتأكيد) أخفى أيوب ابتسامة استهانة وهو يقرأ الجدة ككتاب مفتوح، تريد أن تلعب دور (الأم) التي تتعزّز عندما يدقُّ الخطّاب الباب طلباً لبناتها! تحاول جعل اللعبة تقليدية لتتفاخر بها أمام النسوة في الحيّ وتمحي صورة (الفضيحة)، كم هي امرأة عجوز بسيطة ومكشوفة.

سألته بنبرة رسمية حالما جلس "هل الحاج عبد الصادق يعلم بقدومك؟

أوشك أيوب أن ينفجر ضاحكاً! ليته يستطيع أن يصف لها الحاج عبد الصادق وكيف أصابه سهم الذهول عندما رأى أيوب يسير في الحي متكئاً على عصاه بعد أن غادر مبنى قصر الخاتون! نظرة الصدمة والارتباك منحتا أيوب المتعة الخالصة وهوّنت عليه كل ما عاناه من ألم وعذاب جسدي وهو ينزل درجات السلم من الطابق الثاني، ولم تفسد عليه متعته إلّا رؤيته لـ(ميكانيكي)، كان ذاك الشاب حمزة ينظر إليه نظرة شبيهة بنظرة جهاد، نظرة تحدٍ وتهديد، كلاهما يريانه كمرض عضال يحوم حول (سارة) يودُّ خطف روحها، ورغم كرهه لتلك النظرات منهما إلّا أنها كالوقود تمدُّ روحه المعتلّة بالقدرة.

ولم ينتظر أيوب أن يقترب منه عبد الصادق بعد أن يستفيق من ارتباكه وحيرته، أو يفقد الميكانيكي أعصابه ليفكر بمهاجمته؛ فأشار الى إحدى العربات الصغيرة التي تستخدم كوسيلة نقل رخيصة في الحيّ فركب بها وانطلقت به الى بيت الحاج كرم، لقد أراد مفاجأتهم جميعاً بما سيفعله، وستكون له الكلمة الأخيرة كما كانت لهم الكلمة الأولى.

رد أيوب على الجدة بنبرة تفيض (احتراماً) "لا؛ أنا أتيت من نفسي ولوحدي»

حاولت الجدة أن تبدو صارمة وهي تقول بعبوس "ولماذا أتيت؟ قل ما عندك دون إطالة»

حقاً سيستمتع بهذا! رد بهدوء "جئت لأمرين؛ أولاهما اعتذار عما بدر مني دون قصد أو نيّة، كنت في غير وعيي؛ شعور الوحدة أثقل عليّ وفي لحظة ضعف شربت الخمر بعد انقطاع سنوات»

ضيّقت الجدة عينيها وهي تتساءل بحذر "انقطاع سنوات؟! أكنت تشرب قبلها؟!»

قال مع سؤال استدراك "انا صريح يا..؟ "فهمت سؤاله لتمنحه الإجابة "نادني الحاجة ياقوت "فيكمل الكلام بنفس

النبرة التي تمنح الارتياح والثقة التلقائية لمن يحاوره "أنا صريح يا حاجة ياقوت، نعم كنتُ أشرب الخمر حتى توفيت زوجتي في حادث قبل أربع سنوات»

لقد بذل جهداً خرافياً ليقول ما قال بالنبرة التي أرادها، كانت المرة الأولى التي يخبر أحداً في الحي بهذا، شهقة خافتة أتت من جانب باب غرفة الضيوف فأدرك أيوب أنّ هناك (مستمعين) آخرين، أما الحاجة ياقوت فبدت متأثرة كما توقع وهي تلين بالكلام معه وتقول بتخمين وعيناها تتركزان على الجانب المشوه من وجهه "رحمها الله، حادث حريق؟ "تمتم وهو يرخي أجفانه "أجل "لتردّ عليه الجدة بتعاطف حقيقي "عوّضك الله خيراً»

ابتسامة خفية لا يراها أحد سواه، إنها ابتسامة لا تُرى، ولكن تُحس! هي ابتسامة (الداهية) وهو يعقد صفقة رابحة، قال أيوب بنفس النبرة وهو لا يزال مُرخياً أجفانه "بعد الحادث بعام واحد قضيته في علاجات أرهقتني، اخترت حي الخاتون لأعيش فيه بسلام، ثلاث سنوات كنت مُعتكفاً الدنيا في شقتي في قصر الخاتون ولم يبدر مني أي سوء نحو أي انسان، وابنتكم سارة تشهد»

عادت حالة التأهب لدى الجدة، لكن مؤكد هي الآن أكثر ليناً بالنبرة رغم الكلمات الغاضبة "كل ما تقوله لن يغير من حقيقة الفضيحة التي طالت جهاد دون ذنب

جنته»

أصابعه تضغط بقوة قمة عصاه بينما نبرته الهادئة لا تتغير وهو يقول "هذا هو الأمر الثاني الذي جئت لأجله "عندها فقط رفع رأسه وقال بجدية "يسعدني ويشرفني أن أطلب يد ابنتكم.. جهاد»

فجأة علا صوت زغرودة لتدخل الأم ودموع الفرح في عينيها، التزم أيوب الصمت وهو يقف مُجدداً على قدميه لدخول (حماته) المستقبلية بينما تقف الجدة هي الأخرى تزجر ابنتها بالقول المستاء "مني! لا تزغردي الآن "

يقف أيوب شامخاً مرتكزاً على عصاه وهو ينظر الى هذه العائلة، كان توقعهم سهلاً الى درجة لا يمكنه تصديقها، كما سَهُل عليه تخمين هوية الأم وهي تدخل بتلك الزغرودة، وبينما الجدة تحاور الأم حادت عينا أيوب نحو باب غرفة الضيوف، وهناك رآها.. لم تظهر بكليتها، بل جزء من كتفها وجانب من وجهها وعين واحدة فقط! الصدمة واضحة في نظرتها إليه، امتزجت بشكل بديع مع النفور والكره والغضب و.. الكثير من الخوف! تمتم في سرّه "أجل خافي يا جهاد، أنا أتنفس بخوفك! خافي وأنت تدخلين عرين الوحش بقدميك»

ثم اختفت جهاد والأم تقترب منه لا تبالي بكلام الجدة

وهي تحييه بمحبة تلقائية ساذجة "بارك الله فيك يا ولدي "

يكتفي أيوب بالابتسام بينما الجدة تكزّ على اسنانها وتقول "لو سمحتِ منى دعيني أكلم السيد أيوب بمفردي "

أضاف أيوب لمسة جديدة وهو يقول للجدة بتودد دافئ "نادني أيوب فقط يا حاجة ياقوت»

الأم أبت المغادرة والجدة استسلمت وهي مغتاظة بينما يعاودون الجلوس والجدة تسأل بجدية "أليس لديك اهل؟ "بسلاسة ردّ أيوب "ليسوا مقربين؛ انقطعت عنهم منذ الحادث وليس لي صلة بأحد "فسألت الجدة بفضول "ماذا كان عملك؟ أعني قبل الحادث "ليرد عليها أيوب بأبسط صورة "كنت أتاجر، لكني تركت كل شيء، وأعيش من ريع أملاكي البسيطة في حي الخاتون»

رغم (السلاسة الناعمة) و(البساطة المقنعة) إلّا أنّ الجدة بدت مُرتابة ومُتحيرة بعض الشيء على عكس الأم التي بدا من الواضح أنها اطمأنت لـ(عريس) ابنتها ولا تفكر إلّا بتعجيل الزواج كي تنسى الفضيحة.

يكاد أيوب يقسم أنها كانت أكثر المعارضين لزواج ابنتها منه، لكن ببضعة جمل (مُطمئنة) أزاحت المخاوف جانباً، هي من تلك النوعية التي لا تفكر بالشرور كثيراً، وكأنها

مجرد خيال تسمع عنه في القصص، لذلك من السهل إقناعها بالخير الذي تؤمن بوجوده الأوحد!

حاول أيوب أن يظهر واقعياً كي يدفع الجدة للاطمئنان قسراً "يا حاجة ياقوت أظن أنكم تعرفون عني كل شيء من خلال سارة التي تدير كل شؤوني، واليوم أنا أطلب يد شقيقتها جهاد تصحيحاً للموقف الذي حصل بخطأ جسيم مني "صمتت الجدة بينما الأم تتبسم في رضا بريء!

فأضاف أيوب ليختم الأمر "مهرها كما تطلبون والشقة موجودة كما تعرفونها "ثم وقف هذه المرة استعداداً للمغادرة وهو يقول بنبرة حاسمة أقرب للتسلط "سأتفق مع الحاج عبد الصادق على التفاصيل "وهنا عادت الأم الى إطلاق الزغاريد لكن الجدة لم تمنعها وبدت شاردة بعض الشيء وهما ترافقان (العريس) حتى باب الشقة.

***

على جانب الطريق ومنذ نصف ساعة يقف حمزة بالدرّاجة النارية التي يركبها، ما يزال يعتليها بوضع الاستعداد وهو يشدُّ بكفيه على مقود الدراجة من الجانبين بتوتر شديد، وجهه متجهّم وعيناه لا تغفلان عن بوابة المبنى الذي كان يملكه الحاج كرم ليؤول الى ابنتيه وزوجته بعد وفاته، لقد لحق بأيوب الى هنا، لم ينتظر

أن يطلبها الحاج عبد الصادق وقد تسمّر كلاهما لرؤية أيوب يسير في الحي ثم تأجيره للعربة كي تقلّه الى حيث لا يعلمون! فوجد حمزة نفسه يهرول كي يأخذ الدراجة النارية القديمة التي تخصُّ أحد عماله وينطلق بها في إثر ذاك الرجل، ولم تمر دقائق حتى أدرك حمزة وجهته فشعر عندها بقلبه يهوي إلى الأرض جزعاً! ما يزال حتى اللحظة غير مقتنع بما جرى، ووسط جزع قلبه يخشى على جهاد مما ستواجه، إنها تهمّهُ أيضاً ولا يعلم كيف السبيل لإخراجها من هذه الورطة.

رنّ هاتفه فأخرجه حمزة من جيبه ودون أن يرى المتصل كان يفتح الخط بتوقع تلقائي لهويته "لا جديد يا حاج، ما أزال أنتظر "يأتيه صوت الحاج عبد الصادق القلق وهو يقول "ليتني اتصلت بالحاجة ياقوت، لكني شعرت بالحرج لأجلهم، ولو أرادت وجودي لكانت اتصلت هي من تلقاء نفسها "ثم أخذ عبد الصادق يتمتم في عجز يكلّم ربه بصوت مسموع "ما هذه الحيرة يا ربي! أ أنتظر أم أتصل؟ أم أذهب إليهم.. أم.. ماذا أفعل؟!»

هتف حمزة وهو يعتصر الهاتف بأصابعه "هو الذي لا يعرف حتى أبسط قواعد الأصول! بعد فعلته الحقيرة يتجرأ على الحضور هنا ولا نعلم حتى نيّته، كان يجب أن يكلمك أنت لا أنْ يزور النسوة وهن بلا رجل في الدار "ثم أخذ يضرب بقبضته الحرّة على مقود الدراجة وهو يسحق أسنانه

ويهدر مُضيفاً "كم أودُّ أن أصعد إليه اللحظة لأفرغ فيه كل غضبي الذي أكتمه بشق الأنفس، حتى لو مات في يدي فلن أهتم! "أخذ عبد الصادق يحاول تهدئته بالعقل قائلاً "لا تتهور بني، تذكّر أنّ سمعة جهاد على المحك، بل سمعة البنتين معاً، العقل وحسن التصرف يجب أن يكونا سيدا الموقف "فيرد حمزة بانفعال "إنّه يستهين بنا جميعاً يا حاج! لا يحترمنا ويظن نفسه أفضل منا، من يحسب نفسـ.. "توقف حمزة عن الكلام فجأة وهو يرفع رأسه بحدة على أصوات زغاريد!

سأله الحاج عبد الصادق بقلق "لماذا سكت بني؟ هل خرج؟ "فرد حمزة بنبرة متوترة حملت تشوش صاحبها "كأني اسمع صوت زغاريد.. قادمة من شقتهم "يتمتم الحاج بتوجس وهو يحاول التفاؤل "خيراً يا رب»

مرّت دقائق والزغاريد تستمر، بل وتتزايد ولم يعد لدى حمزة أي شك أنها قادمة بالفعل من شقة الحاج كرم في الطابق الأول، قلبه يقرع بقوة وأصابه خوف عارم من معنى هذه الزغاريد ومن (المقصودة)!

عقله لم يعد يفكر بمنطقية، قلبه فقط من يعطيه تلك الاشارات المُقلقة، داهمته الافكار الموجعة أنّ (سارة) هي من كانت تزور أيوب تلك الليلة وليست (جهاد)، ودون أي منطق تعذبه الخيالات العجيبة أن سارة

اعترفت وتمت خطبتها لذاك الحقير.

أوشك الهاتف أن يقع من يده عندما خرج أيوب أخيراً من بوابة المبنى وعلى الفور التقت النظرات، وكأنه كان يتوقع وجوده، بل يبحث عنه!

ابتسم أيوب له ابتسامة عريضة وهو يرفع حاجبيه قليلاً ونظرة ساخرة مترفّعة منتصرة تطلُّ مشعّة من عينيه، شعر حمزة أن أيوب يتلاعب به، فانتابه إحساس كريه مروّع غير مفهوم! شعر أن أيوب هذا كأنه يمدُّ كفه عن بعد تلك الأمتار التي تفصلهما فيصل إليه ويخترق صدره ثم يقبض على قلبه يكاد يخلعه من مكانه!

دون شعوره كان يتمتم والهاتف على أذنه "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! "تضاءلت ابتسامة أيوب ثم رفع يده الى جانب رأسه في تحية ساخرة لحمزة بينما الحاج عبد الصادق يسأل بقلق عبر الهاتف "ماذا يجري بني؟ لماذا تستعيذ بالله من الشيطان؟»

في هذه الاثناء كان أيوب يركب العربة التي ظلت بانتظاره وتحركت به بينما يرد حمزة على الحاج عبد الصادق "لا أدري ما جرى يا حاج "ثم توالت الزغاريد أكثر وأخذت بعض النسوة من الجيران في الحي يدخلن المبنى والفضول على وجوههن ليضيف حمزة وهو يستعيد

بعض ثباته "أيوب خرج وركب العربة وأظنّه عاد إليكم، والزغاريد لم تتوقف يا حاج "ثم رفع عينيه الى الطابق الأول من المبنى ليتمتم بصوت أجش "هناك خطبة انعقدت»

***

كلتاهما دخلتا الغرفة وهما تلهثان، تقفان جوار بعض تستندان بظهريهما إلى الباب المغلق وعيونهما متسعة في حالة صدمة كاملة! ولم يخرجهما من حالة الصدمة إلّا صوت زغاريد أمهما التي علت وكأنها أجراس اليقظة لتواجه كلتاهما حقيقة ما يجري.

تحركت سارة لتستدير بجسدها في عنف وتواجه جهاد وهي تقول لها بنظرات لامعة تفيض انفعالاً واهتياجاً "ارفضي يا جهاد.. ارفضي "تحركت جهاد هي الأخرى وحالة هلع تثقل الكلمات على لسانها "أجل.. يجب أن أرفض.. يجب أن أقولها في وجهه "

علت الزغاريد مُجدداً ثم تزاحمت أصوات نسوة في الشقة للسؤال عن سبب الزغاريد في بيت الحاج كرم ثم المباركة والمشاركة بزغاريدهن حال سماعهن ردّ الأم والجدة ياقوت (جهاد ستتزوج)، أغمضت جهاد عينيها وكفها يتقبّض ثم ترفعه الى فمها تعضّه بقوة وكأنها تمنع نفسها الصراخ بينما

يشحب وجه سارة وهي تتمتم “رباه! خلال دقائق سيشيع الخبر في حي الخاتون بأكمله ”

دمعة انحدرت من عين جهاد وهي تقول بقهر “كيف تفعلان بي هذا؟! لم تسألاني حتى رأيي!»

أخذت سارة تبكي بحرقة وهي تحتضن شقيقتها وتقول “كيف أنقذك؟! كيف أنقذنا جميعاً؟! “ثم فجأة ابتعدت سارة وهي تمسح دموعها وتضيف بارتجاف “سأتصل بأيوب، سأخبره ان ما ينوي فعله مستحيل، سأتوسل إليه أن يجد طريقة أخرى “دفعت جهاد شقيقتها في كتفيها وقد انفجرت ثورتها وهي تهدر بصوت مخنوق “لن تتصلي بذاك الحيوان الحقير، أ تظنين أنه سيرأف بنا؟! إنه مجنون.. يريد تحطمينا، لقد هددني وتوعدني»

رفعت سارة يدها الى فمها تكتم شهقتها بينما تشعر أنها وشقيقتها في فخ لا فرار منه، حاولت أن تتماسك والزغاريد مستمرة بالخارج لتقترب من جهاد وتقول “إذن لنتصل بالحاج عبد الصادق، نخبره أنك لا تريدين الزواج من أيوب “تحركت جهاد وانفعالها يتأجج وهي ترد بالقول “العم عبد الصادق لن يفعل شيئاً، أنت لا تفهمين أو لا تريدين الفهم “اخذت جهاد تشوح ناحية مصدر الزغاريد وهي تضيف “لقد وضعونا جميعاً أمام خيار واحد، أ تظنين أن العم عبد الصادق سيقتنع ببساطة ويأتي الى امي

وجدتي ويقول لهما (دعونا نلغي كل شيء لأنّ جهاد غير موافقة)؟! أنت تحلمين يا سارة.. تحلمين.. لقد حققوا جميعاً ما أرادوه من (ستر) لي بعد الفضيحة»

عادت دموع سارة تجري وهي تتمتم "ماذا سنفعل؟! "أخذت جهاد تقلّب بكفيها المرتجفين في كل مكان بحثاً عن هاتفها النقال وهي ترد بعنف "أنا سأفعل "وحالما وجدت الهاتف واقعاً أسفل سريرها التقطته ومباشرة فتحت قائمة التحاور لتطبيق الفيسبوك، اقتربت سارة وهي لا تعي ما تفعله جهاد، ولكنها التقطت اسم (وائل) قبل أن تضغط جهاد (اتصال) ثم وضعته على أذنها بانتظار الرد، تساءلت سارة بخفوت "لماذا تتصلين بوائل؟ "

لكن جهاد لم ترد على سارة وهي تنتظر رداً من وائل لم يصلها، أعادت الاتصال به مرة ثانية ثم فجأة انقطع كل شيء! أبعدت جهاد الهاتف عن أذنها لتحدق فيه بذهول وهي تتمتم "حظرني! "لم تستوعب سارة وهي تتساءل "من حظرك؟! تقصدين وائل؟! "لم ترد جهاد بأكثر من الكلمة المصدومة "حظرني! "تاهت سارة فتحاول أن تستجمع قدرتها على التفكير وهي تتساءل ببعض الحيرة والقلق على شقيقتها "لا أفهم ما أهمية وائل اللحظة؟! هل أنت بخير يا جهاد؟!»

بنظرة مُتألمة همست بانكسار "وائل أراد الزواج بي

وقلتُ له أمهلني للتفكير "اتسعت عينا سارة في صدمة بينما تضيف جهاد بحشرجة "هذا ما كنتُ أريد أن اكلمكِ عنه ليلتها، قبل يومين فقط!»

عند تلك اللحظة انفتح باب الغرفة ودخلت النسوة دون استئذان بالزغاريد والتبريكات وهنّ يحتضن جهاد وسارة بتشتت فلا يميزن إحداهما من الأخرى!

***

العرق يتصبّب منه وهو يرتقي درجات السلم بصعوبة، يكزُّ بأسنانه من شدة الوجع في نخذه الأيسر، لكنه يرفع هامته بعناد فلن يُذل ولن يُهان مهما حصل! هو.. أيوب العريم؛ لن يكسره حتى الغرق بالذنوب المُخزية.

حالما وصل الطابق الأول لمح تلك المرأة أمّ أدور وهي تقف بباب شقتها، كان يشتمها في سرِّه بينما يرسم الابتسامة الرقيقة وهو يلقي التحية "مساءً سعيد "ثم أكمل خطواته الى باقي الدرجات التي تأخذه للطابق الثاني، المرأة لم تهتم بالرد، بل سألته بفظاظة ووقاحة "هل ستتزوج جهاد أم ستتصرف كرجل نذل؟»

التفت إليها وقد التمعت عيناه بنظرة مخيفة لبضع ثوانٍ قبل أن يتمالك نفسه وتنصهر نظراته في لطف زائف وهو يردّ

عليها "كنتُ عندهم للتو واتفقنا على إقامة العرس "كاد أن ينفجر ضاحكاً من الصدمة على وجه تلك المرأة الكريهة لكنها سرعان ما تمالكت نفسها هي الأخرى لتقول وهي تتراجع للخلف كي تغلق باب شقتها "الحاج كرم كان نعم الرجال لحافظ على ابنته»

ثم أغلقت الباب وسحنة أيوب تتشوه بالبغض وهو يتحرك ليكمل مشواره الصعب على درجات السلم، ومع كل درجة ومع كل ألم كان يتوعد (ابنة الحاج كرم)!

***

أغلق الحاج عبد الصادق الخط مع الجدة بينما يسأل حمزة بقلق شديد "ماذا قالت؟ "رد الحاج عبد الصادق "تريد أن نتفق على إقامة العرس يوم الخميس القادم "يبتلع حمزة ريقه بصعوبة وهو يسأل بصوت متوتر "عرس.. من؟ "يعبس الحاج عبد الصادق وهو يهتف به "ماذا دهاكَ يا حمزة؟! عرس السيد وجهاد بالطبع!»

خنقته غصّة وأوجعه قلبه وهو يدير وجهه للناحية الأخرى، يفترض أنّ ردّ الحاج عبد الصادق يُريحه ويرفع عنه الثقل الذي يشعره في صدره، لكن هذا لم يحصل! شعر بيد الحاج تربّت على كتفه قبل أن يسأله باهتمام "ما بك يا ولدي؟ "يتهرّب حمزة من النظر في عينيّ العم عبد

الصادق وهو يتنحنح ليجلي حنجرته كي يتكلم بنبرة طبيعية "لا شيء يا عم، فقط ربما قلق على جهاد، فهي تهمني أيضاً "فقال الحاج عبد الصادق بمعانٍ خاصة كأنه يقدّم وعداً "لن نتركها له، لا تقلق»

عندها فقط نظر حمزة في عيني الحاج عبد الصادق ليسأله "ماذا تقصد يا عم؟ "فردّ عبد الصادق بتعابير صلبة عازمة "ما دام سيأخذ من بناتنا فعليه أن يفتح باب عزلته لنا، فلا يتصور أنه يأخذ جهاد الى كهف عزلته بعيداً عنّا، ولا يعتقد أنّنا رميناها له درءاً للفضيحة ثم ننسى أمرها، عليه أن يتقبّل وجودنا بحياته في القادم من الأيام»

صمت حمزة ولم يعقّب بشيء، الشكوك والأفكار تدور في رأسه، كلمات جهاد التي قالتها له يوماً وفسّرتها يوم الفضيحة، هل حقاً طوال الوقت كان هناك ما يجمع جهاد وأيوب بينما هو ظنّ أنّ المعنية بالأمر هي سارة وليست جهاد؟!

رفع حمزة رأسه لينظر الى تلك الشرفة في الطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون، يتمتم في سرّه "ما أزال لا أصدقكِ يا جهاد، حتى وقلبي ينازعني كي أصدق!»

***

## الصباح الباكر من اليوم التالي

ذهبت السَكرة وأتت الفكرة.. ذهب سواد الليل بيومه الصعب ليأتي نور الصباح بيوم جديد أشد صعوبة، تستلقي سارة على جانبها وهي تحدق في الخزانة، ادّعت النوم مساء الأمس باكراً وفعلت جهاد المثل دون اتفاق بينهما، ثم نامتا بصمت دون أنْ تتبادلا الكلام.

جهاد كانت بالأمس في حالة ذهول وهي تستقبل التهاني بنظرات مشوشة فتتضاحك النسوة من الجارات وهنّ يصفنها بطرائف الألقاب، بعضهن كنّ يرمقنها بنظرات حقيرة فيها استهانة وسخرية، بل تمادين للتلميح دون مراعاة لمشاعر أحد، لكن الجدة ياقوت كانت لهم بالمرصاد وأخرست الأفواه ولو باختراع كذبة! لقد نوّهت أنّ (السيد) كان قد طلب جهاد من الحاج عبد الصادق قبل أسبوعين وأنه ظلّ ينتظر الرد على أحر من الجمر، واليوم فقط منحوه الموافقة، ولم يقتصر كلام الجدة على كذبة واحدة، بل تمادت وهي تخبرهن عن مهر جهاد الغالي.. الغالي جداً في الواقع!

أما وجدتها أنصبّ اهتمامهما بالكامل على دعم جهاد أمام أولئك النسوة فكانتا تحاوطانها عن يمينها وشمالها كحارستين ومهاجمتين أحياناً، وقد أصرّتا على إقامة احتفال نسوي بسيط ودقِ الطبول والغناء، فكانت أمسية طويلة..

طويلة وشاقّة تقطع النفس!

أمّا هي سارة فكانت صدمتها غير مرئية لأحد، فعاشتها مع نفسها فقط، حتى جهاد كانت لاهية عن توأمتها وسط ما يحدث لها خاصة وأنّ الأضواء كلها سُلطت على جهاد دون رحمة أو شفقة.

شعرت سارة بالاختناق حدّ الموت طوال تلك الاحتفالية العفوية، أرادت أن تصرخ بهم جميعاً كيّ يكففن عن الغناء؛ عن إطلاق الزغاريد، فهذا ليس بعرس.. ليس بعرس. تكوّرت سارة على نفسها وهي تغمض عينيها بقوة، ذهبت السكرة وأتت الفكرة؛ جهاد ستتزوج أيوب! انعصر قلبها عصراً ثم شعرت وكأنّ جدرانه تمزق ونياطه ينقطع. ما الذي يمكن أن يوقف هذا الكابوس؟! أيعقل أن غلطة واحدة ارتكبتها بذهابها الى أيوب في ذلك المساء التعس تدفع ثمنه غالياً هكذا؟! كيف ستحتمل أن يحدث هذا لجهاد؟ كيف ستحتمل أن يحصل هذا لها؟ أيوب يصبح زوج شقيقتها؟! التوأم؟! لا.. لا يمكن أن تحتمل.

تحركت سارة في سريرها لتُنزل ساقيها عنه وتنادي جهاد على السرير الآخر بنبرة مجروحة "هل أنتِ نائمة؟ "كانت جهاد توليها ظهرها وللحظات لم ترد فلم تتبين سارة إن كانت مستيقظة أم لا، وهذا كان غريباً على الحدس

المشترك بينهما، لكن سارة لم تبالِ اللحظة بهذا الأمر فعادت لتناديها "جهاد».

مرّت لحظات أخر قبل أن ترد جهاد بنبرة خافتة لا حياة فيها "لن ينفع أي شيء يا سارة "ابتلعت سارة ريقها وهي تقول بأمل واهٍ "ربما لأنكِ لم تجربي، دعينا نحاول أن نكلّم أمي "فسألت جهاد بهدوء غريب وما تزال تولي شقيقتها ظهرها "وماذا نقول لأمي؟ "ردت سارة بانفعال هامس "أوَ تسألين؟! مؤكد نقول لها أنكِ ترفضين الزواج من أيوب "

بتنهيدة طويلة تحرّكت جهاد لتنزل ساقيها عن السرير كما فعلت سارة قبل دقيقة، تجلس بمواجهتها وهي تسأل بنظرة عجيبة "لماذا تريدينني أن ارفض يا سارة؟»

تمعن سارة النظر في جهاد وهي لا تفهم معنى نظرتها، أحسّت بالتشوش الشديد، وكأنّ بوصلتها تاهت، بل تعطّلت ولم تعد صالحة كي توجهها، همست بانفعال أشد "ماذا تعنين؟! "عندها سألتها جهاد "أتريدينني أن أرفض لأجلي أم لأجلك؟»

كان سؤالاً قاتلاً! تشعر سارة بعينيها تحرقانها دون سبب واضح بينما قلبها يتداعى، فتحت فمها تحاول الكلام فلم تجد ما يُقال! لكن جهاد كان لديها ما تقول عندما أضافت

بنفس النبرة الغريبة “ما يزال ذاك الحقير البائس يؤثر بكِ وكل ما جرى لم يجعلك تصحين بالكامل من الوهم!»

أخذت سارة ترتجف فلفّت ذراعيها حول جسدها بقوة وهي تحدق في شقيقتها، بينما التفتت جهاد بنظراتها ناحية شباك الغرفة لتهمس بصوت عميق “هل تذكرين إصرارنا على والدي أن نبقى متشاركتين في غرفة واحدة بدلاً من غرفتين منفصلتين؟ قلنا له هذه سفينتنا التي نجوب بها سوية بحور العالم “ثم عادت لتنظر الى سارة المرتجفة وأضافت بحزن شديد “نواجه اليوم يا شقيقتي أسوأ إعصار يحاول تدمير هذه السفينة، في عمق بحر مظلم هائج لا يعرف الرحمة، فإما أن ننجو معاً أو.. “وقفت سارة على قدميها وهي تهتف “إن تزوجتِه سأموت يا جهاد.. لن أحتمل “لتقف جهاد هي الأخرى وترد عليها بصمود “إنْ تزوجتُه، أنا وحدي من قد تموت! لكني لن أموت بسهولة، سأظل أحاربه حتى آخر نفس “تهز سارة رأسها وهي تتمتم بعينين متسعتين “مستحيل.. لا يمكن»

عاودت جهاد الجلوس على السرير وهي تقول بنظرات شاردة “بل يمكن، لأجلكِ أنتِ.. كي لا تقعي فريسة لرجل مثله، لأجل امي التي قد يتوقف قلبها حرفياً إن رفضتُ إتمام الزواج بعد كل هذا، ولأجل جدتي ياقوت التي كبرت عشرين عاماً خلال يومين فقط، ولأجل أبي وسيرته التي يجب أن تظل عطرة بين الناس “هتفت سارة

وهي تكاد تجن "وماذا عنكِ؟! ردّي يا جهاد.. ما مصيركِ أنتِ مع رجل كما تصفينه؟ "عندها تجمعت الدموع في عيني جهاد لتقول بحشرجة "نصيبي في الزواج انتهى عند أيوب يا سارة "تسأل سارة والدموع تتجمع في عينيها هي الأخرى "ماذا تعنين بالله عليكِ؟ "عضّت جهاد شفتها السفلى تمنع ارتجافها ثم همست "بعد طلاقي منه لن يفكر بي أيُّ رجل، لن يكون لي عائلة أو أطفال "تمتمت سارة بذهول وهي تستوعب القادم "طلاقك منه؟! "ردّت جهاد ودموعها تسيل "سأبذل المستحيل كي أجعله أسرع طلاق في الحي!»

تقدّمت سارة وجسدها يرتجف لتجلس جوار اختها وتقول بفكرة مجنونة طرأت على بالها اللحظة "لماذا لا تكلّمين غيث؟ مؤكد سـ..» قاطعتها جهاد بحدة "أ تريدين مني أن أتصل بغيث وأقول له تعال وأنقذ سمعتي؟! أتوسل إليكَ تزوجني بدلاً من رجل مشوه مجنون؟! "فتساءلت سارة بتشوش "أليس هذا أفضل من زواجك من أيوب؟ "ضحكت جهاد ضحكة مريرة وهي ترد "لا أصدق يا سارة أن كل ما يهمك أن (لا أتزوج) أيوب! ولتذهب (جهاد) الى الجحيم مع أي رجل، حتى لو أذلّت كرامتها لمطلقها الخائن "شهقت سارة وهي تدافع عن نفسها بضراوة "كيف تقولين هذا الكلام لي؟! أ تتصورين حقاً أني لا أهتم بمصيرك؟!»

تركتها جهاد ومالت بجسدها لتضطجع على السرير وتغمض عينيها وتقول "لم يعد يهم، أنا سأدفع الثمن في كل الأحوال، فدعيني أختار (أثماني) "وقفت سارة وهي تتحرك بارتجاف أشد الى سريرها وهي تعاند بالقول "ما أزال أرى أن غيث فرصة أفضل لك، على الاقل هو يريدك حقاً "فتساءلت جهاد بخفوت ساخر "وهل تظنينه ما يزال يريد؟! أم عليّ التجربة باتصال وأرى هل سيحظرني أم لا! "استلقت سارة على سريرها وهي تضرب بقبضتها الوسادة في عجز! لتهمس بالقول "أعرف أنه صعب، لكن.. جربّي "

لكن جهاد لم ترد، تكتم في صدرها الخوف الشديد الذي تشعر به، تناجي ربها أن يعينها على ما اختارت، ليس هناك بديل عن الرضوخ لذاك الوحش.. ضغطت جفنيها بقوة وهي تتذكر نظرته البشعة إليها عندما كان البارحة في غرفة الضيوف، ليت سارة تعلم ما يخبئه ذاك الرجل من عفن في جوفه، لكن ربما من الأفضل أنْ لا تعلم، لتبقى سارة بريئة كما هي وتترك لتوأمتها المهمة.

# الفصل التاسع
## لَحَمَةٌ تنفصم

### قصر آل عريم

ينزلان درجات السلم الطويل بتعابير باردة جدية، التحية بينهما تمتمة خافتة ووصال الأخوّة منقطع دون قصد أو نية، بدى آدم أكثر انضباطاً في نزوله بينما يقاوم قابيل بعض التمايل وقد أخذت منه سهرة الأمس الكثير من طاقته.

عند نهاية السلم أرخى آدم أجفانه وهو يلتف برشاقة ليقف في طريق شقيقه الأكبر قائلاً باختصار "هارون طلّقَ.. مرة أخرى "ابتسامة ملولة داعبت ثغر قابيل وهو يعلق ساخراً "أنه مُطَلّق أكثر من مُتزوج بكثير "حركة في أعلى السلم جذبت عينا قابيل ليلمح طيف زوجته المتلاشي فيضيف بمعنى مزدوج "حاولتُ مراراً معه أن يفصل بين (الزوجة) و (المرأة) "فهمها آدم فيرفع نظراته الى قابيل وهو يرد بهدوء "تقصد كما تفعل أنت؟ لكن الفرق أنّ زوجتك نتقبّل وضعها الشاذ بوجود (العشيقات) "بنظرة عميقة تمتم قابيل وهو ينظر لأخيه الأصغر "الشاذ؟! "ثم أمال رأسه قليلاً ليضيف متسائلاً بفضول وربما بعض

القلق "ماذا عنك يا آدم؟ لا زوجة ولا عشيقة؛ ألا تجذبك حواء؟ "لم تتغير تعابير آدم على الاطلاق وكأنه مجرد آلة بلا شعور وهو يرد متسائلاً بنبرة عادية للغاية "أ تخشى عليّ من انحراف توجهاتي الجنسية؟»

يمعن قابيل النظر فيه، هذا الشاب اللامع الوسيم لا يمكن أن يكون شاذ الميول، هناك في عمق عينيه ما يخبره بهذا، لكن يبقى آدم سرّ الاسرار بالنسبة إليه، رد قابيل بصدق "ربما تماديتُ في أفكاري هذه المرة؛ لكن الفضول يقتلني لأعرف ماذا تخفي في جوفك يا أصغر؟ "ليقول آدم "كلنا صغار يا قابيل، قالها الداهية قبل أن يعتزلنا "قال جملته بنفس النبرة العادية جداً! لا مشاعر على الاطلاق، فراغ كبير مهول، حيث لا دفء ولا برد؛ فقط الفراغ!

نحى قابيل جانباً فضوله حول (الأصغر) ليركز في (الأكبر) فيقول بجدية "ألم يئن الأوان لنعرف أين هو؟ ألا تستطيع إيجاده؟ "

رد آدم وهو يطرح السؤال مع الرد "لن يكون سهلاً لكن ليس بمستحيل، لكن ما الفائدة؟! "فقال قابيل يعبّر عن أفكاره "الوقت ينفد وتوفيق حتى اللحظة لم ينجح بإخراجه من الجحر "

بنظرة تفكير علّق آدم "أجل لم ينجح! أو ربما حصل ما

أبطل مفعول (سحر) "فسأل قابيل ببعض الضيق "والحل؟ "يرد آدم ليكرر وجهة نظره السابقة "لا أدري حتى الآن، لكن إن عرفنا بمكانه اليوم فلن يقدم ولن يؤخر شيئاً، أيوب شديد العناد وردود أفعاله انتقامية عنيفة، اقتحامنا لعزلته رغم إرادته سيأتي بالوبال علينا "لكن قابيل يصر على رأيه قائلاً "لكن لا ضير من المعرفة دون أن نقتحم مباشرة، وسننتظر لأسبوع، إذا لم يتصرف توفيق فسيكون ورقة محروقة وعندها نتصرف نحن "ثم رفع يده الى كتف أخيه وأضاف بنبرة آمرة "جِدْه يا آدم، ولو كان على الجهة الأخرى من الكرة الأرضية "يهز آدم رأسه في موافقة ضمنية بينما يتمتم بذهن متوقد "أظنه على (جهتنا) من الكرة الأرضية "

لم يرد عليه قابيل، بل تحرك يسبقه وقد شعر ببعض الطاقة تدبّ في جسده لكنه قال وهو يبتعد "ابحثْ عن (حواء) ترافقكَ يا آدم، بعض اللغط بدأ يصلني عنكَ بالفعل»

قالها قابيل بنبرة خافتة لكن واضحة، أكمل طريقه ليغادر قصر آل عريم بينما آدم يقف مكانه، جمود ثلجي كسا عينيه قبل أن يتحرك هو الآخر كي يغادر بينما يفتح هاتفه ليجري بعض الاتصالات، لقد حان الوقت لمعرفة مخبأ أيوب العريم.

***

### حي الخاتون، عصراً

سماعة الهاتف الأرضي على أذنه وهو يستمع لصوت توفيق النزق، لكن أيوب اللحظة أبعد من الاهتمام بكلام توفيق اللجوج المكّرر، لقد كان فكره مشغولاً باللعبة الجديدة التي دخلها، وقد بدأت شخوص اللاعبين تتضح!

صاحب المقهى أثبت صباح اليوم أنه مُنازل لا يستهان به، لقد اكتشف أيوب أن ذاك الرجل البسيط مثير للاهتمام وللتسلية ايضاً، وهو لا يسليه إلّا ما يثير التحدي! والحاج عبد الصادق اليوم أثبت أنه على أهبة الاستعداد لتحديه، لم يقل الرجل الكثير، فقد اقتصر كلامه على الاتفاق على المهر وموعد الزفاف وغيرها من التفاصيل، وقد منحه أيوب بعض الراحة وهو يستجيب لكل الطلبات، لكن ظلّ صاحب المقهى حذراً صلباً في التعامل معه، كان ندّاً له ولو ظاهرياً فالحاج عبد الصادق حتى اللحظة لم يعرف مع من يتعامل، ونصف متعة التحدي إخفاء قدراتك لتفاجئ بها خصمك.

« تبدو شديد الصمت يا أيوب "

جملة توفيق التي فاح منها الغيظ جعلته يستدرك صمته

بالفعل ليقول أيوب بمشاكسة "شديدُ الصمت؟! نحن نتحاور منذ ربع ساعة يا رجل! "هتف توفيق بغيظ أشد "هل تسمّي هذا حواراً؟! أنا وحدي من يتكلم منذ ربع ساعة "ابتسامة مشوّهة على فم أيوب بينما يرد ساخراً "آه عذراً.. ظننت أني أرد عليك بالفعل! سامحني لكن تكرار نفس الكلام أحياناً يصبح ثقيلاً على اللسان»

عندها كشف توفيق أوراقه وهو يقول بنبرة جدّية "إخوتك بحاجتك ولا وقت للمزاح "اتّسعت ابتسامة أيوب وزادت تشوهاً وقسوة وهو يقول بنفس السخرية "أخيراً اعترفت وقد خلا جرابك من الألاعيب يا حاوي! "اعترض توفيق وهو ينكر بالقول "أي ألاعيب؟! "لكن أيوب لم يهتم لإنكاره ونبرة استنكاره ليرد عليه بالقول وعيناه تبرقان في الظلمة القاتمة "لعبتك الأخيرة جاءت بتأثير عكسي يا توفيق؛ أردتَ عودتي إلى عالم آل عريم فغرزت قدميّ أكثر في حيّ الخاتون! "بدا توفيق حائراً وهو يتساءل بتوجس "ماذا تعني؟ "ليشتد بريق الظلمة وأيوب يتوعد "ستدفعون الثمن جميعاً "حاول توفيق استيعاب حالة أيوب وهو يطلب منه بصبر "فقط اشرح لي وبكلام أفهمه دون ألغاز "لكن أيوب لم يوضح، بل يوصل المزيد من رسائل الوعيد "أخبر الصغار إنْ اقتربوا خطوة؛ حطّمت عظامهم بين أصابعي "تساءل توفيق ببعض العجب "ما هذا العداء لهم؟! إنهم لم يؤذوك بشيء

فرد أيوب بصوت خافت وهو يرخي أجفانه للنصف "الشيطان لا يُطرح عليه سؤال كهذا! "فأخلى توفيق مسؤوليته وهو يقول "أنت تعلم أني لا أستطيع إيقافهم "ما يزال ذاك البريق المظلم يعربد في عينيه بينما يتمتم "أجل أعلم، إنها خطيئة الكِبْر والغرور تسري في دماء آل عريم»

***

تحاول جهاد تخليص يدها من يد جدتها المتسلطة التي تجرها خلفها على درجات السلم وهي تستمر بإبداء الرفض "جدتي لا اريد الخروج "تلتفت إليها الجدة وهي ترمقها بنظرات قوية تتبعها بالكلمات ذات المعاني "بل ستخرجين معي وسيراكِ الجيران مبتسمة ومتشوقة للتسوق وشراء الحاجيات كأي عروس ستزف بعد ثلاثة أيام الى عريسها "

يمتقع وجه جهاد تلقائياً لتتأثر الجدة لبضع ثوانٍ لكنها تسيطر على ضعفها لتعبس بعزم وهي تكمل طريق النزول على الدرجات بينما جهاد تحاججها بالقول الغاضب "ألا ترين أنها تمثيلية مكشوفة؟! أهل الحي قد لا يعرفون كل شيء لكنهم لا يجهلون أيضاً أني سأتزوجه نهاية الاسبوع فقط لستر الفضيحة "تجاهلت الجدة كلام حفيدتها لتقول وكأنّها تكمل جملتها الأولى "كما يجب أن تنتقي الاقمشة على ذوقك، فأنتِ مزعجة جداً ولا يرضيك شيء؛ على عكس

سارة "حالما نطقت الجدة باسم سارة حتى تعثرت جهاد بإحدى الدرجات، أطرقت وهي تمتم بخفوت "انتقي الاقمشة انت جدتي.. أنا لا أهتم»

أحنت رأسها أكثر لتخفي أثر الدموع التي تتجمع في عينيها، سارة لا تكلمها منذ الصباح، ورغم إحساس جهاد بالظلم والقهر وحتى الغضب منها إلّا أنها تأذّت من نأي توأمتها عنها، خاصة في هذا الوقت العصيب والمقبل من الأيام التي لا تعرف جهاد ما سيواجهها فيه.

شعرت حتى بالخيانة وسارة تتخلى عنها هكذا، ولا تعلم جهاد كيف تظنُّ توأمتها أن الحلّ بالعودة الى غيث! ماذا تريد منها أن تفعل؟! أ تعقل سارة ما تطلبه منها؟! وحتى لو اقتنعت، ما موقف غيث نفسه بغروره السخيف، وكيف سيتعامل معها إذا التجأت إليه، وماذا عمّا حصل بالأمس واحتفال النسوة في بيتهم؟!

« غريب أمرك يا ابنة كرم»

جملة جدتها نبهتها لترفع جهاد وجهها وترى نفسها خارج المبنى ودون أن تشعر انحدرت دمعتان على خديها كانتا محبوستين بين جفنيها، رفعت الجدة طارف حجابها لتمسح خدّي حفيدتها فتساءلت جهاد بصوت محشرج وهي تنظر لعيني الجدة "ما هو الغريب فيّ جدتي؟»

رسمت الجدة ياقوت ابتسامة عريضة وهي تتأبط ذراع حفيدتها (العروس) وترد على التهاني من بعض الناس المارة في الحي ثم قالت بصوت خافت وهي تكمل المسير مع جهاد "الغريب أني ظننتك ستعارضين كعادتك لأني سأخيط بعض الملابس لك "ردّت جهاد وهي تتبع أسلوب الجدة فترسم ابتسامة عريضة على وجهها تقابل بها وجوه الناس بينما قلبها يتقطّع بالأسى والخوف "ولماذا سأعترض وأنا لن ألبسها "تنغزها الجدة بالقول "لكنكِ لبستِ الثوب الزهري! "لم تكن نغزة، بل طعنة! (آه لو تعرفين يا ياقوت).

ردت جهاد باستسلام لدورها وطريقها الشائك الطويل الذي ينتظرها "وقد كانت غلطة ادفع ثمنها غالياً "اكتفت الجدة بالقول تأكيداً "صدقتِ! "ثم سحبتها ببعض الخشونة وهي تضيف "هيا بنا.. فأمك تحتاج لمن يكون معها اليوم كيلا ترتبك في حديثها مع الناس المهنئين "

تسير جهاد وللحظة شعرت بالشقاء يثقل عليها فنادت جدتها همساً مُستنجداً "جدتي»

لكن الجدة ياقوت لم ترد على النداء المرتجف!

***

بعد ساعة كاملة خرجت جهاد من محل أثواب النوم للعرائس تحاول التقاط انفاسها التي ضاقت، لم تعد تحتمل، تركت جدتها تفاصل بالأسعار وخرجت كي تستنشق الهواء، التجأت لزاوية بعيدة عن المارّة، كانت ترتجف بقوة فتشابك كفيها ببعض وهي تحني وجهها للأسفل، أخذت تدعو بهمس غير مسموع "ساعدني يا الله، لا أريد أن أنهار، وساعد سارة أيضاً لأنها تتألم»

« هل وجدتِ الألوان التي تعجبه؟!»

بنبرته الحقيرة الغاضبة ميّزت جهاد صوته، رفعت وجهها إليه وهي تهمس اسمه باضطراب غلبها "غيث!»

كانت تعابير غيث تحمل التحقير لها وهو يقترب ويقول بكبرياء مجروح واتهام صريح "إذن هذا ما كنتِ تفعلينه! تستغلينني أنا يا جهاد؟! أ كان استغلالاً أم انتقاماً لتردي لي خيانتي لك "

كانت تشعر بالكابوس يطبق على أنفاسها، ماذا فعلت لتستحق كل هذا؟! تمتم وهي لا تستوعب اتهاماته "أي استغلال تتحدث عنه؟! "نظراته اسودّت وهو يحسم اتهاماته بالقول "بل كان استغلالاً! كنت تخطّطين منذ البداية أليس كذلك؟ لهذا كنتِ ترفضين عودتك لي، لقد علمتِ

أنه رجل وحيد مسكين مشوه، لكنه مقتدر ومتمكّن مادياً وصاحب عقارات، فمن أنا لتثقل كفتي عندك؟! "

شعرت بالصداع ينبض في رأسها! لم يكن ينقصها إلّا هذا، لقد استقصى غيث ووصل الى نتائجه القذرة، استعادت سيطرتها بشقِّ الأنفس وهي تدّعي الصلابة وتهتف في وجهه "حتى الآن لا أفهم ولا أريد أن افهم؛ ما علاقتك أنت بأي تخطيط مزعوم مني! "لكن غيث لم ينتهِ منها بعد فقال وهو ينظر في عينيها "ضربة موفقة قاضية وأنتِ تثيرين غيرته عليك بينما يتقاتل شابان لأجلك!»

جنون.. ما يقوله جنون مطبق! ليكمل وصداعها يشتد "لأجل هذا فقد عقله وتهجّم عليك في شقته، وأنتِ استغليتِ غلطته على أفضل ما يكون ونلتِ بغيتك أيّتها المتسلقة الوصولية الحقيرة»

كانت من الاستنزاف ما جعلها تفقد الاحساس بالإهانات التي يوجهها لها، شعرت ببرود يزحف في جسدها، تنظر إليه وصداعها أخذ يتلاشى على نحو غريب، لا مبالاة بما يحصل وسيحصل لها، لا يهم من يحوك حولها القصص في الحي ووصلت أسماع غيث ليفسّرها على مزاجه وخيالاته المريضة، سألت بهدوء تام "هل انتهيت؟ "فرد وهو يتراجع للخلف وينظر إليها من

فوق الى تحت "انتهيتُ منكِ أخيراً وطويت صفحتكِ التعسة للأبد، انتهيت من غبائي وأنا أظنك تستحقين سعيي إليكِ، لكنكِ رخيصة.. رخيصة جداً يا جهاد، كم كنتُ مغفلاً!»

بنفس السكون البارد الذي تملّك حواسها ردّت "سعيدة أنكَ خرجت بفائدة أخيراً من تجربتك معي لتكتشف حقيقتك، مجرد مُغفل!»

أطلق صوتاً مزمجراً وتقبضّت كفه اليمين كأنه يوشك على مهاجمتها فشمخت جهاد تواجهه دون أن تهابه ليتراجع أكثر وهو يودّع وجوده في حياتها قائلاً "أوصلي للحاج عبد الصادق أنْ لا داعٍ ليكسر ساقيّ إن وطأتُ بقدمي حي الخاتون، لأنّ ليس لي الشرف في أن أطأ مكاناً أنتِ فيه حتى آخر عمري»

ثم استدار ورحل تاركاً جهاد مكانها تحدّق في الفراغ حتى خرجت جدتها من المحل وهي تثرثر عن الاسعار وجهاد صامتة لا تنطق بحرف.

***

كانت منى مبتهجة للغاية وهي تكلّم (عريس ابنتها) وتتورد تأثراً وهو يناديها عبر الهاتف بـ(سيدتي) في نبرة

رجولية رقيقة خاصة تفيض باللطف والتقدير.

من شقِّ باب الغرفة المفتوح كانت سارة تستمع وترى بينما الدموع تسرح على خديّها، حتى اللحظة عاجزة عن استيعاب كل ما يحصل بهذه السرعة الفلكية!

جدتها طلبت رقم هاتف أيوب منذ الصباح الباكر، لم تستطع سارة الرفض أو المراوغة، لكنها لم تتصوّر على الاطلاق أن أمها ستتصل به بنفسها حال مغادرة الجدة مع جهاد الى السوق! لم يخطر ببال سارة على الاطلاق أنّ أمها ستُقدِم على حركة جريئة كهذه بعيداً عن رقابة الجدة ياقوت وحضورها.

وها هي منذ ساعة كاملة تكلّمه وسارة مصعوقة مكانها؛ تستمع لذلك الحوار العجيب وأمها تفصح عن الكثير لأيوب، وقد كان (الكثير) كله عن جهاد. أجفلت سارة عندما سمعت أمها تقول لأيوب اللحظة "لا تقلق، منذ الغد ستعود سارة لفتح المكتبة، انت بمثابة أخوها الآن»

لم تحتمل.. أغلقت باب الغرفة بعنف ثم تحركت متعثرة لتقف وسط الغرفة والجدران تلف وتدور بها، ترفع كفها الى فمها تكتم نشيج بكاء مخنوق تحبسه في صدرها، ماذا يجري؟! كيف جرى كل هذا؟!

أخذت تدور وهي تهمس من خلف كفها "مستحيل.. مستحيل»

ترنّحت لتسقط جاثية على ركبتيها وتنهار في البكاء فتخرج الشهقات من فمها كأنها صرخات! دخلت عليها أمها هلعة لكن سارة لم تستطع التماسك وقد غرقت في نحيب على المأساة التي تكتمها منذ أيام، استسلمت لأحضان أمها التي ضمّتها بكل قوتها وهي تقرأ عليها آيات قرآنية ثم أخذت تمسّد على شعرها وهي تواسيها بما (تظنها) حزينة لأجله "لا تقلقي حبيبتي على جهاد، ستكون بخير، هذا الرجل طيب وسيعاملها أفضل معاملة، إنه ليس بشرير على الاطلاق، بل مجرد رجل وحيد»

أغمضت سارة عينيها بكل ما لديها من قوة حتى توجعّت أجفانها، إنها تائهة.. تائهة كُلياً وتشعر بالغضب الشديد، لا تصدق أنّ جهاد ستكمل تمثيلية الزواج من أيوب!

***

على الجانب الآخر ما يزال أيوب على وقفته قريباً من الهاتف الذي أغلقه للتو، أصابعه تنقّر فوق جهاز الهاتف وابتسامة شريرة جانبية تلامس ثغره، لقد كانت حماته من اتصلت به وظلت لساعة كاملة تثرثر معه، ووسط كلِّ ما قالته من معلومات متدفقة، أكثر ما علق في ذهنه

من كلامها هو افصاحها الساذج عن اسم التدليل الذي يطلقونه على جهاد.

تمتم ساخراً وهو ينطقه "نملاوي! زعيمة كوكب النمل؟! "

تحرّك مستنداً على عصاه وهو يفكر أن (ماما منى) مَعينٌ لا ينضب، لقد وقعت في فخ سحره! وباتت تحبه، بل ومشاعرها كلها تنحاز نحوه، استطاع إقناعها بكل ما يريد بسهولة شُربهِ الماء.

إنها امرأة مبادئها بسيطة للغاية وواضحة للغاية، كبساطة ووضوح الاطفال! سهلة الارضاء الى حد مملّ، مستعدة للاقتناع بأي شيء ما دام يصبُّ في سعادتها وسعادة أحبائها ويعزّز ثقتها بمحيطها البريء الآمن.

قادته خطواته ناحية الشرفة لينظر عبر ضرفتيّ بوابتها الى المكتبة المغلقة، فتمتم بقساوة مُخيفة "عفواً (ماما منى) فاللَحمة بين ابنتيك قريباً ستنفصم!»

صوت بعيد من جدته يثير هاجساً طارئاً عنده، تحذيراتها.. ترديدها الدائم لكلمة (الحلال) في قصر كل طوبة فيه معجونة بالحرام، نبرات صوتها الباكية وهي ترتّل القرآن في غرفتها المهجورة من المُنصتين والزائرين، تلك الآية التي كانت تُكثر من ترديدها حتى مماتها، إنه

يحفظ الآية بسبب جدته، لكن أبى اللحظة أن يذكرها، أبى الانصات لنداء الجدة فينفض رأسه وبريق من الشر الخالص يطغى ويشعُّ من عينيه، إنّه أيوب العريم؛ خليفة أبيه وجده حتى وهو يعتزل الخلافة! (أيوب العريم) لا يستسلم للمشاعر البشرية الضعيفة، فذاك الاستسلام في دستوره يعني الموت، وهو لن يموت، ليس قريباً على الأقل.

***

## نادي مقامرة للنخبة، منتصف الليل

ببدلة أنيقة سوداء وتسريحة شعر لامعة وقد صُفّفِت خصله الداكنة بعناية شديدة للخلف؛ يقف مدير وصاحب النادي داوود السامري يراقب عن بعد المقامرين من النخبة، عيناه تدرسان الوجوه وهو يدخن أغلى أنواع السيجار، لكن يحظى زبونه الجديد هارون العريم بتركيز خاصٍ منه الليلة، لقد التحق السيد هارون بناديه منذ بضعة أسابيع فقط وقد كان داوود سعيداً للغاية بانضمامه.

لم يكن لعب القمار فقط ما يطمح إليه داوود؛ ولا السعي لتقديم النساء كحلوى مُتعة ما بين جولة لعب رابحة وأخرى خاسرة كما يفعل لكل روّاد ناديه، بل أنّه يطمح للمزيد.

أشار داوود برأسه الى إحدى النادلات من العاملات في النادي ففهمت النادلة الاشارة لتغيب بعض الوقت ثم تعود بصينية مُذهبة لامعة يتوسطها صحن كريستال فاخر، يُضيء المسحوق الأبيض في الصحن فيثير شهية من تذوقه ويغوي من لم يجربه بعد.

تقدّمت النادلة الحسناء بملبسها الفاضح وهدفها قد تم تحديده مسبقاً من صاحب الأمر، تضع الصحن فوق المائدة الخضراء للزبون المنشود. تميل الى أُذن هارون العريم تهمس بالدعوة، منحها هارون نظرة لشفتيها اللامعتين ثم ينحدر بنظرته الى نحرها نزولاً الى جسدها المعروض بدعوة سخيّة، ثم أخيراً مالت عيناه الى صحن الكريستال بنظرة مطولة وكأنه يتفكّر! قبل أن يعود الى تركيزه مع ورق اللعب.

تغمز النادلة لصاحب النادي وقد أدّت المهمة فيبتسم لها راضياً قبل أن تنسحب من جوار هارون العريم بعد أن انحنت لتطبع قبلة على جانب فمه.

لم تدم ابتسامة داوود إلّا بضع ثوانٍ عندما شعر فجأة بخيال ضخم يقف خلفه وصوت بارد مُهدّد يهمس في أذنه "إذا تعاطى السيد هارون جرعة المخدر هذه، فسأحشر في جوفك عشرة أضعاف وزنها»

التفت داوود بحدة ليرى رجل الحماية الخاص بهارون العريم، رجل شديد الضخامة حليق الرأس يتواجد دوماً في زاوية مظلمة كشبح غير مرئي، مهمّته هي ملازمة كل زاوية وموضع تحيط بهارون العريم وتأمينها في كل مكان يذهب إليه.

رجال الحماية التابعين لداوود السامري تحرّكوا أيضاً من جانبهم لكنه أوقفهم بحركة غير منظورة من رأسه قبل أن يرد على تهديد الحارس الشخصي بالقول البارد "أ تهددني في ملكي؟! أ تعرف من أنا؟

عينا الحارس غير ظاهرتين خلف النظارة السوداء التي يلبسها على الدوام بينما يرد ببساطة "أنا لا أهددّك بشخصي سيد داوود الذي لا يرقى بشكل مؤكد الى شخصك ومقامك؛ وإنما مأمور من السيد هارون أن أفعل ما أخبرتك به في.. أوضاع مشابهة «

اتّسعت عينا داوود بمفاجأة مما سمع، حوّل نظراته الى (هارون العريم) فيراه منهمكاً بالتركيز في اللعب لكنّ عيناه بين الفينة والاخرى ترمقّان صحن الكريستال بلمعة خاصة يعرفها داوود، إنها لمعة الرغبة وحُبّ التجربة.

جاءه صوت الحارس مجدداً بنفس النبرة التي لا يغيرها

"أصدرْ أمركَ لتلك المرأة كي ترفع الصحن؛ السيد هارون لا يمكن توقعه، وقد يقع المحظور»

لحظات قصيرة مرّت قبل أن يشير داوود برأسه الى نفس المرأة فتم رفع طبق الكريستال على الفور بينما هارون يبتسم بحسرة! شعر داوود بالغيظ من ابتسامته تلك، خاصة حين وجّه له هارون نظرة تشعُّ شقاوة وتهديداً في ذات الوقت قبل أن يعود للانغماس في لذة لعبة القمار.

قبل أن ينسحب الحارس وقد أدّى المهمة قال داوود وكأنه يطلب تفسيراً "أنا أقدم له المتعة كعربون ترحيب دائم به، بينما هناك نساء يشاركنه السرير قد يكُنّ مدسوسات عليه ولا تعلم أنت ما قد يعرضنه عليه في تلك الخلوة، فلا أظنك ستكون من ضمن الحضور في غرفة النوم لتراقب (أوضاعاً مُشابهة) كما أسميتَها "كان السامري مُغتاظاً بشدة ليأتيه رد الحارس وكأنه أشفق عليه أو ربما أراد إيصال رسالة جديدة "يتم تفتيشهن بدقّة قبل دخولهن؛ كما يتم التأكد من خلوهن من الامراض ونظافتهن من التعاطي»

لم يرد داوود بشيء لكن كلام الحارس جعله يفهم السبب الحقيقي لرفض هارون العريم كل محاولات النساء العاملات في النادي رغم أنه يفتح لهُنَّ الباب على

مصراعيه ومع هذا في النهاية (لا يختار) منهن، لقد ظنّ السامري أنه فقط بات شديد الانتقاء ولا تعجبه أي امرأة مهما بلغ حُسنها، سمعته تسبقه أنه زير نساء والكثرة تولّد التخمة حدّ الملل أحياناً، لكن يبدو أنه كان مخطئاً في تقدير ذكاء الرجل وطريقته الملتوية الغريبة في حماية نفسه بالإجبار عبر ترتيب مُسبّق يضعه لنفسه ويدفع المال لأجل تنفيذه.

قال الحارس أخيراً قبل أن يتلاشى كشبح مظلم "إنه هارون العريم سيدي؛ وهو دقيق للغاية في اختيار ما يرغب التعامل معه «

***

تسلّلت جهاد من سريرها وسط الظلمة لتقف حافية القدمين جوار سرير توأمتها التي توليها ظهرها في صمت مطبق وكأنّ جداراً عالياً يفصلهما على الشعور التلقائي ببعض، لكن جهاد كان تحتاجها.. تحتاجها كما لم تفعل يوماً، إنها خائفة حتى وهي مصّرة على الاستمرار قدماً في زواجها من أيوب الحقير، بهمس مخنوق قالت "سارة.. لا أستطيع النوم»

لم ترد سارة بشيء ولم تنتظر جهاد أكثر لتتسلّل الى سرير شقيقتها تنضم إليها، بل تلتصق بظهرها وكأنها طفلة مرتعبة،

لفّت ذراعها حول جسد سارة وهي تغمض عينيها بقوة كأنها تمحو ظلال كابوس يأبى مفارقتها.

جسد سارة لم يلِن، ليس عن قصد لكنها تشعر أنها باتت مُطفأة كنبتة يابسة خاوية لتقول بنبرة لا حياة فيها "سأعود لعملي في المكتبة في الغد، لقد طلبها من أمي وهي ابتهجت موافقة "تتألم سارة نفسياً وذراع جهاد الملتف حولها يشدها بقوة أكبر كأنها تتوسل! وقبل أن تقولها جهاد بلسانها كانت سارة قد قرأتها "لا تسمحي له أن يفصمنا عن بعض يا سارة "ليت جهاد تعلم أن الامر ليس بيدها، إنه يفوق احتمالها، يفوق أي تجربة مرّت بها، لم تقل لها إلا جملة واحدة "لا تتزوجيه يا جهاد»

كانت سارة تعلم في قرارة نفسها أن ما تطلبه يستحيل تنفيذه في هذه المرحلة من ورطتهما العصيبة، لكن ليس في إمكانها إلّا أن تطلبها من جهاد، ليس في تخيلها إلّا أنّ جهاد قادرة على فعل مجنون فيه الحل لكلتيهما، ربما سارة اللحظة لا تفكر بعقلانية، لكن من يقول أنْ ما حصل وسيحصل يمت للعقل بصلة!

تسمع صوت جهاد مختنقاً ببكاء مكتوم وهي تطلب منها بحشرجة "لا تتركيني سارة، أنا استمد القوة منكِ، اسرح وأمرح، أعاند وأكابر، أهاجم برعونة وأرمي نفسي في التهلكة؛ لكني لا أهاب أي شيء لأنك معي»

(هذه المرة لن أستطيع أن أكون معك) جملة قالتها سارة في سرّها لكن جهاد قرأتها، فتنزل دمعة على وجنة جهاد بينما سارة تقول بلسانها هذه المرة لتكرر جملة سابقة لكن بنبرة قاسية "لا تتزوجيه يا جهاد»

أغمضت جهاد عينيها لينزل المزيد من الدموع وقد استسلمت للأمر الواقع، سارة لن تدعمها ولن تكون معها، عليها أن تواجه هذا الزواج المشؤوم بمفردها وتتحمل مسؤولية اختيارها لإنقاذ سارة.

فجأة همست جهاد بحدس توهج بغتة "ترا ماذا يفعل حمزة الآن؟!»

***

صورة قديمة عمرها ثمانية عشرة عاماً يمسكها حمزة بين أصابعه ويمعن النظر في وجه سارة وهي طفلة ذات سبع سنوات، كانت ضئيلة الحجم وسط قريناتها من الفتيات، مشرقة بابتسامة حلوة واثقة لكن حذرة، وكأنها تخشى عينيّ المصور الفوتوغرافي من خلف الكاميرا، تقف سارة وسط الفتيات بفستانها الأحمر في الصف الأول تشع ثقة بالنفس بينما توأمتها جهاد تقف خلفها تماماً في الصف الثاني على درجة بمستوى أعلى وتلف ذراعيها حول كتفي

سارة تستند عليها ويطلُّ وجهها بابتسامة شقية عابثة من أعلى جانب رأس توأمتها الحذرة.

أما هو حمزة فحشور في زاوية الصورة دون دعوة أو مناسبة! لا يظهر منه إلّا جانب وجهه وهو ينظر ناحية سارة كأنه يخشى عليها أن تصاب بمكروه، قلبه كان يتأثر بضآلتها وسط باقي الاطفال ولا يعلم لماذا كان يراها أكثر رقة وقابلة للأذى أكثر من توأمتها جهاد، حتى إنه حشر نفسه في صورة لأطفال أصغر منه بثلاث سنوات فقط كي ينتبه للصغيرة ذات الرداء الاحمر دون أن يوصيه أحد بهذا.

لا يزال يذكر هذا اليوم باحتفالات العيد الوطني للبلد والاطفال يرتدون ملابس ملونة وقد أتت سارة بثوبها الأحمر تتفاخر به بطفولية بينما جهاد ارتدت سروالاً ابيضاً وبلوزة صفراء، وظلت تثرثر طوال الوقت كيف أقنعت والدها أنها لا تحب الفساتين كسارة ومن حقها الاختيار دون أن تفرض عليها الجدة ياقوت ارتداء ما تخيطه.

إنه لا يذكر هذا اليوم فحسب، بل يذكر معظم أيام الطفولة معها، أخواته البنات كنّ يَغرن منها بسببه هو، وفي الكبر أخذن يشاكسنه لاستمرار تعلقه بها، بل تطور ذاك التعلق في مرحلة المراهقة ليتحول الى بذرة عاطفة مختلفة.

تنهد حمزة وهو يضع الصورة الى جانبه على الوسادة ثم مال بجسده ليلتقط علبة السجائر جوار سريره ويشعل واحدة، يتمتم حمزة مع نفسه "اظنها حتى نسيت طلبي للزواج ومهلة الاسبوع لترد عليّ، فهل يجب أن أتفهّم أم أغضب؟!»

سرحت نظرات حمزة وسط الدخان وهو يفكر مُجدداً بما جرى ذاك المساء الأغبر، يستعيد الصورة مراراً وتكراراً وجهاد تركض باكية هاربة من مبنى قصر الخاتون، أ كانت جهاد أم سارة؟!

إنه لا يفرق بينهما ويعتمد على معرفته بذوقهما المختلف في الملابس، لكن تلك الليلة كلتاهما ارتدت نسخة من نفس الفستان، فهل كانت جهاد أم.. سارة!

***

صباح اليوم التالي

كانت طاقة سارة في أدنى مستوياتها وهي تفتح المكتبة بعد أيام من إغلاقها، تكنس أمام الباب وهي تردُّ على تحية الناس من أهل الحي اثناء مرورهم بها بينما تتجاهل نظراتهم المُصوبة ناحيتها بتدقيق وكأنّ عيونهم تودُّ اختراق سريرتها ليحصلوا على إجابات، التساؤلات لن تنتهي حتى

يوم العرس، وعندها وعلى صوت الغناء وضرب طبول الاحتفال ستبهت أصوات تلك التساؤلات فتقع على قارعة طريق الذاكرة فلا تثير اهتمام أحد.

خنجر مسموم بإحساس خيانة ينغزها، لا يفعل أكثر من النغز! كأنه يحتار أو مشوّش من حقيقة السمّ الزعاف الذي يحمله ولمن يصوّبه، ربما هي خيانة دون خائن نحاكمه، جناية حيث لا جُناة لها، بينما المجني عليهم يُنحرون بها!

سمعت صوت رنين الهاتف الارضي يأتيها من داخل المكتبة فتجمدت للحظتين فقط قبل أن تعاود الكنس بهدوء، تخشى أن يكون هو، تخشى من شعورها أنه هو.. هو من سيكون زوج اختها بعد يومين!

منذ حضورها وهي لم تطرف بعينيها ناحية الشرفة في الطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون، لا تريد أن تفكر أنه يراها.

« صباح الخير سارة»

رفعت نظراتها عن الارض التي تكنسها لترى أمامها حمزة، تعابيره كانت بائسة لكن هادئة فشعرت وكأنه يواسي بؤسها، تذكرته كرفيق مرحلة الطفولة البريئة فشعرت

بالحنين كي تعود طفلة! سألته وهي تتشبث بعصا مكنستها "أ لديك صور قديمة من المدرسة يا حمزة؟ "تطلّع إليها مُطولاً قبل أن يرد بنظرة غريبة "لدي واحدة أو اثنتين، أتريدين أن أطبع نسخة فوتوغرافية لأجلك أم أصورها وأرسلها عبر الهاتف؟ "هزّت رأسها وقد خنقتها العبرة "لا اريد نسخة، أرجوك.. اريدها هي الأصلية.. فقط صورة واحدة "لم يرد وهو يواصل النظر إليها بينما تضيف سارة بهمس موجع "اريد لمس الورق القديم للصور، أريد لمس الماضي "تنهد بخفوت قبل أن يرد "أمهليني حتى الغد وسأحضرها لك، لأني أريد أن أنسخها لنفسي»

أخذت تتمتم بالشكر بينما الكلمات تتعثر بالغصّة التي تخنقها، عاود الهاتف الرنين ولم تتنبه حتى لتوقفه في المرة الأولى لتلتفت للخلف بينما صوت حمزة يأتيها ثقيلاً وهو يقول "يبدو أن هناك من افتقدك، أعني.. زبون افتقد المكتبة»

لم تعاود النظر إليه ولم تر عذابه يطل من عينيه بينما ترد وعيناها تحدقان عبر باب المكتبة المفتوح "لستُ مستعدة بعد»

***

يغلق أيوب سماعة الهاتف بحدة ثم يتحرك مُجدداً ناحية

الشرفة ليعاود النظر إلى وقفتها مع ذاك الميكانيكي، حقد أسود ينبعث منه وعيناه لا تفارقان النظر إليها كأنه يودُّ تمزيقها! أو تمزيق كل ما مثلته له لثلاث سنوات.

***

# الفصل العاشر
# الزغاريد لا تزغرد!

**يوم الخميس، مؤسسة العريم**

دخل آدم دون استئذان الى مكتب أخيه قابيل، تعابير وجهه الجدية الهادئة لم تتغير وهو يجد قابيل مسترخياً بظهره على كرسيه الجلدي ومديرة مكتبه تجلس فوق حجره وأناملها تلامس لحيته! لم ترمش عينا آدم ولم يبدِ أي انفعال وهو يقول باختصار "وصلتني المعلومات للتو "تحركت مديرة المكتب الحسناء لتغادر المكتب بصمت وهي تمسّد على تنورتها القصيرة، أغلقت الباب خلفها بينما يعتدل قابيل بجلسته وهو يلامس ربطة عنقه ويتساءل "المعلومات عن أيوب؟ "يكتفي آدم بهز رأسه وهو يقول بأسلوب مباشر مختصر "أيوب يقطن في حي الخاتون منذ رحيله المُفاجئ الغامض قبل ثلاث سنوات»

في هذه الاثناء دخل هارون بينما تتسع عينا قابيل بذهول وهو يردّد بعجب "حيّ الخاتون! أ يعقل هذا؟! أيوب العريم يسكن ذاك الحي منذ ثلاث سنوات! "ليُلقي آدم بقنبلة أشد وقعاً فيقول "واليوم تحديداً هو عرسه "كانت هذه الصاعقة التي جعلت قابيل يقف على قدميه

وهو يسأل كمن لا يصدق "عرس من؟! أيوب؟! "فيؤكدها آدم بهدوء "أيوب سيتزوج الليلة من امرأة مُطلقة اسمها جهاد كرم تسكن في الحي ذاته»

ضرب قابيل بقبضته على سطح مكتبه وقد تمكّن منه طبعه الغاضب بينما يكمل آدم آخر المعلومات التي وصل إليها "إنه لا يغادر مبنى قصر الخاتون الذي اشتراه، ولا أحد يعرف حقيقة هويته ومكانته، باختصار لقد اختار التخفي بين زحمة أناس شعبيين حيث لا نراه ولا نتوقع وجوده، لقد خدعنا كلنا ونحن نرجّح اعتكافه وحيداً في جزيرة بعيدة غير مأهولة "فهتف قابيل بغضب عارم وهو يضرب بقبضته مجددا فوق سطح مكتبه "والآن يتزوج من بنات ذاك الحي! ماذا يريد أن يثبت؟! لقد جنَّ وهو يعيش عقدة الذنب هذه»

ليتكلم هارون بينما يستوعب المعلومات بتأن قائلاً "لماذا أنتَ غاضب ومصدوم هكذا يا قابيل؟! لو أُمعنت النظر لوجدتها أخباراً جيدة، هو لم يبتعد خارج البلد، بل اختار أن يبقى قريباً منّا وهذا يعني أنه لا يقاوم الابتعاد عن محيط آل عريم، وكان ذكياً كعادته وهو يختار عزلة وقتية وسط حي مزدحم دون المستوى لا يمكن توقعه، والآن بعد مداعبات توفيق له بتذكيره بماضيه مع النساء ودسِّ سحر في عزلته فنراه يعاند ويتّخذ زوجة من نفس البيئة وكأنّه يعاقب توفيق على فعلته أو يعاقبنا نحن و(يجرُّ أذننا)،

فهو لن يخونه ذكاؤه ومؤكد يعرف أننا خلف توفيق، كل هذا يعني أنها أخبار جيدة، أيوب ما يزال هو أيوب، وعودته حتمية»

يضيّق قابيل عينيه بتفكير وقد هدّأه كلام هارون ومنطقه، لكن آدم عرض وجهة نظر مختلفة قائلاً "وهناك فرضية أخرى، قد لا تعجبكما لكنها واردة ويجب أن نضعها في حساباتنا حتى لا نتفاجأ»

صمت الأخّان بينما الأصغر يوضّح فرضيته "زواجه من امرأة عادية من ذاك الحي قد تكون رسالة صريحة لنا أنّه لن يعود، لقد وصلني بعض اللغط حول علاقته بتلك المرأة، لكن في النهاية هو سيتزوجها ويُقيم عرساً وسط الحي حسب الأسلوب المتبع هناك، والزواج ليس لعبة عند أيوب، أنتما تعرفان هو لم يتزوج إلّا سارة رحمها الله وكل علاقاته النسائية كانت دون زواج "زفر قابيل بقوة وهو يرفع يده ليمرّر أصابعه في خصل شعره قائلاً بتجهم "عدنا للمربع الأول ولم يتبقَ إلّا أسابيع ليكون حاضراً في الاتفاقية»

كان هارون مستغرقاً بالتفكير ثم تقدم من شقيقه الأصغر قائلاً بعينين تلتمعان ذكاءً "نحتاج المزيد من المعلومات عن تلك المرأة، ماذا قلت اسمها؟ "رد آدم "جهاد كرم، في الواقع هي شابة في الخامسة والعشرين

وكل ما وصلني عنها أنها تعمل مع دار نشر كترجمة كتب وروايات، تطلقت من زوجها قبل عام واحد "ثم صمت للحظة وأضاف "بالمناسبة شقيقتها التوأم من تدير المكتبة التي يمتلكها أيوب من ضمن عدة عقارات اشتراها هناك في حي الخاتون "

تنبّه قابيل وسط غضبه ليتساءل "شقيقتها التوأم؟ "فهز آدم رأسه بالإيجاب وهو يقول بنبرة خاصة "أجل.. واسمها سارة»

اسم (سارة) أثار ارتيابهم بطريقة ما، ليكون قابيل أول من يعطي ردة فعل متهورة وهو يهدر عاقد الحاجبين "سارة؟ أ نتلاعب كلتاهما به؟ هاتان البنتان تعلمان هويته وما مرّ به وسبب اعتزاله فتحاولان التأثير عليه بكل الطرق طمعاً بأمواله والاستحواذ عليها»

لم يقل آدم شيئاً بينما هارون يطلب بذهن متوقد وذكاء فطري نبتَ وأينعَ في أرض خبيثة "أريد المزيد عنهما يا آدم؛ ربما تكون (الزوجة المستقبلية العتيدة) هي مفتاح الحلّ، بل ربما كلتاهما ستكونان نصيرتين لنا»

***

**حي الخاتون/مساء**

الزغاريد.. ما بالها الزغاريد لا تزغرد! تخرج من أفواه النسوة المفتوحة فتصل مسامع العروس كأنها تنوح وتندب.

أغمضت جهاد عينيها وهي تستسلم لأيادي النسوة اللواتي يتناوبن للاعتناء بتبرجها بعد أن ألبسْنَها فستان العرس الذي خاطته جدتها خلال يومين.

فرشاة لمنح التورد تمرُّ على خديها فتجرحهما، وكأنّ شعر الفرشاة الناعم بات كأسنان مشط حديدي صدئ! وأحمر الشفاه يثقل شفتيها بالقيود والأغلال فلا تملك حق النطق.

تحبس دمعة وجع متمردة وكلمات جدتها الثقيلة ليلة الأمس ترنُّ في أذنيها (**كوني قوية يا جهاد وتقبّلي زواجك من أيوب إنه ليس برجل سيء، لا تشمّتي بنا الحاقدين والحاسدين بفشل جديد، لا تكسري قلب أمك وأنت أعلم أي قلب طفلة ينبض في صدرها، ولا تهدمي بطيشك نصيب شقيقتك فيكفي ما نالنا من نصيبك!**)

كل الخطط التي أعدّتها جهاد لطلاق سريع من أيوب؛ تمزقت أوراقها وتناثرت! تطايرت من شرفة التوصيات والتوسلات من أحبِّ الناس إليها، لقد رأت صباح اليوم

في عينيّ جدتها ذاك التوسل يلتمع مقروءاً بصمت، وسمعته في نبرة صوت أمها وهي توصيها خيراً بـ(زوجها الطيب)، ثم تجسّد لجهاد ذاتُ التوسّل محسوساً، سمعاً وبصراً، في انهيار توأمتها سارة، انهيار أخرس أبكم لكلِّ الناس إلّا لجهاد، هذا الانهيار يمنحها طاقة كي تستمر وتنقذ شقيقتها من هوّة أوشكتْ أن تقع فيها.

شعرت ليلةَ الأمس أنها كبرت أكثر وأسرع مما كانت مستعدة له، لكنّها تقبّلت الواقع بصبر جديد عليها وقد كانت دوماً نزقة سريعة الشكوى، ضعيفة الاحتمال، لكنها احتملت، ثم جمعت الأحمال المتناثرة في دار الحاج كرم ورفعتها بصمت فوق ظهرها، واتخذت قراراً حاسماً أنها ستستمر بهذا الزواج المشوّه من أيوب مهما تطلّب منها حتى تطمئن على سارة بزواج سعيد تتمناه لها، وبعدها ستجد طريقة للإفلات من براثن ذاك الزواج وبطريقة أقل إيلاماً لأمها وجدتها.

أصابتها رعدة في كل جسدها وصوت زغرودة (نائحة) يمر قريباً من أذنها ثم كلمات الجارة أم وجدان وهي تهمس في أذنها كأنها تعزيها "هيا يا عروس، يا حسرة عليكِ وعلى نصيبكِ في الأولى والثانية!»

لم تهتم جهاد لتلك الكلمات الكريهة، حتى ولو قيلت دون نيّة خبيثة، لكنها ستبقى كريهة، وقفت على قدميها

شامخة وهي تنظر عبر المرآة لانعكاس الفتيات الراقصات اللاهيات خلفها والنسوة المتحلّقات بزغاريدهن حولها، عيناها وقعتا في عيني جدتها ياقوت لتقرأ نفس التوسل فاستجابت وهي ترسم (ابتسامة عروس) واسعة فارتفعت الزغاريد وأمها تأخذها في حضنها باكية بينما ظِلال توأمتها تتوارى خلف غول مخيف بات يحجبهما عن بعض.

***

لم تتبين سارة لون فستانها إلّا اللحظة! أنوار الزينة التي عُلقت في الحي على جانبي الشارع أخذت تنعكس على الفستان ليبدو صارخاً بحمرة الوجع!

تحدق في فستانها وهي تقف في زاوية حيث لا يشعر بها أحد وسط هذا الصخب والحضور المرتفع لأهل حي الخاتون فقط كي يروا (السيد)؛ مالك قصر الخاتون الغامض الذي لا يظهر إلّا نادراً، وظهوره الليلة كان حدثاً غير عادي وهو يتزوج إحدى فتيات الحي، فينسون همساتهم عن (الفضيحة) ويشغلهم الفضول حول هذا الرجل المشوه، ورغم تشوهه المنفر الذي يحاول إخفاءه بشعره إلّا إنه يملك هيبة جاذبة وتعابير رجل ارستقراطي عريق.

الكلُّ كان ينظر نحو العريسين في المنصة إلّا هي.. هي

شقيقة العروس وتوأمتها، لا تستطيع فعلها مثلهم، في الواقع طرفت عيناها مرة واحدة ولبضع ثوانٍ لا غير، فرأت جهاد جامدة الملامح بابتسامة مصطنعة، لكن سارة رأت فيها انعكاساً لانهيارها الوشيك.

أمّا أيوب.. فقد منحها ابتسامة غريبة اقشعر جلد سارة بسببها وغار قلبها في صدرها! إنه غاضب منها.. غاضب بشدة، فلم تعد سارة تتبين ملامح مشاعرها المختلطة نحوه ونحو كل ما يحدث!

أحنت سارة رأسها أكثر وهي ترتعش، لقد تجاهلت اتصالاته اليومية تجاهلاً تاماً طوال الأيام السابقة، تعمل في المكتبة بصمت طوال النهار ثم تعود للبيت لتعتكف في الغرفة تدّعي الارهاق والانشغال بأعمال المكتبة التي تعطّلت في الأيام السابقة فتبتعد عن أجواء (تجهيز العروس) الذي فرضتاه أمها وجدتها على جهاد.

وفي أول الليل تغلق سارة عينيها لتعلن أنها (نائمة) لكنها في الواقع لم تكن! تشعر بأنفاس جهاد في الغرفة تتسرب منها يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة، لتغفو أخيراً وهي تشعر بجهاد تتسلّل الى سريرها تلتصق بها وكأنها تودّعها الوداع الأخير.

(سأقع مغشياً علي يا رب، ساعدني يا رب لأكمل هذه

الليلة دون أن يظهر انهياري)

تمتمت سارة بالدعاء في سرِّها وهي تحدق في الفستان الأحمر ولا تدري ما الذي ألهمها اختياره الليلة؟! أ تكون تلك الصورة من الطفولة التي أحضرها لها حمزة؟! كانت ترتدي فستاناً أحمراً أيضاً، ربما أرادت اللجوء الى تلك المرحلة المحمية الآمنة من حياتها، أرادت الهروب الى الماضي كي تستطيع مواجهة الحاضر.

«أأنت بخير يا ابنتي؟»

رفعت سارة عينين دامعتين وهي ترد على الاستاذ هلال بحشرجة "نعم.. يا استاذ "نظراته المشفقة مسّت قلبها بينما يقترب منها ليقف جوارها ويحاول طمأنتها بالقول "جهاد ستكون بخير "تمتمت سارة دون أن يكون للكلمات صدى في نفسها "نعم ستكون بخير»

أخذ الاستاذ هلال ينظر إليها بتمعن قبل أن يسألها بخفوت "هل تكلمتِ مع السيد خلال الايام الماضية؟ "هتفت بحدة منفلتة أثارت دهشة هلال "لا..»

ارتفع حاجبا هلال قليلاً وعاوده شعور غير مُريح تجاه ما يحصل مع البنتين، لكنه أقنع نفسه (أنه يبالغ) وإنما سارة ردت بحدة لأنها لم تسامح السيد أيوب على فعلته

مع جهاد، ومن منطلق هذه (الفكرة المُقنعة) قال هلال ينصحها "يجب أن تفعلي يا ابنتي وتكلّميه، هو أخطأ لكنه أصلح الموقف، يجب أن نتعاملي معه كما السابق، بل أفضل من السابق وقد بات بمثابة أخ لك بعد زواجه من جهاد "هطلت دموعاً غزيرة عفوية على خديها وهو تهمس باختناق وبؤس "من فضلك يا استاذ.. لم أعد.. احتمل "عاوده الهاجس وهو ينظر الى وجهها المتألم وتعابيرها المُحطمة لكنه قال بحذر وهو يتجاهل ذاك الهاجس "الأمر يحتاج للصبر والتكيّف مع الفكرة، تذكري كلامي هذا عندما يحصل هذا وتسامحينه على ما فعل»

رفعت يدها الى فمها كأنها تكتم شهقة أو ربما صرخة! قبل أن تنسحب قائلة بارتجاف "عن إذنك»

رآها بقلق تسير بخطى متعثرة بعيداً عن جمهرة العرس في الشارع فأراد اللحاق بها عندما لمح حمزة يفعل ذلك قبله.

***

« كم أنت تعس وبائس يا حمزة!»

يكررها بنبرة توبيخ للنفس بينما يحثُّ خطاه كي يلحق بسارة، قلبه يتمزق ألماً، يتقطع إرباً، وهو يراها تتعثر بخطواتها هاربة بعيداً عن عرس جهاد.

لم يعد عقله يسعفه بأي فكرة حول ما يحصل معها، سيجنُّ من عجزه، سيجنُّ لأنه يحبها هكذا دون أن تبادله سارة ولو القليل من المحبة والقبول.

شتم بخفوت وهو يراها تتعثر وتوشك على السقوط أرضاً، لكنها سيطرت على توازنها لتتباطأ خطواتها ثم وقفت لتستند بكفها على أحد الجدران، وعندها.. غلبتها شهقات بكاء مرير.

شعر وكأن بخار حار يخرج من أذنيه! إنه غاضب وليته يجد من يصبّ جام غضبه عليه، وصل إليها فأفزعها وهو يهتف بخشونة "أ جننتِ سارة؟! "التفتت إليه بوجهها الباكي لتهتف به في المقابل "اقسم بالله أنت هو المجنون! كاد قلبي يتوقف من الخوف بسببك "يعبس في وجهها ويشتعل غضبه الأحمق أكثر وهو يقول "احمدي ربك أنه أنا من لحق بك وليس شاباً متعاطياً للمخدرات أو مخموراً "وقبل أن ترد عليه كان يضيف "هل انت غبية دائماً هكذا؟! هيا تحركي أمامي لتعودي الى عرس شقيقتك»

عفوياً أمسك بمرفقها ليجرها بخشونة كي تمتثل لكلامه فنزعت ذراعها منه وهتفت وعيناها تلمعان بالغضب "أنت هو الغبي ولستُ أنا، ولن تخبرني ما أفعله وما لا أفعله، اتركني وارحل بعيداً عني "ثم فجأة انهارت بالبكاء فتغمر

وجهها بين كفيها وحمزة يحدق فيها كأبله!

تمتم وهو يقترب منها "اشتميني كما تشائين لكن.. يجب أن تعودي الى العرس يا سارة، توأمتك بحاجتك كي تكوني معها الليلة»

ارتفع صوت نحيبها فتشنج جسد حمزة وهو يتأثر بضعفها وحزنها كما لم يتأثر في حياته، كم يودُّ لو يأخذها في حضنه! الفستان الأحمر هو الأجمل عليها على الاطلاق.

أغمض عينيه بقوة وهو يلعن الشيطان ثم مال إليها برأسه ليهمس بخشونة "كفي عن البكاء! وجهك سيبدو بحالة مزرية أمام الناس "

توقفت عن البكاء وهي تنحني برأسها قليلاً تبحث في حقيبتها بيدين مرتعشتين فأخرجت بعض المناديل الورقية لتمسح وجهها وهي ترد عليه بخشونة بين أثر شهقات بكاء متلاشية "لم تكن في الطفولة فظّاً كريهاً هكذا يا حمزة!»

شعر بالارتباك وهو حقاً لا يعرف لماذا بات يتعامل معها بهذا الشكل، رفعت عينيها إليه وهي تمسح أنفها وتقول بنظرات لامعة بالغضب "اريد العودة بمفردي، هل تسمح؟!»

نظر إليها مطولاً وقلبه يقرع في صدره فاقترب كثيراً دون وعيه وسارة تتراجع حتى التصقت بالحائط وهو يخيم فوقها بضخامته فتخرج الكلمة من فمه رغماً عن إرادته "أحبك»

لم يدرك أنه قالها حتى رأى انعكاس الصدمة المروعة في عينيها ثم تحركت مبتعدة لتتخلص من حصاره واعترافه وهي تعود بخطى مسرعة الى حيث يتجمع الناس في عرس شقيقتها.

أخذ حمزة يضرب أولاً بكفيه على الجدار ثم يرفعهما ثانياً ليضرب بهما على جانبي رأسه وهو يشتم نفسه بعنف "غبي.. غبي!»

***

## شقة أيوب

وقع المحتوم وبات أمراً واقعاً.. بعد أن تم عقد القران ها هي جهاد تخطو بقدميها عتبة شقة أيوب كزوجة له وأمها الطيبة تزغرد! كم هي امرأة شديدة الطيبة والبساطة، الحقير أيوب استغل هذه الصفات البريئة فيها ليكسبها إلى صفه فباتت تُدلله كأنه ولدها!

جدتها كانت تزغرد أيضاً لكن جهاد تعرفها، هي فقط

تفعل كل هذا لترد على نظرات الأشفاق لأن حفيدتها تتزوج هذا الرجل المنعزل المشوه الذي يكبرها بخمسة عشرة سنة.

ورغم الاشفاق السائد إلّا أنّ جهاد لمحت في أعين البعض غيرة وحسداً، فكلٌّ يرى الامر من جهته، ومن يحسدها لا يرى إلّا امرأة مطلقة حظيت سريعاً بعد طلاقها برجل مقتدر مادياً وله أملاك في الحي، رجل يكبرها بما يكفي ليدلّل عروسه الشابة ويغدق عليها.

تنفسّت جهاد الصعداء والكل ما بين مشفق وحاسد يغادر مباركاً للعروسين، تقف وسط الصالة تأبى الجلوس وعيناها تبحثان عن سارة فلا ترى منها إلّا حُمرة فستانها! تختفي في الزوايا غير المنظورة على مدى بصر جهاد، فتشعر بقلبها قد أضاع نصفه لينكفئ النصف المتبقي محسوراً يتيماً.

لم تشعر باقتراب خطوات أيوب منها فأجفلت بقوة عندما أمسك بكفها وقبل أن تفكر بتصرف ما، باغتها برفع يدها الى فمه يلثم ظاهرها وهو ينظر في عينيها وابتسامة خبيثة على فمه، تخشّبت بردة فعل تلقائية وهي تشعر بشفتيه الكريهتين تلامسان بشرة يدها، ثم استعادت قدرتها على التصرف لتحاول سحب يدها وعيناها تدوران بحثاً عن سارة بحدس سريع أنها ستظهر لها اللحظة، وقد صدق حدسها فرأت توأمتها بوجه ممتقع تحدّق فيهما، الحقير إنه

يعرف ما يفعل!

لم يسمح لها بسحب يدها، بل يشدُّ عليها في خشونة قاسية وهو يتمتم بنفس الابتسامة "دعيها تفرح لأجلنا.. لأجل سعادتنا!»

ثم صدمها وهو يتمادى ليميل بوجهه كي يقبل خدها فهمست جهاد بانفعال وانفاس لاهثة وهي تنظر في عينيه في جرأة وقتال "لا تفعل، سأصفعك أمام الجميع! "توقف ثم ابتسم وهو يميل جانباً ليهمس لها بلؤم قرب اذنها "أيمكنني إذن أن اقبّل خدّ شقيقة العروس كتعويض؟ "تحجّر نظرات جهاد بينما يواصل همسه الشيطاني "إنها محرّمة عليّ الآن وكأنها (اختي) أليس كذلك؟ "ثم تنهد بطريقة مصطنعة وهو يتمتم كأنه يشتكي حاله "الأحمر لا يُقاوم لو تعلمين!»

اشتعل الدم في خدّي جهاد من شدة احساسها بالغضب والاشمئزاز، رغبة حقيقية بالقتل تشعر بها نحوه، ليس بسبب ظاهر كلماته الحقيرة وإنما لباطن مقاصده التي كشفها هو بنفسه لها سابقاً، انتقامه الذي وعدها به، شتمته همساً "أنت حقير وسافل وقذر»

انفجر أيوب ضاحكاً وارتد رأسه للخلف من شدة الضحك.

لمن يراهما من الخارج يتخيل ان (العريس) يشاكس عروسه فأحرجها لتتورد وهي تخبره بهمس خجول أن يتأدّب، فينفجر العريس ضاحكاً مستمتعاً بحياء (العروس)!

الأمُّ تدمع عيناها تأثراً بالصورة الخادعة ثم تقرأ المعوذات، بينما الجدة تحاول ان تستبشر خيراً رغم شعور غير مريح يأبى أن ينزاح عن صدرها!

أنفاس سارة تلاشت وصورة أيوب مع جهاد تتمايل أمام ناظريها، لم تشعر إلّا بذراع الجدة يحاوطها لتستند إليها في لجوء صامت فتغمض عينيها بينما تسمع همس الجدة يواسيها "لا بأس يا سارة، أعلم أنك تتألمين لأجل نصيبها، لكنها يجب أن تتحمل نتائج تصرفاتها الطائشة»

تضغط سارة أجفانها المطبقة ببعض والاحداث تختلط بعنف في مخيلتها المرهقة، أيوب ورائحة الخمر تفوح منه وهو يقرب التفاحة من فمها، جهاد وهي تدعك عينيها ووجهها لتبدو (باكية) بعد أن ارتدت الفستان الزهري لتحلّ محلها في حمل ذاك الذنب، صراخ الجدة وهي تضرب جهاد (فضحتنا)، نظرات جهاد وهي تطلب منها الصمت وألّا تكشف حقيقة الأمر، حمزة يصرخ وعيناه تشعّان بالألم.. حمزة الذي قال لها الليلة (أحبك) بيأس قاتل، والآن..

جهاد.. توأمتها التي ستبيت ليلتها الاولى في بيت أيوب كعروس له!

ماذا حدث لعالمها؟! لماذا تهاوت دعائمه وتحطّمت ركائزه؟! لماذا تبدّل وتغيّر بهذا التطرف اللامنطقي؟! لم تكن مستعدة لكل هذا.. ولن تستعد له أبداً.

تمتمت وهي في حضن جدتها مغمضة العينين "دعينا نغادر جدتي، اريد العودة لدار أبي "ردّت الجدة "سنغادر اللحظة حبيبتي، عمك عبد الصادق والاستاذ هلال يسلّمان على أيوب وجهاد "ثم تنهدت الجدة لتضيف بنفس الهمس "أعلم أنها كانت أياماً مُضنية ثقيلة عليك، أنا أيضاً تعبت يا سارة، ليتني مثل أمك وأتقبل الامور ببساطة هكذا، لكني لا أستطيع، أحاول جهدي لكني تعبت، لم أعد قوية كفاية لأتحمل المزيد»

لفّت سارة ذراعها حول عنق الجدة وهي تهمس بكلمات غير مسموعة "أنا السبب بكل ما يجري، ورغم هذا يقتلني شعور الخذلان»

لم تهتم الجدة لكلمات سارة غير المسموعة بينما تراقب اقتراب الحاج عبد الصادق من جهاد اللحظة.

بعد مباركة الحاج عبد الصادق لأيوب تركه لصديقه

الاستاذ هلال ثم أولى كل اهتمامه للعروس فيقول لها وهو ينظر إليها بتمعن كأنه يطمئن عليها "مبارك يا ابنتي، زواج مبارك بإذن الله "أخذت جهاد تهز رأسها بصمت لكن عيناها كان فيهما شيئاً من الجزع! أشفق عليها ومال قليلاً برأسه ليضيف بخفوت يطمئنها بالقول "نحن لن نتركك، فلا تخافي ولا تجزعي "ارتعشت شفتاها كأنها توشك على البكاء لكنه أعجب بشجاعتها وعنادها وهي تأبى الاستسلام لدموعها الحبيسة، فيبثها المزيد من الدعم قائلاً بنبرة معتدلة هذه المرة كي يسمعه (العريس) "ستجدينني بين يوم وآخر قد أتيتك زائراً لأطمئن عن أحوالك "التفت أيوب برأسه الى عبد الصادق دون أن يقول كلمة، ليتكلم الاستاذ هلال هذه المرة وهو يقول ببشاشة "وأنا كذلك يا جوجو، سأتسابق مع صدوق لزيارتك»

تبسمت جهاد رغماً عنها لاسم التدليل الذي كان الاستاذ هلال يطلقه عليها وهي طفلة، مضت سنوات طويلة منذ آخر مرة قالها لها، إنه يحاول بثّها الدعم كالعم عبد الصادق لكن بطريقته هو.

اكتفت جهاد بالقول "شكراً.. لكما "فتبسّم الحاج عبد الصادق قائلاً "هداك الله وأصلح حالك "ثم منحها وعداً كانت كرسالة لها ولأيوب "هذه المرة أنتِ بأعيننا لن تغيبي عنّا فلا يساورنّك قلق»

***

راقب أيوب وهو يقف شامخاً فوق ألم جسده كيف غادر الجميع بعد تبادل الأحضان بين العروس وأمها وجدتها، أحضان استثنت توأمتها، وكم كان احساسه المظلم سعيداً لذاك النأي والتباعد بينهما، ولم تفته تلك اللمسة من يد جهاد ليد سارة كأنها تتوسل إليها لكن سارة لم تستطع الاستجابة لتوسل نصفها الثاني! فغادرت سارة دون أن تنظر لأحد أو تنطق بحرف.

يعترف أنه بات مهووساً بالفكرة، ألم سارة امتداد لألم جهاد، كلتاهما تستحقان جزاء تلاعبهما مع أيوب العريم، إنهما لا تعرفان مع من تتعاملان، قبضته تعتصر قمة عصاه وهو يتمتم في سره "لم يُخلق بعد من يفرض عليّ وضعاً لا أريده، ستدفع كلتاهما الثمن «

كان خارجه هادئاً للغاية، مُسالماً لطيفاً وربما حتى يُظهر تسلية بما يحصل، لكن من الداخل وفي أعماقه كان يغلي وبراكين الارض كلها تمدُّه بحِممها!

لقد تجاهلته سارة طوال الايام الماضية، رغم أنه فعل معها ما لم يفعله مع انسان؛ أراد الاعتذار! كان يظنها مختلفة، أو هو من جعلها في ذهنه مختلفة ليكمل بها بناء العالم الذي اتخذه ملاذاً له لثلاث سنوات.

أخيراً أغلق صاحب المقهى الباب وهو يتبسم لجهاد فيكاد أيوب يضحك وهو يرى يد جهاد الصغيرة ترتفع (متأخراً) لتلوّح بتحية وداع بعد أن اختفى الرجل خلف باب الشقة المغلق!

أجفلها أيوب عن عمد وهو يرفع صوته بالقول الهازئ "مشهد مؤثر من العجوزين وهما يلعبان دور (الأب) بالتناوب "استدارت جهاد إليه بقوة تعبس في وجهه وتقول بعدائية وشراسة "مؤثر لمن يفهمه "ابتسامة صغيرة على فمه وهو يميل قليلاً برأسه ليتلاعب بأعصابها المنهارة من الأصل قائلاً "أ تظنين حقاً أنهما سيعتنيان بكِ؟ صباح الغد سينسيان كل وعودهما المؤثرة»

انتشى بذاك الخوف المُشع من عينيها، وكأنّ الفكرة قد راودتها بالفعل! إنها أضعف بكثير من مواجهته لكنها شجاعة.. شجاعة بتهور ومُجازِفة بغباء.

ما تزال تقف وسط المسافة بينه وبين باب الشقة الذي أُغلق عليهما عندما سألها بمزيد من التلاعب "ماذا قال لك عبد الصادق بهمسٍ خافت؟ "هتفت به وحالتها لم تعد تحتمل "أمر لا يخصُّك "ثم أمسكت طارفي فستانها الابيض السخيف وهي تسأل بكراهية واضحة "أين سأنام؟ "وبعدها حاولت إظهار القوة والثبات وهي تتقدم

لتتجاوزه إلى عمق الشقة ثم تقف بمواجهته بانتظار الرد.

كانت مفضوحة! مذبوحة بالخوف منه ودمها يسيل نازفاً أمامه مبهراً شهياً بحمرته كلون ثوب توأمتها سارة هذه الليلة، يمنحها نظرة تقييم ولحة جريئة من فوق الى تحت مع تركيز متعمد على موضع مفاتنها ثم.. يبدأ بالاقتراب!

ريح الخوف تدفع خطواتها للخلف وهي تهتف "لا تقترب! "انتقلت نظراته الى شفتيها ليقول بتسلية "وكيف سأدُلّك الى سريرك إن لم أقترب؟! "يكمل طريقه مستنداً على عصاه فيمرُّ بها وهو يضيف "أم هو تمنُّع الراغبات؟!»

يكاد يشعر برغبتها المتهورة في القفز فوق ظهره وبطحه أرضاً! إنها تكرهه ربما أكثر من كرهه لها، تكرهه وفي نفس الوقت تخشاه..

صوت غامض ساخر في أعماقه يهمس في رأسه (لكنها شجاعة يا أيوب، أشجع منك بكثير، يكفي أنها تواجهك، فماذا واجهت انت يا ابن العريم؟!)

يشمخ وهو يتجاهل ذاك الوسواس ليقول وهو يوجّه كلامه (لعروسه) التي تتبع خطواته بحذر "أقنعت والدتك صباح اليوم أن الغرفة هي غرفة (العروسين)، فوضعتْ لكِ فيها كل ملابسك وحاجياتك وفرشت السرير المزدوج

بفرشة مزركشة ذهبية "يصل باب الغرفة المقصودة فيفتحه ثم يخطو أمام جهاد مضيفاً بابتسامة ساخرة "لم ألتقِ في حياة بامرأة يسهل خداعها كوالدتك!»

قال كلامه هذا وهو يلتفت لينظر الى جهاد فيراها عند باب الغرفة متسمرة هناك تنظر الى فرشة السرير البهية بعينين متسعتين، كان أيوب يمر بدقة فوق حدود تلك العينين البنيتين، عقله يسجل بقوة ملاحظته ذاك الاختلاف الطفيف غير المحسوس في رسمة العينين بين جهاد وسارة، يكاد يكون الاختلاف غير مرئي على الاطلاق، لكن هو رآه.

تقدم عائداً إليها فأخذت جهاد تهتز حرفياً وهي تحول نظراتها من الفرشة الذهبية الى وجهه الذي لا يحمل أي تعابير تستطيع قراءتها، إنها لعبته التي يجيدها، إجادة ربما بالتطبع أو بالوراثة من سلسال العريم البائس.

بتوتر بلغ أقصاه شابكت جهاد كفيها الصغيرين دون وعيها قبل أن تفاجئه بدخول الغرفة وهي تقول بشجاعة يضعضعها الارتجاف "أنا مرهقة وأريد النوم، غادر غرفتي»

لم تقل حتى (رجاء)! ونبرتها كان فيها وقاحة داعبت ميله القديم للوقحات من النساء، كان قريباً منها فقطع

بخطوتين المسافة التي تفصلهما وهو يراهن بعمره أنها لن تتزحزح من مكانها فقط كي تثبت له أنها لا تخافه، وقد ربح الرهان وهو يقف قريباً جداً من جسدها النحيل الذي يرتجف، فيقول بصوت ساخر مبحوح وكلمات جارحة "ربما تشبهين سارة حدّ التطابق بتقاطيع الوجه والشعر والجسد لكنها أكثر أنوثة منك، أكثر نعومة؛ وتفوح بعطر الجاذبية البريئة يا.. نملاوي!»

بتركيز شديد يقرأ نوع التوهج الغاضب في عينيها فلا يقرأ توهج غيرة انثوية تلقائية ولا حتى شعوراً بالانتقاص، بل أبهرته وهي ترد كمحاربة استردّت كل أسلحتها للتو من كلماته هو لترد عليه دون أن تهتم بمناداته لها (نملاوي) "إن كنتَ تظن أنك قادر على الإيقاع بيني وبين شقيقتي بأسلوبك الحقير هذا فلن تفلح "

يطيل النظر لوهج المحاربة في عينيها فيحاول زعزعة إيمانها بقضيتها وهو يقول بنفس الصوت الساخر المبحوح "حقاً؟! ستذهلينني إن لم تستجيبي لذاك الجزء المتعفن من البشرية "ثم رفع سبابته ليشير الى صدرها ويضيف بنظرة شيطانية مظلمة "إنه في الداخل ينخر»

لقد اكتشف جهاد للتو! كلما أتاها من هذه الزاوية زادت قوتها وحصانتها بشكل مذهل لترد عليه بثقة ترتفع "إنه في داخلك فقط وينخر المتبقي من عقلك يا مُختل!

"تأججت نظراته بالقسوة ليقول لها رداً على شتيمتها "بداية سيئة! ماذا كان يفعل الحاج كرم وهو يفشل في تربيتك؟»

رفعت أصابعها والتمعت أظافرها اللامعة المطلية بلون جذاب لتهدّده وهي تقرب تلك الأظافر الحادة من رقبته المشوهة "سأشوهك أكثر مما فعل الحريق بك إن ذكرت أبي مجدداً "نظرة مستهينة بها ليقول بمزيد من الاستفزاز والانتقاص "أنتِ مملة جداً يا نملاوي! ما هذه التعابير الدرامية المبالغ فيها، أ هذا ما يفعله الغرق في ترجمة الروايات العاطفية الساخنة؟!»

ثم ضحك وهو يهز رأسه بحركة سخرية ليتحرك كي يبتعد عنها، وعند الباب التفت وهو يقول بجدية خطيرة رغم ابتسامته الواسعة "في المرة القادمة عندما تهدّديني بأظافرك تذكري أني لن اكتفي بقصّها "توقف للحظة قبل أن يكمل "بل اقتلاعها من منابتها»

ثم تحرك ليغلق الباب خلفه تاركاً لجهاد فرصة الانهيار بمفردها!

نزع كل أقنعته وهو يصل باب غرفته، تستقبله وحدته فترتّب له مضطجعاً على سريره، أوقع عصاه وخلع سترته الأنيقة ورماها أرضاً قبل أن يغمض عينيه ويترك جسده ينهار فوق السرير ليغرق في بحر متلاطم من الألم، ألم

جسده الليلة لا يُحتمل.

***

# الفصل الحادي عشر
# كِش ملك

(لا أستطيع النوم، أنا خائفة، المكان موحش يا سارة، كل شيء هنا يشعرني بالعزلة.. بالوحدة، حتى الجدران كأنها تشكو وحدتها.. تصبحين على خير)

أرسلت جهاد الرسالة ثم احتضنت الهاتف واضطجعت فوق السرير، أغمضت عينيها وغمرت أنفها في الفرشة الذهبية تشمُّ فيها عطر أمها.

كانت قد أقفلت الباب بالمفتاح ووضعت كرسياً خلفه أيضاً، وعدت نفسها أنها ستفعل هذا فقط في ليلتها الأولى، لن تمنحه فرصة ارهابها، لم تمنحه لذّة رؤيتها خائفة، خاصة إن كان هو مصدر خوفها.

شدّدت من ضغط جهاز الهاتف لصدرها وهي تهمس "ردّي عليّ يا سارة، طمئنيني على نفسك وعلى نفسي! "لكن جهاد انتظرت وانتظرت حتى غفت وهطلت دمعة من عينها وهي تهمس اسم توأمتها "سارة»،

تغمر الدموع عينيّ سارة وهي تقرأ رسالة جهاد، ترفع

يدها الحرة الى فمها تكتم شهقات البكاء، ضمّت الهاتف الى صدرها وهي تهمس بنشيج بكاء مكتوم "أنا أيضاً خائفة يا جهاد، خائفة من نفسي! «

***

صباح اليوم التالي

يقف عامل المقهى نعمان عند بوابة مبنى قصر الخاتون ينتظرهن وهو يحمل عنهن طعام الإفطار الذي أحضرنه معهن، وعلى بعد بضعة أمتار جوار المكتبة تقف الجدة ياقوت وابنتها منى وحفيدتها سارة.

بوجه شاحب مُقلق ويدٍ غير ثابتة كانت سارة تُخرج مفتاح المكتبة من حقيبتها بينما أمها تسألها بحزن "ألن تصعدي معنا كي تباركي لشقيقتك؟! "تهتز من الداخل بينما ترد وهي تحرك رأسها نفياً دون أن تنظر الى أمها "لا.. لدي عمل "نظرات الجدة تفيض بالإشفاق على حفيدتها المفضلة وهي تعلّل رفضها للأسباب الخطأ بينما تُلح الأم "يا ابنتي ستُحزنين جهاد "تقبّضت يد سارة وهي تعتصر مجموعة المفاتيح في راحة كفها ثم تتوسل الى أمها بتوتر شديد "أماه أرجوكِ لا تضغطي عليّ "سارعت الجدة لتتدخل وهي تمسك بذراع ابنتها قائلة "دعيها يا منى، هي لم تغفر له ما فعله، حتى أنا لم أستطع الغفران تماماً "لم تعد

سارة تطيق فتستدير لتفتح باب المكتبة وهي تقول بانفعال حاد "أخبرا السيد أيوب رجاء أنّ إيراد هذا الاسبوع قليل جداً نظراً لإغلاقنا في الأيام الماضية، لذلك سأجمعه مع إيراد الاسبوع المقبل وأوصله إليه "ردت الأم بتنهيدة حزينة لموقف سارة هذا "حاضر يا ابنتي»

دخلت سارة على عجل الى المكتبة بينما تعاود الام التنهّد وهي تستجيب لذراع الجدة ياقوت وتسير كلتاهما ناحية مبنى قصر الخاتون حيث ينتظرهما عامل المقهى.

عند البوابة التقتا بأم إسطفان التي تقطن بالطابق الأول من المبنى فتبتهج أسارير المرأة وهي تسلم عليهما بالتتابع فتقول "مرحباً يا حاجة ياقوت.. كيف حالك يا منى "ترد الحاجة ياقوت السلام بينما تسترسل منى ببهجة (الأم) قائلة "أخبرينا أنت عن حال العريسين فوق يا أم إسطفان "تضحك أم إسطفان ثم ترد بغمزة "يبدو أن العريسين مزاجهما حلو وسيمفونية السيد تصدح منذ الصباح»

تبادلها منى الضحك والنظرات ذات المعنى وهي تتمتم "الحمد لله»

***

كان كابوس الزغاريد يخنقها في نومها المتقطع القلق عندما صدحت على حين غرّة أنغام (سيمفونية) جعلت جهاد تهبُّ في سريرها فزعة لاهثة الأنفاس!

تدور بعينيها فيما حولها بضياع وأشعة شمس الصباح تتسرب من بين الستائر البيضاء للشبابيك الواسعة في غرفة لم تألفها، أجفلت مجدداً على ارتفاع مباغت في وتيرة السمفونية فرفعت جهاد كفيها لتغطي أذنيها وهي تشتم فيه "أيها النذل! أكاد أتخيل ابتسامتك اللحظة دون أن أراها!»

***

في غرفة الصالة يتبسّم أيوب بخبث وهو يُرخي أجفانه، مهما بلغ استمتاعه بسماع السيمفونيات لكن اللحظة لا يضاهي استمتاعه بإزعاج تلك النملة الدخيلة على عالمه المُظلم.

وحدته الطويلة جعلته يشعر بكل حركة في مُحيطه، يُنصت لأي صوت حوله مهما كان خافتاً، وقد شعر بحركة جهاد قرابة بزوغ الشمس كما سمع خطواتها المكتومة من غرفتها الى المطبخ، بل وميّز من خلال كل صوت أصدرته ماذا كانت تفعل هناك؛ ولم تفعل الكثير، فقط أعدّت فنجان قهوة، ثم بعد دقائق غسلت الفنجان قبل أن تعود لغرفتها.

لقد أزعجت وحدته التي لم تعتد على كل هذا (الضجيج)

فلا تلومَنَّ تلك الدخيلة إلّا نفسها!

أطبق أجفانه تماماً وآلامه تكاد تختفي تماماً، كان يوماً عصيباً بالأمس لكنه استطاع تجاوزه، تحمّل شديد الألم في جسده دون أن يظهره أمام أحد على الاطلاق.

ليلة الأمس كانت المرة الاولى منذ وصوله الى هذا الحي يستمتع بتحديق الناس فيه، كانت تسلّيه هذه النظرات الفضولية خاصة وقد اختلطت بمهابته، ذكّرته لما كان عليه يوماً وما اعتزله.

البشر لا يتغيرون مهما اختلفت البيئات! لأنه مختلف عنهم ويمنحهم نظرة ارستقراطية مترفعة فيمنحونه بالمقابل تبجيلاً لا يستحقه، ينسون ما اقترفه بحق (ابنتهم) وهو سكران ويمتدحونه لأنه تصرف كـ(رجل) فتزوجها، بل رأى في أعين البعض ملامةً وسوء ظن بجهاد التي عرفوها طوال حياتهم وكأنها هي من شجعته على السكر والتعدي عليها! وبعض آخر يراها لا تستحق رجلاً مثله، هو المشوّه الذي يكبرها بالكثير!

ما يزال يغلق عينيه وصوت السمفونية يصدح بينما يهمس "ترا ماذا تفعل سارة اللحظة؟ أ تراها تبكي قلبها الذي تعلق بي؟ أم تبكي عدم قدرتها على الاستيعاب والتعامل مع الوضع الجديد؟»

"مؤكد أنت بلا احساس، هذا واقع انتهينا منه، لكن أن تكون مُصاباً بالصمم فهذه جديدة!»

فتح عينيه ليرى كائناً ضئيلاً يدّعي عبثاً أنه (أنثى)، تتخصّر أمامه تعبس في وجهه وعيناها تقدحان شرراً، للحظة فقط ذكّرته بسارة حينما كان يطيب له إثارة حنقها، لكن سارة لا تملك حسّ الفكاهة الساخر الذي تملكه جهاد.

لم يرد عليها، بل ينقّل نظراته من شعرها المشعّث حول وجهها الشاحب بسبب قلة النوم والتعب، ثم الى منامتها القطنية البيضاء ذات القطعتين وبطبعات شطائر لحم وخس!

هتفت به عندما أطال الصمت "ألا يمكنك خفض الصوت؟ "يده فوق العصا تمايل بها الى الجانبين بينما يصمت جهاز الجراما فون وكأنه يمتثل لرغبة مالكه بالكلام دون أن يعلنها، فيتكلم أيوب بالفعل قائلاً بسخرية "هذا جراما فون، تحفة موسيقية تاريخية قديمة الطراز "تعبس جهاد أكثر وكأنها تحاول فهم المقصد ليضيف أيوب بنفس النبرة "ليس فيه درجات للصوت، وحتى لو كان فيه هذه الآلية فلن استخدمها لأجلك "زفرت أنفاسها بقوة ثم همّتْ أن تستدير كي تترك له المكان عندما قال لها بسؤال عابث "هل هذا ما تلبسينه حين تأوين للنوم؟ عارٍ على

رجل تزوجته ورضي به»

تغيّرت تعابير وجهها واحمرت فجأة، لم يعرف أيوب بالضبط معنى هذا الاحمرار لكنه شعر بالفضول الشديد ليعرف طبيعة علاقتها الحميمية بزوجها السابق، فجأة كانت عيناه تنظران إليها بنظرة مختلفة، إنها ليست فتاة! بل امرأة عرفت معنى العلاقة الجسدية بين رجل وامرأة.

دون أن يفكر كان يبتلع ريقه! همس في سرّه، مضى زمن طويل.. طويل جداً يا أيوب.

وكأنها بحدس الانثى المُجربة أدركتْ منحى أفكاره دون تفاصيل فأبدت نفوراً تلقائياً منه جعله يغضب! سألها ليجرحها "هل لهذا.. خانك؟ "رفعت سبابتها بانفعال وهي تقول له بعصبية "علينا أن نتفق على مبدأ لنتعايش هنا، أولها أن..» قاطعها بنبرة باردة قاسية "نتعايش؟! أنتِ لا تتعايشين معي، أنت فقط دخيلة.. طفيلية تقتات في بيتي، تدّعين التضحية لأجل شقيقتك بينما في الواقع أنتِ تسعين لتحظي بعيشٍ رغيدٍ على حسابي»

تتقدّم منه وهي تشتعل غضباً لترد عليه بطريقتها "اسمع أيُّها الكائن الكسول المتوحّد مع ذاته، رغم أنّ أبي ترك لنا ما يكفي وزيادة إلّا إني اخترت أن أكون امرأة عاملة وأكسب المال لمعيشتي، وبالمناسبة أنا لا أترجم روايات

تافهة، بل روايات عالمية وكتب فلسفة وتاريخ "كانت وصلت إليه اللحظة لتقف أمامه دون أن تهابه، بل تنظر في عينيه وتضيف "لذلك أنا لا أحتاج أموالك المتعفنة كي أعيش عليها فمؤكد سأتسمّم بها! "لم يزح عينيه عن عينيها وهو يرد بخفوت "تجعلينني أرغب بدسِّ طعامي بيدي في فمك! "

في لحظة كانت جهاد تميل بجذعها في تهور لتضرب بكفّها عصاه فتوقعها من سيطرة يده وتهوي الى الأرض، ثم شمخت بذقنها في نخر طفولي وقالت "صباحٌ مباركٌ يا عريس! أمي وجدّتي مؤكد في الطريق الآن تحملان فطور العرائس فاستعد لتلعب دورك "

ثم استدارت لتغادر الصالة وأيوب ينظر الى عصاه المُلقى على الارض فينتابه شعور غريب بالغيظ لم يختبر مذاقاً مُشابهاً له، يتمتم وهو يطبق أجفانه "حسناً يبدو أن النملة تحب القيام بحركات مفاجئة غير متوقعة! "رنّ الهاتف ففتح أيوب عينيه وهو يتأفف قائلاً بخفوت "أتمنى فقط ألا تطيل الحاجة ياقوت الكلام»

يميل بصعوبة لالتقاط عصاه ثم يقف مستنداً عليها كي يتحرك نحو الهاتف الذي ما يزال يرن، لكنه تفاجأ أنّ المتصل لم يكن إلّا توفيق الذي قال له دون مقدمات "الصغار عرفوا مكانك يا أيوب "لمعت عينا أيوب وهو

يسأل باختصار "متى؟ "ردّ توفيق "لا أعرف متى، الخبر وصلني تواً من مصادري "

شعر أيوب أن هناك المزيد فسأل "ماذا علموا أيضاً؟ "بدا توفيق محتاراً بعض الشيء وهو يقول بحذر "هل حقاً تزوجتَ بالأمس؟!»

أغمض أيوب عينيه وهو يطبق فكّيه بغضب، وقبل أن يرد كان جرس باب الشقة يرن، لقد وصلت حماته وأمها!

***

(متى؟) (ماذا علموا أيضاً؟)

هذا كل ما سمعته جهاد من أيوب وهي تتنصت قرب باب غرفة الصالون على المكالمة التي وردت إليه للتو، لم تعرف لماذا فعلت هذا! لم يكن من طبعها التجسس على أحد رغم أنها كانت تلجأ لفعل هذا أحياناً مع جدتها بالأخص (عند الضرورة).

تضمُّ خفيها الى صدرها بعد أن خلعته وعلى رؤوس أصابعها هرولت جهاد عائدة الى غرفتها مع رنين جرس الباب، تفكر أن هذه المكالمة الغامضة أزعجت أيوب أكثر من انزعاجه لحضور أمها وجدتها اللحظة، كما شعرت أن

من يكلّمه شخص من ماضيه الغامض، دون أن تستطيع التحديد أ كان رجلاً أم امرأة.

أغلقت باب الغرفة وقلبها ينبض بسرعة، استندت بظهرها للباب بينما تسمع صوت خطوات أيوب، لا بد أنه يتجه الى باب الشقة ليفتحه، سارعت لتخلع عنها منامتها وهي تتجه نحو الخزانة، اختارت ثوباً أصفراً مُطرزاً من تلك المجموعة التي أصرّت جدتها على شرائها كـ(جهاز عروس)، الزغاريد ارتفعت داخل الشقة وأصوات اختلطت لتتعرف جهاد على صوت أمها المبتهج وسط تلك الأصوات، دقات على باب غرفتها بينما كانت جهاد تمشط شعرها على عجل قبل أن تتبرج قليلاً، صوت أمها الحاني وهي تستأذنها الدخول فتبتلع جهاد ريقها وتجلي حنجرتها وهي ترد بنبرة مرتبكة قلقة "تفضلي أمي»

كانت (مرتبكة) من وضعها الجديد الذي تجبر نفسها على التعامل معه بعقل وحكمة، و (قلقة) من المجهول القادم مع أيوب وكيف ومتى ستتحرّر من هذه الزيجة، و (قلقة أكثر) لأنها مُتأكدة أنّ سارة لن تكون موجودة اليوم لتشدَّ أزرها!

أغمضت عينيها وهي تتلقى أحضان أمها فتشم عطرها لينير لها بصيرتها، ولم تجد إلّا اسماً واحداً تتعلق به.. حمزة!

***

**بعد عشر دقائق**

ينعزل أيوب بفكره بعيداً عن ثرثرة حماته والحاجة ياقوت، كان يكتفي بالإيماء برأسه وإعطاء الإيحاء الذي يرضيهما بينما عقله يعمل بشكل سريع ودقيق.

إخوته علموا مكانه، لا بد أنه آدم من استطاع الوصول إليه، ألم يكن هو من أعطاه، باكراً جداً، أقسى الدروس حول طرق كشفِ الأسرار؟!

**(كيف عرفتَ سرّي؟!) (انا لم أعرفه فحسب، بل قبضتُه بكفي هذا ودفنتُه يا آدم!)**

تذكّر أيوب وجه أخيه الممتقع ولمعة الغضب المطموسة برغبة الانتقام، الانتقام منه هو.. لأنه كشف سرّه، ولأنه دفنه.. محاه من الوجود.

كان آدم يافعاً شديد الكتمان والحرص بطبعه، ومن بعدها بات أكثر انغلاقاً على نفسه لا يشغله في الحياة إلّا العمل.. العمل الوسخ، حاله كحال كل آل عريم.

«أحذرك.. نملاوي لا تحب التنظيف على الاطلاق

لكنها تجيد الطبخ ببراعة»

منح أيوب (حماته) نظرة لطيفة مع ابتسامة بينما الجدة ياقوت تعلّق بسخرية "إن سمح مزاجها بالطبع! "فتبدو حماته غير راضية وهي تعاتب أمها بالقول "ألا يمكن أن تقولي عنها كلاماً إيجابياً حتى في صباحيتها؟! "فترد الجدة وهي تعوج فمها "صباحيتها؟! لقد طردتنا قبل قليل من غرفة نومها بعد دقيقتين فقط من دخولنا إليها! عاملتنا كأنّنا غريبتان دخلتا الغرفة للتجسس على خصوصياتها العظمى!»

يطرق أيوب قليلاً بينما يستمر التشاحن بين المرأتين، عقله يعيد فتح كل الدفاتر القديمة الخاصة بالصغار والمخزّنة في رأسه، ينفض عنها التراب ليقلّب صفحاتها، ربما عليه تدوين ما استحدث من أخبارهم في عزلته، توفيق سيكون خير معين، عليه الاستعداد لهم، إن كانوا يظنون أنّه بات أضعف منهم فهم واهمون.

« أنتِ واهمة أمي إن كنت تظنين يوماً بأنّ جدتي ستتكلم عني بشكل (إيجابي)!»

رفع أيوب نظراته فيرى عروسه تقف عند باب الصالة وقد ارتدت ثوباً أصفراً فضفاضاً، نظر إلى جهاد مُطولاً وهو يفكر بردة فعل (الصغار) عندما يلتقون بها.

لم تستطع جهاد فهم نظراته إليها، هناك شيء غريب فيه ومختلف، من الذي اتصل به في يوم (الصباحية) البائس؟! عيناه بعيدتان عنها حتى وهما تحدقان فيها! يبتسم لأمها لكن جهاد تشعر أنه لا يستمع حتى لنصف كلامها، ماذا يجري معه بالضبط؟! انقبض قلب جهاد وهي تشعر بقدميها تغرزان أكثر في مجهول اسمه أيوب.

عبست جهاد وهي تتقدم لتجلس جوار أمها وسؤال طارئ مفاجئ يتردّد في ذهنها؛ ما اسم أيوب الكامل؟! كان أمراً مثيراً للسخرية أنها لا تعرف اسم أبيه حتى! تملّكها الفضول ولا تطيق صبراً للحصول على قسيمة الزواج كي تعرف.

هذه المرة قلبها تلوّى في صدرها وهي تفكر بـ(قسيمة الزواج) والوضع الذي بات أمراً واقعاً، عيناها أخذتا تبحثان عن (نصفها الثاني) فلا تجده.

***

ظهراً

يحمل كيساً ورقياً تفوح منه رائحة الطعام وهو يدخل به الى المكتبة، وجدها حيث تركها؛ جالسة على الكرسي

خلف المنضدة تشابك كفيها ببعض، تتحرك عيناها بين الفينة والأخرى في أرجاء المكتبة وكأنها تبحث عن شيء أضاعته ولا تستطيع تحديده! فقط تبحث وهي تشعر بالضياع مع ضياعه منها.

التفتت إليه حال دخوله فابتلع ريقه وهو لا يعرف ماذا يفعل ليساعدها، رفع الكيس وهو يقترب منها قائلاً "أحضرتُ لكِ هذه الشطائر "هبطت نظراتها من وجهه الى كفه تحدق في الكيس حتى وضعه حمزة أمامها وهو يأمرها بنبرة خشنة "كُلي.. فأنت لم تضعي شيئاً في جوفكِ منذ الصباح وهذا ليس من طبعك»

تدمع عيناها وهي ترفعهما إليه، وكأنها تتألم كفاية فلا تحتمل خشونته السخيفة! شتم نفسه في سره لأنه لا يعرف هو الآخر كيف يحكم نفسه معها.

ترتعش شفتاها وهي تسأله بخشونة كخشونته "أ تراقبني؟! "فرد وهو يعقد حاجبيه "نعم أراقبك؛ هل لديكِ اعتراض؟! "حشرج صوتها وهي تهاجمه "لو كان لديك ذرة احساس لتركتني في حالي "بكل غباء يرد بهجوم لاذع "لو كان لديكِ نصف تلك الذرة التي تتكلمين عنها لذهبتِ الى جهاد مع أمك وجدتك عندما زارتاها صباحاً "هطلت الدموع من عينيها وهي تهمس باختناق "ارحل عني "التاع قلبه وهو يسألها بصوت مبحوح "لماذا تبكين

الآن؟! "حنت رأسها وهي ترفع كفيها لتمسح دموعها بحركات حادة بينما تهتف به "ارحل حمزة.. ارحل "عناد الثيران يركبه وهو يعود لخشونته قائلاً "لقد وعدتُ جهاد بالاعتناء بكِ، فتقبّلي الأمر "لكنها كانت بعيدة عنه وهي تمتم كأنها تكلم نفسها "أنا التي كنتُ دوماً أعتني بها "يقتله شعور كريه فيسأل بإلحاح "ما الذي يجري بينكما؟! لم أركما يوماً متفرقتين هكذا!».

تغمض سارة عينيها ولا تعلم لمن تبوح بما يعتمل داخلها، ليلة الأمس كانت عذاباً خالصاً، كل أحلامها حول أيوب وهو يضمُّ جهاد بين ذراعيه، فستانها الأبيض يتطاير ليلتف حوله فيضحك ثم يميل الى خدّ جهاد يقبله.

أجفلت سارة وهي تشعر فجأة بكفٍّ خشن يعتصر يدها فتفتح عينيها لترى حمزة ينفث أنفاسه كأنه ينفث النيران، عيناه كان فيهما الكثير لكنه يزمُّ فمه كأنه يمنع نفسه من الكلام، همس أخيراً "قسماً بالله يا سارة تجعلينني أودّ صفعك! "اتسعت عيناها بصدمة لتحاول سحب يدها من كفه وهي تهدر فيه "لقد تجاوزت كل الحدود يا حمزة "ترك يدها لتضمها الى صدرها بينما يقول حمزة وهو يتحرك مغادراً "لا تدعي أي إنسان يفرقك عن توأمتك، لا تكوني غبية حمقاء!»

حالما فارقها لفّت ذراعيها حول جسدها، ترتجف من

أخمص قدميها الى قمة رأسها، تشعر أنّ الموازين كلها اختلت وتبحث دون جدوى عما يعيد إليها بعض الثبات.

***

بعد يومين.. الصباح الباكر

في غرفتها التي لا تفارقها تقريباً منذ يوم الزفاف؛ تتكلم جهاد عبر هاتفها النقال مع العم عبد الصادق لتنقل إليه آخر الاخبار، لا تعلم جهاد لماذا اختارته ليكون موضع أسرارها وشكواها، أو ربما عليها أن تعترف بأنها تحيك للنهاية المحتومة مع أيوب وليس لها ناصراً إلّا العم عبد الصادق عندما يئن الأوان، فارتأت اطلاعه على (بعض) مما يجري مع (زوجها).

صمت العم عبد الصادق لبضع لحظات قبل أن يستفسر "ألم تحاولي سؤاله بالأمس؟ "ردّت جهاد وهي ترتشف من فنجان القهوة الذي أعدته "لا.. إنه صامت طوال الوقت "

حقيقة كانت جهاد ممتنة لصمت (زوجها)، وكأن تلك المكالمة التي وردته كانت منحة إلهية لينشغل أيوب عنها، فأعطاها دون قصد مساحة كي تعتاد على الشقة وتضع نظاماً لنفسها فتتجنب لقاءه قدر الامكان، فاستغلت الوقت

لتعمل ليل نهار، أنجزت الكثير فأذهلت الناشر خاصة وأنها تعمل في شهر العسل! لكنه مازحها بالقول أنّ الزواج منحها طاقة لتعوّض كل ما فات.

تساءل العم عبد الصادق بحيرة "ألا يكلمك في شيء؟ أي شيء! "ردّت جهاد وهي تكاد تشفق على العم عبد الصادق "لا عماه، منذ أن وردته تلك المكالمة في الصباحية وهو يبدو مشغول البال، يمضي وقته في غرفة المكتب»

كانت مفاجأة لجهاد أن تعرف بأنّ لأيوب غرفة مكتب في الشقة، لمحتها مرة واحدة وهي تمرّ من أمام بابها الموارب بعد منتصف ليلة الأمس عندما استيقظت عطشى فذهبت الى المطبخ لتشرب، غرفة قديمة الطراز داكنة الألوان وقد بدت بألوانها الكئيبة مكملة لشخص أيوب المُريب، هناك أمر يحدث معه جعله يخرج عن هالة طوق الاعتزال.

«سأرسل له هلال» قالها العم عبد الصادق بعزم فشعرت جهاد ببعض التوتر لتقول بحذر "كما تشاء، لكن أخشى أن يصدّه أيوب؛ فمزاجه لا يمكن التكهّن به "لكن العم عبد الصادق أصرّ بالقول "لا تقلقي أنت ولا تتدخلي، نحن نتصرف»

تنازع جهاد شعوران متناقضان تقريباً، الأول هو التوتر

بالتأكيد مما قد يحدث بين أيوب والاستاذ هلال، والثاني هو شعور (شرير) يجعلها تتمنى حصول الأسوأ بينهما! أغلقت الهاتف مع العم عبد الصادق لتكتب رسالة نصية الى حمزة فتقول له (أحضر لها الورود نهاية اليوم قبل مغادرتها، لا تقدمه لها ولا تكلّمها، فقط ضعه لها داخل المكتبة ثم ارحل). تنهدت بقوة وهي تنهض عن السرير لتغير ملابس النوم بسروال جينز وقميص أبيض ثم غادرت الغرفة على أطراف أصابعها وهي ترهف السمع لتتأكد أن أيوب ليس في الصالة.

عند الشرفة وقفت جهاد تنظر الى توأمتها وهي تكنس أمام المكتبة، تراها هزيلة كأنها مريضة! لليلة الثالثة على التوالي أرسلت لها ليلة الأمس رسالة قبل أن تأوي للفراش لكن سارة لم ترد.

همست جهاد بحشرجة "عودي إليّ سارة، أنا أيضاً مريضة بدونك»

أجفلت بقوة وذراع صلبة من الخلف تلتف حول خصرها لتلصق ظهرها بصدر أيوب بينما يهمس عند أذنها بلؤم "لقد حذّرتك يا نملاوي

للحظة أرادت المقاومة بعنف لكن حدسها أنبأها أن هذا ما يتوقعه، بل ويريده! هدأت تماماً وهي تعدُّ حتى العشرة

بينما تقاوم شعور الغثيان من التصاقها به هكذا، وصلت لرقم ستة عندما همس بمزيد من السخرية "سبعة.. ثمانية.. أكملي جهاد، جربي كل الطرق والوسائل وأنا سأستمتع في كلتا الحالتين لأن النتيجة واحدة!»

أنفاسها تتسارع رغماً عنها، صدرها يعلو ويهبط بينما عيناها تتركزان على سارة في الأسفل وهي تدخل اللحظة مع مكنستها الى المكتبة، سألت جهاد بينما تحارب بكل قوتها كي لا ترتجف "وما هي النتيجة الحتمية التي تفترضها؟ "أغمضت عينيها بقوة وتصلّب جسدها رغماً عنها عندما حرّك كفه الضاغط عند خصرها ليمرّ به ببطء فوق قماش القميص حتى كاد الوصول الى مفاتنها وهو يرد بخفوت "أن تقعي في غرامي! لتكرهي نفسك أكثر من كره توأمتك لكِ»

كان قبيحاً! قبيحاً للغاية.. لم تحتمل أكثر وكفه تتعامل بخشونة مؤذية معها، دفعته بقوة بعيداً عنها لتتخلص منه وهو يقهقه ضاحكاً بينما يستند على عصاه.

خرجت الكلمات من فمها دون تفكير "أنت شيطان يا أيوب! "ما تزال الضحكات عالقة بفمه ولمعة عينيه الداكنة يقبض قلبها بينما يرد عليها "في خدمتك يا نملاوي! "

ثم عاد ليقهقه وهو يستدير مُغادراً الصالة تاركاً إياها بمفردها تتلفّت حولها فتشعر وكأنها باتت مسجونة في قصر الخاتون، بل قصر الشيطان!

***

## عصراً

كانت جهاد شديدة التوتر وهي تنظر للساعة بين الفينة والأخرى، تتحرك في غرفتها ذهاباً وإياباً بينما تنتظر حضور الاستاذ هلال، منذ ما حدث بينها وبين أيوب في الصباح وقد لجأت بعدها إلى غرفتها تشغل نفسها بالعمل، لكنها لن تبقى حبيسة هذه الشقة الكئيبة، ستخرج في صباح الغد الى السوق وربما تزور جدتها وأمها.

عاودت النظر الى الساعة؛ في داخلها تشعر بالانقباض، تودُّ رؤية أحد تأنس إليه، وليس أمامها إلّا العم عبد الصادق والاستاذ هلال، مهما ستكون النتيجة اليوم فهي تحتاج لقرب من تشعر بالانتماء إليه، هذا يمنحها القوة والدعم.

أجفلت مع الدقّ على الباب ثم صوت خطوات أيوب، الحقير يعرف متى يكتم صوت تلك الخطوات ليفاجئها من الخلف كما فعل صباحاً.

أسرعت الخطى ناحية باب غرفتها لتفتحها وتمدّ رأسها كي تسمع، حمدت الله ان الغرفة ليست ببعيدة عن باب الشقة فكانت صوت الاستاذ هلال البشوش واضحاً لها.

« مساء الخير يا سيد أيوب "مضت لحظتان قبل أن تسمع جهاد الرد البارد من (زوجها) "مساء الخير استاذ، هل تحتاج لشيء "كزّت جهاد على أسنانها وهي تسمع أيوب يتعامل بهذا الترفع مع الاستاذ هلال، لكنها استرخت قليلاً والاستاذ يرد بنفس البشاشة "أحضرت معي علبة الشطرنج، راهنت الحاج عبد الصادق أنّكَ تحبها »

مضت لحظات طوال هذه المرة، وَدّت جهاد لو تدفع نصف عمرها لترى تعابير وجه أيوب اللحظة، انتظرت وقرع قلبها يتعالى وهي تخشى أن يطرد الاستاذ، حتى تنفست الصعداء أخيراً وأيوب يقول بنبرة غريبة "تفضل.. استاذ هلال، لقد ربحت الرهان»

***

لم تحتمل جهاد أن تبقى في غرفتها بعد أن قدّمت واجب الضيافة للأستاذ، كانت قد انسحبت بعد غمزة ذات معنى منه، فقد أراد الانفراد بأيوب وهي أطاعت

رغبته، فتركت لهم الصالة يجلسان قبالة بعض ورقعة الشطرنج بينهما، ولم نتفاجأ عندما اختار أيوب فريق البيادق السود.

لكنها الآن لا تستطيع البقاء أكثر وسط هذا الصمت المطبق، فحملت حاسوبها النقال وخرجت على رؤوس أصابعها لتقترب من باب الصالة المفتوح فتجلس على الأرض متربعة والحاسوب في حجرها، لم تفتح الجهاز وأذنها تحاول التقاط أي شيء من الرجلين، لكن الهدوء التام هو المسيطر!

استندت بظهرها للحائط خلفها، وسرحت في الماضي الجميل، كانت هي وسارة تشعران بالقلق إذا تخاصم والداهما، وكان من عادة أبيهما ألّا يهجر امهما في الغرفة مهما بلغ الخصام، لكن للخصام صمت كئيب، جدار صلب يثقل على قلوب الاطفال أكثر من الكبار، فتتسلّل هي وسارة حتى باب غرفة والديهما وتجلسان هناك بانتظار أن ينكسر حاجز الصمت، وحالما تسمعان صوت أبيهما وهو يطلب من أمهما اعداد الشاي حتى تنفرج على تلك القلوب القلقة الصغيرة.

**«الفضول»**

التفتت جهاد برأسها على صوت أيوب وهو يقول تلك

الكلمة للأستاذ هلال، فتعدل من جلستها وهي تضع حاسوبها جانباً وتجثو على ركبتيها تركز بكل طاقتها لتعرف ما يجري.

تمتم الأستاذ هلال وهو ينظر للسيد قائلاً باستفهام "عفواً؟!»

بنظرة شديدة الذكاء والغموض قال أيوب وهو يحرك بيدق الحصان فوق رقعة الشطرنج "فضولك يتساءل عن سرِّ اختياري لحي الخاتون "ثم أشار له بنبرة ساخرة "دورك يا استاذ»

عدّل الاستاذ هلال نظارته الطبية فوق أنفه ثم نظر إلى رقعة الشطرنج ليحرك بيدق أحد الجنود بينما يضيف أيوب بنبرة لا تحمل معنى محدداً "مؤكد حكاية حادث الحريق ووفاة زوجتي الأولى انتشر في الحي "

رفع هلال سبابته الى فمه ليقول ببساطة وهدوء "لن أنكر أني اعرف ولن أنكر تساؤلي "رد أيوب بنبرة غريبة "اخترت هذا الحي كي أنسى "فتساءل هلال بحذر "تنسى ماذا بالضبط؟ "رد أيوب وهو يميل ليحرك بيدق الملك "أنسى من أكون»

ظل هلال يمعن النظر في أيوب كأنه يحاول التخمين

قبل أن يسأل "تقصد تنسى هويتك؟ "ابتسم أيوب ابتسامة رهيبة أثارت في قلب هلال احساساً مظلماً مع الكلمات التي قالها أيوب "بل كينونتي كبشر.. أكرهها! "ارتفع حاجبا هلال وهو يسأل برهبة "أ تكره ما خُلقت عليه؟!»

شعّت الكراهية من عيني أيوب وهو يقولها بلسانه "وأكره كل تلك المشاعر التي نُجبر على احتمالها رغم إرادتنا، لسنا مُخيرين لنرتضي ما يقع علينا، ولا قدرة لنا على رده أو مقاومته أو إيقافه»

تفاعل هلال من أعماقه فأراد أن يرد لكنّ أيوب سبقه وهو يقول بنبرة جافة "دورك يا أستاذ "نظر هلال الى بيادقه للحظات طويلة فاختار أن يحرك بيدق الفيل ثم قال "ليسوع المسيح قول أحبه (غير المستطاع عند الناس مستطاعٌ عند الله) فالجأ إلى الله يا سيد أيوب يرشدك للطريق»

يحرك أيوب بيدق القلعة بشكل غير متوقع فاجأ هلال ليفاجئه أيوب أكثر وهو يسأله بنبرة تسلية "أتحاول دفعي لاعتناق المسيحية؟ "عبس هلال وهو يرد بنبرة دفاع "بل أدعوك الى اعتناق محبة الله، كل الأديان السماوية منبعها ومصبّها في تلك المحبة "قالها هلال، ثم حرك بيدق الوزير قبل أن يرفع نظراته الى أيوب فيراه يحدق فيه ثم يسأله "ولماذا أحبه وهو لا يحبني؟! "كانت صدمة هلال واضحة

وهو يرد بالقول المستنكر "من قال هذا؟! الله يحبنا جميعاً "عينا أيوب كانتا لا ترمشان، نظراته غريبة وهو يسأل "حتى الفاسقين والقتلة والمجرمين؟ "فيرد هلال بثقة "نعم حتى هؤلاء "فتزداد نظرات أيوب قتامة وغرابة وهو يسأل "وماذا عن المُلحدين؟

يشعر هلال بسواد هذا الرجل يطغى حتى يكاد يختنق! لكنه يصرُّ على الرد بما يؤمن به ليقول بنفس الثقة "لا يستثني أحداً فكلنا أحباؤه وينتظر منا العودة إليه دوماً "شعّ غضب من عيني أيوب وهو يرفع يده ليزيح شعره عن جانبه الأيمن المشوه ويسأل بعنف "إذن فعل بي هذا لأنه يحبني!»

لا يعرف هلال كيف خطر بباله هذا الأمر فذكره على الفور قائلاً بابتسامة تلطف "في أحد أيام الجُمع خرجتُ ظهراً كي ابتاع لابنتي ماريا بعض اللوازم من السوق القريب من جامع عبد الفتاح باشا، كان صوت إمام الجامع وهو يخطب في المصلين، ينساب من مكبرات الصوت كأنّه دعوة من السماء فتطمئن قلوب المؤمنين، علقت في قلبي مقولة أدرجها ضمن الخطبة، (إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه)»

ضحكة قصيرة خرجت كحشرجة من فم أيوب وهو يعيد شعره ليغطي جانبه المشوه ثم يميل وببيدق الحصان الأسود

يقتل بيدق الوزير الأبيض ثم يقول ساخراً "محاولة جيدة لادعاء (التسامح الديني) وشعارات (تقبّل الآخر)، لكن من الداخل وفي العمق؛ يبقى ما في القلب؛ في القلب! "يعدّل هلال من نظارته ليقول بانفعال وهو ينظر لوزيره المقتول "أنا لم أكذب في حياتي يا سيد أيوب»

يرتكز أيوب بكوعيه على ذراعي الكرسي ثم يشابك أصابع كفيه وهو يقول بنبرة هادئة فيها بعض السخرية غير المقصودة بشخص الاستاذ هلال تحديداً "عذراً لوقاحتي أستاذ هلال لكنكَ تكذب وأنت تقول؛ إنك (لا تكذب)! كلُّنا كذابون بالولادة، الطفل الرضيع يكذب بادعاء البكاء المزعج كي تحمله الأذرع "يحرك هلال بيدق جندي قبل أن يقول "انت مبتلى بالكثير! "ينظر أيوب لحركة الجندي تلك ويفهم أبعادها لكنه لا يفصح، بل يشجع هلال على قول المزيد "وبعد؟! "ليعيدها عليه هلال "(إنّ الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه)»

حركة ذات معنى بتعابير وجه أيوب دلالة السخرية بينما يقول "ها قد عدنا! أ تحاول أن تقنعني أنك تؤمن بديني وأنتَ على دين مُغاير؟! "قالها ثم انحنى فجأة ليقتل الجندي الأبيض بالقلعة السوداء، لكن هلال لم يهتم بخسارته لجنديه وهو يطرح سؤالاً شديد الأهمية على أيوب "السؤال هو؛ هل تؤمن أنتَ بدينك؟ "يضحك أيوب ثم يحرك يده كأنه يتوجع ثم يقول "آه! أوجعتني ضربة العصا منكَ على

أصابع كفي يا أستاذ "لكن هلال أصرّ على سماع رده "إذن ردا! "لم يبالِ أيوب بإصراره فقال بغرور "سأرد على ما يحلو لي "لم ييأس هلال وهو يتقدم بجندي جديد ثم قال "وأنا استمع»

باستهانة نظر أيوب لحركة بيدق الجندي الابيض ليقول له بإشفاق ساخر "يا استاذ هلال تشبّثك بهذا الاستشهاد من كلام خطيب الجمعة الذي أثّر فيك هو تشبّث العاصي بأيّ حجّة كي يقنع نفسه أنّه لم يرتكب جُرماً ولهذا عُوقب! "حرّك أيوب جندياً أسوداً في المقابل بينما هلال يرد عليه يجادله في منطقه "حتى لو كان عقاباً من الربّ، فهو يعيدنا إليه ويقرّبنا منه، والقُرب محبة، ووصال المُحبّ عبادة "ليحرك هلال جندياً أبيضاً آخر في نية المحاصرة فابتسم أيوب كأنه يسخر من خطة هلال المكشوفة ثم يرفع عينيه إليه ليقول له بمرارة حقيقية "إنه يعاقبنا جميعاً منذ أخرج آدم من الجنة بسبب تفاحة! لم يغفرها له، ولم يكتفِ بعقاب الطرد من الجنة وإنما ترك الشيطان وجنده يتسلّطون علينا بالغواية لنعيش حياتنا الدنيا في رعب من حياة أبدية في جحيم جهنم تنتظرنا بعد الموت، وبعد كل هذا تقول إنه يحبنا؟! "يحرك أيوب القلعة فعلم هلال ما ينوي عليه في الحركة القادمة، حرك جندياً أبيضاً ثالثاً وهو يقول بنصيحة صادقة "اذهب الى إمام الجامع، إنه رجل طيب "قتل أيوب الجندي الأول بحركة مباغتة من بيدق الفيل الأسود ثم قال بسخرية "ترسلني إليه لأنك لا تملك

إجابات! لأنك لا تملك أن تفحمني بحجة مقنعة فتظنه قادراً على فعلها لأنّه من نفس ديني "وقف هلال على قدميه وهو ينظر لساعة يده ويقول "اذهب اليه يا سيد أيوب "ثم انحنى بجذعه ليحرك الحصان الأبيض حركة غير متوقعة وقال "كِش ملك»

تحرك الاستاذ هلال بعدها ليغادر تاركاً أيوب مُحاصراً، الملك الاسود يقف مكشوفاً محاصراً من كل اتجاه.

أغمض أيوب عينيه واسترخى للخلف برأسه بينما يكلم نفسه في سره "احذر يا أيوب، هذه علامة؛ كش ملك! "ثم تمتم بصوت خافت كأنه يراجع نقاط ضعفه "بيدق الحصان الأبيض لم تحسب حسابه يا أيوب "

كفّاه على ذراعي كرسيه تشنّجا للحظة وذكرى جسد جهاد كانت ضمن الحصار الذي حاوطه، مضى زمن طويل جداً لم يلمس امرأة!

***

# الفصل الثاني عشر
## يدق النملة!

(أحضر لها الورود نهاية اليوم قبل مغادرتها، لا تقدمه لها ولا تكلمها، فقط ضعه لها داخل المكتبة ثم ارحل)

بقهر يسكن فؤاده يقرأ حمزة مُجدداً رسالة جهاد إليه صباح اليوم، يزمُّ شفتيه وهو يرفع عينيه الى السماء التي كستها حمرة الغروب.

لم يفعلها! لم يشتر الورود، سارة في عالم آخر هذه الأيام، لم يستطع إجبار نفسه على تنفيذ نصيحة جهاد، ليس فقط لأن حركة كهذه ليست من طبيعته، ولكن لأن سارة لا تريدها منه، موقن أنها لا تريد.

"ألن نغلق الورشة يا حمزة؟»

صوت أحد عماله وهو يسأله ببعض الدهشة جعل حمزة يدرك أنه يجلس هكذا على الرصيف منذ أكثر من نصف ساعة، منذ مغادرة سارة بذاك الوجه الحزين والنظرات البليدة كأن الحياة فقدت معناها بالنسبة إليها.

رد حمزة وهو يخرج علبة سجائره من جيبه "أنا سأغلقها، اذهب أنت يا بسام "لكن بسام اقترب وهو يسأله باهتمام "ما بك يا حمزة؟ "أشعل حمزة سيجارة وهو يقول باقتضاب "دعني بمفردي»

رحل العاملان عندما خرج الحاج عبد الصادق من مقهاه فيرى حمزة على تلك الجلسة الكئيبة وهو يدخن.

للحظة نظر عبد الصادق بقلق الى الأعلى حيث الطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون وهو يتمتم في سره "لماذا تأخرت كل هذا يا هلال؟! "ثم تنهّد ليقترب من حمزة وهو يسأله "ما بك يا ولدي؟ لماذا تجلس هكذا ولم تعد الى بيتك»

دعس حمزة السيجارة في أرضية الرصيف يطفئها وهو يرد "لا أدري يا عماه "انحنى الحاج ليجلس على الرصيف جوار حمزة ثم يربت على ساقه ويقول بمعنى واضح "لا تفقد الأمل "رفع حمزة عينيه الى المكتبة المغلقة في الجهة المقابلة ليقول بأسى "المشكلة أني لا أفقده! "عقد عبد الصادق حاجبيه وهو يتساءل "ماذا تعني؟! "أجاب حمزة وعيناه لا تفارقان واجهة المكتبة "ربما يجب أن أفقد الأمل يا عماه لعلي أنسى وأرتاح وابدأ من جديد»

أشفق الحاج عبد الصادق عليه ليقول بجدية "إن كنت

تريد هذا فـ.. "قاطعه حمزة بنبرة شجن "لا أريده ولا أستطيع فعله "ثم أدار رأسه ليرفع نظراته عالياً الى الطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون وهو يضيف "أشعر أن جهاد مُعلّقة معي أيضاً "تساءل عبد الصادق بعجب "ماذا تقصد؟! ما علاقة جهاد بما بينك وبين سارة؟! "فيرد حمزة بصدق وهو يقف على قدميه "لا أدري.. أقسم بالله لم أعد أفهم "ثم تحرك وهو يضيف "عن إذنك يا عم، سأقفل الورشة»

عاد حمزة الى ورشته كي يغلقها في نفس اللحظة التي خرج فيها الاستاذ هلال من بوابة مبنى قصر الخاتون، هرع إليه عبد الصادق وقد رأى على وجه صديقه تعابير القلق والتفكير العميق.

وقف الصديقان جوار بعض ليبادر عبد الصادق بالسؤال في صوت خافت "ماذا هناك يا هلال؟ كيف كانت الجلسة؟ "نظر هلال مطولاً لعبد الصادق قبل أن يقول "أظن أننا في ورطة أكبر مما تخيلنا يا صدوق، لم يكن علينا رمي الفتاة لهذا الرجل، حتى لو كان الثمن سمعتها "حوقل عبد الصادق ثم قال بقلق "بالله عليك ماذا حصل؟ "سحبه هلال من ذراعه وهو يقول له "دعنا نشرب الشاي أولاً وبعدها سأحكي لك كل ما جرى لنتفق كيف نتصرف "وقبل أن يصلا المقهى سأل هلال فجأة "ما اسم إمام جامع عبد الفتاح باشا يا صدوق؟ "رد عبد الصادق

بدهشة "الشيخ عبد المُعز الجعفري، لماذا تسأل عنه "عدّل الاستاذ هلال وضعية نظارته وهو يقول "أظنُّنا سنحتاج إليه»

***

تعِدُّ سارة الشاي في المطبخ وهي ساهمة، تشعر بطاقتها تتسرب منها كل يوم، تريد المقاومة لكن لا تجد القدرة، كيف عاشت كل حياتها باعتقاد كاذب أن جهاد تعتمد عليها كمصدر للطاقة والقدرة، لكن سارة اليوم أدركت العكس؛ أدركت أن جهاد هي مصدر استمراريتها لتؤدي كل أدوراها في الحياة.

وها قد باتت بدون (المصدر)، شعور لم تجربه طيلة حياتها، حتى عندما تزوجت جهاد من غيث فالصلة بينهما كتوءم ظلت قوية متينة، كانت تثير ضيق وغيرة غيث أغلب الأحيان، وربما كانت أحد أسبابه الذكورية ليخون جهاد.

همست سارة "ما الذي يجب أن أفعله؟ كيف أستعيد نفسي؟ كيف أستعيد علاقتي بجهاد؟ "أطرقت بألم وهي تضيف "كيف أستطيع التعامل مع أيوب كزوج أخت؟!»

خرجت بهدوء من المطبخ وهي تحمل كوب الشاي

وبينما تمر بالصالة سمعت جدتها تتكلم بانفعال مع أمها "يا منى يجب أن نعرف! لا يعقل أن تظل تتهرب منا ولا ترد على اسئلتنا "تسمّرت سارة مكانها بينما أذناها تسمعان تعليق أمها "لا يمكنني الضغط عليها بالسؤال أكثر من هذا، أرجوك أمي.. إنها ليست المرة الأولى لها! "حتى اللحظة لم تستوعب سارة عمّا تتكلمان بالضبط، لكنها كانت واثقة ان الموضوع يخصُّ جهاد، ابتلعت ريقها وهي تنتظر لتسمع الجدة ياقوت تقول بعصبية "لماذا لا تواجهين الحقائق؟! زواج جهاد من أيوب لم يتم بشكل طبيعي، كما لا تنسيّ حالته الخاصة من التشوه، ربما جهاد تشمئز منه ولا تسمح له بالاقتراب "ارتج الكوب بيد سارة وأوشك أن يقع منها ثم أتاها صوت أمها وهي تردُّ بثقة "جهاد ليست كسارة، ألا تذكرين عندما احترقت ذراع كرم رحمه الله؟ كانت جهاد من تبدّل له الضمادات بينما سارة لا تحتمل حتى النظر "عندها فقط.. وقع الكوب أرضاً وتهشّم!

***

في ظلام دامس لا ينيره إلّا ضوء شاشة الهاتف النقال تضطجع جهاد على جانبها وهي تنظر لصورهما هي وسارة على الانستغرام، لقد ارسلت لها فقط (تصبحين على خير) ولم تنتظر الإجابة رغم حاجتها الماسّة إليها.

هذه الليلة أقفلت جهاد باب الغرفة بالمفتاح، لم تهتم

بوعدها لنفسها ليلة العرس أنها لن تخاف أيوب، كان يوماً ثقيلاً حتى أنها لم تأكل إلّا القليل من الطعام الذي طهته لتضع الباقي في البراد.

تشعر بالخوف الليلة أكثر من أي ليلة سابقة قضتها هنا، تجرؤ أيوب عليها صباحاً وملامسته لجسدها وكلامه الحقير لم يؤثر فيها كما أثر حواره مع الاستاذ هلال وهما يلعبان الشطرنج، تعترف أنها خافت كثيراً من تلك الملامسات وأهدافها الدنيئة لكن ذاك الحوار أرعبها حرفياً.

أغمضت عينيها وهي تضع هاتفها جانباً بينما تفكر، ما الذي أقحمت نفسها فيه؟! كيف تورّطت سارة مع رجل كهذا لتتورط هي معهما بهذا الشكل!

تقلبت في سريرها وهي تشعر بثقل يجثم فوق صدرها، ثقل يصيبها بحزن غريب! ولشدة حزنها تشعر برغبة البكاء، لكن البكاء لا يطاوعها ليريحها.

لقد تربّت طوال حياتها على تنمية فطرة الإيمان بالله، حالة من المحبة المتبادلة دون مراجعة أو تشكيك فيها، لم يخطر ببالها يوماً أن تصل بتفكيرها الى هذه التساؤلات الناقمة التي قالها أيوب، أ تراه يؤمن حقاً بما قال أم إنه كان يستفز الاستاذ هلال فقط؟!

تمتمت جهاد بهمس مختنق "ما الجميل الذي رأيتِه فيه يا سارة لتتعلّقي به؟! باللّٰه عليكِ كيف انجذبتِ لإنسان مثله غير سويّ لا في عقله ولا في قلبه؟! ما الذي كان سيحصل لكِ لو تزوجتِه أنتِ يا حمقاء؟! لكنتِ أضعتِ حياتك!»

فجأة سمعت خطوات أيوب في الرواق، كتمت أنفاسها لا شعوريا وهي ممدّدة على السرير، وصل إلى باب غرفتها فتوقفت خطواته هناك! هبّت بجذعها وقلبها يقرع بجنون بينما تمدُّ يدها لتلتقط الهاتف عفوياً كأنه وسيلة استنجادها، تحدق في اتجاه الباب المقفول وسط هذا الظلام والسكون التام، ثم ارتعد جسدها عندما صدر صوت احتكاك عالٍ مزعج فخمنت جهاد أن الحقير أيوب يمرّر عصاه فوق سطح الباب الخشبي، أوقعت الهاتف في حجرها ثم أغلقت أذنيها بكفيها بينما تعقد حاجبيها وهي ما تزال تحدق في اتجاه الباب المقابل للسرير تنتظر حركة أيوب التالية، فارتاحت جزئياً عندما توقف عن إصدار الصوت المزعج ثم ضحك بخفوت قبل أن يبتعد بخطواته لتتنفس جهاد الصعداء.

لم تحتمل البقاء في السرير فغادرته وهي تحمل هاتفها وعلى ضوءه الباهت سارت حافية القدمين حتى وصلت باب الغرفة وهناك وضعت أذنها لتنصت الى صوت خطواته المبتعدة، ابتلعت ريقها وهي تهمس بتوجس "لقد ذهب

باتجاه المطبخ "ثم انحنت لتجلس على الأرض جوار الباب مستندة برأسها وظهرها للحائط بينما تتمتم بدعاء "ساعدني يا رب؛ ليس الليلة أتوسل إليك، لستُ جاهزة لأواجهه»

مرت دقائق طويلة وثقيلة وجهاد جالسة في الظلمة والهاتف في حجرها حتى أصابها النعاس فتراخى أجفانها رغماً عنها حتى غلبتها سِنة نوم، وكأنها دخلت في مرحلة الحلم حين أفزعها صوت أيوب الساخر من خلف الباب "أ تنامين جوار الباب؟ شخيرك يخبرني بهذا»

أخذت ترتجف فتلف ذراعيها حول جسدها دون أن ترد عليه، ثم سمعت حركة جسده فأدركت أنه جلس على الأرض مثلها لكن على الجانب الآخر من الباب المقفل ليضيف بنفس النبرة الخافتة "طعام لذيذ أكلته للتو يا نملاوي "ثم أجفلت وهو يعاود إصدار نفس الصوت بعصاه فوق سطح الباب فرفعت كفيها لتغلق أذنيها وهي تهتف به "توقف عن إصدار هذا الصوت اللعين! "كفَّ عن إصدار الصوت ليقول بنبرة خطيرة ساخرة "لماذا تغلقين الباب بالمفتاح؟! أتخافين مني؟ "ألصقت رأسها بالحائط وهي ترد عليه بعنف "ارحل "كان يتلاعب بأعصابها وهو يرد بنفس النبرة "لا أشعر برغبة بالنوم، افتحي الباب "رفعت يدها إلى فمها مرعوبة لكنها تجبر نفسها على الرد بنفس العنف "لا.. ارحل "يضحك بخفوت ثم يقول متهكماً "خسارة! كنت أودُّ شكرك وجهاً

لوجه على الطعام لا أكثر "لم تحتمل لتضرب بقبضتها على الباب وهي تهدر بعنف أشد "قلت لك ارحل عني.. ارحل»

ساد صمت للحظات طويلة وقلب جهاد يكاد يتوقف من قوة النبض حتى أرعبها وهو يقول بنبرة تفهمها بالمعرفة والتجربة "هل تعلمين متى كانت آخر مرة عاشرت امرأة؟ "أغمضت عينيها وهي تحاول السيطرة على مخاوفها كي تتصرف معه، إنه رجل راغب، لا يهم إن كانت هي أم غيرها، المهم أنه (يرغب)، ابتلعت ريقها وهي تفتح عينيها وتردُّ عليه "لا يهمني أن أعلم "فيفتح باب حوار صريح جريء وهو يقول بمنطق فج "مؤكد يهمك، فأنت جربتِ المعاشرة وجسدك مؤكد يرغب، فلماذا لا نستفيد من هذا الموقف (الحلال) الذي وضعتنا فيه سارة؟»

ما إن ذكر سارة حتى ضربت بقبضتها مجدداً على الباب لتصرخ فيه بحمائية "دع سارة وشأنها "كانت نبرته مختلفة عن كل ما سبق وسمعته منه، يحاول إقناعها بمنطق شيطاني النزعة "كيف أدعها وهي سبب وجودكِ هنا؟! أنتِ في داخلك ساخطة عليها لأنها حطمت فرصك بالزواج من شخص آخر، ألا تريدين في داخلك الانتقام منها لأنها أفسدت حياتك؟ لا انتقام أروع من ان تعرف أننا نتشارك العاطفة الجسدية الأصدق من أي عاطفة أخرى على وجه الأرض»

كلامه هو صوت الوسواس، الوسواس الذي يقتل الروح ببطء، فجأة أبصرتْ الحقيقة وقد انقشعت ظلال خوف سوداء كانت تشوّشها، ليست هي الضعيفة؛ بل هو، بطريقة ما ورغم جبروته وقوته وقدراته إلّا أنه انسان ضعيف غلبه شيطانه فحطّم إيمانه حين حطّم مشاعره!

قالت أخيراً وهي تتجاوز المخاوف التي لم تغادرها بعد "أنتَ مسكين يا أيوب، لا تعرف معنى الحب "صمت للحظتين قبل أن يقول ساخراً بسوداوية "أ تقصدين أنكِ عاشرتِ زوجك الأول عن.. حب؟ ورغم هذا (الحب) خانك؟ "ردت وهي تدير وجهها ناحية الباب "لا أتكلم عن غيث "لم يعلق بشيء وكأنه ينتظرها أنْ تقول المزيد، إنّه رجل غير عادي، ما هذا المزيج العجيب؟! صبور مستمع حين يشاء، ونزق مُتكبّر مع معظم الأشياء، شديد الذكاء؛ لكن ذكاءه قاده إلى طريق أقرب للكفر بكل شيء في الحياة!

أغمضت عينيها لتفكر بتفاصيل بيتها؛ بيت الحاج كرم، فتقول وهي تستند بجانب رأسها الى الحائط "الحب ليس بين رجل وامرأة فقط، بعد أيام قليلة من مشاركتي لك العيش في هذا الجُحر الكئيب الذي تتخذه بيتاً؛ اكتشفت كم أنا محظوظة ببيتي؛ بيت أبي، اكتشفت أني حظيت بالكثير مما يبدو أنك لم تحظَ به»

ظل صامتاً تماماً وجهاد تغرق أكثر في ركن الأمان الذي يقوّيها فتسهب بالشرح وصوتها يخرج بحشرجة خاصة "أنا في حالة حب مع نفسي؛ ونفسي هي سارة، وحالة حب مختلفة لا تموت مع أبي، وممتدة ومرتبطة مع امي وجدتي ياقوت، ثم حالة ثالثة من الحب مع العم عبد الصادق والأستاذ هلال "تجمعت دموع التأثر خلف أجفانها المطبقة وهي تكمل بصدق تتذكر طفولتها الحلوة "لقد اكتشفت الآن فقط أني أحب حمزة كأنه من دمي! وهو يبادلني الحب كأنني من دمه "تفتح عينيها وهي تكاد تضحك من تذكرها لمقالب فعلتها في حمزة بينما تسيل بضع دمعات على خديها وهي تسأله "هل لديك من تحبه ويحبك هكذا؟! "لم تنتظر رده، بل ردت هي على سؤالها بنفسها "أنا واثقة أنك لم تجرب شعور المحبة على الاطلاق لذلك لا تفهم ولا تستوعب محبة الله»

عندها فقط تكلم أيوب بنبرة غامضة "إذن سمعتِ ذاك الحوار الطريف "مسحت جهاد دموع التأثر ثم اعتدلت في جلستها لتتربع أمام الباب المقفل وتقول باندفاع عاطفي انساني متهور "أي انسان بائس أنت لتحمل كل هذا السواد، أنت تكره نفسك يا أيوب.. لذلك تشكُّ بمحبة الله للبشر، بل لا تصدقها "ضحكة خافتة صدرت عنه قبل أن يقول ساخراً مشاكساً "من الغريب أن قنبلة الحب هذه لم تنفجر إلّا في هذا الجحر الكئيب! "تراخى عبوسها

وقد شعرت كأنه يسخر من نفسه لا منها! فقالت بعفوية صادقة "الانسان يدرك ما يملكه عندما يرى شقاء من لا يملكه "

ساد صمت طويل قبل أن يسألها بجدية "ألا تخافين مني يا جهاد؟ "انقبض قلبها (خوفاً منه) لتعترف بشجاعة وكبرياء "أجل أخاف، لكني لا أخشى شعور الخوف منك، بل أحاربه "فيسألها بنبرة ذات وقع عميق في النفس "وتحاربينني أيضاً؟ "فترد دون تراجع "وأحاربك.. أيضاً "

تجمّدت وهي تشعر بحركته خلف الباب لكنه قال فقط "شكراً على العشاء اللذيذ "زحفت لا إراديا للخلف وهي تهاجمه تلقائياً بالقول "لم أطبخه لأجلك "سمعت صوت خطواته ليقول باستفزاز قبل أن يبتعد "وأنا أكلته لهذا السبب»

***

## جناح ملكي في فندق مشهور

في غرفة منعزلة عن صخب الحفل الذي يقيمه هارون مع العابثين من حوله، يقف آدم بكامل أناقته الرسمية جوار النافذة وهو يستمع لكلام توفيق عبر الهاتف، في النهاية

سأله بهدوء واقتضاب "ماذا تريد الآن يا توفيق؟ "ليبدي المحامي بعض الانفعال وهو يرد "لقد تخلّيتم عني! "بنفس الهدوء والاقتضاب قال آدم "أنت اخترت الجهة التي تقف فيها "أصّر توفيق على زعزعة موقف الإخوة بالقول "لن تستطيعوا إجباره أو إقناعه "فما كان من آدم إلّا أن قال بكلام منطقي "وأنت أيضاً لم تستطع، فما المطلوب الآن؟ "رد توفيق بنبرة المحامي المراوغ "تعاون مشترك ومحاولة جديدة "ليكون آدم أكثر مراوغة بالرد وهو يبقي الباب موارباً دون إعطاء بذرة أمل "سنرى "

كان سينهي الاتصال عندما سأله توفيق بفضول حقيقي "هل تكرهه يا آدم؟ "بعض العبوس غيّر من تعابير آدم المُعتادة وهو يسأل "من تقصد؟ "فيجيب توفيق "أيوب بالطبع "تلاشى الأثر الطفيف للعبوس ليعود آدم الى تلك الهالة المتماسكة الثابتة ليقول بنفس الهدوء ودون أي مشاعر "هو من علمني أن لا أكره ولا أحب، عمت مساء يا توفيق»

أغلق آدم الخط ووضع الهاتف في جيبه، ينظر عبر النافذة بصمت، عانق عمره الثلاثين وقد نجح حتى اللحظة أن يبني لنفسه كياناً لا يخترقه أحد، كيان مظلم فارغ يعيش فيه بمفرده، صراع طويل عاشه حتى وصل إلى هذا المستوى، ولا يعلم هل يفترض أن يشكر أيوب على هذا أم.. يقتله!

**(« عندما تتغلب على مشاعرك يا آدم ستشفى من علّتك، الحب والكره هما من أوصلاك إلى ما أنتَ فيه، وإلى حين نجاحك لتشفي نفسك بنفسك، لن أجازف بفضيحة كهذه تمس آل عريم أن تظهر للعلن، فالأسرار لا تعرف الصمت إلّا بالموت»**

**«آل عريم يعيشون الفضائح كل يوم فلا ترمها عليّ اليوم "**

**«ليست فضائح من هذا النوع « )**

حوار مع أيوب غيّر حياة آدم للأبد، مضت عشر سنوات على ذاك اليوم.

دخل هارون الغرفة والصخب خلفه، يحمل بيده اليمنى كأساً ويلف ذراعه الأيسر حول جسد إحدى الغانيات المفضّلات لديه، التمعت عينا تلك الغانية وهما تنظران الى آدم باشتهاء ليدفعها هارون بخشونة نحوه وهو يضحك "فكّي عقدة لسانه إن استطعتِ "تقدمت الحسناء الغانية نحو آدم وهو لا يلتفت إليها، بدت متلهفة على نحو خاص وهي تلتصق به وتمد يداً متطلبة تلامس صدره فوق قماش القميص، تسأله بإلحاح وصوت يتقطع رغبة "أ تحتاجني سيد آدم؟ "تميل لتقبل عنقه وهي تضيف بمزيد من الرغبة المتأججة "أنا في خدمتك»

يجلس هارون على أريكة وهو يضحك، أزرار قميصه مفتوحة عند الصدر، شعره مشعث وعيناه لامعتان بشدة، الليلة كسب الكثير على المائدة الخضراء وهذا يمنحه شعوراً لا يضاهى.

ارتشف من كأسه مع دخول قابيل الذي قال بمزاج متعكر "متى يمكننا الحديث؟!»

ما تزال الغانية تحاول مع آدم الذي لا يبدي اي انفعال على الاطلاق فيأمرها هارون بأسلوبه الخاص "السيد آدم ليس لديه مزاج لخدماتك، غادري "بلمح البصر أطاعت ونفذت، قوانين هارون العريم صارمة للغاية والكل يعرف عنه هذا.

أغلقت الغانية الباب فانقطع الصخب مجدداً ليسأل هارون وهو ينظر بتمعن الى شقيقه الأصغر "ألا تعجبك؟ ألا تثير شهيتك؟ يا رجل ستموت كي تلفت انتباهك إليها، لم أرها تفعل هذا مع غيرك ولا حتى معي أنا "بهدوء استدار آدم ليقول باختصار بينما يتحرك قابيل ليجلس جوار هارون "نتكلم في المهم؛ هل قرأتما ما أرسلته لكما؟ "فقال هارون ونظراته تغرق في المجهول "جهاد كرم وسارة كرم؛ ترى من منهما؟ "علّق قابيل بنزق "ماذا تعني يا هارون؟! جهاد بالطبع هي زوجته»

يسبل هارون أهدابه وهو يقول بابتسامة "أنا أشمّ رائحة مختلفة، حلوة وشيطانية للغاية»

آدم يلتزم الصمت بينما قابيل يفسّر كلام هارون ويعبر عن تفسيره بالقول "فهمت ما تعنيه، وأنا من رأيك، إنهما مجرد بنتان من حي حقير وجدتا في (أيوب العريم) ضالتهما، إنهما تتلاعبان به "رفع هارون نظراته ليقول بابتسامة واسعة "أنا لم أقل أنهما تتلاعبان بأيوب، بل أفكر في العكس "عبس قابيل ولم يعجبه كلام هارون فيقول له هارون بنبرة خاصة وعيناه تفيضان ذكاء وفطنة "لا تدع غيرتك من أخينا يا قابيل تدفعك لإهانة ذكائه»

قدحت عينا قابيل وهو يحدج هارون بنظرة غضب لكن هارون لم يهتم بانفعال أخيه ليوجّه نظراته الى آدم ويقول "لدي شك في شيء وسأتأكد منه ربما غداً "سأله آدم بانتباه "ماذا ستفعل يا هارون؟ "تعابير هارون كانت غير مقروءة وهو يرد بسلاسة "سألتقي بزوجة أخينا الأكبر "عندها قال قابيل "هل ستتصل بها؟ لكن قد تخبر أيوب "بنفس التعابير رد هارون "سأجد وسيلة لأصل إلى غايتي "ليلقي آدم بملاحظة "آخر ما وصلني أنها لم تخرج من البيت منذ زواجهما "ضحك هارون ثم غمز قائلاً بشقاوة "ربما الداهية يعوّض ما فاته، إنها أربع سنوات! وأظنه لم يقرب امرأة في ذاك المهجر الذي اختاره "قال قابيل بتشكك "يعوض ما فاته؟! أ نظرت إلى صورتها؟! إنها أقل

من عادية مقارنة بمن عرفهن من النساء في حياته "نظرة هارون انتقلت لأخيه الأصغر وهو يسأله بابتسامة صغيرة "ما رأيك أنتَ يا آدم؟ "رد آدم "أظن أننا نتكلم عن نوعية مختلفة، ووفقاً لما وصلني فالصورة لا تتلاءم مع رؤية قابيل عنها "يشرب هارون ما تبقى من كأسه وهو يقول بنبرة ذات معنى "يجب أن نراها بعينيه هو.. أيوب العريم»

***

## في الصباح الباكر من اليوم التالي

ابتسم أيوب وهو يلتفت برأسه متوقفاً عن تزرير قميصه مع سماعه لصوت باب الشقة يُفتح ويُغلق، فيتمتم بدعابة "النملة فرّت من تحت عقب الباب قبل أن تقول (صباح الخير)»

أكمل ارتداء ملابسه ثم التقط عصاه وبتعابير جدية تحرّك كي يغادر غرفته ومنها إلى الرواق حيث الهاتف الأرضي، تعابير وجهه لم تتغير وهو يتصل برقم محدّد، وبعد سلام مقتضب سأل أيوب "أخبرني توفيق "فهم توفيق المُراد فقال دون مقدمات ليشرح الوضع "كما توقعنا، أخرجوني من اللعبة، رغم أن آدم ترك الباب مواربا بعض الشيء لكني موقن من خروجي، آسف أيوب "بنبرة عملية وذهن متوقد قال أيوب "لا بأس، أرسل اليوم وخلال ساعة

واحدة لا أكثر، هاتفاً نقالاً جديداً بخط اتصال باسم.. "توقف أيوب للحظة وهو يفكر قبل أن يقرر فيختار أسم حماته "منى عمران "

تساءل توفيق بفضول "من منى عمران؟ "لم يرد عليه أيوب، بل أكمل مطالبه بتلك النبرة المترفعة التي تنساب طبيعياً من صوته "أريد أيضاً حاسوباً على أحدث طراز وأشياء أخرى سجلها عندك كي لا تنساها "ثم أخذ يملي على محاميه ما يريد بينما ذاك المحامي على الطرف الآخر يبتسم وهو يقول في سرّه "لقد عاد داهية العريم»

***

مرّت بحمزة وهو يقف عند ورشته بينما العامل يفتحها فتسأله جهاد بنظرة (إن كان فعل) ليخيب أملها بالرد بنظرة نفي! تنهدت جهاد وهي تشوح يدها نحوه وتشتمه في سرها وتقول "ماذا أفعل بك أيها الثور؟! رغم أني أتفهمك لكن.. «

« صباح الخير يا ابنتي، خيراً إن شاء الله؟! ما الذي أخرجك باكراً هكذا "ردت جهاد التحية للعم عبد الصادق قائلة "صباح الخير يا عم، لدي عمل ويجب أن أذهب بنفسي لدار النشر»

في الواقع الذهاب لدار النشر كان مجرد حجة كي تغادر تلك الشقة الكئيبة، تحتاج أن تتنفس الهواء، تحتاج رؤية.. سارة.

عيناها رانتا نحو باب المكتبة المغلق لتسأل بخفوت "ألم تتأخر سارة؟ "فيرد العم عبد الصادق "توشك على الحضور "ثم أضاف وهو يشير بذراعه "تعالي جهاد، أريد أن نتكلم قبل ذهابك يا ابنتي، الأمر لا يحتمل التأجيل، كنت سأتصل بك اليوم كي تنزلي إلي ونتكلم»

أطاعته وهي تدخل خلفه للمقهى حيث العمال يرتبون الكراسي ويمسحون الطاولات لينتحي بها العم جانباً، سحب العم عبد الصادق كرسيين ونادى على نعمان ليُعد الشاي لهما.

جلست جهاد على أحد الكرسيين بينما جلس عبد الصادق على الآخر، ابتدأ هو الكلام بالقول بنبرة خافتة "الأمر يخصُّ السيد يا ابنتي، هلال بالأمس أخبرني كلاماً عنه أدخل القلق الشديد إلى نفسي»

توقعت جهاد هذا الحوار مع العم عبد الصادق، لكن هو لم يكن يتوقع سؤالها على الإطلاق وهي تلقيه بنبرة هادئة "ما اسم (السيد) يا عم عبد الصادق؟»

كان السؤال قد طرق رأسها فجر اليوم على نحو مفاجئ، ووقع السؤال كان أشبه بالكوميديا السوداء! لقد تزوجت برجل لا تعرف اسمه الكامل! فقط أيوب، أو السيد كما يحب الجميع هنا مناداته.

بدا عبد الصادق هو الآخر متفاجئاً فيسأل "ماذا تقصدين يا ابنتي؟! "فوضحت له جهاد "لا أعلم إلّا اسمه الأول يا عم، لقد اكتشفت هذا فجر اليوم فقط! حتى نسختي من عقد الزواج ليست معي "شعر العم عبد الصادق بالإشفاق وهو يرد عليها "نسختك من عقد الزواج سلمتها إلى والدتك، يمكنك أخذه منها إن شئت»

فردت جهاد "لا.. سأبقيه عندها، فقط أخبرني باسمه الكامل "شعر العم عبد الصادق بالحرج وهو يقول "سامحيني يا ابنتي، ذاكرتي ليست قوية في تذكر الاسماء، أظنه كان أيوب سلطان، لكن لستُ متأكداً من اسم الجد، ربما زيدون أو زيدان أو اسم مقارب باللفظ»

اكتفت جهاد بهز رأسها مع تمتمة شكر باهتة، عيناها تحركتا لتنظرا عبر شباك المقهى الى باب المكتبة المقفل، تشعر بوحدة فظيعة، تحتاج سارة بشدة.

سألها العم عبد الصادق بحنو "تبدين شاحبة الوجه، هل أنت بخير؟»

كان سؤاله أكثر عمقاً من مجرد اطمئنان على الصحة، لقد كان قلقاً عليها ويودُّ أن يعرف كيف تعيش مع (زوجها)، طمأنته بالقول وهي تتماسك لتقاوم شعور الوحدة القاتل "لا تقلق عليّ عماه، فقط تغيير مكان النوم، لم أعتد بعد»

أحضر عامل المقهى الشاي في قدحين فناولها العم عبد الصادق قدحاً لها وأخذ الآخر، وحالما ابتعد نعمان قال عبد الصادق بجدية بينما ترتّشف جهاد من قدحها "يا ابنتي لا أدري مدى معرفتك بالحوار الذي دار بين هلال والسيد بالأمس، دون أن نخوض في تفاصيله يجب أن تعلمي أن زوجك بحاجة لمساعدة، يبدو أنّ حادث الحريق ووفاة زوجته الأولى رحمها الله قد أثّر على إيمانه وثقته بربه "ثم أخذ يستغفر ويحوقل.

رنّت كلمات العم عبد الصادق في أذنيها، أتراه تأثر بوفاة زوجته؟ أ لهذا هو مرير حقير كأنه كاره للحياة والبشر! أ لهذا حاول التلاعب بسارة ثم يلعب معهما الآن لعبة القط والفأر ليوقع بينهما الضغينة والعداء؟!

تمتمت جهاد وعيناها لا تفارقان باب المكتبة المقفل "أ تظن هذا السبب؟ "تساءل العم عبد الصادق وقد تاه عن مقصدها "السبب في ماذا بالضبط يا ابنتي؟! "التفتت إليه

وبدلاً من أن ترد على سؤاله، سألته بتلهف "هل سيأتي الاستاذ هلال مساء اليوم أيضاً؟ لقد ترك علبة الشطرنج عندنا»

(عندنا)! كيف قالتها بسلاسة وعفوية هكذا؟! تجمدت وشعرت بروحها تنسحب منها، لا يمكن أن تستسلم لهذا الفخ الذي وقعت فيه، كلما أبقت في رأسها حقيقة ما حصل فإنها بأمان.

عند هذه اللحظة لمحت جهاد حضور سارة وهي تسير في الطريق ونظراتها ساهمة، وقفت جهاد على قدميها وسلمت قدح الشاي الى العم عبد الصادق وهي تقول على عجل "أخبر الاستاذ هلال أن يأتي الليلة أيضاً عماه "ناداها العم عبد الصادق وهي تتعثر بخطواتها "جهاد! لم نتكلم بعد "لوحت بيدها وهي تعده بالقول "عند عودتي سأمر بك»

ثم خرجت تلحق بتوأمتها وهي تناديها لاهثة بالشوق الى نصفها الثاني "سارة.. سارة»

***

تجمدت خطوات سارة للحظات مع صوت النداء باسمها، ثم استدارت ببطء لتواجه توأمتها بوجه شاحب حتى الموت! تنظر إليها وكأنها تخشى أن ترى على وجهها أثراً

لأيوب!

كلمات أمها تطنُّ في أذنيها، **(كانت جهاد من تبدّل له الضمادات بينما سارة لا تحتمل حتى النظر)**، أحست سارة ببرد شديد رغم دفء الصباح الربيعي، تنظر إلى جهاد والسؤال الرهيب يتردّد بصدى موحش داخلها "أيمكن لنصفها الثاني أن يخون نصفه الأول؟! أليست خيانة إن استطاعت جهاد تضميد حروق أيوب بينما هي سارة عجزت حتى عن النظر إليها؟!»

رأت عينا جهاد تدمعان قبل أن تهمس "أ يعقل أنك لم تشتاقي إلي؟!»

عينا سارة تدمعان تلقائياً لدموع جهاد، فأطبقت أجفانها بينما تسمع صوت حمزة حانقاً "خذي جهاد في حضنك سارة! اللعنة.. إنها توأمتك»

كانت سارة ترتعش الآن والخواء يعصف داخلها حتى امتلأت فجأة وذراعا جهاد تحاوطانها وتضمّانها في قوة، ثم همس توأمتها الضعيف وهي تتوسل إليها "أحتاج إليك كي أستطيع مواجهة الكثير، لا تخذليني سارة، لا تدعي أي شيء يقف بيننا، أنا سأنهار.. بدونك»

أخذت جهاد تجهش بالبكاء وهي تتعلق بسارة تعلق

الطفلة بأمها، دموع سارة أغرقت وجهها وهي تمدُّ ذراعيها لتضمّا جهاد إليها بقوة تلقائية، كان نداء الانذار يصدح عالياً والاثنتان تتشبثان ببعض، سفينتهما تخوض غمار بحر مظلم مجهول، هائج على نحو غير مسبوق.

***

يراقباهما أيوب من الشرفة وعيناه تشعان بالصدمة والغضب! يتمتم وكأنه يتحدى إحساساً شخصياً للغاية "لا يمكن أن تغلبا! لن تصمدا طويلاً أمام إغراء تفاحة أيوب، لا يمكن أن تثبتا لي العكس»

قالها أيوب وهو يضرب بكفه الستارة ثم يستدير ليبتعد عن الشرفة وعيناه تقدحان بشرر التحدي.

***

تسير جهاد على غير هدى في الشوارع، تأخذها قدماها في طرق تعجّ بالناس، وجوه باتت غريبة وقد غادرت حي الخاتون، لقد منحتها سارة بعض الدعم دون كلمات، ذاك الحضن احتاجته بقوة ولم تبخل به سارة عليها، فلم يهمها بعدها انسحاب سارة عندما أتاها بعض الزبائن الباكرين.

فجأة أخذت جهاد تتلفت حولها وسط الزحام، شعرت

وكأن هناك من يلاحقها.. يترصدها.. يتبع خطواتها!

عقدت حاجبيها وهي تقف منتصف الرصيف وسط المارّة تنظر إلى وجوههم تحاول أن تلمح من أحدهم نظرة خاصة، ابتلعت ريقها وأنفاسها تثقل في صدرها، إنها تشعر بأيوب يلاحقها!

نفضت رأسها وهي تهمس بتوبيخ لنفسها "أ جننتِ يا جهاد؟! ولماذا يلاحقك ذاك البائس؟!»

زفرت نفساً قوياً قبل أن تخطو خطوتين لتتسمر مكانها وهي تحدق أمامها في رجل! رجل يبادلها التحديق من خلف نظارة الشمس السوداء، شعور عجيب بأنه مألوف، ثم تكاثف هذا الشعور داخلها حتى أصابها التوتر عندما أبتسم! تجمدت مكانها وهي تراه يتقدم إليها وسط الناس، عطر رجولي فواح سبقه، عطر غال جداً كساعة الرولكس في معصمه وماركة نظارته السوداء وملابسه الباهظة، كان ما يزال يبتسم وهو يقف أمامها لتكتشف كم هو طويل فترفع وجهها إليه بينما يناديها بنبرة حلوة "جهاد "عبست في وجهه وهي تسأله بخشونة "أ تعرفني؟! "فيرد باختصار وابتسامته تتسع "أعرفك "حمدت الله أن حولها الكثير من المارة لتتقوى بوجودهم فلا تظهر بجبانة وهي تسأله بتماسك "من أنت وماذا تريد؟»

مرت بضع لحظات شعرت جهاد وكأنه يدرسها عن كثب قبل أن يرد على سؤالها بالقول "أنا هارون العريم "تعقد حاجبيها أكثر وهي تتساءل "وماذا يفترض باسمك أن يعني لي؟!»

هذه المرة اللحظات كانت أكثر وهو يلتزم الصمت، شعرت أن الأمر ليس عادياً على الإطلاق، وكأنه كان ينتظر ردة فعلها على اسمه لكنه لم يحصل عليها تماماً!

شعرت جهاد بخوف مبهم وهي تفكر "من هذا الرجل؟! ماذا يريد مني؟! "لينهي الرجل حيرتها وهو يجرّب حظه بالقول "هارون سلطان زيدان العريم»

انشدهت جهاد وصوت العم عبد الصادق يرن في أذنيها (اسمه أيوب سلطان.. زيدان أو زيدون) عيناها متسعتان حتى آخرهما بينما يتجرأ (هارون) على إمساك يدها وهو يقول بلطف ماكر ساحر "تعالي يا زوجة أخي، سأدعوك لفنجان قهوة «

من هول الصدمة والموقف تركت له سحبها بخفة ولباقة حتى وجدت نفسها تركب إلى جواره في سيارة فارهة سوداء.

***

أخذها إلى مقهى راقٍ استقبلهما العاملون فيه وكأنهم يستقبلون ملكاً أو رئيس دولة! بحركة من سبابة هارون كان المقهى يقفل ويمنع دخول زبائن! بينما تحدق جهاد فيما يحصل حولها، أرعبها بطريقة غامضة ذاك الظل الملازم لهارون، إنه حارسه الشخصي وله تعابير وجه باردة مخيفة لم ترها جهاد على وجه انسان من قبل!

تمتمت جهاد بصوت مسموع دون أن تشعر "من أنتم؟! "كان هارون يضحك وهو يقودها من مرفقها الى طاولة جوار أحد الشبابيك بينما يرد عليها "نحن آل عريم "تنظر إليه وهو يسحب لها الكرسي كي تجلس بينما يضيف بنبرة مختلفة أخافتها دون سبب واضح "عندما أريد خلوة أحصل عليها»

ابتلعت ريقها وهي تواجه الموقف، لقد أتت معه، ولم تكن فاقدة الوعي، حسن ربما كانت مشدوهة لكنها مدركة، لقد اختارت أن تستسلم لسطوة هذا الطويل كعارضي الأزياء فقط كي تعرف.

الفضول، تذكرت تلك الكلمة التي بدأ بها أيوب حواره مع الاستاذ هلال مساء الأمس، هو نفس الفضول الذي جعلها اليوم ترافق هارون العريم رغم شعورها الأكيد أنها تقحم نفسها في مشاكل أكبر من أي تخيل.

أخذت تنظر إلى هارون وهو يخلع نظارته بترفع تلقائي، كان شديد الوسامة ويشبه أيوب كثيراً، عينا هارون في عينيها فترى فيهما عينيّ أخيه، نفس النظرة التي يلوح فيها الدهاء والخبث والسواد، جاذبية منفرة! عيناها هبطتا إلى ساعته الثمينة فيتسارع قلبها وجلاً، من هم آل عريم بالضبط؟!

دون أن يسألها عما تريد فرقع بأصبعيه وطلب لها قهوة حلوة، تفاجأت وهي تسأله "كيف عرفت أني أحب القهوة الحلوة؟ "تبسّم وهو يقول "توقعت السؤال عن أمر مختلف "فألهمها ذكاؤها أو ربما حدسها لتلقي بسؤال آخر "كيف عرفت أني سآتي معك؟ "اتّسعت ابتسامته دلالة إصابتها الهدف لكنه لم يقل إلّا "لم أعرف وإنما قامرت! "

وصلت قهوتها مع قهوته لكنها لم تنظر إلّا إليه، سألته مباشرة بعد انصراف النادل "لماذا أنا هنا بالضبط؟ "أخذ يرتشف من قهوته وهو يرد "لأنكِ بيدقٌ في اللعبة»

***

# الفصل الثالث عشر
# سلسال ملعون

«لأنكِ بيدقٌ في اللعبة»

كلمة (لعبة) حملت معنى خطيراً لجهاد، وأنْ تكون هي بيدقاً فيها فهذا كثير.. كثير جداً.

جفّ فمها وهي تحدق في هارون العريم كيف يرتشف قهوته بمزاج متلذّذ بعد أن قال جملته، شعرت أنّ ذاك الفخ الذي ظنت أنها وقعت فيه بزواجها من أيوب ما كان إلّا مجرد بوابة فتحتها هي بتهور إلى نخوخ أخطر بكثير، نخوخ كالألغام المخفية.

(من أنتم؟!) سؤال مجازي ودّت جهاد لو امتلكت الشجاعة الكافية لتطرحه على هذا الوسيم الطويل المخيف الجالس أمامها، إنها خائفة منه أكثر مما خافته يوماً من أيوب! شعرت أنها تريد الرحيل، تريد الهرب وقد أصابتها حالة ذعر مباغتة! كيف أتت إلى هنا بصحبة هذا الرجل الخطير؟! أليست جدتها ياقوت محقّة حين تصفها بالرعناء؟!

وقفت على قدميها وهي تقول بأنفاس متسارعة بسبب

حالة الذعر التي انتابتها "أنا لستُ بيدقاً! لا أعلم ما هي هذه اللعبة ولا أريد أن أعلم "التفتت جانباً مع شعورها بالخيال الضخم للحارس الشخصي وهو يقف جوارها بتهديد جسدي في لحظة! بينما هارون يرتشف المزيد وهو يقول بنبرة مُحيرة لفهم جهاد "أليس لديكِ فضول لمعرفة الثمن المدفوع؟ "كانت متوترة، خائفة، والأهم حانقة وهي تسأل بخشونة "أي ثمن؟! "رفع عينيه إليها وهو يشير للحارس أن يبتعد ثم يرتخي بظهره للخلف قائلاً باختصار رداً على سؤالها "ثمنك "شعرت أنها على وشك الصراخ من شدة الخوف والفزع لكنها كعادتها عندما تخاف تكون هجومية بهستيرية متهورة فردّت عليه في محاولة بالية كي توقفه عند حده "ثمني أنا؟! صدقني لا ثمن لي تستطيع دفعه "كانت ما تزال واقفة على قدميها وصدرها يعلو ويهبط بقوة عندما قال وهو يحرك أصابعه برشاقة "مليون دولار "

لم تشعر جهاد إلّا بركبتيها ترتجفان حتى هبطت لتجلس مُرغمة على الكرسي مجدداً، كانت صدمتها شنيعة لسماعها الرقم، وهذا الرقم المعروض له دلالات لا تحصى، عقلها لا يسعفها اللحظة لتفكر فيها كلها الآن.

لم تعرف بماذا فسّر هارون ردة فعلها لكنه قال بابتسامة خاصة "أ رأيتِ يا زوجة أخي؟! لكل إنسان ثمن.. حتى أنا شخصياً!»

مدّت يداً مرتعشة لتلتقط قدح الماء الذي أحضره النادل مع القهوة، فرفعته إلى فمها وشربت كل ما فيه، وعندما أعادت القدح مكانه قالت بفكرة متهورة ساخرة "مليون دولار! مقابل ماذا؟! أن أقتل أخاك؟! "بريق عينيه جمّدها وهو يقول لها بصوت خافت "لو أصابه أي مكروه سأمزق جسدك أشلاء، وقبلها سأجعلك تشهدين تمزيق جسد جدتك ثم جسد أمك لأنتهي بجسد شقيقتك التوأم.. الغالية جداً والرقيقة سارة "ابتلعت ريقها وهي تسأل باختصار لإنهاء هذه المقابلة "ماذا تريد؟ "تلاشت كل التعابير السابقة ليظهر هارون العريم بهالة جديدةً تماماً وكأنه ارتدى حلّة أخرى، رجل أعمال من الطراز الأول، فابتدأ الكلام بالقول "أنصتي»

تحدق جهاد فيه ونوبة ذعر غير مسبوقة تقبض أنفاسها!

***

رآها تخرج من المكتبة باضطراب واضح! تضع يدها على قلبها وتغمض عينيها وكأنها تعاني صعوبة بالتنفس.

ترك حمزة السيارة التي يعمل على إصلاحها ليتقدم نحو سارة بقلق ويسألها "ما بك سارة؟! أ تعانين صعوبة تنفس؟! "أخذت تهز رأسها نفياً وهي تنظر إليه باستنجاد، وجهها كان شاحباً للغاية وتفتح فمها كي تتكلم فلا تستطيع!

صرخ حمزة منادياً لعامل المقهى وهي يلتفت برأسه للخلف يطلب الماء، بينما تقدم ليمسك بذراع سارة وهو يقول "تعالي اجلسي داخل المكتبة "لكنها أخذت تهز رأسها برفض حاد وتشير بيدها كأنها تقول (لا أقو على التنفس، لا أريد الدخول).

أوشك أن يصاب حمزة بالهلع وهو عاجز كأبله عن مساعدتها، حتى أتاه قدح الماء يحمله نعمان ليأخذه منه ويضعه في فم سارة لتشرب كل ما فيه، أغمضت عينيها وهي تتشبث بذراعه كأنها توشك على السقوط أرضاً ليقول لها حمزة بلهفة وفزع "بسم الله، ماذا جرى لك؟ استندي عليّ.. لا تخافي لن أدعك تقعين»

أعطى القدح الفارغ لنعمان وطلب احضار المزيد من الماء بينما أتاه أحد عمال الورشة بكرسي فيضعه على جانب الطريق كي تجلس عليه سارة في الهواء الطلق.

عندما عاد نعمان بقدح ماء جديد أخذه حمزة ودون تردد أخذ يسكب بعض الماء في كفه ثم يغسل به وجه سارة فتنتفض هي كأنها تغرق!

يسمع صوت العامل يكاد يضحك وهو يقول بخفوت "ستقتلها غرقاً يا حمزة "فالتفت إليه حمزة يرميه بنظرات الغضب وهو يأمره العودة إلى الورشة.

«أين جهاد؟! أين جهاد»

عاد حمزة لينظر الى وجه سارة المبلل وقد تبلل أيضاً أعلى قيصها، لكنه تنفس بارتياح وهي تتكلم أخيراً رغم أنها مصابة بحالة هلع عجيبة! قال حمزة وهو حائر في حالتها "أ تريدين أن أتصل بها لأجلك؟ "أخذت دموعها تجري وهي تقول له بصوت خافت "إنها خائفة، خائفة جداً يا حمزة! "ارتفع حاجباً حمزة عالياً واتسعت عيناه وهو يحدق في سارة التي أضافت بنظرات زائغة "أشعر أني السبب فيما يجري لها، أنا السبب»

عقد حمزة حاجبيه قبل أن يهدر فيها "كفاكِ هستيرية، جهاد بخير، ستعود الآن وتكلمينها "نظراتها العاتبة نحوه مع تلك الدموع التي تسيل على خديها جعلته يودُّ ضرب رأسه في حائط الورشة، ابتلع ريقه وأضاف بنبرة خشنة "سأتصل بها، فقط لا تبكي وتفضحينا في الشارع!»

استدار ليتحرك بخشونة وهو يشتم نفسه بخفوت "تفضحينا؟! قسماً بالله ما فضيحة إلا أنتَ يا غبي!»

***

أنزلها هارون العريم حيث أرادت وقد تبلّدت مشاعرها

على نحو غريب، شعرت وكأنها كانت في مستنقع! مستنقع ضحل قذر.

تسير عائدة نحو حي الخاتون بينما رنين هاتفها لا يتوقف، لا بد أنه الناشر، لكنها لن تستطيع الكلام مع أحد اليوم.

ما إن دخلت الحي حتى لاقاها حمزة منتصف الطريق، يعبس في وجهها وهو يقول لها بحدة "أين كنتِ؟ "ردت جهاد "بالله عليك لستُ في مزاج لأتحمل خلطك بيني وبين سارة! أنا المنكوبة جهاد فقط "زفر حمزة بقوة قبل أن يقول "أعرف أنك جهاد! لقد رأيتك صباحاً بهذه الملابس "أخذت جهاد نفساً عميقاً ثم أطلقته ببطء قبل أن تقول بهزل درامي "بالله عليك لا أريد معرفة أي شيء اللحظة، يكفيني ما أنا فيه "سألها حمزة بعبوس "ماذا بك أنت الأخرى؟! "ردّت وهي تعاود السير لتتركه حيث هو "أنا بيدق في لعبة!»

ضرب حمزة كفاً بكف حينما رن هاتفه ليفتح الخط ويصله صوت العم عبد الصادق "هل ردت عليك جهاد؟ "فينظر حمزة إلى جهاد وهي تبتعد عائدة باتجاه قصر الخاتون ليرد بالقول "أجل رأيتها، تبدو بحال جيدة لكنها متعبة، لم أقلقها على سارة "فسمع حمزة بعدها العم عبد الصادق وهو يكلّم سارة ويخبرها (هذا حمزة يا ابنتي وقد طمأننا على أختك أنها بخير وهي عائدة لبيتها الآن) ابتلع

حمزة ريقه ليسأل بتوتر "كيف هي سارة الآن يا عم؟ ماذا قال الطبيب؟ "

جاءه صوت سارة هذه المرة وقد أخذت هاتف العم عبد الصادق لتكلم حمزة بنفسها قائلة "أنا بخير حمزة، لا تخبر جهاد أني تعبت، الطبيب الذي أخذني إليه العم عبد الصادق قال مجرد انخفاض ضغط دم، لن أخبر حتى أمي وجدتي، سأعود لعملي في المكتبة الآن»

تنهد وهو يقول بصوت مبحوح "أريد أن نتكلم بعد إنهائك العمل يا سارة "فلا ترأف بقلبه وهي ترد برفض ولا مبالاة غير مقصودة منها "لا أستطيع اليوم حمزة، أنا مشغولة»

ثم ألقت سلاماً سريعاً وهي تشكره وتغلق الخط!

ظل حمزة لدقيقة كاملة يمسك الهاتف في يده وملامح وجهه تشي بإحساسه المريع بالألم والرفض، وحتى إحساس بالإهانة لكرامته والاستهانة بشخصه، قال بقرار متهور "هذا يكفي! لم أعد أتحمل، لعن الله حباً كهذا»

***

وصلت جهاد إلى الشقة، تقف أمام بابها المغلق وهي

تشعر بغبائها لأنها لم تبحث قبل خروجها الباكر صباح اليوم عن مفتاح احتياطي كي تفتح بنفسها عند العودة.

كتمت أنفاسها وهي تسمع أصواتاً من خلف الباب وقبل أن تهمّ بالفرار انفتح الباب وظهر أيوب مع رجل شاب يحمل حقيبة عدة، ابتسم أيوب ابتسامة مستفزة في وجهها بينما الشاب يلقي التحية بشكل عابر وهو يقول "لو احتجت لأي شي سيدي نحن في الخدمة»

مر بها الشاب مغادراً فقرأت جهاد المكتوب على ملابسه لتعرف أنه عامل من شركة الاتصالات والشبكات المعروفة، تقدّمت جهاد وقد ترك لها أيوب الباب مفتوحاً قبل أن يدخل إلى عمق الشقة، دخلت وأغلقت الباب خلفها ثم التفتت لتراه يتحرك ناحية غرفة المكتب، بشعور مبهم لحقت به إلى هناك!

رأته يتحرك ليلتف حول طاولة المكتب الضخمة يجلس على الكرسي، تنبهت عينا جهاد للحاسوب المحمول على سطح الطاولة وقد أدركت من الصناديق المُلقاة على الأرضية أنه حاسوب جديد وصله اليوم فقط، كما تنبهت للهاتف الخلوي حديث الطراز جوار الحاسوب، فشعرت وكأن ما يحصل هنا هو امتداد لحوارها العجيب مع هارون العريم!

(ورقة واحدة يوقع عليها) (تريد الاستيلاء على مال له؟!) (المال ترك لنا حرية التصرف فيه منذ أربع سنوات) (إذن أيّ ورقة؟! ولماذا هي بهذه الأهمية؟) (بما أنك ستقرئينها حتماً عندما أعطيها لك فسأخبرك، نحتاج لأيوب تحديداً كيّ يدخل صفقة شديدة الأهمية لآل عريم، وهذه الورقة إن وقّعها سيتورط بالدخول شاء أم أبى) (ولماذا يرفض الدخول فيها؟) (إنه يرفض العودة) (لماذا لا تدعونه وشأنه؟) (ليست مهمتك المناقشة، ولكن مهمتك تنحصر في تنفيذ ما أقول) (تريدني أن أخون ثقة أخيك؟! كيف ترتضيها له؟!) (أ تحبينه؟ لا أشعر أنك تحبينه) (الأمر لا علاقة له بالحب، إنه أخوك.. شقيقك! كيف يمكن أن تفعل به هذا؟!) (لا بدَّ أنّ أيوب يتسلى كثيراً معك!)

«إذن فقد عدتِ»

تنبّهت جهاد من شرودها واستغراقها بالتفكير على صوت أيوب المستفز، نظرت إليه لتراه كيف يجلس بهيلمان متفرّد، انعكست صورة شقيقه هارون فيه، إنهما من عالم واحد! تساءلت جهاد في سرِها فجأة، هل لديه المزيد من الإخوة والأخوات؟!

نظرات أيوب تحوّلت من التسلية الى الوقاحة، فتغمر جهاد في تدقيق جريء ابتداءً من الزرين المفتوحين

في أعلى قميصها الأبيض ونزولاً لسروالها البنفسجي الجذاب، ليقول بنبرة فيها اغواء عجيب "لماذا لا تخفّفين من ملابسك؟ الجو حار اليوم "ثم رفع نظراته إلى وجهها ليضيف بنفس النبرة لكن بكلمات أشد وقاحة ووضوحاً في المقصد "يمكنك أن تبقّي بملابسك الداخلية طوال اليوم إن شئتِ»

كان يبتسم لها في دعوة حقيقية، لم يكن يحاول إزعاجها أو استفزازها تماماً، بل هو يعني ما يقول ويطلب!

كانت تحاول التركيز وهي تعاني من ضغوط كثيرة لحركت نظراتها لتستقر على الحاسوب لتثرثر بنبرة مختنقة تعبر عن حالتها "اشتريتَ حاسوباً جديداً! "فيرد بحلاوة غامضة "أجل اشتريته لألعب لعبة مع بعض الصغار!»

(أنتِ بيدق في اللعبة) جملة هارون تطنُّ بأذنها وهي تحدق في ذاك الحاسوب الذي يلامسه أيوب ببطء.

تتساءل جهاد لماذا أتت خلف أيوب إلى غرفة مكتبه؟! لا تدري ما الذي تفعله هنا وهي تقف أمامه هكذا لتكون هدفاً سهلاً لانحراف أفعاله ومشاعره! أ تراها تريد منفذاً كي تبوح له بخطّة شقيقه؟ أ تجرؤ على تحدي (هارون العريم) الذي أنهى المقابلة بتهديد صريح أنه سينتقم من عائلتها إذا تفوهت بكلمة لأيوب؟! بدا جاداً بالتهديد فمؤكد

لا تجرؤ.

إذن فماذا تفعل الآن؟! لماذا تشعر بالغضب والثورة؟! إنها تريد أخبار أيوب ولا تعلم كيف أو لماذا؟! كل ما تعرفه أنها لا تطيق جهله بما يُحاك ضده من أقرب الناس إليه؟! تكره الخيانة! وتكرهها أضعافاً إن وقعت بين من يربطهم صلة دم هي الأقوى بين البشر.

« أين هربتِ مني بأفكارك العميقة يا نملاوي؟»

رفعت نظراتها من الحاسوب إلى وجه أيوب، تحدّق فيه مباشرة وهي تشع بالغضب، قال بفضول وإعجاب "ما هذه النظرة! أ تصبين جام غضبك عليّ عبر.. نظرة؟! أ يمنحك ضوء النهار شجاعة وجرأة كي تواجهيني؛ لكن سرعان ما يأفل كل شيء مع غياب الشمس "أخذت نفساً عميقاً وهي تتراجع لتقرر أخذ هدنة ومساحة تفكير قبل أن تقرر كيف ستتصرف في تلك الورطة التي اتّسعت، قالت وهي تهّم بالمغادرة "أتركك لأشغالك، مؤكد لم تشترِ حاسوباً وهاتفاً نقّالاً لمجرد التسلية "أطرقت وهي تستدير بينما يقول لها بنبرة عملية فاجأتها بعض الشيء "يمكنك استخدام شبكة الانترنت بدلاً من تضييع باقة هاتفك النقّال، ستجدين كلمة السر جوار الهاتف الأرضي؟

التفتت بوجهها إليه فتراه لا ينظر إليها، بل إلى شاشة

الحاسوب يقرأ بتركيز دون أن تخمّن جهاد ما يقرأه، تمتمت "شكراً "ثم تحركت خطوتين لتزمّ شفتيها وتغمض عينيها تقاوم شعوراً بالتعاطف معه! لا أحد يستحق الخيانة والطعن بالظهر، حتى لو كان حقيراً كأيوب.

بغباء غلبها التعاطف لتقول "سأطهو العشاء لهذا اليوم "كانت تشتم نفسها لتهور المبادرة لتحثّ الخطى كي تترك غرفة المكتب عندما سمعته يقول بنبرة كريهة "هذا ممتاز، لكن احسبي حساب والدتك وجدتك والغالية سارة خاتون "

كزّت على أسنانها وهي تغلق باب الغرفة بعنف وتهتف "نذل! "لترتفع صوت ضحكاته من خلف الباب.

***

بعد العشاء كانت منى منطلقة مع زوج ابنتها، وجهها متورد من فرط فخرها بالطعام اللذيذ الذي طهته جهاد الليلة، وقد لعب أيوب لعبته بإتقان بين مدح جهاد كربّة بيت ومدح سارة كمديرة لأملاكه، فكان ينغز هذه بتلك، والأم سعيدة غافلة فخورة بالبنتين معاً!

جهاد صامتة أغلب الوقت بينما سارة تحسب الدقائق للمغادرة، حملت جهاد صينية الأقداح الفارغة وتحركت

لتغادر غرفة الضيوف، تماسُك سارة يكاد أن ينهار بسببها، نظرات أيوب نحوها وكلماته المبطنة طوال الأمسية كانت امتحاناً عسيراً لسارة، لكن حالة جهاد أشد عسراً وصعوبة عليها.

«الحقي بجهاد وافهمي ما بالها "كانت هذه همسة الجدة ياقوت في أذن سارة فتلتفت إليها سارة لتحثها الجدة أكثر وهي تبدي بعض القلق "إنها ليست طبيعية، وكأن هناك أمراً كبيراً يشغلها، بالله عليك كلميها فلربما تشاجرت مع زوجها، لن نحتمل المزيد من الفضائح»

ابتلعت سارة ريقها بصعوبة لتقف على قدميها وهي تتمتم "حاضر جدتي "ثم تحركت وهي تشعر بمراقبة عيني أيوب لها.

دخلت سارة المطبخ فانقبضت وهي ترى جهاد تغسل الاقداح عند حوض غسل الصحون، تذكرت عندما مرض أيوب واعتنت هي به مع الخالة أم علية، نفضت رأسها وهي تقاوم بشقِّ الأنفس لتسأل جهاد بخفوت "ماذا بكِ جهاد؟! "

تجمدت جهاد للحظات قبل أن تعاود تنظيف الاقداح وهي ترد "ليس بي شيء "خطت سارة لتقف جوارها وهي تقول بتوتر "بل أنتِ في وضع صعب، فلماذا تنكرين؟!

"هتفت جهاد بخفوت وهي تضرب بقبضتها فوق حافة الحوض "أجل أنا في وضع صعب! ورطة تجر ورطة، وإن لم تفعلي شيئاً فسأعلق أنا في ورطات لا تنتهي "اتسعت عينا سارة وهي تسأل "أنا أفعل؟! "ردت جهاد بانفعال "أجل.. تعلمين أني لن أتركه حتى اطمئن عليك "عبست سارة بشدة وهي ترد بانفعال مماثل "أ مجنونة أنتِ؟! أ تخيلين أنكِ لو تركتِه اليوم فسأقفز إليه غداً؟! "كان حوارهما الانفعالي خافتاً لكن حمل انفجاراً حقيقياً فترد جهاد ونظراتها تحمل معانٍ مبهمة لم تفهمها سارة "أنا لستُ مجنونة، لكن هو، بلا! "تحدق فيها سارة وهي تشعر فجأة بالخطر! لتضيف جهاد وكأنها تؤكد احساس الخطر لدى سارة بالقول "إنه من سلسال مجانين لو تعلمين "

أخذت نبضات سارة تتباطأ وهي تهمس بحيرة "ما الذي تتحدثين عنه؟! أنتِ تهذين! "تقترب جهاد بوجهها من توأمتها لتقول بمعنى مُحدد تقف عنده معانٍ كثيرة "لو تزوجتِ من رجل طيب سأترك أيوب بعد أشهر لا تتعدَ الثلاثة، فكلما أسرعتِ بالتنفيذ كلما قلّلتِ عليّ المدة "قالت سارة بإصرار "اذن ابدئي الحساب منذ الليلة "تهز جهاد رأسها سلباً وهي تقول بإصرار أشد "لن أفعل سارة، لن أفعل حتى اطمئن أنكِ بتِّ مُحصنة تماماً منه "

اتسعت عينا سارة وهي تسأل بصدمة "ألا تثقين بي لهذه الدرجة؟! "شردت نظرات جهاد وكأنها بعدت أميالاً عن

توأمتها لتهذر بالقول "بل لا أثق به! أنتِ لم تعرفيه قط.. لم تعرفي من هو حقاً أيوب وما يستطيع فعله "ثم فجأت أمسكت جهاد بذراع سارة لتطلب بجدية "أخرجيني من هنا سارة، بيدك الآن إنقاذي كما أنقذتكِ أنا من براثنه»

ظلتا تحدقان ببعض للحظات طويلة حتى التفتت جهاد وهي تقول بكآبة "سأذهب لإحضار قالب الكيك الذي أعدته أمي كي أقطّعه هنا، اغسلي باقي الأقداح لو سمحتِ»

كان كلامها عن قالب الكيك والأقداح غريباً بعد المواجهة الصعبة، لكن فضلت جهاد الانسحاب قبل أن تقول المزيد لتوأمتها، فما عرفته من معلومات ببحثها عبر الانترنت أثار فزعها أكثر من مقابلتها مع هارون العريم، ولا تريد توريط سارة معها في كل هذا.

عند باب المطبخ وقبل أن تغادره جهاد؛ تلقفتها ذراع صلبة التفت حول خصرها بقوة وتحدٍ لتجد جهاد نفسها في حضن أيوب ملتصقة بصدره، شهقت وهي ترفع عينيها إليه فترى ذاك البريق الخبيث يلمع فيهما، وقبل أن تتوقع فِعْلته كان ينحني سريعاً دون أن يمهلها ليطبع قبلة خاطفة مباشرة نحو فمها! لم تصدق ما فعل وأمام سارة! ثم همسه الأكثر خبثاً بينما تحاول هي التملص منه على الرغم من ارتجاف جسدها "جئت لأشكركِ على لذّة العشاء الذي طهوته الليلة "ثم رفع عينيه ليتجاوزها النظر إلى سارة

المتسمّرة وسط المطبخ وقد شحبت بشكل رهيب وهي تحدق فيهما ليضيف أيوب متذكراً عناق الشقيقتين لبعضهما صباح اليوم "خسارة أنّ سارة لا تجيد الطهي مثلك!»

« عن.. إذنكما "كان هذا كل ما قالته سارة وهي تترنح بخطواتها كي تترك المطبخ دون أن تنظر نحوهما، يضحك أيوب ضحكة خافتة وهي يحشر جهاد للحائط في المطبخ يمنعها الإفلات وكأنه يستمتع بتعذيبها وهي تنادي شقيقتها بصوت مجروح "سارة..»

أخذت تضربه بقبضتيها وهي تهمس بانفعال "لماذا تفعل بها هذا؟ إنها لم تؤذك في شيء.. لماذا أنتَ هكذا؟! لماذا؟! "يرد وهو يحني بفمه إلى أذنها "لأني ملعون يا جهاد "تهطل دمعات جهاد وهي تثور أكثر لتفلت منها الكلمات "كلكم ملعونون يا آل عريم، أنتَ لا تختلف عن أخيكَ النذل، كلاكما تملكان أخلاقاً وضيعة!»

تجمّد أيوب كما تجمدت جهاد! استعرّت نظرة غضب في عينيه وهو يغرز أصابعه بقسوة رهيبة في خصرها "عن أيّ أخ تتكلمين؟! انطقي.. مع من تكلمتِ؟»

هالها ما أفلت به لسانها الثرثار المتهور! اتّسعت عيناها حتى جحظتا من شدة الخوف بينما أيوب يطالبها الإجابة بتلك النظرة المرعبة، لم ينقذها إلا نداء أمها "يا ابنتي تعالي

وأحضري معك صحوناً صغيرة وسكيناً لتقطيع الكيك، سارة متعبة وتريد العودة»

دفعت أيوب عنها بصعوبة وهي ترد على أمها بالقول "قادمة أمي "ثم تحركت على عجل في المطبخ لتحضر المطلوب ووعيد أيوب يصل عقر قلبها قبل أن يترك المطبخ "لنا ليل طويل وحدنا يا جهاد»

***

## في قصر آل عريم

هتف قابيل وهو يرتجف من شدة الغضب "كيف تقامر هكذا يا هارون؟! "بابتسامة جذلى يرتشف هارون من كأس الخمر وهو يرد بتسلية "إنها لعبتي المفضلة»

ضرب قابيل بكفه فوق سطح طاولة المكتب بينما آدم يراقب بصمت بليغ، اتسعت ابتسامة هارون وهو يقول بدهاء "أيوب لن يخرج بأسلوبك الانفعالي المتهور هذا يا قابيل "ثم وجّه نظراته لشقيقه الأصغر مضيفاً "ولا بأسلوبك يا آدم في التخطيط البطيء، فأيوب سيد المخططات، كما ليس لدينا وقت للعبة باردة طويلة الأمد كهذه "تحرّك هارون ليقف على قدميه ثم خطا ناحية طاولة مكتب قابيل، فتجرع ما بقي من الكأس ووضعه

هناك مضيفاً "انا استفززته كي يخرج إلينا ويواجهنا دون أن يلعب معنا في الخفاء ويفسد مع الشركاء، وكما قلتها يا قابيل؛ ليس لدينا وقت، فالمنظمة كانت محددة بإعطائنا مهلة كي يحضر إليها أيوب ويُتمّ الصفقة أو إنها ستتخذ خياراً آخر وتلغي آل العريم من حساباتها نهائياً حتى أيوب نفسه، رغم رغبتهم الشديدة فيه "فقال أدم بتوجس وهو يقترب من هارون "لكننا قد نخسره "

فيلتفت إليه هارون قائلاً بحدة ساخرة "ليس لدينا ما نخسره! ألا تفهم؟! أيوب ليس معنا كي نخسره "ثم يعاود النظر إلى قابيل مضيفاً بتركيز "في لعبة كهذه إن عجزت عن معرفة أوراق خصمك؛ فعليكَ أن تستفزه كي يكشفها لك، حتى لو اضطررت لكشف أوراقك كلها أمامه وأنت تتبجح بالفوز عليه "هتف قابيل باستهجان عابس "نحن نتكلم بأمر خطير مع منظمة لها ثقلها، وليست لعبة قمار "عينا هارون بدتا جديتين للغاية وهو يرد "وأيوب خطير أيضاً "ثم أمال رأسه جانباً ليضيف بابتسامة مكر "لكن لديه نقطة ضعف "

كان آدم من يسأل وبلهفة غريبة "ما هي؟ "التفت هارون إليه وقد جذبته تلك (اللهفة) في صوت آدم ليجد انعكاسها في تعابير وجهه، تمتم هارون في سرّه؛ (نقطة ضعفك يا آدم هي أسرارك، وكلها بيد أيوب!)، بعد لحظتين قال هارون ليرد على سؤال آدم "غروره»

جلس على طرف طاولة المكتب الفخمة وهو يشعر بسعادة صغيرة خبيثة لانزعاج قابيل من جلوسه، إنه لا يحب من أحد الاستهانة بهذا المكتب، وكأنه ملكية ونخراً حصرياً له. تكتف هارون وهو يقول المزيد "أيوب لا يسمينا إلّا بالصغار، وأكاد أتخيل حالما وصل خبر معرفتنا بمكانه في حي الخاتون وهو يتحرك ضدنا في الخفاء ليضربنا من حيث لا نعلم كي يعلّمنا (الأدب) "هنا رفع قابيل كفه ليعترض بالقول "لحظة.. لحظة يا هارون، كيف له أن يعلم بمعرفتنا لمكانه؟!»

رد هارون بثقة كاملة "أراهن بكل ما أملك أنّ توفيق أوصل إليه هذا الخبر خلال أربع وعشرين ساعة بعد وصول المعلومات إلينا "ثم أرخى هارون أجفانه ليضيف بابتسامة "لا شيء يخفى على توفيق ولديه جواسيسه، وأولى الجواسيس هي مديرة مكتبك يا قابيل ورفيقة سريرك الحالية»

اتّسعت عينا قابيل بصدمة بينما يقول آدم بتركيز وانتباه "أكمل هارون، أريد سماع وجهة نظرك للنهاية "بنبرة عملية هذه المرة شرح هارون بأسلوبه "كما قلت لكما، فإن نقطة ضعف أيوب هي غروره، سيفكر أننا نستهين به ونستقل بقدراته خاصة بعد عزلته، لذلك سيخرج إلينا كي يزأر في وجوهنا وقد تخطينا حدوداً حمراء معه "يصرُّ قابيل على

معاكسة هارون فيقول ببعض الاستهانة "كل ما تقوله مجرد افتراضات لا دلائل عليها»

لكن هارون أكثر ذكاء من الوقوع في فخ الدفاع عن النفس ليرد بمنطق "كل ما قلته لكما الآن لن يغير من حقيقة عجزنا عن سحب أيوب من عزلته، وهكذا.. ليس هناك بديل عما فعلتُه»

نظرات هارون بدت شديدة التركيز وهو يحدق في الفراغ يستذكر لقائه مع زوجة أيوب ليقول ملاحظاته الدقيقة "منذ أولى دقائق اللقاء مع جهاد قررت ما سأفعله، تلك المرأة لا تحب أيوب، بل على العكس شعرت أنها تبغضه، ولذلك هما خياران لا ثالث لهما حول ردة فعلها؛ الأول أنها ستستجيب لعرضي؛ طمعاً بالمال أو كرهاً لأيوب أو للسببين معاً، وهذا يحلّ المسألة كلها ونكون ورّطنا أيوب بالصفقة ولن يجرؤ عن التراجع أمام جهات أقوى منه، والخيار الثاني أن تخبره؛ لأي سبب لا يهمني معرفته، وعندها كما أخبرتكما سيخرج إلينا "ثم يضيق عينيه وهو يتذكر عينا جهاد والنظرة فيهما وهي تترجل من السيارة ليقول بصوت خافت كأنه يكلّم نفسه "ولشعور غريب أرجّح أن جهاد ستختار الثاني»

بدا قابيل حتى اللحظة غير مقتنع أو غير راضٍ ليقول وهو يجلس على كرسيه بخيلاء "لم أكن أريد استفزازه هكذا!!

كنت أريد فقط.. "قاطعه هارون ليصدمه بالقول "كنتَ تريدُ أن يظهر صورياً في الصفقة، ثم يعود إلى عزلته التي تلائمك تاركاً لكَ الغنائم! "تقبضت يدا قابيل وبدا في أشد حالات الغضب وهو يرد على هارون بالقول "لقد تجاوزت كل حدودك بهذا السفه الذي أصاب عقلك من إدمان لعب القمار "ضحك هارون عالياً ثم قال وهو يرفع كفيه للأعلى "أعترف أن القمار هو نقطة ضعفي "ثم صمت للحظة قبل أن يسأل بنبرة غامضة "لكن هل تعرف ما نقطة ضعفك يا قابيل؟ "هدر قابيل "ستقول سرعة غضبي أليس كذلك؟!»

فهزّ هارون رأسه نفياً بينما يترك جلسته على حافة طاولة المكتبة ليقول "لا.. هذا ما تخدع به الناس أمثال توفيق "ثم تحرك متجاوزاً آدم وهو يضيف بنبرة ذات معانٍ أشد غموضاً "نقطة ضعفك يا قابيل هي الجشع الذي يقبع داخلك ويجعلك مستعداً لفعل أي شيء "لفتة بسيطة من رأس هارون للخلف لبضع لحظات كي ينظر في وجه قابيل الشاحب مُكرراً "أي شيء "ثم أعاد وجهه للأمام وهو يغادر ضاحكاً، تاركاً قابيل يزمجر بالشتائم بينما آدم يغرق بالأفكار.

***

استندت جهاد بظهرها إلى باب الشقة الذي أغلقته

للتو وعلى بعد بضع خطوات كان أيوب يقف بانتظارها مستنداً على عصاه وبنظرات داكنة غامضة لا يمكنها التكهن بمعناها.

أخذت نفساً عميقاً قبل أن تواجه الموقف، تقدمت لتكون هي البادئة بالكلام فقالت بصدق "أنا كنتُ سأخبرك الليلة بكل شيء رغم التهديد الذي يمسُّ عائلتي "اتسعت عيناه بشكل طفيف عند كلمة (تهديد) بينما يوليها كل تركيزه وهو يأمرها بالقول "أخبريني بكل شيء»

ابتلعت جهاد ريقها وهي تستجمع أفكارها لتجد نقطة البداية، كم هو يوم شاق هذا اليوم! متى سينتهي؟!

رغم التعب الجسدي والنفسي إلّا إنها واجهت أيوب بشجاعة وهي تحكي له بالضبط ما حصل صباح اليوم، كانا يقفان قرب بعض، هي تحكي بانفعال وتأثر مع كل جملة، وهو يستمع بصمت دون أن يقاطعها، تنظر إليه جهاد وترى بوضوح ارتجاف جسده المستند على عصاه وتجهّم تعابير وجهه وعيناه لا ترمشان!

ساد الصمت حين انتهت، لقد أخبرته بكل ما جرى مع أخيه هارون، لكنها لم تخبره بما أجرته من بحث على الانترنت بعد رجوعها، عيناها تحدقان في تشوهات الحروق على جانب وجه أيوب فترى فيها حكاية أخرى، (لم يتمكن

**السيد أيوب العريم من إنقاذ زوجته السيدة سارة ولا ابنته الصغيرة ذاتِ الثلاثة أعوام)**، شعرت بوجع غريب وهي تتذكر يوم إجهاض طفلها، كم أقدار الله مُحطِمة أحياناً ونحتاج لكل ما لدينا من قوة كيّ نفهمها ونتقبلها ثم نتجاوز محنتها.

تنبهت إلى كفيّ أيوب تعتصر قمة عصاه عصراً، تمتمت في سرّها وقد أخذتها الأفكار والتخمينات "لا بد أنه يتألم! أ تراهم خذلوه في الماضي أيضاً فلم يقفوا بجانبه عند موت زوجته وابنته ولهذا اعتزلهم؟ الأخبار غامضة عنهم، مؤكد يدفعون الكثير لمنعها جهد الإمكان، ربما أيوب مُحق ليصبح مريراً هكذا بعد كل ما عانى منه ولم يجد جواره إلّا إخوة لا يهتمون إلّا بالمال "بتعاطف بالغ وهي تراه بهذه الوقفة والتعابير قالت دون تفكير "هل أنت بخير يا أيوب؟! أنا آسفة لأني.. "قاطعها وكأنه يكلّم نفسه "كيف يجرؤون على أن يتحدوني؟! "رمشت جهاد ولم تفهم بينما تحدق فيه تحاول وهي تتساءل "يتحدونك؟!»

تشعر بوجود خطأ جسيم دون أن تستطيع تحديده، حتى هتف أيوب وهو يرفع عصاه ويضرب بها الأرض قائلاً بغضب رهيب "لقد تمادوا.. تمادوا للغاية في جرأتهم عليّ! لقد نسوا من أنا وماذا أستطيع أن أفعل بهم، أستطيع محوهم من الوجود غداً صباحاً "قال جملته الأخيرة وعيناه تبرقان بالغرور والعظمة، لم يكن غروراً بشرياً عادياً، بل

إحساساً بالتفوق والقدرة اللامحدودة!

شعرت جهاد بالصدمة، الصدمة والنفور في ذات الوقت وهي تنظر إلى أيوب، لم تستطع إمساك لسانها وهي تهدر فيه "أ هذا كل ما أزعجك؟! أ أنت على هذه الدرجة من الغرور فلا ينتابك أي شعور إنسانيّ آخر؟! "نظرة بارقة خطيرة شعّت من عيني أيوب وهو ينظر إليها بينما تضيف جهاد بمزيد من الانفلات والتهور "وأنا التي كنتُ أريد إخبارك لأني لم أحتمل أن يطعنك في ظهرك أقرب الناس إليك "لم تقلها بسخرية تماماً، بل بصدمة حقيقية وكأنها صحت للتو من غيبوبة لتكتشف أنها باتت وسط كابوس بشع!

قال لها ومشاعره تغلي في عينيه "إنهم ليسوا أقرب الناس "تتسع عينا جهاد وهي ترد بانفعال أشد "يا الله.. إنهم أشقاؤك! أيّ دم يجري في عروقكم؟! "لتكون القاصمة بتهورها عندما أضافت بنفس الانفعال وهي تشير بسبابتها نحوه في جرأة أقرب لحماقة "أنتم سلسال مريض يا آل عريم.. كلكم مرضى مشوهون»

شهقت وهو يدفعها بغتة بحركة خاطفة قوية فيسجنها للحائط كما فعل بها في المطبخ قبل ساعة، لكن هذه المرة كان شديد العنف وأكثر صلابة، أرعبها وهو يصرخ فيها "ماذا تعرفين أنتِ وأمثالك عنّا يا نكرة!

يده الآن احتجزت عنقها، السبابة والإبهام يضغطان ببطء في تهديد قاتل صريح، أوشكت عيناها الخروج من محجريهما وهي تحدق فيه برعب بينما يهمس بخشونة مُخيفة "فضولية سخيفة مثلك وتحشر نفسها في كل شيء، مؤكد أجريتِ بحثاً على الانترنت بمجرد عودتك، أخبريني بما قرأته عنّا.. عني أنا تحديداً»

كان قلبها ينبض كالمدافع عند سبابته التي تضغط عنقها، تجمّعت الدموع في عينيها من شدة الخوف، وبدلاً من مقاومته جسدياً كانت تقاومه بالهجوم عليه وكأنها أدركت أين يمكن أن تضرب موضع ضعف فيه، فقالت بصوت خافت "لم يذكروا حتى اسمها»

سبابته ضغطت وهو يسألها باختصار "من؟ "ردّت والدموع تنحدر "ابنتك "كانت دموع الخوف والتوتر الشديد وانفعالات كثيرة أخرى بطاقات عالية، رأت في عينيه اهتزاز روحه فأخذت تشهق بالبكاء وهي تقول بحشرجة وتقطع "أنا أشعر.. بك.. لقد خسرت طفلي.. آه»

تشعر باختناق حقيقي وأيوب يضغط على مجرى تنفسها بينما يهدر بكلمات كريهة مقيتة "أ تعلمين ما انت يا جهاد؟ مجرد فتاة بلهاء رعناء! تتورطين دوماً بالمشاكل كتورطك معي وأنت ترفعين راية إنقاذ توأمتك مني،

تظنين أنك بتجربة زواج سخيفة فاشلة لعامين أنكِ أصبحت خبيرة بالرجال، والآن تظنين لأنك خسرتِ جنيناً كان للتو يكبر في رحمك أنكِ تستطيعين مجاراة ما أشعر به نحو الميِتة الشنيعة لصغيرتي!»

أخذت ترفس وهي تشعر كأنها ستموت بين أصابع هذا المجنون الذي أضاف كمن يهذي "كنت أشمُّ رائحتها كل يوم، رائحة جلدها كانت تذكرني برائحة جدتي "

كانت دموعها تنزل بلا توقف فغابت معالم المكان وروحها تكاد تزهق، لم تفكر إلا بسارة! أرادت أن ترى سارة..

في آخر نفس تركها أيوب وابتعد خطوة! سقطت أرضاً وهي تشهق لتستعيد القدرة على التنفس، أما أيوب فينظر إليها وكأنه لا يراها! فقط يهمس وعيناه جامدتان "ذاك الجلد الناعم بعطر الجنة الفوّاح بات فحماً، النقطة الوحيدة المضيئة في صفحاتي السوداء انطفأت»

اتكأت جهاد بكفها على الحائط لتستند إليه وهي تقف بصعوبة، تقاتل ولا تستسلم وكأنه يشحذ همتها كي تفعل بعناد، قالت بحشرجة "ربما تراني بلهاء رعناء، لكني على الأقل أقاوم، أنا أقاومك اللحظة حتى وأنا مرتعبة منك ومن إخوتك حتى الموت!»

تواجها بصمت للحظات وقد بدا أيوب في حالة غريبة، لكن جهاد لم تهتم لتضيف بشجاعة "أنتَ جبان يا أيوب، أنت وأخوتك مجرد جبناء، لا تواجهون الأقوى في شجاعة، بل تطعنون في الظهر بخسة! "رفع عصاه بغضب مهول كأنه سيضربها فرفعت يدها لتمسك العصا تقاومه وقد اجتمعت في رأسها الأفكار "أنتَ لستَ بأفضل من أخيك هارون الذي هددّني في جدتي وأمي وشقيقتي، ها أنت أوشكتَ أن تخنقني ومستعد لضربي وقتلي ببساطة، أنتَ مثلهم.. لقد رأيت صوركم، وصورك أنتَ تحديداً مع النساء المشبوهات والكلام طويل عن الحفلات الماجنة الخاصة، وانظر إلى نفسك الآن بعد ما ابتليت في أعزّ ما عندك، في صحتك وابنتك وزوجتك وبُعدِ أشقائك عنك وكأنهم تنكّروا لك، ولم يعودوا اليوم إلّا لأجل المصلحة! وبعد كل هذا تتجرأ وتتبجح على من خلقك وكأنه هو سبب ضلالك وسوادك لكنه فقط ما جنته يداك "

طوال كلامها الأخير كانا في مقاومة، والعصا بينهما كفاصل نزال، لم تكن مقاومة جسدية حقيقية فهو أقوى منها رغم عاهته، لكنها مقاومة أرواح.

وانتهى النزال عندما تراخت يد جهاد عن العصا وكأنها استنزفت وأعلنت استسلامها، لكنها في الواقع كسبت معركة في حرب دائرة يجهل الخصوم فيها مدى تورطهم!

تحاملت جهاد على نفسها لتتحرك مبتعدة، تقودها خطواتها إلى غرفتها حيث ستقفل عليها الباب كما فعلت بالأمس، وقبل أن تنام باكراً سترسل لتوأمتها (تصبحين على خير) دون أن تنتظر منها جواباً!

بعد دقائق وحالما أغلقت جهاد عينيها وهي تستلقي على فراشها، أجفلت لتعيد فتحهما وهي تسمع صوت باب الشقة يُفتح ثم يُغلق!

***

# الفصل الرابع عشر
# وَأيُّوبَ إِذْ نادى

يقف العم عبد الصادق أمام مقهاه وهو يلاحق بقلق خطوات السيد المبتعدة في الزقاق، ينادي على عامله نعمان وحالما أتى همس عبد الصادق في أذنه "تتبّع السيد، لا تدعه يراك أو يتنبّه لمراقبتك له، وأعلمني بتحركاته "هزّ نعمان رأسه في طاعة ثم هرول ليلحق بالسيد وينفذ المطلوب.

خرج الأستاذ هلال من المقهى وهو يحمل مكعبيّ النرد في راحة كفه يقبضهما ويهزّهما وهو يقول لعبد الصادق متسائلاً "إلى أين خرجت مهرولاً هكذا يا صدوق؟! "ثم رأى نعمان يجري في الزقاق فأضاف هلال بعبوس "ما بال الفتى؟! "ردّ عبد الصادق "السيد خرج للتو يسير بمفرده في الظلمة! لم يفعلها ولا مرة منذ مجيئه إلى حيّنا، دوماً إذا خرج فيفعلها في النهار»

أخذ هلال يضحك وهو يقول "يبدو أن جهاد تؤدي دورها كزوجة نكديّة أصيلة على أتمّ وجه! "ثم مال ليسحب عبد الصادق القِلِق وهو يضيف "سنكون معها دوماً، لا تحمل الهمّ هكذا، غداً سأزوره مرة أخرى لنلعب الشطرنج، لقد تركت العلبة لديه خصيصاً كي أتحجّج بها

للعودة؛ كمسمار جحا!»

تبسّم عبد الصادق لفكاهة صاحبه ثم تنهّد وهو يعود برفقة هلال إلى داخل المقهى، وفي الزاوية لمح حمزة يجلس بمفرده يدخن سيجارة ونظراته شاردة كمن يحمل الهموم، فتنهد مرة أخرى وهو يهزّ رأسه بإشفاق.

***

**(وانظر إلى نفسك الآن بعد ما ابتليت في أعزّ ما عندك، في صحتك وابنتك وزوجتك وبُعدِ أشقائك عنك وكأنهم تنكّروا لك، ولم يعودوا اليوم إلّا لأجل المصلحة!)**

يسير في ظلمة الأزقة وكلمات جهاد تنخر فيه وتؤجج غضبه، لماذا يبالي هكذا بما قالت؟ إنها مجرد فتاة مُغفلة لا تعرف الدنيا على حقيقتها؛ فما الذي مسّته فيه بكلماتها تلك؟!

يشتد أجيج الغضب وصورة جهاد في حضن سارة تطارده كلعنة من نوع آخر تسخر منه، تسحبه بقوة إلى بقعة لطالما أهملها من الذاكرة، توقفت خطواته وسط الظلمة ليتسمّر مكانه ويغمض عينيه وهو يعتصر قمة عصاه التي تسنده

(وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

دعاء جدته لسنوات.. رعشة غريبة مرّت بجسده وصوت جدته الباكي يصله من الماضي، امرأة مقعدة مسجونة في غرفة تكرهها! وسط قصر نخم تمقته، تأكل من طعام تصفه بال (ضريع)! ولا يعرف حتى اللحظة معنى الكلمة، لكنها كانت تُشعِره على الدوام أنها في محنة عصيبة دائمة، وتبحث عن الخلاص بالموت أو.. بمعجزة!

تمتم أيوب بالكلمة "ضريع! "ثم يفتح عينيه بقوة على صوت قراءة قرآن من جامع عبد الفتاح باشا القريب، ودون تردد وجد خطواته تأخذه بذاك الاتجاه مدفوعاً برغبة مجهولة، همس يكلّم جدته "سنوات وأنا أسمعك تقولينها جدتي دون أن أرغب بمعرفة المعنى، فلماذا تصرّين عليّ الليلة لأعرف؟!»

***

بعد ربع ساعة وجد أيوب نفسه وسط جامع صغير، بهندسة معمارية شبيهة بقصر الخاتون ومبانٍ سكنية كثيرة في الحي، تطلّع حوله بتدقيق وهو يجلس في الزاوية حيث أشار له الناس بانتظار الشيخ كي ينهي قراءة القرآن عبر مكبر الصوت، على السجادة الحمراء التي تفترش الأرضية؛

يمدُّ أيوب ساقه المعلولة أمامه ويطوي الأخرى بينما يسند عصاه للجدار الأبيض، آخر مرة دخل جامعاً كان في تشييع جدته قبل سبع سنوات! حمل نعشها على كتفه ودموع عصية لم تنزل على خديه.

ماتت جدته أفنان، لكنها لم تمت قبل أن ترى طفلته التي أسماها على اسمها، وُلِدت أفنان قبل وفاة الجدة بأيام، وحالما رأتها في اللفّة بدت متلهفة لاهثة الأنفاس وهي ترشده بصوت خافت إلى مخبئ سريّ في جناحها، مكان لا يعرفه أحد، خبّأت فيه ذاك العِقْد الثمين المتوارث، عِقْدٌ يساوي ثروة صغيرة، (**خذه يا أيوب، إنّه من مال أبي، مال مُبارك.. خذه.. إنّه حلال طيب**).

أغمض أيوب عينيه وهو يتكئ برأسه للجدار خلفه، أ تراه لو عاد به الزمن هل كان سيطيعها؟ ولو ترك الحرام ساعتها أ كانت طفلته ما تزال حيّة اليوم؟! لقد أعطته جدته الإشارة فلماذا لم يستمع؟

تمتم بصوت خافت يحدث نفسه "أنت تتخبط يا أيوب، لماذا تعود للجدة دوماً؟! لم يكن أحد غيرك يهتم بها في ذاك القصر، حتى أباك كان يهملها لكنه مات قبلها فقضت الجدة أياماً طويلة تبكيه بجزع وتدعو الله أن يغفر له معاصيه ويخفف عنه عذابه!»

« السلام عليكم، قالوا لي أنك بانتظاري»

فتح أيوب عينيه فيرى أمامه شيخ أقرب للشباب منه للشيبة، كأنه في عقده الرابع، ملتحٍ باسم الوجه وسيم المحيا بجلباب أبيض بسيط وطاقية بيضاء تعلو رأسه.

انحنى الشيخ وهو يمدُّ كفه للمصافحة مُعرفاً عن نفسه بالقول "أنا الشيخ عبد المُعز الجعفري إمام الجامع "فصافحه أيوب بصمت قبل أن ينحني الشيخ أكثر ليجلس جواره ثم يتبسم في وجه أيوب قائلاً "أأمرني يا سيد أيوب "عقد أيوب حاجبيه قليلاً وهو يتساءل "أ تعرفني؟ "رد الشيخ بلطف "الناس تعرف بعضها بعضاً في هذا الحي يا سيد»

دارت عينا أيوب في المكان فتنبه لتلك النظرات التي تحوم حوله، شعر بالانزعاج! وأوشك أن يقف ويغادر لكن الشيخ وكأنه شعر بما يجول بخاطره فقال "لا تهتم لأمر العيون الفضولية، سيعتادون على وجودك بعد قليل ويتركونك وشأنك "

وقعت عينا أيوب على امرأة مرت بهما، تحمل طفلاً يأكل من قطعة خبز يمسكها في يده، فوجد نفسه يسأل "ما معنى الضريع يا شيخ "تفاجأ الشيخ وبهت للحظات وكأنّ السؤال أمر جلل! ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمل قبل أن يقرأ الآية "لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن

ضَرِيعٍ * لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ "

صمت لحظة وهو ينظر الى أيوب كأنه مشفق عليه من السؤال ليقول بعدها "هو طعام أهل النار أجارنا الله، قيل في معنى الضريع أنه شجر في النار يشبه الشوك، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة، وقيل أيضاً أنه نبات ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابّة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سمٌّ قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه، على هذا عامة المفسرين والله أعلم»

اتسعت عينا أيوب بإحساس أقرب للصدمة وشعر بمعدته وأمعائه تنعصران! أ هذا ما كانت تشعر به جدته وهي تأكل الطعام في القصر؟! أ عاشت كل تلك السنوات الطوال بهذا الاعتقاد الرهيب والإيمان الأكيد؛ فتجرعته دون شكوى إلا بتكرار دعاء رفع الضرِّ عنها؟!

«أأنت بخير يا سيد؟»

لم يرد عليه أيوب، بل تحرك في جلسته بصمت مُستنداً على الجدار حتى وقف، ليقف معه الشيخ وهو حائر! ثم تناول أيوب عصاه وتحرك مغادراً دون أن يشكر أو يُلقي السلام حتى.

***

## بيت الحاج كرم

**(أخرجيني من هنا سارة، بيدك الآن إنقاذي كما أنقذتكِ أنا من براثنه)** تستلقي سارة على سرير جهاد تلامس بيديها فرشتها، تبحث عن تواصل مقطوع فلا تجد إلّا كلمات جهاد إليها هذا المساء، ذاك التوسل الجدي، طلب النجدة الذي لاح في صوتها وباحت به عيناها.

شيطان رجيم يحوم، ينبش هنا وهناك فيجد تلك (الصورة) عالقة خلف جدار التجاهل، أيوب يضمُّ جهاد إليه وفمه يقبّل فمها! يتبسم الشيطان ليعبث بذاك الجدار يضعضعه بينما ينسج قصصاً وحكايات من تلك الصورة يهزّ بها إيمان سارة بنفسها، وما نفسها إلّا جهاد.

قاومته سارة وهي تتشبث بكلمات جهاد المستنجدة فتكررها همساً بلسانها "أخرجيني من هنا سارة، بيدك الآن إنقاذي كما أنقذتكِ أنا من براثنه "تلهث وهي تغمض عينيها بقوة ثم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتعاود تكرار كلمات توأمتها، وظلت هكذا ما بين استعاذة وتكرار حتى خسر الشيطان جولته ليتراجع ولو إلى حين.

دخلت عليها جدتها فرأتها في فراش جهاد متوترة هكذا

فأغلقت باب الغرفة خلفها واقتربت وهي تسألها بخفوت "ماذا بها أختك يا سارة؟ "رفعت سارة وجهاً شاحباً إلى جدتها لتضيف الجدة بقلق حقيقي "وجهها كوجهك اللحظة، ليس وجه عروس على الإطلاق! "هبّت سارة من سرير شقيقتها لتقف على قدميها وترد على جدتها بانفعال وتوتر شديد "عروس؟! أي عروس جدتي؟! أ يعقل أنكِ تخدعين نفسكِ كأمي؟! هل ترين حقاً أيوب كزوج حقيقي لجهاد؟! "عبست الجدة لتقول بإيمان راسخ "هذا كان اختيارها، هي من ذهبت إليه بقدميها فلا تلومَنّ إلّا نفسها إذا لم ترضها النتيجة، لن نزوّجها كل يوم إلى رجل جديد "شعرت سارة بنداء الاستغاثة من جهاد يعلو فترد على الجدة بثورة "أ تدفع حياتها ثمناً لغلطة سخيفة كهذه؟! لا يمكنني القبول بهذا "تفاجأت الجدة ياقوت بثورة سارة لتسألها بقلق رهيب "ماذا تقصدين؟ ماذا أخبرتك جهاد عن زوجها يجعلك بهذه الحالة؟»

أشاحت سارة بوجهها جانباً، لم تستطع ان تنظر في عيني جدتها اللحظة، ماذا تقول لها؟

سألت الجدة وهي تمسك سارة بقوة من ذراعيها "ماذا ستفعلين يا سارة؟ ردّي عليّ ولا تصمتي هكذا "عندها فقط استطاعت استجماع قوتها لتنظر في عيني الجدة ياقوت وتقول بعزم "هناك أمر لم أخبرك عنه جدتي، أمر يخصُّني أنا»

***

ابتلع دواءً مسكناً لتخفيف حدّة الألم في فخذه، وانتظر في المطبخ يتشنج من شدة الألم قبل أن يهدأ وجعه إلى الحد الذي يحتمله كي يتحرك مغادراً ظلام المطبخ. بخطى ثقيلة يسير أيوب في رواق الشقة وسط الظلمة وكلمات الجدة تطارده بذنب جديد، أمضى قرابة الساعتين وهو يسير بين أزقة الحي يستذكر الماضي البعيد معها منذ طفولته ثم صباه وشبابه، تلك المرأة الضعيفة التي منحته اهتماماً لم يحصل عليه من أحد عداها، ربما لم يفكر في يومٍ من الأيام أنه كان بحاجة لذاك النوع الرقيق من العاطفة؛ لكنه كان كافياً على الأقل ليربطه بجدته على نحو خاص وقد كانت هي الطرف الأضعف من هذا الارتباط بينهما، لم يفهم معاناتها يوماً وكان يشفق عليها لخوفها الشديد من أبيه وهو ولدها الوحيد! حتى بعد وفاته كان تهابه وكأنّ روح ولدها تلاحقها كلعنة وقد بدت أوهن وأضعف وأكثر مرضاً وعجزاً فكانت تكثر من ذاك الدعاء (وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ).

عند باب غرفة جهاد أوقفته خطواته، رفع يده الى المقبض وبحدس غريب كان واثقاً أن الباب غير مقفول؛ وقد صدق حدسه!

تختنق جهاد في حلمها، أصابع أيوب تضغط دون رحمة! تنظر إلى وجهه فترى فيه شيطاناً! ثم أخذ فجأة يصرخ كأنه يعاني الألم حتى تشقق وجهه وسال الدم القاني من تلك الشقوق فصرخت لتستيقظ مذعورة لاهثة وسط الظلام الدامس لتلك الغرفة.

كانت ترتجف من أثر الكابوس وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ بعض الآيات القرآنية، التقطت هاتفها النقال لتفتحه تبحث عن رد من سارة لكنها لم تجده، وعلى تلك الاضاءة الخافتة أجفلت بعنف وجفت الدماء في عروقها وهي تلمح خيال رجل يجلس على كرسي قريب من سريرها؛ فصرخت دون وعيها وسقط منها الهاتف ليقع من السرير إلى الأرضية بينما يسأل أيوب بهدوء "أكان كابوساً مريعاً لهذه الدرجة؟ «

ظلت تحدق في هيئته المظلمة التي لم تنل منها إضاءة الهاتف لتكشف ولو جزءاً منها بينما تمتم برد مرتعش حاد "أجل، كنت أحلم أنك تخنقني! "حتى اللحظة كانت لم تستوعب تماماً وجوده في غرفتها فكان ردها مجرد مقاومة تلقائية وهي تختض رعباً، قال وهي تراه كأنه يحرك عصاه "هل تعلمين يا جهاد؛ أنا أحلم بكابوس الحريق كل ليلة تقريباً»

انطفأت شاشة الهاتف النقال ليسود الظلام مجدداً،

وجدت نفسها تهبُّ من سريرها لتنزل قدميها وتقف مترنحة وهي تسأله بهجومية "ماذا تفعل هنا؟ "ثم أشارت نحو اتجاه الباب دون أن تميزه تماماً وهي تضيف بانفعال "كيف فتحت الباب؟! كيف دخلت؟! "ردّ ببساطة "كان مفتوحاً "هتفت بعناد "لا بل مغلق "صمت لحظة بدت طويلة قبل أن يؤكد بهدوء "بل مفتوح "

شيء من الثقة في نبرة صوته جعلتها تهدأ وتنجلي ذاكرتها لتتمتم باعتراف هامس وكأنها تكلّم نفسها "لقد فتحت القفل وخرجت عندما سمعت صوت باب الشقة ونسيت أن.. "ساد الهدوء وهي ما تزال واقفة أمامه لا تعرف ما الذي يفعلانه هنا والآن بالضبط! بتخمين لمكان السرير خلفها تراجعت قليلاً لتجلس على الحافة وتسأل باضطراب دون تفكير "أين خرجت؟ "لم يرد عليها، فأضافت سؤالاً جديداً وهي تنحني لتتلمس بيدها الأرضية بحثاً عن هاتفها "كم الساعة الآن "لم تجد الهاتف بينما يرد أيوب هذه المرة "إنها الثانية بعد منتصف الليل "ثم ضحك بخفوت مضيفاً "المسكين نعمان ظل يلاحقني في الأزقة حتى اطمأن أني عدتُ البيت ولم أفر منك»

يئست من إيجاد هاتفها لتعتدل في جلستها وهي تقول بحدة "أنا التي يفترض أن أفرَّ منك، أم نسيت أنك كدتَ تقتلني خنقاً "تمتم بنبرة غامضة "خرجتُ عن شعوري؛ وأنت تعرفين "شعور رهيب خالجها وهي تتذكر تلك

اللحظات لترتفع يدها تلامس رقبتها وتقول بحشرجة "هل يكفي أن أعرف يا أيوب؟!»

خيال لذراعه ارتفع في الظلمة ثم قال بنبرة آمرة "أعطني يدك "ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تسأل بتوتر "لماذا؟ "فيرد بخفوت "هل تخافين مني؟ "ردت بإصرار وشجاعة "قلت لك أنا لا أهاب مخاوفي "فقال بسلاسة "إذن واجهي خوفكِ نحوي وأعطني يدك "كانت ترتعد متصلبة ويدها ما تزال حول رقبتها ترتعش، ليضيف أيوب بنبرة مختلفة شديدة التأثير "مدّي يدك في الظلمة جهاد، أنتِ تحبين الشعور بالإثارة عند اقتحامك المجهول، مدّي يدك جهاد وأعدك أني سأجدها ولن أتركك تتخبطين "

كان شعوراً مذهلاً.. مخيف لكن مذهل وهي تنصاع لتلك النبرة وتمدُّ يدها تتحدى المجهول الغارق في الظلمة، تتحدى ما هو أخطر من الخوف منه! حالما تلامست كفاهما سحبها أيوب كُلّها إليه، لتجد جهاد نفسها تجلس عنوة على فخذه السليم الأيمن! أخذت تصارعه لتنهض بينما يكبلها هو ويهمس بأمر "اثبتي.. "ثم يضيف وهو يئد مقاومة جسدها النحيل الصغير "ليس مما يجول في عقلك الصغير، خاصة الليلة "وضعت كفيها على صدره تدفعه دون أن تراه وهي تهتف لاهثة "إذن ماذا تريد؟! "قال لها بمراوغة "هل تريدين اعتذاراً عما بدر مني قبل ساعات؟ "ما تزال تضغط صدره كي تحافظ على المسافة الفاصلة

في ذهنها، وكأنها عمياء وتقاوم ما لا تراه لترد عليه بقوة وهي تتململ في جلستها فوق فخذه "وهل سينفع الاعتذار؟! "تنهد وهو يقول بصوت أجش "بالضبط! لن ينفع؛ كل الأخطاء تفقد فرصتها في المسامحة حالما تقع!»

هدأت جهاد فجأة وقد شعرت بغرابة ما يقول لترد عليه "هذا كلام سخيف! كلنا نخطئ ونطلب الغفران، لكن هناك أخطاء.. "قاطعها أيوب قائلاً "توقفي جهاد، دعينا نتكلم في المهم "هتفت وهي تعود للمقاومة "أي مهم؟! لماذا يجب أن أجلس في حضنك؟! "رد بعجرفة "لأني أريد هذا "تكاد لا تصدق غروره وتكبره فتصرخ بتهور "قسماً بالله أنت مريض وحالتك طارئة! يجب أن تراجع طبيباً نفسياً في أقرب وقت "وبينما هي تقاوم للنهوض سأل بنبرة جادة مباشرة "كم منحك هارون كمهلة لتردّي على عرضه؟ "طوقها بحزم أكبر حتى تأوهت من الألم وهي ترد "ثمان وأربعون ساعة؛ دعني.. أنت تؤلمني "لكنه لم يستجب، بل قال ببساطة "توقفي عن المقاومة ولن تتألمي "ثم أضاف بتفكر "إذن بضع ساعات أُخر حتى طلوع النهار وتكتمل أربع وعشرون ساعة على العرض، وقت كافٍ كي نرد "توقفت بالفعل وهي تهمس بهلع تلقائي "هل قلت نرد؟! لا تقحمني بينك وبينهم، أنت رد وحدك وأبعدهم عني وعن عائلتي»

تجاهل ما قالته ليسألها "هل أخبرتِ أحداً عما حصل؟

"ردت وهي تهز رأسها عفوياً في الظلمة "لا أحد، لم أرد أن أورط أو أقلق أياً منهم "تمتم أيوب "هذا جيد لسلامتهم "تبتلع جهاد ريقها وهي تشعر بوحشة رهيبة في هذه الظلمة لتسأله وهي تتمنى لو كانت تستطيع رؤية وجهه كي تقرأ الجواب بنفسها "ماذا تقصد لسلامتهم؟ أنا حتى اللحظة لم آخذ تهديده تماماً على محمل الجد "

رد أيوب بما صعقها "يجب أن تأخذيه، الحياة علمتني أن أتوقع كل شيء "أخذ قلبها ينبض بعنف، ريقها جف بينما تسأل بحشرجة "هل أنت قادر على.. حمايتنا؟ أقصد أنا وعائلتي "جوابه كان غامضاً وهو يقول "قادر.. لكني يجب أن تطيعيني بكل ما سأطلبه منك "تمتمت وهي ترتجف "كيف أطيعك؟! "قال بتركيز "أن تتقبلي كل ما سأفعله أمامهم بخنوع تام مهما كان مُهيناً لكِ، هي محاولة أولى قد تنجح "شعرت جهاد أنها تائهة تماماً وهي تتساءل "ماذا تقصد (مهيناً)؟! وماذا تقصد (أمامهم)؟ "شرح لها بهدوء شديد "كلما قلّلتُ من أهميتك عندي أنتِ وعائلتك بالتبعية؛ كلما كان أفضل لَكُن "تتشبث بقميصه دون شعورها وهي تسأل بانفعال "أليست لديك قدرة على حمايتنا من إخوتك؟! "قال بنبرة عملية للغاية "لي.. أو كان لي.. فأنا خارج اللعبة منذ أربع سنوات وأحتاجك كي أعود "

كلام أيوب جعل جهاد تتذكر جملة أخيه هارون

(أنتِ بيدق في اللعبة) بينما يضيف أيوب بشرح أوسع "لو دافعتُ عنكن بكل ثقلي سيتم استهدافكن ليس من إخوتي وحسب؛ فهؤلاء أمرهم سهل، بل سيترصدكُن جميع الأعداء المحتملين الذين سيظهرون حال عودتي، ستكُنَّ نقاط ضعف ومواضع تهديد وانتقام، ولا أعتقد أنك ترغبين بحصول هذا "رعدة قوية مرّت بكل جسدها فشعرت بذراعه تشدّد عفوياً من تطويقها بينما يقول أخيراً "ليس هناك حلٌّ آخر حالياً»

فجأة خطر في بال جهاد خاطر فسألت دون تفكير "هل هذا ما حصل مع زوجتك وابنتك؟ "بدا متفاجئاً وهو يسأل "ماذا؟! "ردت تفسر بتهورها المعتاد "هل تم استهدافكم للانتقام؟ أظن أنني قرأت شكوكاً كهذه "صمت أيوب للحظة وقد تحول جسده لقطعة رخام ثم سأل باختصار "أين قرأته؟! "شعرت بتغيره الملحوظ بعد فوات الأوان لترد بصدق "لا أدري.. مقال في مكان ما تكلم عن الحادث "بحركة سلسلة كان يدفعها لتقف فاستجابت مباشرة وهي تبتعد عنه، ثم تراقب خياله في الظلمة وهو يقف جوارها ويقول بصوت غريب "لو كان ما تقولينه صحيحاً يا جهاد، فله الله من سأكتشف أنّه فعلها!»

تحرك أيوب مبتعداً عنها يشقُّ طريق الظلام وكأنه يحفظه!

***

## صباح اليوم التالي

يفتح حمزة الورشة بمفرده، سبق العمال للحضور اليوم والساعة لم تتجاوز حتى السادسة، منذ أول خيط للفجر وهو لا يستطيع النوم، رغم أنه نام ليلة الأمس بعد منتصف الليل بساعتين على الأقل. أشعل سيجارة وهو ينظر إلى نفر قليل من المارّة يجولون في الشارع، ثم تحرك ليدخل الورشة وبدأ العمل الشاق غير الضروري بإعادة تنظيم محتويات الورشة، السيجارة معلقة بطارف فمه بينما يرفع الأثقل وزناً والأصعب حملاً وينقله من جانب إلى آخر، ومن زاوية لأخرى، دون حاجة فعلية! كل ما كان يريده إنهاك جسده لعلّه يتعب ويعود إلى بيته مُجبراً كي ينام.

«صباح الخير"

كان ينهت والعرق يتصبّب منه عندما سمع صوتها قادماً من عند بوابة الورشة المفتوحة خلف ظهره! شعر بالغباء وهو يتسمّر مكانه ويعقّد حاجبيه بينما أصابعه تعتصر جزءاً من ماكينة سيارة يحملها بين كفيه، تحرك خطوة للأمام دون أن يلتفت للخلف وهو يهزّ رأسه كأنه يهزأ من فكرة أن (سارة) أتت إليه في الورشة ومنذ الصباح الباكر!

تمتم بخفوت "ما هذا الخيال السقيم! "لكن صوتها عاد ليعاتبه هذه المرة "ألا ترد عليّ التحية؟! "سحق أسنانه قبل أن ينحني ليضع ما يحمله أرضاً ثم التفت إليها وهو متجهم الوجه، يحدق فيها وكاد أن يسألها (ما الذي تفعلينه هنا بهذا الوقت المبكر؟!) وبدلاً من هذا قال لها بنبرة شديدة الجفاف "أهلاً"

بدت مرتبكة للغاية لكنه رفض الإذعان لضعفه نحوها وقد قرّر اللحظة أنه سينسى سارة، سيمحو كل صورها من خياله منذ أن كانت طفلة ترتدي ثوباً أحمراً في احتفال مدرسي، سينسى حبّاً أحمقاً من طرف واحد ويعلّم قلبه أن الحب يحتاج لطرفين، حبٌّ أحمق وقلب أحمق وهو أكثر حماقة من الاثنين! سألته وهي تعتصر أصابع كفيّها ببعض "هل لديك وقتٌ لأكلّمك؟ "هتف بحدّة وهو يشير لما وضعه أرضاً قبل لحظات "أنا مشغول.. ألا ترين؟! "كان يرد لها ما فعلته فيه بالأمس، يجرحها ولو لمرة واحدة وقد فاضت روحه من كثرة جرحها له لمرات ومرات. نظرة غير مسبوقة أطلّت من عينيها نحوه بينما تتقدم خطوة متعثرة وهي تناديه كأنها تستنجد به "حمزة "أرتجف ذاك الغبي الأحمق النابض في صدره فغمغم حمزة من بين أسنانه بخشونة "قطع الله اسم حمزة من الوجود، ماذا تريدين؟! خلصيني "ثم بدت سارة كأنها تستجمع شجاعتها وهي تتقدم بخطى أكثر ثباتاً لتقول بخفوت "أتيت باكراً لأني.. أحتاجك "لم يعد يدري ما يحصل فسأل بحرقة

هذه المرّة "ماذا تريدين مني يا سارة؟ "

كان صدرها يعلو ويهبط وعلى ضوء النهار يلمح حمزة الحمرة القانية تتجمع فوق خديها قبل أن تفصح بتعابير صدمة ارتسمت على وجهها قبل أن ترتسم على وجهه "أريدك أن.. تتزوجني!»

***

**بعد ساعتين**

بعد أن استمع هلال لكل كلام عبد الصادق عبر الهاتف قال بتفاؤل "أظنها بادرة خير يا صدوق "كان الحاج عبد الصادق واقفاً خارج مقهاه ينتظر عماله كي يكملوا ترتيب الكراسي ومسح الطاولات، لم يتنبه لتحفز حمزة وهو يدخل ويخرج من ورشته لا يستقر على حال ولا يجيب على سؤال! كما لم يلحظ حتى الآن أن مكتبة الخاتون مفتوحة باكراً جداً على غير العادة وأن سارة تقبع داخلها كأنها تختبئ، كل اهتمام عبد الصادق اللحظة كان منصبّاً على جهاد والسيد، فرد على صديقه وهو يتفاءل خيراً مثله "ارجو هذا يا هلال، لقد قال نعمان أنّ السيد ظل لما بعد منتصف الليل يدور في أزقة الحي هائماً على وجهه، وأيّا كان ما تكلم به مع الشيخ عبد المُعز فقد أثّر به»

سأل هلال "هل كلّمت جهاد؟ "فرد عبد الصادق "ليس بعد، ولا أريد الاتصال بهاتفها وهو موجود معها "قالها وعيناه تلمحان عند بداية الطريق، دخول سيارة سوداء كبيرة فقال عفوياً "لمن هذه السيارة الفارهة؟ "فتساءل هلال "أيّ سيارة؟! "تقترب السيارة على مهل حتى وصلت بموازاة المقهى فينظر إليها عبد الصادق عن كثب وتنتابه الريبة وهو يلمح السائق ذا النظارة السوداء، تتجاوزه السيارة بينما يرد على هلال وهو يرفع نظراته دون تفكير للطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون "لا أدري يا هلال، لكن لم يسبق أن رأيت سيارة كهذه تدخل حيّنا!»

***

دخل عليها أيوب الغرفة دون استئذان وهي بملابسها الداخلية لا غير! شهقت وهي تهرول الى سريرها لتسحب الغطاء تتستر به وهي تصرخ فيه "أخرج من غرفتي، هل يجب أن اقفل باب غرفتي باستمرار؟ "دون أن يأبه بصراخها قال "رهافة قدك تليق بها الملابس الداخلية كما توقعت "تضرجت وجنتا جهاد وهي ترمقه بغضب بينما يضيف أيوب ساخراً "السائق بانتظارنا تحت يا نملاوي»

شيء ما في نظراته جعلتها تتغاضى تماماً عن سخافته باقتحام الغرفة أو عن كلماته الساخرة المشاكسة بخبث،

نظراته في عمقها كانت جدية للغاية هادئة لأبعد حد كأنه يستعد لأمر خطير!

استدار ليغادر الغرفة وهو يأمرها بنبرة جافة "لا تتأخري عن خمس دقائق وارتدي فستاناً بسيطاً من الفساتين التي تخيطها لك جدتك "

***

وسط انشداه المارة من أهل الحي تحرك أيوب ليصعد إلى المقعد الخلفي للسيارة الفارهة بعد أن فتح له السائق الضخم الباب باحترام شديد، ثم التف السائق إلى الجهة الأخرى ليفعل المثل لجهاد.

سارة تقف في باب المكتبة ولا يقل انشداهها عن انشداه الناس المحدقين، لكن نظرة واحدة من عيني جهاد أخرجتها من تلك الحالة وهي تلمس بقوة رعب توأمتها! تقدمت سارة تلقائياً خطوتين تودُّ لو تسحبها وتمنعها ركوب السيارة لكن جهاد حركت رأسها بـ(لا) ثم صعدت جوار أيوب وأغلق السائق الباب خلفها ثم عاد الى مقعده الأمامي ليقود السيارة بسلاسة مُغادراً حي الخاتون.

«سنتزوج بأقرب وقت، وليذهب كل شيء إلى الجحيم»

صوت حمزة بأسلوبه المباشر الجاف الغاضب يخيم فوق الغيوم السوداء لأفكار سارة المرتعبة وهي تراقب ابتعاد السيارة الفارهة، انقبض قلبها وهي تهمس "نعم حمزة، في أقرب وقت، أتمنى أننا لم نتأخر!»

***

## قصر آل عريم

بوجه شديد الحُسن تزمّ جيلان شفتيها بحزم عفوي وهي تغلق أزرار قميص ولدها بينما يسألها ببراءة لم تُدّنس حتى اللحظة "من سيأتي لزيارتنا أمي؟ "دون أن تنظر لصغيرها ذي الخمسة أعوام ردّت وهي تُعيرُ الأزرار جُلّ اهتمامها "عمّك أيوب وزوجته "التساؤلات تشابكت في عيني الطفل فيطرح أولها "هل لديه أولاد؟ "أجابت الأم "لا "ليتبعه الثاني "كم عمر عمي؟ "ترد جيلان "أربعون "يعقد الصغير حاجبيه بينما يرفع أصابعه يحسب!

دخل قابيل ليرى زوجته تكمل هندام ولده الأكبر بينما تهتم الخادمة بالأصغر ذي العامين، فسأل بنبرته الباردة "جاهزون؟ "نظرت إليه جيلان وجليد زرقة عينيها الواسعتين لا يتأثر ببروده بينما ترد بوضوح "نعم "فاكتفى بالقول قبل أن يغادر جناح أطفاله "لن تنزلي حتى أرسل الخادمة "تمتمت بنبرة خافتة حملت مرارة ساخرة "أمرك»

ثم انحنت لتقبل خدّ ولدها في لفتة حنان تخفيها عن زوجها بينما تهمس كأنها تكلم نفسها "أنتَ لا تطيق عودته يا قابيل!»

***

عند حوض السباحة كان آدم يقطع المسافة ذهاباً وإياباً، يراقبه هارون وهو يستلقي على الكرسي الخاص للتّشمس بينما يظلل عينيه بنظارة سوداء، صداع خفيف في رأسه لكن ذهنه حاد التركيز، يستعد لمواجهة داهية آل عريم.. الأخ الأكبر الغائب العائد، أيوب.

لقد نجح باستفزازه كي يخرج، لكن هي مجرد لعبة صغيرة انتصر فيها، القادم سيحدّد هل أيوب العريم عائد بالفعل ليشاركهم اللعبة؟

ما تزال عينا هارون تتابعان جسد آدم الغاضب، لقد كان يشعُّ بالغضب والتوتر مع كل ضربة ذراع لسطح الماء، ها هو آدم الحقيقي يتجلّى خالعاً رداء الغموض والثبات، إنه لم يتجاوز ما حصل بينه وبين أيوب، رغم أنّ ما حصل ظل طيّ الكتمان كسرٍّ دفين بين الاثنين، سرٌّ عمره عشر سنوات لكنه ظل حيّاً ينبض بالغضب في عمق آدم!

اقترب حارسه الشخصي جبل ليبلّغه أن الوقت حان كي يستعد، فتبسم هارون وهو يتحرك برشاقة ليقف على قدميه ثم يتمطى بكسل قبل أن ينادي أخاه الصغير قائلاً "يكفيك يا آدم، أنت جاهز لمقابلته»

ثم تحرك هارون وعيناه الذكيتان خلف نظارته تشعّان بالحماسة؛ ثلاث سنوات لم يرَ فيها أيوب، ويشعر بقوة أن هناك تغييرات غير متوقعة أو محسوبة حصلت معه.

خرج آدم من حوض السباحة وعلى عكس الحماسة التي شعّت من عيني هارون؛ كانت عينا آدم تشعّان بالتمرد! وكأنه ابن العشرين حينما تفاجأ بوجود أيوب المُباغت عند باب تلك العيادة المشؤومة؛ وكأنّ الزمن بينهما توقف عند ذلك الحدث وأيوب يقف بمواجهته وينهي كل شيء!

تحرّك آدم حتى وصل إلى منشفته فيلتقطها وببطء متعمد يجفّف جسده وهو يتمتم "اليوم لم تعد سيد اللعبة وحدك يا أيوب، سأكتفي بالصمت وأنا أراقبك تكتشف ما فاتك

***

انقبض قلب جهاد برعب حقيقي واتّسعت عيناها حتى آخرهما والسيارة الفارهة تدخل عبر بوابة القصر المهيب

حيث تجمّع حَرَس مسلحون، كفها دون شعورها أمسك كف أيوب يعتصره بكل قوتها وهي تهمس بتراجع "لا أريد الدخول!»

ينظر إليها أيوب ويعترف أنها تثير عجبه، كانت المرة الأولى التي يرى فيها ردة فعل كهذه من إنسان نحو قصر العريم! تلتفت إليه لتحدق بتلك العينين المرتعبتين في عينيه وهي تضيف بهلع "لا تدعهم يؤذونني ويؤذون عائلتي "

لم تكن تكذب أو تدّعي! عيناها تفصحان عن كره ونفور حقيقيين نحو القصر، رغم الرعب الذي يسكن نظراتها إلّا أنّ النفور حاضر بقوة.

عجباً.. عجباً! وما يراه عجب العجاب إن استمر على هذا المنوال، إنها فتاة عجيبة في كل شيء، ترتعب بسرعة وتهرول الى حضن توأمتها لطلب الدعم لكنها مُقاتلة متهورة.

عيناه هبطتا من عينيها لتمرا على رقبتها ثم نحرها حيث مقدمة فستانها الأزرق، شعلة توقدت في عينيه وهو يفكر بخلع الفستان عنها اللحظة! هنا في هذه السيارة وسط باحة قصر العريم، إنه يحفظ بقوة، وتلك التفاصيل الدقيقة التي طبعتها ذاكرته من جسدها النحيل الصغير في الملابس الداخلية ممتعة لحواسه، حسناً.. سيعالج هذا الأمر فيما

بعد.

ما تزال يدها تضغط يده وهي تسأله بشراسة مفاجئة "إلى أين أحضرتني يا أيوب؟! إنه قصر مُخيف "رفع عينيه لوجهها فرآها تحدق في مبنى القصر وقد توقفت السيارة أمام فخامته المذهلة، أعاد تركيزه بالكامل وكأنه يضغط زراً ليقول بنبرة آمرة "أفعلي فقط ما طلبته منك، وكلما شددتُ عليك بالكلام تذكري من يهمونك "حاول تحرير يده لكنها دون شعورها تشدّد من إمساكه وهي ما تزال تحدق وتهمس بتساؤل مُسلٍّ بالنسبة إليه "لماذا تورطنا هكذا؟! "كاد ينفجر ضاحكاً! إنها حقاً نكتة الموسم أن يشارك جهاد هذه المواجهة مع ماضيه، ردّ وهو يرفع يدها إلى فمه ليلثم ظاهر كفها قائلاً "ليتني أعرف الإجابة يا نملاوي!»

سحبت يدها بعنف وهي تلتفت إليه عاقدة الحاجبين فلم يكتمها أيوب هذه المرة؛ لينفجر ضاحكاً بينما السائق يفتح له الباب.

***

وسط البهو الكبير في مقدمة القصر كان قابيل أول من عانق أيوب مُرحّباً وتعابير وجهه عادية للغاية مع ابتسامة محسوبة بدقّة، طرفت عيناه للحظة إلى التشوه في الجانب

الأيمن من وجهه، لكنه سرعان ما تجاهله وكأنه غير موجود، من جهته كان أيوب يبتسم ابتسامة تسلية وعيناه تلتمعان كالثعلب!

ثم جاء دور هارون الذي استقبل أخاه الأكبر على طريقته، فوقف على بعد خطوتين ثم انحنى بجذعه للأمام في حركة مسرحية متمتماً "مولاي أيوب "ضحك أيوب بينما يتقدم هارون ليأخذه في حضنه ويهمس له قرب أذنه "أنرت قصر العريم يا داهية! "لم يرد أيوب بشيء وعندما ابتعد هارون بحثت عينا أيوب عن أصغر الصغار! ليجده يقف عن بعد قرب باب غرفة الاجتماعات الخاصة فيفتحها وهو يقول بنبرة حيادية أقرب للجمود فلا تحمل أي مشاعر خاصة "أهلا بك في قصر العريم أيوب، سأنتظركم هنا حتى تنتهوا "ثم دخل الغرفة وهارون يعلق بمزاح "الفتى الصغير ما يزال حساساً!»

التفت أيوب إليه فتتسع ابتسامته وهو يستند على عصاه بيده اليسرى، ثم مدّ ذراعه الأيمن إلى تلك الصغيرة المتخفية خلفه منذ دخولهما فيسحبها بخشونة وهو يمسك معصمها ليقدمها لأخويه بطريقة مسرحية ساخرة "أقدم لكم فتاة من عامة الشعب، زوجتي جهاد»

بدت جهاد شاحبة شحوب الموتى وعيناها متسعتان حدّ الجحوظ وهي تحدق فيهم كأنهم مخلوقات من الفضاء!

الأصح غزاة من عالم آخر اقتحموا عالمها ووصلوا حتى كويكب النمل الذي تحكمه في خيالها، ابتلعت ريقها وخرج صوتها مرتجفاً وهي تهمس "مرحباً "اكتفى قابيل بإيماءة مترفّعة من رأسه، بينما هارون يبتسم ابتسامة شيطانية وهو يميل برأسه جانباً ليقول بألفة مستفزة "مرحباً جهاد»

اعتصر أيوب معصم جهاد بقوة موجعة فتأوهت ثم عضّت شفتها السفلى لتمنع نفسها الصراخ بينما تكتفي بأن تطرق رأسها علامة الخنوع الذي طلبه أيوب، سأل أيوب وهو ينظر إلى هارون تحديداً "هل أعجبتك دميتي المُسلية يا هارون؟ "شملها هارون بنظرة خاصة كأنه يعاينها من كل جانب قبل أن يبدي رأيه قائلاً "إنها مختلفة وتبدو.. وفية لصاحبها "فيرد عليه أيوب بنظرة مستهينة تشعُّ قساوة "الوفاء عملة غير متداولة عند الجنس البشري يا شقيقي "ليشمخ بذقنه ويظهر تشوه وجهه أكثر وكأنه يتعمد إظهار بشاعته وهو يضيف بنبرة قاطعة تحمل معانٍ عدّة "إنها ملكي، وما هو ملكي لا يخرج عن طوعي إلّا وهو حطاماً "تأوهت جهاد أكثر وهو يوجعها باعتصار معصمها مرة أخرى، دمعت عيناها وتكاد تختنق بينما يهدر صوت أيوب وهو يلاعب هارون بالقول "أ تظن بتهديدك لها بعائلتها أنها ستستجيب؟ أنها ستخون؟ "ساد الصمت وهارون يقرأ أبعاد (المعروض) بتأن قبل أن يحكم عليه، بينما قابيل يشعر بالشماتة نحو هارون وهو بهذا الموقف!

حرّر أيوب معصم جهاد لكنه لم يعتقها وهو يرفع يده كي يقبض على عنقها تحت شعرها ويجرها نحوه وهي تتوجع فيقول بصوت خافت مهدّد انعكس في عينيه بنظراتهما الضارية "هي وعائلتها لو فكروا فقط أن يهمسوا من وراء ظهري نهشتهم نهشاً حتى لن يتبق لهم أثر أو ذكر على سطح الأرض"

تغمض جهاد عينيها تستسلم وهي تحتمل، أطاعت توصيات أيوب لتفكر بأمها وجدتها، بسارة نصفها الآخر، لقد لمحت حمزة يقترب منها اليوم وفي عينيه نظرة غاضبة عاشقة لا توصف، دعت جهاد ربها وهي في هذه المحنة أن تتزوج توأمتها الغبية من ذاك الثور العاشق!

نزلت دمعة من عينها بينما هارون يقول بنبرة ممازحة خاصة "تلطّف يا أيوب، الفتاة ستقع مغشياً عليها "ثم التفت إلى قابيل مُضيفاً "أين زوجتك ووليدك؟ "أشار قابيل للخادمة الصمّاء فهزت رأسها لتتوجه إلى الطابق الثاني بصمتها الإجباري.

كان تصرفاً ذكياً من هارون ليطوي صفحة جهاد وهو مقتنع أنها حالياً على الأقل قد أدّت دورها كبيدق جندي صغير في اللعبة، يكفي أنها تخصُّ أيوب العريم لتجعل غروره يُخرجه من مُعتزله.

عينا هارون ترمقان جهاد وقد أطلق أيوب سراحها لتعاود الوقوف نصف خطوة خلف كتفه، رأسها منكس في إذلال ظاهري وكفاها متوتران في خوف حقيقي، جسدها يخون الصورة فتكاد تميل إلى أيوب كأنها تحتمي به! لغة الجسد لا تخدع، كما الحقائق لا يمكن تضليلها طويلاً، جهاد لم تكن تعرف هوية زوجها الحقيقية حتى أخبرها هارون بنفسه في لقائهما الأول، لم يعنِ لها اسم (العريم) شيئاً عندما عرّفها بنفسه كهارون العريم.

صوت جيلان كان يحمل نبرة خاصة وهي تهبط درجات السلم ممسكة بكف ولدها البكر "مرحباً أيوب "رفع أيوب نظراته لزوجة أخيه فتتحرك شفتاه بشبح ابتسامة تنعكس في عينيه وهو يكتفي بتمتمة اسمها "جيلان "، تلك التمتمة أثارت فضول جهاد لترفع نظراتها وترى من (جيلان) هذه.

الخادمة الصمّاء خلف سيدتها تحمل بين ذراعيها الطفل ذا العامين بينما تتقدم جيلان من حميها وبحركة طبيعية للغاية مدّت يدها الحرة لتمسك ذراع أيوب ثم تميل إليه لتقبل وجنتيه بالتتابع دون أن تشمئز من جزئه المشوّه، بل على العكس بدت أكثر تلطفاً وشفتاها تمران بذاك الخدّ!

جهاد تحدق فاغرة الفم! ثم تعبس وهي تنظر في الوجوه

حولها لتراهم جميعاً بتعابير عادية فتعاود الإطراق برأسها وهي تفكر "ما هذه العائلة العجيبة! أ تقبيل شقيق الزوج من ضمن طقوس آل عريم؟!»

ابتسامة صغيرة من هارون وهو يراقب جهاد، قطع الصورة الحقيقية تتجمع لتظهر من خلف الصورة الهزلية التي ابتدعها أيوب مع زوجته الصغيرة، يبدو أنه لم يختر ممثلة بارعة لتؤدي الدور، أو ربما هو مضطر فليس لديه بديل.

ينظر أيوب إلى وجه جيلان الفاتن ووهج عينيها الزرقاوين يعيده إلى الماضي فيكتفي بالتعليق الخافت "ما تزالين صامدة "تبتسم دون روح وهي ترد عليه "تعلمنا منك الصمود "طالت نظرتهما لبعض دون أن يعترض أحد، وكأن الجميع لا يجرؤون حتى على التفكير باعتراض، رغم هذا شعر أيوب بتململ (النملة) خلفه ويكاد يجزم أنها تفكر فيهم كعائلة مجنونة! أخفى رغبته بالضحك ولم يفته مراقبة هارون لجهاد.

هبط أيوب بنظراته إلى الصغير الذي يمسك بكف أمه ويحدق فيه بتدقيق عابس! ودون أن يلمسه سأل "أ هذا يوسف؟ "هزّت جيلان رأسها ويدها ما تزال على ذراع أيوب، ثم قالت وهي تشير للطفل الذي تحمله الخادمة ويحدق فيه هو الآخر "وهذا سيف "ينقل أيوب نظراته بين الولدين ليعلق بالقول "**كلاهما يشبهانك، نفس العيون**»

سمع صوت تأفف خافت من خلف ظهره فأدرك أن عليه إبعاد الأنظار عن جهاد ويكفي ما أفلت منها حتى اللحظة؛ تلك الغبية النزقة المتهورة!

نظرة متبادلة بينه وبين جيلان لتترك ذراعه وتبتسم ثم تتحرك لتسلم على جهاد بالقول المترفع "أهلا سيدة جهاد، تفضلي معي نشرب الشاي في حديقة القصر "تنفست جهاد الصعداء وهي تتحرك بصمت لترافق هذه السيدة العجيبة وعلاقتها الأعجب مع أيوب! وإن كانت مصدومة من تلك الألفة بينهما فتكاد لا تستوعب ردة الفعل الباردة من أيوب نحو ولديّ أخيه! أ هذا كل ما استطاع قوله (كلاهما يشبهانك، نفس العيون)؟! أخذت تشتمه وهي تخرج مع جيلان للهواء الطلق فتعبئ رئتيها وكأنها تنقيهما من الهواء المسموم داخل القصر المرعب.

***

يكاد الحاج عبد الصادق يفقد كل ثباته وهو يعاود الاتصال بهاتف جهاد ليجده مغلقاً مرة أخرى فيقول بانفعال متزايد "أين ذهبت الفتاة؟! إلى أين أخذها بتلك السيارة؟! "نظرة من هلال نحو سارة التي تقف جوار حمزة المتجهم، بدت سارة على وشك الانهيار وهي تضع يدها على فمها وتحدق في الطريق الذي غابت منه السيارة

الفارهة تحمل توأمتها إلى المجهول، قال هلال بخفوت "اهدأ يا عبد الصادق، سارة ستجن من القلق وأنت لا تساعد "ردّ عبد الصادق بجزع حقيقي "إنها في رقبتي أنا يا هلال، ماذا أقول لجدتها وأمها؟ ماذا أقول لأبيها يوم الحساب؟! "أشفق هلال عليه فحاول طمأنته بأسلوبه الفكاهي الخاص "ستكون بخير، كفّ عن المبالغة! إنها برفقة زوجها بالله عليك هل اختطفها قطاع طرق؟! "ثم لفّ ذراعه حول كتف عبد الصادق ليسير به عائداً للمقهى وهو يقول "تعال لنشرب الشاي "ليدخلا المقهى وهلال ينادى في طلب الشاي له ولعبد الصادق.

بصمت تحركت سارة لتعود إلى المكتبة وهي تنادي جهاد من أعماقها لكنها تشعر بتوأمتها أبعد من أن تسمع النداء، بتعابيره المتجهمة لحق حمزة بسارة إلى المكتبة وما إن دخل حتى قال دون مقدمات "يجب أن أعرف ما يحصل، لماذا طلبتِ أن أتزوجك لأجل جهاد؟ "رفعت نظراتها إليه لتعبس وتقول "أنت من طلبني للزواج، أم أنك نسيت؟! وأنا اليوم وافقت! "رفع حمزة سبابته بانفعال وهو يقترب منها ويقول بارتباك ثائر "لا تتلاعبي بالكلام يا سارة وتربكيني، مؤكد أنا أعرف بأني قليل الحظ المُبتلى الذي يريدك زوجة وأنت لا تريدين "جَرَحَها جُرْحُه فهمست اسمه "حمزة! "زاد ارتباكه وتضاعف انفعاله ليقول "أنا لا أجاريكِ في الفصاحة، خاصة معك أنت بالذات، بل إن أتممت جملة مفيدة معك يكون إنجازاً!

"همست بإرهاق "ألم تقل سنتزوج بأقرب وقت وليذهب كل شيء إلى الجحيم؟! "زفر أنفاسه بقوة وهو يصرّ بالقول "نعم قلتُ هذا وأنا أرى جهاد تركب السيارة بتلك الحالة! لكن يجب أن أفهم ما حصل بيننا اليوم، لقد أتيتني لتقولي (تزوجني) وعندما سألتك ماذا حصل اكتفيتِ بالرد (لأجل جهاد) ثم تركتني واقفاً بمفردي وسط الورشة كأحمق أبله ورحلتِ "استجمعت قوتها لتقول له "أنا صادقة.. لأجل جهاد، إنها تريدني أن أتزوجك كي تطمئن عليّ "فتح فمه ليستفهم أكثر فتسبقه سارة بالسؤال الثابت "هل تراجعت؟»

لَكَمَ حمزة الرفّ القريب منه بقبضته لتقع بعض الكتب أرضاً بينما يرد بغضب "لن أتراجع عن كلمتي ولن تتراجعي أنتِ أيضاً، لكن أريد أن افهم ماذا يجري مع جهاد، هي تهمني كما تهمك "عندها تجمعت الدموع في عينيها وإحساس عارم بالخوف والذنب وهي ترد عليه "لا أدري يا حمزة.. حقاً لا أدري! أريد فقط إنقاذها، وأحتاجك معي فلا تخذلني بالله عليك "هدأ حمزة أمام دموعها تلك بينما يسأل بخفوت وأنفاسه المتسارعة الهادرة تلفح وجهها "من هذا الرجل يا سارة؟ "همست له وكأنه تكشف كل ضعفها أمامه "لا أعلم يا حمزة.. حقاً لا أعلم! وكأني كنتُ مغفلة لسنوات فأجهل من هو، أنا مرعوبة لأجل جهاد ولم يعد يهمني إلّا إنقاذها.

***

يتأرجح أيوب في الكرسي الرئاسي خلف طاولة المكتب الفخمة، يستمتع برؤية إحساس قابيل بالتهديد وقد استعاد (كرسيه)، لم يحتمل قابيل أكثر من هذا ليقول بانفعال "ما الذي تعنيه بكل ما قلته للتو يا أيوب؟ أهذه طريقتك لتخبرنا أن محاولتنا الصغيرة لإعادتك قد فشلت؟ "رد أيوب ونظراته الباردة لا تفارق وجه أخيه "أنا أعود عندما أشاء فقط أن أعود يا قابيل»

تدخل هارون بأسلوب عملي مباشر يتجاوز به انفعالات قابيل غير الضرورية ليقول "هذا صحيح يا أيوب، عدت لأنك شئت هذا، ويبدو جلياً أنك تعرف الكثير عن الصفقة لتتكلم بتفاصيلها هكذا، ولن أسألك كيف علمت لأنه ليس مهماً، ما يهمني الآن جملة واحدة ذكرتها في موجز كلامك عن الصفقة؛ أنك تواصلت مع المنظمة ولا يريدون غيرك في الصفقة "التفت قابيل بعنف نحو هارون ليسأل "ماذا تعني؟ "نظرات هارون لم تحِدْ بعيداً عن أيوب وهو يفسّر "يعني أن أيوب يريد إقصاءنا "ابتسم أيوب بينما يضيف هارون "المنظمة أعطتك الضوء الأخضر لتختار وجود شركاء أم لا، أليس كذلك يا أيوب؟»

ضرب قابيل بقبضته على سطح مكتبه (الغالي) بينما يعلق آدم للمرة الأولى منذ بدء الجلسة قائلاً بثبات "لا

يمكنه إقصاءنا لأنه يحتاجنا، إنه كان بعيداً عن السوق منذ أربعة أعوام "تطلّع أيوب نحو أخيه الأصغر الذي يفضل الوقوف بعيداً كعادته، يستمع للجميع ليدلي بدلوه في النهاية، قال أيوب باستفزاز "أ تتكلم عني بصفة الغائب وأنا الحاضر دائماً رغماً عنكم؟! "تقابلت النظرات بين الأكبر والأصغر ليزيح آدم نظراته أولاً يعاود النظر عبر الشباك!

التقط أيوب عصاه ليقف على قدميه ثم يسأل فجأة "هل تذكر يا قابيل عندما سألتك في المستشفى عن.. الحريق؟ "تلاقت العيون السوداء لكن قابيل لم ينطق بحرف وهو جامد التعابير، يراقبهما هارون عن كثب بينما يضيف أيوب وهو يتحرك نحو باب القاعة "قلت لي (من يجرؤ على فعلها مع أيوب العريم؟) "تمتم قابيل بتوتر "ما الذي ذكّرك بهذا الآن؟! "ردّ أيوب بكلمة واحدة وهو يغادر عبر الباب "الغرور «

ابتسم هارون وهو ينظر جانبياً إلى قابيل بوجهه الممتقع! ثم مال إليه هامساً "لا تخف هكذا يا قابيل، واجه نقطة ضعفك كما واجهها الداهية واعترف بها "ثم أضاف هارون بجدية وهو يلحق بأخيه الأكبر "الأمر لم ينتهِ بعد، إنه يتسلى فقط "تحرك آدم ليمر بقابيل الذي ما يزال واقفاً مكانه ليقول له "هيا بنا، هارون مُحق، نحن في خضم اللعبة الآن»

***

عند بداية السلم الواسع وقف أيوب يتطلع للأعلى، وحالما شعر بهارون خلفه قال بتساؤل جديّ "هل جناح جدتي كما هو؟ "ردّ هارون "كما تركته بالضبط، الخادمات ينظفنه دوماً دون أن يحركن شيئاً من أغراضها "خيال قابيل وآدم حضر فيقول أيوب وهو يرتقي أول درجة "يمكنكما الانصراف لشؤونكما، أما آدم فسينتظرني حتى أنزل»

كان أمراً قاطعاً منه، فامتثل له الثلاثة وكلٌّ يضمر في نفسه شيئاً.

***

وسط ذاك الجناح المهيب كانت روحها الحبيسة ما تزال ترفرف! كطائر أنهكه البقاء وجناحه كسير، يلتقم المُرّ الحنظل ولأكل الضريع حتى الممات أسيرا!

يشعر بها أيوب، بل يسمع صوت تهدجها بالدعاء بوضوح **(وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)**، جلس على حافة سريرها يلامس فرشتها البيضاء، تذكر ما كانت تخفيه تحت وسادتها ولا تسمح لأحد غيره أن يلمسه **(هذا كفني يا أيوب، ليس فيه خيط واحد من حرام)** دموعها تجري عندما يمر بجناحها عند

الفجر وآثار الخمر والنساء تفوح منه، تهز رأسها بأسف عليه وهي تقول له **(ستدفع الثمن يا أيوب كما دفعته أنا، لكني قليلة الحيلة وأنت لا تعدم الوسيلة، انجُ بنفسك وذريتك يا أيوب قبل فوات الأوان، سارة طيبة فخذها وابتعد قبل ولادة طفلك)**

المصحف والنظارة الطبية ما يزالان مكانهما جوار سريرها فوق المنضدة الجانبية، تمتم أيوب وصوت خطوات أفنان يرنُّ في أذنيه "وأيوب إذ نادى ربه، أ كنتِ تدعين لنفسك كي تنجيّ يا جدة، أم كنتِ تتنبئين بما سيجري عليّ أنا؟!»

***

# الفصل الخامس عشر
# أَحلالٌ هذا أم حرام؟!

لم تجد جهاد ما تفعله إلّا أن تروي حكاية ليوسف عن كوكب النمل الذي تحكمه! بدا يوسف مشدوداً بكليته للحكاية، بل ويسأل بجدية عن كل ما يخصُّ (نملاوي) حاكمة الكوكب، وكأن الصغير سيف شعر بالغيرة فنزل عن حضن الخادمة ليقترب من جهاد وبكل استبداد (موروث كما يبدو) تسلّق حجرها واستقر فيه يزاحم شقيقه في الاستئثار بانتباه جهاد.

ترتشف جيلان من فنجان القهوة على مهل وهي تراقب (زوجة أيوب) باهتمام، مضت سنوات تبدو طويلة للغاية منذ شعرت بإحساس الغيرة على أيوب العريم، الزوج الذي كان مُقدّراً لها لكن بتغيير بسيط من الأب سلطان العريم كانت سارة هي المُختارة لتحظى به، أطالت جيلان النظر إلى جهاد وفكرت أنها جسدياً تذكّرها بسارة، رغم عدم وجود شبه بتقاطيع الوجه، لكن اللمحة الأولى يرتبط ذهنها تلقائياً بسارة وهي تنظر إلى جسد جهاد، وبعد اللمحة الخارجية الأولى تستطيع الآن أن تؤكد أن لا وجه للشبه بينهما من الداخل على الإطلاق، هذه الفتاة مختلفة، ساذجة بعض الشيء لكن فيها شرارة ما تعجب رجلاً

كأيوب.

علّقت جيلان بهدوء "أنتِ جيدة مع الأطفال "رفعت جهاد وجهها لتقول بعفوية "أحبهم كثيراً "ودون تكلف كانت تقبل خدّ سيف بدفء وعيناها تلمعان! تعجّبت جيلان قليلاً، فلم تعتد هذا النوع من النساء، سألت بفضول "ماذا تعملين يا جهاد؟ "ردت وهي تترك يدها لعبث سيف بينما يوسف يحاول منعه "أنا أعمل مترجمة في دار نشر(..) "فسألت بمزيد من الفضول "كم لغة تجيدين؟ "قالت جهاد وهي تهز كتفيها "ليس كثيراً، فقط الإنجليزية والفرنسية "ثم أضافت تسأل بتلقائية "وأنتِ ماذا تعملين؟ "بنبرة جليدية ردت جيلان "أنا أعمل (زوجة قابيل العريم)»

شعرت جهاد بقشعريرة تمر بجسدها وهي تحدّق في تلك العيون الباردة رغم بهاء لونها، لم تجد ما تقوله فأطرقت لتلاعب أصابع سيف وقد عاودها شعور الاختناق ورغبة مغادرة هذا القصر، سألتها جيلان فجأة "هل أحببت القصر؟ "ردت جهاد دون تفكير وهي ترفع نظراتها لجيلان "لا "بعض الدهشة مرّت على صفحة الوجه الفاتن لتلك المرأة قبل أن تقول بابتسامة غريبة "إنك صريحة للغاية "تضايقت جهاد أكثر وكرهت وجودها هنا أضعافاً لتقول دون تفكير "أيوب تأخر كثيراً، متى سينتهي؟ "أتاها الرد من تلك الجليدية الحسناء "نحن لا نسأل هذا السؤال

أبداً "عقدت جهاد حاجبيها وهي تسأل "من تقصدين نحن؟ "لم ترَّ جهاد حُسناً بائساً كحسن هذه المرأة وهي تقول "نساء آل عريم "لم تحتمل جهاد لتهتف "أ جواري نحن أم ماذا؟! "

ارتفع حاجبا جيلان قليلاً وبدت غامضة وهي ترمقها بنظرات مُحيرة، عضّت جهاد شفتها السفلى ثم حادت بنظراتها بعيداً، تذكّر نفسها (متأخراً جداً) بتوصيات أيوب المُشدّدة كي تُظهر نفسها أمام آل عريم كامرأة خائفة مسحوقة الكرامة!

***

عندما هبط أيوب السلم وجد آدم بانتظاره، على أهبة الاستعداد كأنه جندي ينفذ الأوامر دون مراجعة رؤسائه! تقدّم أيوب مستنداً على عصاه فيمر بآدم دون أن ينظر إليه، بل يكتفي بالقول وهو يواصل السير نحو الباب المؤدي للخارج "تعال لنخرج إلى الحديقة «

تبعه آدم بصمت ولم يفتح فمه حتى بدأ أيوب الكلام قائلاً بتخمين "هارون يحاول تهدئة قابيل أليس كذلك؟ "رد آدم بأسلوب عملي "أجل، هارون يعلم أنك تريد الوصول إلى تسوية ما وإلّا فلِماذا حضرت إلى هنا "ابتسم أيوب عندما لمح جهاد من بعيد وهي تجالس جيلان

والولدين، يكاد يتخيل محنتها!

توقف أيوب وسط الحديقة الشاسعة ليسأل باختصار وهو يرتكز على عصاه "هل حاولت أن تتعالج؟ "كانت هزّة قوية لتلك الواجهة التي اتخذها آدم منذ عشر سنوات، حافظ عليها بكل قوته وتعامل مع أيوب والجميع وفقها دون أن يسمح لأحد بالاقتراب منه.

تبادل الأكبر والأصغر النظرات، فالكبير ينتظر الإجابة والصغير يقاوم السؤال ذاته وكأنه يريد محوه! وقبل أن يقدم على أي تصرف أعاد أيوب السؤال بنبرة صلبة "هل حاولت أن تتعالج؟ "تقبضت يدا آدم إلى جانبي جسده وماجت عيناه بغضب قديم قبل أن يرد "لا "فقال أيوب بنفس النبرة ودون أي لمحة تعاطف "لقد كنتُ مخطئاً عندما منعتُك "بابتسامة قاسية غيّرت معالم وجه آدم الهادئ وهو يتساءل بسخرية "والمقصد؟ "ينظر أيوب في عيني شقيقه الأصغر فيرى فيهما أسوأ مما رآه قبل عشر سنوات! قال دون مشاعر "اذهب وتعالج، هناك عيادات سريّة خارج البلد "حرك آدم رأسه بحدة انفعالية فتبعثرت بعض خصل شعره التي يصففها بعناية كي تبقى ثابتة فيقول متهكّماً "عيادات سريّة؟ ظننتُ أن لا أسرار من هذا النوع لأمثالنا يُمكن أن تُخفى! ثم كيف سأبرّر غيابي الذي قد يطول؟! "

لقد كان يُعيد نفس الكلام الذي قاله له أيوب قبل عشر سنوات، ولم يهتم أيوب للتذكير بكلامه السابق، بل قال ببساطة "لستَ مُلزماً بالتبرير لأحد، حتى وإن علموا "اهتاج آدم ومن يراه يكاد لا يعرفه ليقول بنبرة هجومية ساخرة بمرارة "أليست سمعة آل عريم (الذكورية) أهم من كل شيء؟! لا نهتم لفضائحنا الأخلاقية وسمعتنا القذرة مع النساء، لكن أن يكون أحد ابناء العريم (عاجز جنسياً) فهذا ممنوع من النشر! "أيوب كان متماسكاً تماماً وهو يرد ببساطة "أنت تعلم أن ليس هذا السبب الوحيد "

فقد آدم كل قدراته على التحكم، وكأنّ أيوب أتى اليوم خصيصاً كي يفقده صوابه، لماذا يفعل هذا الآن؟! كل تلك السنوات تجاهله.. تجاهل ما يعانيه، هتف آدم ليقول ما عجز عن المجاهرة به لسنين طويلة "أجل نسيت أنها فضيحة ممنوعة من النشر أيضاً، إحدى زوجات الطاغية سلطان العريم تعاشر ولده المراهق ابن السادسة عشرة! "اكتفى أيوب بالقول القاسي "لقد كانت قذرة "تبعثر شعر آدم في كل اتجاه كما تبعثرت سيطرته وهو يدافع بشراسة "كانت محرومة! "فيرد عليه أيوب وهو يعقد حاجبيه "أ تدافع عنها وقد فعلت بك هذا؟! "هتف آدم وقد تحررت عقدة لسانه "بل أبونا من فعل وهو يتزوج فتاة في العشرين لا يملك صحة الجسد كي يعاشرها، بل يحبسها في قصره كعبدة اشتراها "بنفس القسوة قال أيوب "لم يضربها على يدها كي تتزوجه "لكن آدم لم يعترف بهذا، بل قال

بنفس الثورة "لقد كان يضربها ويجلدها بحزامه، كنت أداوي جروحها بيديّ هاتين "قالها وهو يمدُّ كفيه بتشنج يفردهما أمام عيني أيوب وكأنّه سجين ابن السادسة عشرة الذي كان!

نظر إليه أيوب ولم يستطع إنكار صدمته بما كان يجهله تماماً عن شقيقه الأصغر من تفاصيل، لقد كان يعلم أن أباه يسيء معاملة زوجته لكن لم يتخيل إلى هذا الحد، كما لم يتخيل أن آدم متورط لهذه الدرجة! أضاف آدم وهو في قمة الثورة والاهتياج "لقد انتحرت بسببي، قتلت نفسها لأنها لم تحتمل ما حصل بيننا في لحظة ضعف "حاول أيوب أن يتكلم لينهاه آدم بعنف "إياك أن تقول لي ما كتبوه في الصحف الصفراء (زوجة سلطان العريم تموت بجرعة مخدر زائدة)، ريم لم تكن مدمنة، ولم تكن قذرة، لقد كانت ببساطة ضحية لنا نحن آل عريم الأنذال، أنا وأبي قتلناها "

كلمات الجدة تعاود مُحاصرة أيوب (**انجُ بنفسك وذريتك قبل فوات الأوان**)، عينا أيوب تحركتا بعيداً نحو الولدين وهما قرب جهاد، الصغير يجلس في حجرها والكبير يستند بمرفقيه فوق ركبتها يستمع لما تقول باهتمام شديد، للحظة أوشك أن يترك كل شيء ويأخذ جهاد من يدها ويغادر!

قال بعد لحظات صمت طويل "لماذا لم تخبرني في ذلك الوقت بما يحصل بينكما؟! كنت سأتدخل قبل أن يتفاقم

الوضع، كنت سأمنعك من الوقوع في هذه المعضلة التي أنت فيها الآن "رد آدم بتهكم "كنتَ مشغولاً بنسائك! ثم ما فرقك عن أبي؟! ماذا فعلت بسارة عندما تزوجتها؟ ألم تعامل المسكينة بشكل أسوأ، ربما لم تضربها لكنك كنت تقتلها حيّة كل يوم "اعتصر أيوب قمة عصاه ولم يرد بشيء وهو يواصل النظر إلى الولدين مع جهاد بينما يضيف آدم بوجع حقيقي "وماذا فعلت يا أيوب عندما اكتشفتَ ذهابي لتلك العيادة؟! هل ساعدتني؟ الجواب هو لا.. بل دفنتَ السرَّ بطريقة آل عريم ودفنتني معه "تمتم أيوب وحمل الذنوب يثقل "لقد قسوتُ عليك ولم تنسَها لي "رفع آدم كفيه بهدوء ليعيد ترتيب شعره بانتظام ودقة ثم قال وهو يستعيد واجهته الهادئة "أنا لا أنسى يا أيوب، لا أنسى شيئاً على الإطلاق "ليتركه ويمضي عائداً للقصر المشؤوم!

***

عبر النافذة المظلّلة للسيارة الفارهة تتطلع جهاد للقصر وهو يبتعد، أيوب بدا مُرهقاً لجأة حالما ودّع أشقاءه ببرود قاتل، القلوب موغلة بكثير من السواد، هذا هو الإحساس الوحيد الذي وصل جهاد وهي تغادر برفقة (زوجها).

عند البوابة حيث احتشد الحرس الخاص، أفصحت جهاد عمّا يدور في رأسها وهي تنظر نحو القصر البعيد "إنهم أناس تعساء، حتى أخاك هارون الذي يبدو مرحاً

أراه غارقاً في التعاسة "يغلق أيوب عينيه وهو يسترخي في جلسته جوارها، يده تلامس قمة العصا بشرود بينما يتمتم بكلمة واحدة "ضريع "عقدت جهاد حاجبيها وهي تلتفت إليه تتساءل "ضريع؟! ماذا تقصد بالضبط؟! "كان وجهه شاحباً بعض الشيء، إنه مرهق بالفعل، رغم هذا انتظرت ردّه ليفسر، لكن كل ما فسّر به أيوب أن قال "طعام من ضريع! "اقشعر جلد جهاد وشعرت فجأة بإرهاق ثقيل كالإرهاق الذي تراه على وجه أيوب، لتكتفي بالقول وهي تسترخي برأسها للخلف مثله وتغمض عينيها هامسة "لا تشرح أكثر، حقاً لا أريد معرفة المزيد!»

سارت بهما السيارة الفارهة في شوارع العاصمة وجهاد بمعزل تام عن الضجيج، كان شيئاً مريحاً أن السائق أيضا بمعزل عنهما، فلا يسمع ولا يرى، آخر فكرة طرأت برأسها قبل أن تأخذها إغفاءة؛ أن الترف مُريح أحياناً في بعض جوانبه.

استيقظت مجفلة وأصابع وقحة جريئة تمرّ فوق مفاتنها، انتفضت وهي تدفع تلك الأصابع بعيداً لتواجه أيوب بعدائية بينما هو يرمقها من بين أجفانه شبه المطبقة، كان يبتسم رغم شحوبه، لكنه ملك حسّ الدعابة ليقول باستفزاز "الأميرة النائمة تستيقظ بقبلة، لكن أنتِ يا جهاد لا يوقظك إلّا محاولة اغتصاب! "

قلبها يخفق بعنف وهي تتطلع حولها تريد أن تعرف أين هما بالضبط، فاكتشفت بارتياح أن السيارة توشك على دخول حيّ الخاتون، لم يدم ارتياحها سوى ثانيتين لينتابها القلق وهي تسأل "كم الساعة الآن؟ "ردّ أيوب وهو ينظر لساعة يده "الثالثة ظهراً "اتسعت عيناها ثم همست "الثالثة ظهراً؟! أ قضينا كل هذه الساعات في قصر العريم؟! أ لهذا أشعر أني أتضور جوعاً؟! "اكتفى بالقول "آسف لأني رفضت دعوتهم للطعام»

سارعت لإخراج هاتفها النقال وهي تقول على عجل تكلّم نفسها "كيف نسيت أن أفتح الهاتف عند مغادرتنا القصر، لا بدّ أن سارة اتصلت لتطمئن عليّ "لم يعلق أيوب بشيء بينما تشهق جهاد بخفوت وهي ترى كل الاتصالات الواردة والرسائل النصية المتوالية فتقول بقلق أشد "رباه! حتى العم عبد الصادق أتصل أكثر من عشر مرات "صوت أيوب جاء محذراً بصرامة وهو يذكرها "لا عبد الصادق ولا هلال ولا سارة؛ لا أحد سيعلم أين كُنّا يا جهاد، كما اتفقنا؛ ستقولين فقط أننا ذهبنا في زيارة اصدقاء لي خارج العاصمة، لا أحد سيعلم هويتي الحقيقية حتى أرى أن الوقت بات مناسباً "هزّت جهاد رأسها بينما تتصل أولاً بتوأمتها سارة.

وبينما يستمع أيوب لكلمات جهاد المقتضبة لنصفها الآخر سارة؛ شعر أنه بات بعيداً تماماً عن تلك اللعبة

الانتقامية الصغيرة معهما، فلم تعد لعبة التفريق بينهما بنفس التأثير القوي عليه، وكأنه كان في حلم وقد حان وقت استيقاظه وصحوته من سباته، أخذ يدقّق النظر في مباني حي الخاتون فلا يعرف ما الذي يفعله هنا؟! كيف استطاع العيش في هذه البيئة لثلاث سنوات؟! ثم يسخر من نفسه وهو يتساءل (وهل أنت حيٌّ يا أيوب؟!).

أغلقت جهاد الخط مع شقيقتها فيلتفت نحوها ليراها تحدّق هي الأخرى من شباكها، فيفكر أيوب كم هو توقيت غريب أن يعود إلى اللعبة الكبرى مع عالم العريم وبصحبته جهاد!

أعاد في رأسه كل ما جرى اليوم، ووقف مطوّلاً مع انفجار آدم، لقد شعر بالغرابة مع نفسه وهو يستمع لما كان يفترض أن يستمع إليه قبل سنوات، لماذا لم يستمع وقتها؟ لماذا كتم صرخة شقيقه وهو يدفن سرّه؟ كم تبدو الذنوب خفيفة عند ارتكابها وتُسارع التبريرات لدعمها، ثم تأتي الأثمان ليثقل كاهل المذنب وقت الدفع!

عاد اليوم إلى قصر العريم لكنه عاد كغريب! لا ينكر أنّ لهفةً لـ (سلطانِ الماضي) وَمَضتْ داخله بقوة وهو يدخل القصر، لكن سرعان ما انطفأت تلك الومضة في جناح الجدة، لماذا اختار أن يزور جناحها دوناً عن باقي أجزاء القصر؟! ما الذي كان يبحث عنه هناك؟ أيّ اسئلة تدور

في رأسه ولم يعد متأكداً من الإجابات؟ حتى وقت قريب كان يظن أنّ كلّ الإجابات مُحددة ومثبّتة؛ لكن يبدو أنه لم يعد متأكداً!

توقفت السيارة لتهمس جهاد وكأنهما عائدان من رحلة طويلة "الحمد لله وصلنا بالسلامة "

بنظرة جانبية إليها انتابه شعور عجيب وهو يمرّ بعينيه فوق فستانها يرسم تفاصيل ما تحته، لقد كان يشتهي جهاد بقوة، إنها تفاحته الحمراء الصغيرة التي تنسى إقفال باب غرفتها أحياناً، لكنها تفاحة حلال، فما طعمها يا ترى؟

لقد كانت زوجته سارة حلالاً أيضاً، لكنه كان ذاك الحلال المغموس بالحرام، فلم يميّز بين طعم هذا من ذاك! أو لم يهتم ليميّز.

***

يراقب أيوب لقاء التوأم بنظرة تسلية رغم إحساس اللامبالاة السائد! يستند على عصاه ليتحرك نحو بوابة مبنى قصر الخاتون بينما تغادر الحي تلك السيارة السوداء الفارهة، حدس جذب انتباهه فالتفت للخلف لتقع عيناه مباشرة على شاب من عمر أخيه آدم تقريباً، ليميزه أيوب تلقائياً، إنه وائل، مدرس الألعاب الرياضية، وقد كان

ينظر نحو جهاد وسارة.

بضع لحظات مرّت قبل أن يتنبّه وائل لنظرة أيوب إليه، فيحني رأسه ويواصل المسير ليمرّ بسارة وجهاد من أبعد نقطة عنهما دون معاودة النظر إليهما، أو لإحداهما! بل دخل المقهى دون حتى أن يلتفت، يعبس أيوب بينما يعاود الالتفات كي يدخل المبنى وهو يتمتم "أ كنتَ تنظر إلى سارة أم.. جهاد؟!».

رغبة مظلمة أدركت طريق الخروج لتطفو من أعماق أيوب، رغبة بالتحطيم! هو لم يكن متسامحاً أبداً فيما يخص نساءه، لا نظرة ولا محاولة نظر، والكل كان يعرف عنه هذا ولا يقترب من أي امرأة يختارها أيوب العريم! لكن مع جهاد شعر أيوب أن تلك الرغبة تأخذ شكلاً أكثر حدّة، فمن كانت المقصودة بنظرات مدرس الألعاب الرياضية؟!

***

كانت سارة محتارة ومشوشة من ردة فعل جهاد، لقد تصورت أنّ أختها ستتنفس الصعداء وستبدأ تعد العدّة للانفصال عن أيوب، لكن جهاد صمتت وبدت غارقة في المجهول! التفتت سارة للحظة ناحية الورشة تبحث عن حمزة فربما جهاد لم تصدّقها تماماً لكنها لم تره، تذكّرت أنه غادر

قبل ساعة لشراء بعض الأمور للورشة وأوصاها أن نتصل به لتطمئنه حال عودة جهاد.

عاودت سارة النظر إلى توأمتها وسألتها بقلق "لماذا تصمتين هكذا يا جهاد؟! ظننتُ أنك ستفرحين؟! "بدت جهاد متعبة للغاية بوجهها الشاحب، وكأنها مُستنزفة وليس لديها طاقة، ومع هذا حاولت الابتسام وهي تقول "بالطبع أنا سعيدة جداً، وستعرفين قريباً كم كنتُ محقّة بشأن حمزة "تعقد سارة حاجبيها وقد بدت جهاد منفصلة تماماً عنها لتسألها بجدية "اذن ما بك؟! لماذا أشعر أنك تحتجبين عني؟! "

لم تستطع جهاد حتى الكلام! فقط تنظر إلى سارة بصمت تتشبث بحاجز يستر ما يجول بخاطرها.

بإصرار سألت سارة "أين كنتِ يا جهاد؟ إلى أين أخذك أيوب بتلك السيارة؟ "

قصر آل عريم تجسّد كغول مخيف يتربص بجهاد وكأنه يتحدّاها، ولم تكن جهاد اللحظة في حالة تسمح لها بالتمرد، لذلك ردّت بنبرة عادية وهي تبذل مجهوداً خرافياً لإخفاء انفعالاتها الحقيقية "قلت لك سارة منذ وصولي؛ أصدقاء قدماء لأيوب أحرجوه بالدعوة عندما علموا بزواجنا صدفة "مسحة بريئة رقيقة حزينة مرّت بعيني سارة فلم تستطع

جهاد التعامل معها اللحظة، لتتهرّب من توأمتها وهي تقول لها "سأكلمك لاحقاً، دعيني أذهب الى العم عبد الصادق، إنه ينتظرني "قالتها وهي تتحرك بالفعل ناحية المقهى تاركاً سارة وحيدة وسط الطريق.

***

**بعد نصف ساعة**

حالما دخلت الشقة سمعت نداء أيوب من غرفة الصالة "جهاد "تنهدت جهاد بتعب وجوع، ثم أغلقت باب الشقة وتحركت وهي تلبي النداء قائلة بعفوية "أنا قادمة»

وجدته يجلس على الكرسي المنجد المريح قرب الشرفة المطلة على الشارع، الستائر تتحرك بخفة فأدركت أن ضرفتي باب الشرفة مفتوحتان، انزعجت جهاد وهي تفكر بغيظ أن أيوب كان يراقب!

جلسته على الكرسي كانت مسترخية، على الأقل في ظاهره يبدو كذلك بينما أسند العصا جانباً وهو يسأل بهدوء غريب "أين تأخرتِ؟ "ردّت وهي تقترب منه وتدلّك رأسها من صداع ألمّ بها "كنت أكلّم سارة "رد وهو يتفحصها بشكل غريب "أعلم، ثم دخلتِ المقهى "وقفت على بعد خطوة منه وهي تقول "ذهبت لأكلّم العم

عبد الصادق، كان قلقاً عليّ و.. "قاطعها بشكل مفاجئ متسائلاً "عبد الصادق فقط؟ "نظرت إليه وشعرت بتردد تلقائي كأنها تنكمش منه لكنها قالت بصدق "والاستاذ هلال أيضاً "

رغم توترها منه إلا إنّ الأفكار تشتّتها في أكثر من اتجاه، سارة وحمزة أقدما على خطوة كانت تمناها جهاد بفارغ الصبر، ولا يعنيها كثيراً أسباب سارة للقبول بحمزة الآن، فستدرك صحة الاختيار لاحقاً، من جهة أخرى لا تريد إطلاع أيوب، فهي لا تأمنه على شيء يخصّ سارة، ولا تريده أن يفسد الخطبة بأيّ تصرف.

أخذت تنظر إلى أيوب دون أن تنظر إليه حقاً، فلم تتنبه لعينيه اللتين تدرسانها عن كثب، أما جهاد فهي تنظر إليه عبر حاجز زجاجي وتتفكّر بكلام العم عبد الصادق والاستاذ هلال، لقد كانا قلقين للغاية من الفكر الغريب الذي يتخذه (زوجها) حول علاقته بالله سبحانه، فتضع كلامهما في كفّة وما عرفته عن ماضي أيوب العريم وعائلته المرعبة في كفّة أخرى، كان حملاً ثقيلاً تحمله بمفردها، ويجب أن يظل الأمر هكذا، فهل تملك ما يكفي من القوة؟!

« هناك ما تخفينه عني»

رمشت جهاد بعينيها كأنها تمسح الزجاج لتتوضح الرؤيا، وبحركة غريبة مدّ يده ليمسك معصمها برقة مدروسة ومؤثرة وقبل أن تبدي ردة فعل رافضة كان يشغلها بالكلام السلس وهو ينتقل لموضوع بعيد عن حي الخاتون "هل استمتعتِ مع جيلان؟ "

لم تعلم ما هذا الانتقال العجيب وقد ظنت أنه سيجري تحقيقاً معها حول ما قالته لسارة والآخرين، بينما لمساته المؤثرة تجعلها تتخدّر بإحساس مريح يخفّف عنها الضغط، فترد بعفوية طباعها قائلة بعبوس "ما حكاية جيلان التي تعيش دور الحريم في قصر السلطان؟! يبدو أنها متأثرة بالمسلسلات التركية التاريخية وعهود الجواري "ابتسامة خطيرة كان تتسع على فم أيوب فتصوّرت جهاد أنه يغيظها لتضيف في استنكار "ما معنى تلكما القبلتين على خديك! وذاك الثور زوجـ.. "عضت شفتها لتمنع نفسها من التجاوز على أخيه، سيظل أخاه ومؤكد لن يرتضي المساس به، يستمتع أيوب وهو يقرأ ما يدور في خلدها فيقول بصوت مؤنّب "لسانك يا جهاد كالمنشار "تورّد خداها وهي تعتذر بجدية "أنا آسفة.. أعلم أن بعض الناس تتعامل ببساطة وأريحية في العلاقات الأسرية دون نيّات سيئة، ورغم أني أرفضها شخصياً ولم أعتد عليها في عائلتي ومحيطي لكن في النهاية لا يعنيني كيف يتصرف أفراد عائلتك مع بعضهم».

بعد خطاب الاعتذار الطويل كانت عينا أيوب معلقتين بخديها ثم بحركة مفاجئة كما فعلها في مرة سابقة سحبها بقوة ليجلسها على فخذه الأيمن لتشهق جهاد وهي تعترض وتحاول الوقوف، لكنه بخبث قال لها "جيلان كانت مرشّحة لتكون زوجتي أنا لا قابيل "هذه المرة شهقتها كانت استهجاناً صريحاً لتهدأ في حضنه وهي تهتف "الله أكبر.. حقا أتنازل عن معرفة التفاصيل القذرة! "يضحك أيوب عالياً ثم يقول لها مفسّراً "ليست هناك قذارة في الموضوع يا نملاوي، جيلان ببساطة مُقرّبة من العائلة منذ صغرها وهذا كل ما في الأمر، إنها تُقبّل خدّي هارون وآدم أيضاً، نحن لا نتكلم عن حيّ الخاتون هنا "يده تتسلّل حول خصرها بينما جهاد غافلة وهي تواجهه بالقول الصريح "أ تنكر أنها تحمل لك مشاعر خاصة؟ ربما ليست رومانسية لكن خاصة "رد وعيناه تطوفان بشفتيها الناعمتين "لا.. لا أنكر "ثم فجأة رفع نظراته إلى عينيها ليطلب بخفوت "ألمسيه "عقدت حاجبيها بارتياب "ما هو؟ "رد بخفوت وإلحاح غريب في عينيه "التشوّه "أخذ قلبها يقرع بقوة دون سبب بينما نظراتها لا إرادياً تميل إلى جانب وجهه الأيمن المشوّه لتسأل بحيرة "ولماذا ألمسه؟! "صوته تغيّر ليكون آمراً على نحو مؤثر وهو يطالبها بإلحاح أشد "أثبتي لي أنك لا تهتمين "شعرت وكأنه يحتاج دعماً فقالت بصدق عفوي وهي تحدّق بذاك التشوه "لكن حقاً لا أهتم "بلمحة مزاح همس "إذن ألمسيه، لن يعضّك! "شعرت بمقاومة غير مرئية تتحرك داخلها بينما قلبها ما يزال يخفق بقوة لتقول

له ما خطر ببالها "ألا تكفي لمسة شفتيّ جيلان لتثبت لك؟ "قبضتْ يده اليسرى على كفها الأيمن بقوة فهتفت جهاد وهي تحاول التملص "أترك يدي أيوب قبل أن أصرخ "لكنه لم يأبه ليفرد كفها عنوة فوق الجزء المشوّه من خده ثم قال بنبرة قوية وعيناه الداكنتان تلمعان ببريق خاطف "أخبريني عن ملمسه، أريد أن أعرف يا جهاد، أغمضي عينيك وافعلي، دوماً أردت أن يفعل أحدهم هذا ويخبرني "ذاك البريق في عينيه كان أكثر تأثيراً من كلماته، امتثلت لطلبه فأغلقت عينيها وأعطت كل تركيزها لتشعر وتصف له ما تشعر به دون أن تخفي عنه شيئاً "إنه.. غير مستوٍ، متعرج في بعض المناطق، متيبس جاف "تمرّر أطراف أناملها لأسفل أذنه لتضيف "هناك مناطق من الجلد أشعر وكأنها أرق سمكاً ومناطق أخرى.. "

تسهب في الوصف وهو يستمع، كانت لا تُقاومْ وهي تلمسه هكذا، لقد خطّط أن تكون هكذا كما يراها اللحظة، في حضنه وتلمسه، شديدة الصدق، تتعاطف في ولاء وليس إشفاق، حساسة وصريحة، أنثى تقع في السحر دون أن تدري، مُغرية وشفتاها معقل الإغراء!

بهجوم مباغت كان يعتقلها بين ذراعيه ثم أوقع شفتيها في أسر شفتيه، كانت ترفضه وتقاومه لكن جسدها ارتعش بقوة للمرة الأولى في استجابة منفلتة! أبعدت وجهها وهي تلهث وتضرب بقبضتيها فوق كتفه تهتف

بصوت مجروح "دعني.. أيوب "يقبل عنقها بحرارة تشع منه وتوقظ جوعه بينما يهمس بخفوت "قلبك يخفق بقوة "ما تزال تحاول مقاومته ومقاومة نفسها وقد استطاع لمس تأثرها كامرأة، ترتجف بينما هو يسألها بخفّة "ماذا كنتِ تحكين للصغيرين في الحديقة؟ "لكنها لم تقع في فخ الإلهاء مرة أخرى لتزداد مقاومة وهي تهتف بإصرار "قلت لك اتركني أيوب "يمسك وجهها بين كفيه ببعض الخشونة ليقول ببريق عينيه الخطيرتين "أنا لا أترك إلّا إذا رغبت بالترك "كان تهديداً أكثر منه تصريحاً، لكن جهاد بتهورها ترد عليه تقارعه "ربما يجب أن تجرب إحساس المتروك غصباً! "

أنفاسهما متسارعة معاً وشمس أول العصر تمنح هالة حولهما، لم يفلتها أيوب ونحول جسدها اللذيذ يسهّل عليه المهمة فيقارعها بدوره قائلاً "ولا في احلامكِ سيتحقق هذا "

زمجرت لتحاول بقوة أكبر أن تفلت وتنهض عندها قال أيوب وهو يميل لعنقها يقبله بارتعاش الرغبة "ما الذي كان يفعله معك بالضبط؟ "تحاول إبعاده ودموع شفافة تلمع في عينيها بينما تسأله بضراوة "من؟! عمّن نتكلم يا مجنون! "رد وهو يهبط بقبلاته لنحرها "زوجك السابق! "شعور الخطر المُحدق جعل جهاد تنتفض بكل ما تملك من قوة فتقاوم بشراسة حقيقية لتبعده، ضحك أيوب

فجأة ليحررها فجأة! هبّت لتقف على قدميها وجسدها كله ينتفض بقوة، لفّت ذراعيها حولها بقوة بينما يقول أيوب بنبرة ساخرة خاصة "تبدين متحفظة جدا في الـ..» صرخت فيه تقاطعه بالقول "هل قال لك أحدهم أن الفتاة تتحول لمومس بعد زواجها مباشرة؟! "أخذ ينظر إليها من فوق إلى تحت، يُظهر رغبته فيها كاملة وببطء شديد كي تراها وتستوعب جديتها فيجعلها ترتجف ذعراً! ثم قال ليرد عليها ببساطة "بل تتحول إلى امرأة ترغب بالمزيد وقد اكتشفت خبايا أنوثتها التي استيقظت "

لم تحتمل جهاد أكثر من هذا الضغط، لتجري هاربة من أمامه وشعور بغيض جداً ينتابها! شعور ترفضه بقوة وتأبى الاعتراف به.

***

**بعد ساعة..**

دخل عليها حمزة لتفتّتَ قلبه وهو يراها تجلس خلف طاولة مكتبها الصغيرة تشبك كفيها ببعض فوق سطح الطاولة بينما تحدق في الفراغ وهي لا تشعر بما حولها على الإطلاق، شعر حرفياً بالبؤس والشقاء! لماذا لها هذا التأثير المرعب عليه؟! عقد حاجبيه وهو يتقدم منها مُعلناً عن وجوده بالقول الخشن "أنتِ متأخرة في إغلاق المكتبة،

هيا لأساعدك كي تعودي للبيت قبل الغروب "رفعت نظراتها بإجفال نحوه، رمشت أكثر من مرة بحركة متتابعة وهي تتمتم بنبرة رقيقة مهمومة "نعم.. شكراً "

أخذ يشتم وهو يحرّك الأشياء من مكانها بينما تقف سارة لتغادر كرسيها وتتقدم نحوه وصوتها يرتجف ضعفاً وهي ترشده ليساعدها في تجهيز المكتبة للإغلاق، لم تمض خمس دقائق عندما انحنى ليحمل صندوق كتب وقبل أن يرفع جذعه ترك الصندوق ليفلت من بين كفيه ويرتطم بالأرضية بقوة ثم استقام واقفاً وسارة تنظر إليه بدهشة!

تقدم منها حتى وقف أمامها مباشرة لا يفصله عنها إلا بضع سنتيمترات، يحدق فيها وهي ضعيفة تائهة هكذا بينما تلتصق بحافة منضدة المكتب خلفها، قال دون مقدمات وهو يتقطّع من الداخل "هل تعلمين يا سارة؛ كنتُ سأموت لأعرف الإجابة! "تمتمت ببلاهة وهي تنظر في عينيه "إجابة لأي سؤال؟! "كان جسده الضخم ينتفض في ألم حقيقي بينما ينطق ذاك السؤال الحبيس "هل كانت أنتِ أم جهاد من ذهبت ذاك المساء إليه؟ "تجمدت للحظة ثم تجمعت الدموع في عينيها بينما يزفر حمزة أنفاسه بقوة قبل أن يضيف "لكني لم أعد أريد الآن؛ يكفيني أن تفكري بي كزوج عند الضرورة "همست اسمه وهي تقاوم البكاء "حمزة "فيعترف ببساطة والعذاب يطلُّ من عينيه "أنا أحبك لهذه الدرجة وأكثر "همست وهي تبعد نظراتها

عنه “أرجوك لا تعذبني ”

فكّر حمزة أنّ عذاب الهوى لا يغلبه إلا الهوى نفسه، ينظر لرقتها فيذوب ويكاد لا يصدق أنها رضيت به زوجاً، ثم يقارن تلك الرقة بخشونة كفّه فيعبس، أخفى يده خلف ظهره بينما يبتلع ريقه ويقول بنية صادقة متهورة “لم أحب القراءة يوماً، لكن إن كان يرضيك ويقربك مني سأحاول أن أجبر نفسي لأحبها، يمكنني قراءة كتّاب كل اسبوعين أو ربما.. كل شهر؟ “أغمضت سارة عينيها بقوة وتساقطت بضع دمعات لم يتنبه لها حمزة وهو يضيف المزيد من العروض المتهورة في قاموس حياته “لا أعرف كيف أشتري أزهاراً! حقّاً لا أعرف، فلا أفهم لغتها ولا أميّز الفروقات بين كل لون وما يعنيه، لكن إن كان مهماً لك أخبريني فقط أيّ الألوان تفضلين كي لا أرتكب حماقة في الاختيار “ثم بدا مرتبكاً كطفل وهو يصف كيف ستكون حالته “سأجد صعوبة في تقديمها لك لأني رغماً عني أرى تقديم الأزهار كهدية من الرجل إلى الفتاة التي يحب، سخيفاً ومصطنعاً! “رفعت سارة يدها لتمسح خديها ثم ترفع وجهها إليه لتقول بتأثر لمحاولاته “حمزة أنت لستَ ملزماً بإرضائي هكذا! “لكنه كالثور لا يستمع بينما يدلي بكل ما يجول في خاطره “لا أجيد الغزل ولا النظرات ولا.. “يرفع كفه ليمسح وجهه وكأنه يعاني! ثم قال “استغفر الله العظيم، ما هذا الكلام السخيف الذي أقوله؟! “عقد حاجبيه بعزم لينظر إليها ويقول باختصار

وخشونة لا تليق بمن يخطب ودّ فتاة يعشقها “باختصار سارة، حدّدي ما تحتاجين مني وأنا سأحاول تنفيذه وأمري لله!»

عندها لم تتملك سارة نفسها ودموعها صارت تجري على خديها دون توقف فشعر حمزة بالضياع والارتباك التام! شتم نفسه ثم قال “بالله عليكِ لا تبكي هكذا! أنا سأتحسّن صدقيني، أنا لستُ هكذا في العادة، لكني.. معك لا أدري ما يحصل لي!»

أخذت سارة تشهق بالبكاء وحمزة تحرك ليدور في المكتبة بحثاً عن مناديل ورقية فلا يجد! وأخيراً استأذنت لتدخل الحمام الصغير في آخر المكتبة كي تغسل وجهها، فظل حمزة بانتظارها حتى عادت، وقبل أن يعتذر مجدداً قالت سارة بصلابة “أمي وجدتي ستنتظران اتصالاً من والدتك لنحدّد موعد الخطبة وعقد القران وباقي التفاصيل»،

***

بعجب ودهشة قال توفيق وهو يرد على طلب أيوب “ما الذي ذكّرك بهذا الموضوع الآن يا أيوب؟ ما الذي أثار ريبتك كي تتحرى بعد هذه السنوات؟! هل قال لك إخوتك شيئاً بهذا الخصوص اليوم؟ “بنبرة آمرة قال أيوب “أفعل ما أطلبه منك يا توفيق ولا تجادل “فامتثل توفيق

قائلاً "أمرك، سأبدأ منذ اللحظة "ثم أضاف توفيق وهو يعود لنبرة المكر "اذن عدتَ للعبة؟! "فرد أيوب وعيناه تلمعان "اللعبة هي التي عادت إليّ، تدحرجت حتى وصلت راحة كفّي "قالها أيوب وهو يبسط راحة كفه؛ يحدق في تفاحة وهمية تشع بحمرة قانية، لكن هذه المرة؛ تفوح رائحة العفن المخفي في الداخل وبشكل فاضح!

سأل توفيق بفضول لم يستطع منعه "هل ستدخل الصفقة بمفردك؟ "ظهر الجانب الأسود من أيوب وهو يقول "لقد كبرت على ألّا تدرك خطورة الكلمات الخطأ والاسئلة الفضولية يا توفيق "سارع توفيق للاعتذار بخضوع تام "عفواً.. أعتذر منك سيد أيوب»

أغلق أيوب الهاتف النقال ثم حنى رأسه قليلاً للأمام وأغمض عينيه ليرتّب الأفكار والمعلومات، كل شيء سيتم في توقيته الصحيح، لم يشوّش تلك الأفكار إلا صوت آدم **(وماذا فعلتَ يا أيوب عندما اكتشفتَ ذهابي لتلك العيادة؟! هل ساعدتني؟ الجواب هو لا.. بل دفنتَ السر بطريقة آل عريم ودفنتني معه)** فيعقد حاجبيه وهو يتمتم يكلم نفسه "لم أعد أعرف لو عاد بي الزمن للوراء هل كنتُ سأتصرف بنفس الطريقة وأدفن سرّ آدم؟ ولو كان آدم أخبرني عما يحصل بينه وبين زوجة أبينا هل كنت سأساعده حقاً فأمنع ما جرى له فيكون اليوم رجلاً طبيعياً؟»

كلمات جدته حاضرة بقوة **(انجُ بنفسك وذريتك قبل فوات الأوان)** يهمس أيوب بتفكير عميق "أ تراها جدتي قالت المثل لأبي ولم يستمع؟ وها نحن الذرية البائسة لعريم نواصل المسير بنفس الدرب! وغداً الصغيران يوسف وسيف سيبتليان بنفس اللعنة؟ أ هي لعنة الحرام حقاً أم هي ببساطة لعنة البشرية جمعاء منذ خلق آدم وحواء؟!»

صوت باب غرفة (النملة) انفتح بحدة! ليبتسم أيوب بشيطنة وصوت خطواتها الغاضبة تقترب من غرفة الصالة حيث ما يزال جالساً على نفس الكرسي الذي ضمهما معاً، يده ارتعشت إثارة وانشدّ مجدداً مع وجودها المتهور في حياته.

ربما كان يرى جهاد وحّة وهو في عزلته وتوأمتها البريئة سارة على بوابة المعتكف تحرسه، لكن حالما غابت الحارسة وشرعت الأبواب لتدخل (الوحّة) شريكة سكن مزعجة؛ فقد بات يراها، امرأة مُفَلْفَلة!

رفع رأسه المحني حال دخولها العاصف ليبتسم بطريقة حسيّة وعيناه تتركزان على شفتيها، هل نسي طعم شفاه النساء ليستلذّ بطعم شفاه جهاد لهذه الدرجة؟!

كانت ثائرة ترتجف من شدة العصبية والانفعال وهي

تهدر فيه وسبابتها موجهة نحوه بإنذار صريح "لن تعاود فعل هذا معي، هل فهمت؟ "لم يدّعِ عدم الفهم، بل يواجهها قائلاً بغرور تلقائي مستفز "لكنه يعجبني وفي النهاية سأنال كل ما أريد، كل ما أرغبه أحصل عليه "

لا يصعب عليه فهم ما تعانيه، وحقاً بات يعجبه ما يعانيانه هما الاثنان من بعض، وإن اختلفت نوعية المعاناة!

متهورة كالعادة وهي تصدُّ غروره بمحاولة كسره قائلة بنبرة تشفٍ "لكنك لم ولن تحصل على سارة "رفع حاجبيه قليلاً ليقول بخبث "وما أدراكِ؟! لقد حصلت منها على كل ما كنتُ أريدُه "لم تشعر جهاد إلّا وهي تتقدم منه تمسك بخناقه من مقدمة قميصه تميل إليه وتصرخ فيه "اخرس أيها الـ..» أسكتها وهو يرفع يده بغتة ليحاوط عنقها من الخلف ويسحبها إليه يغلق فمها بفمه في قبلة خشنة عقابية، دفعته بقوة وابتعدت خطوة وهو يضحك، ثم قال وهو يبتسم لحركتها العنيفة الطفولية بمسح شفتيها بظاهر كفها "توأمتك دون أن تدري كانت صمّام الأمان الذي أبقاني معتزلاً في هذا المنفى بالشكل الذي قرّرته لنفسي خلال السنوات الثلاث الماضية، أردتها لهذا الدور وحصلت عليه "

تسمّرت جهاد للحظات وكأنها لم تتوقع ما قاله، ثم أخذتها الحيرة ولم تفهم مقصده بالضبط لتعبر بشفافية "لا أفهم..

تتكلم بالألغاز! "قال غامزاً وهو يعود للؤمه معها "ليس ضرورياً أن تفهمي تعقيداتي، المهم أنتِ معي الآن بدلاً عنها "هتفت به بانفعال من نوع مختلف "أنا لستُ هي يا أيوب، ولن تحصل على سارة بهذه الطريقة التي تحاول بها الحصول عليّ "نظرته ذكرتها بمواقف سابقة وهو يقول بعينين ذكيتين "أ تظنين أني لا أميّز بينكما؟ أنا رجل دقيق يا نملاوي "

لم تعرف جهاد ماذا ترد، لكنها غاضبة للغاية ولا تعرف لماذا مرت أكثر من ساعة وهي تحوم في أرجاء غرفتها لا تفهم ما يجري لها، أو ربما تفهم ولا تريد هذا الفهم!

هدرت باضطراب "أنت.. أنت "قاطع تلكؤها بالقول الصريح "بل أنتِ! ما فيه أنتِ الآن بسببكِ (أنتِ)! أنتِ غاضبة لأن ما يحدث بيننا بات يعجبك؛ فتشعرين أنك تخونين توأمتك بانجذابك إليّ "ربما قالها في غرور حقير، في ثقة مقيتة، لكنه قال الحقيقة!

للمرة الأولى منذ انفصالها عن غيث تشعر جهاد بهذا، في لحظة ما وأيوب يضمها بقوة إليه أخافها احساس استيقظ جائعاً بغتة؛ إحساس أنثى جربت العلاقة الزوجية ثم تخدّر ذاك الإحساس بفعل تجربة الانفصال والإجهاض فتوارى حتى كادت تنساه.

شعرت مجدداً أنها تخون سارة ولا تعرف كيف! دمعت عيناها وهي تنظر نحوه بحقد وتقول باتهام صريح كصراحته بكشف ما يعتريها "إذن ما تزال تبحثُ عن الانتقام! "تتسع ابتسامته وتلمع عيناه بتسلية مظلمة وهو يرد عليها "إنه انتقام صغير مُسلٍ في الواقع، لكن لدي الآن ما هو أهم وأكبر وأخطر، ويسليني أكثر! "

لم تفهم بالضبط ما عناه؟! أ تراه يقصد إخوته الأنذال؟!

أضاف وكأن لعبة الانتقام الصغيرة استهوته اللحظة "وفي النهاية ها أنتِ عالقة معي كزوجة وتوأمتك سارة لن تتزوج الميكانيكي "كم كانت سعيدة الآن، ستضحك عندما ترى وجهه حالما يعلم بخطبة سارة وحمزة الوشيكة، لكنها اكتفت بالقول "سترى غرورك كيف سينكسر قريباً يا أيوب العريم»

فجأة أصدرت معدتها صوت قرقرة الجوع فاحمرت وجنتا جهاد وهي تضع كفها فوق معدتها الخاوية بينما أيوب يضحك دون توقف، زمجرت وهي تقول "أطلب عشاء من السوق، أنا لن أطهو شيئاً «

ثم تحركت بخطوات غاضبة عائدة لغرفتها وما تزال ضحكات أيوب تلاحقها. بعد مغادرتها الغاضبة اتصل أيوب ليطلب لهما الطعام، إنه يتضور جوعاً مثلها، تبسّم

وهو يفكر بجسدها الصغير الرقيق، أجل.. هو يحب المرأة المُفَلْفَلة التي تتهور باندفاع، منذ حداثته ومعرفته بالنساء وهذا ميله، وزواجه بسارة كانت تجربة تثبت نظريته عن نفسه، علاقته الجسدية معها كانت مملّة للغاية، في البداية تصور أنها بريئة فقط لكنه اكتشف بعدها أنها خرقاء بمعنى الكلمة، التوتر يملؤها حالما يلمسها ولا يعرف لماذا؟! لم تعجبه روحها كأنثى سلبية فبهتت تماماً في عينيه حتى لم يعد يراها إلّا كطيف حزين يهمس بأسى ويعاتب بطيبة مستفزة، في وقتها كان يراها مُضحكة، أمّا اليوم.. فلا يرى إلّا خسّته في بؤسها الذي رافقها حتى نهايتها المروّعة.

توترت قبضتاه وهو يتمتم "إن كان صحيحاً ما أشك فيه يا سارة فهذا أقل ما أفعله لأجلك؛ أن أعيد لك في قبرك حقاً من حقوقك من هذه الدنيا التعسة»

غروب الشمس جعله يسترخي ليغمض عينيه تلاحقه كلمات آدم مجدداً وصوت جدته المنادي، لتنتهي أفكاره بذكرى لمسات جهاد المستكشفة فوق جلده المشوّه حتى أخذته غفوة!

***

**بعد ساعة..**

وجه جهاد شاحب وهي تقرأ المزيد عن (عائلة العريم)، في المرة الأولى التي بحثت فيها عنهم أخذتها تفاصيل حكاية أيوب والحريق، صحيح اطلعت على بعض الفضائح وصور الصحف الصفراء التي تتابعهم وخاصة هارون العريم، كما اطلعت على مقالات اقتصادية عنهم وإشارات حذرة غير مباشرة ولا مفهومة لها عن أعمال تجارية تخصّهم، لكن بالمجمل ارتعبت من الهيلمان الكبير المتمثل فيهم فجعلتها تخشاهم.

الآن بدأت تقرأ ببحث معمق أكثر عن تلك الأعمال التجارية، وقد أثار فضولها ذاك التكتم والحذر، تكاد تنطق الحروف بإيحاء (صفقات مشبوهة) لكن من يكتب كان حريصاً أن يكتفي بالإيحاء دون التصريح، كما وجدت مقالات أخرى تتكلم عن تلاعبهم مع الصحافة بذكاء وحرفية فريق محامين بارعين.

جملة واحدة أفلتت من صاحب مقال فذكرها علانية (غسيل الأموال القذرة)! فاتسعت عينا جهاد وهي تحدق فيها وتردّدها بلسانها.

أجفلت بقوة على صوت ضربات عصاه على الباب ثم صوته الساخر وهو يقول "الطعام سيصل خلال دقيقة يا نملاوي، وستشاركيني به على الطاولة كأناس متحضرين، وإلّا فابقيّ حبيسة غرفتك ولتعزف معدتك سمفونية (قتلني

الجوع)»

زفرت جهاد بقوة ولم تكلف نفسها عناء الرد، بل تسمع صوت ضحكاته المستفزة وهو يبتعد.

أغلقت الحاسوب وهي تشعر بالضيق، تفكر بالذهاب لرؤية أمها وجدتها لكنها لا تستطيع مواجهة سارة، إنها مرهقة من كل أحداث اليوم الغريب الثقيل هذا!

***

على مائدة الطعام يراقبها أيوب، تبدو عابسة الوجه ساهمة النظرات لكنها تأكل بنهم من البيتزا، اتخذت موقفاً متشدّدا معه فلا تكلمه ولا تنظر ناحيته، ابتسامة صغيرة على فمه سبقت التهامه لقطعة البيتزا من صحنه.

على حين غرّة توقفت جهاد عن مضغ الطعام ثم أخذت تحدق في البيتزا بنظرة غريبة للغاية أثارت اهتمامه وفضوله، ابتلعت اللقمة كأنها تبتلع حجارة وهي ما تزال تحدق في المتبقي في صحنها ولم تكن قد أكلت حتى نصفه، طال تحديقها وبدت مرتبكة، ثم رفعت عينيها إليه دون أن تنطق!

سألها بدهشة "لماذا توقفتِ عن الأكل فجأة؟! "زمّت

شفتيها ثم قالت بأسلوبها المباشر المتهور "أريد أن أعرف أولاً، هل صحيح أنّ عائلتك.. أقصد أنّ شركات العريم متورطة في غسيل الأموال؟ "يده التي تمسك بقطعة بيتزا لم تهتز وهو يبادلها النظر بينما تضيف جهاد وكأنها تكلم نفسها أكثر مما كانت تكلمه "رغم أني لا أعرف بالضبط ما هو غسيل الأموال، لكني أعرف أنها أموال غير شرعية "بهدوء رفع القطعة إلى فمه ليقضم منها ثم تساءل وهو يمضغ ببطء "إلى أين سيقودنا هذا؟ وما علاقته بتوقفك عن الأكل؟ "عقدت حاجبيها لتسأله دون مراوغة وهي تشير للبيتزا "من أين.. أقصد ما هو مصدر المال الذي تنفقه؟ "لقمة أخرى في فمه وهو يرد بنفس الهدوء "الطعام مدفوع ثمنه من ريع أملاكي في حي الخاتون، هل يجيب هذا عن سؤالك؟ "فجأة دفعت كرسيها للخلف لتقف على قدميها وتقول بوجه متجهم "وأنتَ اشتريت هذه الأملاك بأموال العريم، إذن شكراً، كُل بمفردك»

لم تتحرك وهي تنظر إليه كأنها تنتظر منه أن يقول أي شيء فيكتفي أيوب بالقول الآمر في برود شديد "اجلسي جهاد "هتفت وهي تضرب بقبضتها فوق الطاولة "لا أستطيع أن آكـ..» قاطعها بنفس البرود ليقول بنبرة عملية "أنت تتضورين جوعاً وليس هناك أي طعام آخر في البراد "أخذت تهز رأسها رفضاً وهي تقول بصدق يلمع في عينيها "لا أستطيع أيوب "توقف عن الطعام ليرتفع صوته وهو يقول بقوة "لا تتفوهي بالسخافات وتناولي طعامك "لكنها

ردت بكلمة واحدة عنيدة "لا»

تجابهت النظرات، وأوشكت أن تنسحب جهاد عندما قال لها أيوب "ماذا إن قلتُ لك أنه ليس من مال العريم؟ "لم تصدّقه لتهتف به "أقول أنك تكذب "قال بغرور "ألم تعرفيني كفاية يا جهاد لتعلمي أني لا أكذب؛ لا يهمني أحداً لأبذل مجهوداً بالكذب عليه "فترد عليه حجته بالقول الاتهامي "لكنك تكذب على أمي طوال الوقت "لمعت عيناه وهو يقول "هذا ليس كذباً وأنتِ تعلمين، كانت لعبة صغيرة انتقامية تسليني "ثم اشتد اللمعان وهو يضيف "وما تزال تسلّيني، حتى وأنا مشغول بلعبة حقيقية خطرة مع آل عريم»

لم تهتم لكلامه، بل تحركت بالفعل لتتركه وتغادر فتنهد أيوب وهو يقول كأنه يناديها كي تعود "جهاد.. إنه حلال "تحرك ناحية الباب وهي ترد عليه "آسفة لأني لا أصدقك "ثم التفتت برأسها تضيف بصلابة "أبي علمني أن أتحرّى الحلال في كل صغيرة وكبيرة "كابر فلم يرد عليها ولم يوضح المزيد بينما واصلت جهاد المسير وعند الباب كانت تتمتم "شهيتي للطعام تلاشت، بل أشعر بمعدتي انقلبت! "ثم نظرت إليه في جلسته المعتدة على الكرسي ونظراته لا حياة فيها إلا صمت كئيب لتضيف بشعور ثقيل على النفس "لم أعد أدري ما أفعله هنا معك!»

مرت خمس دقائق كاملة بعد مغادرتها وأيوب لم يتحرك من مكانه، شعر بغضب شديد وقد باتت كلمة (الحلال) تلاحقه! انسدّت شهيته هو الآخر ليتحرك من كرسيه بعنف مستنداً على عصاه، لم يطق البقاء في الشقة الكئيبة وقد تركته جهاد لتعتصم في غرفتها تقفل على نفسها الباب! تحرك نحو باب الشقة وهو يشتم بعنف قبل أن يفتحها ويغادر.

***

## جامع عبد الفتاح باشا

يجلس أيوب في الزاوية وهو يفكر بغيظ، ما الذي أتى به إلى هنا؟ يرخي رأسه للخلف يستند للحائط وعيناه تدوران في المكان، تعلّقت نظراته بسقف الجامع ليكتشف جمال زخرفه، شعر ببعض رواد الجامع يتنبهون لوجوده ويتهامسون لكنه لم يلتفت إليهم فتركوه لشأنه، ما يزال السؤال يتردد بقوة (ما الذي أتى به إلى هنا؟!)، زفر نفساً من أعماقه وعيناه تهبطان من سقف الجامع إلى ما حوله، دون تفكير منه كان يبحث عن وجه الشيخ عبد المُعز لكنه لا يراه، ثم جذب نظره دخول رجل مُسن إلى الجامع يتلفت حوله، بملابس ريفية من جلباب رمادي بسيط الحال وكوفية يشدّها حول رأسه كما يفعل أهل الريف، بدا الرجل تائهاً حتى أنّ أيوب شكّ أنه يعاني من

مشكلة عقلية بنظراته المرتعبة الهلوعة! ثم بعد قليل أخذ الرجل يسأل المُصلّين دون أن يعرف أيوب عمّا يسألهم بالضبط لكنهم يردّون عليه بهزّ رؤوسهم نفياً، وما يزال على حاله ورواد الجامع يقلّ عددهم حتى لم يعد هناك إلّا بضعة أنفار، والرجل لم ييأس كما لم يفارق ذاك الهلع ملامحه، ثم أخيراً جلس الرجل متربعاً على الأرض ويميل بجذعه للأمام ليضع كفيه فوق رأسه كأنه في مصيبة!

لم تفارق عينا أيوب ذاك المسن، شعور غريب اكتنفه وكأن الرجل يذكره بجدته! لم يحدّد بالضبط ما هو المشترك بينهما لكن هذا ما سيطر عليه اللحظة، لم يشعر أيوب بخيال الشيخ عبد المُعز يقترب منه ثم جلوسه جواره وهو يلقي التحية "السلام عليكم يا سيد "التفت أيوب مجفلاً ينظر إلى وجه إمام الجامع البشوش فيرد عليه "وعليكم السلام "ثم صمت حتى طال صمته ليبدأ الشيخ بالكلام "كيف حالك يا سيد؟ عساك بخير إن شاء الله "رد أيوب بالقول دون تفكير "أ يدفع الابناء ثمن أخطاء الآباء؟ "ارتفع حاجبا الشيخ قليلاً وقبل أن يرد جاء نداء خافت مستغيث "يا شيخ.. بالله عليك يا شيخ»

التفت كلاهما إلى ذاك الرجل الريفي المُسن وهو يقترب مهرولاً منهما وقد قام من جلسته، ودون أن ينظر الرجل إلى أيوب سارع لينحني ويجلس متربعاً قبالة الشيخ عبد المُعز ويقول بأنفاس متسارعة "احتاجك في مسألة يا شيخ

"مدّ الشيخ عبد المُعز يده ليربّت على ساق الرجل كأنه يبثّه طمأنينة ثم يقول له بتسامح "لا بأس عليك، سأفرُغ لك خلال دقائق يا حاج "لكن الرجل توسل بعينيه وكلماته "بالله عليك يا شيخ، لا أحتمل الانتظار "تجمّعت دموع في عينيه وأيوب يزداد فضولاً فيقول للشيخ عبد المُعز "سأنتظر، فلتسمع مسألته»

ابتسم الشيخ ليقول للرجل المسن وهو يهمّ بالنهوض "تفضل معي يا حاج، سنذهب إلى.. "لكن الرجل أوقفه وهو يمسكه من جلبابه الأبيض ليقول بكلمات متلاحقة لا تحتمل الصبر "أنا أعمل في فرن ولي عيال كثير "اعتدل الشيخ في جلسته وأصغى باهتمام وهو يقول له "حفظهم الله لك "ليكمل الرجل حكايته "أوقفني شاب يحمل مِكْروفون ومعه شاب آخر يصوّر بالكاميرا، ثم سألني الشاب الأول عن اسم ما ألبسه فوق رأسي "قالها الرجل وهو يشير إلى كوفيته فيقول الشيخ بصبر "وبعد يا طيب ماذا حصل؟ "فقال الرجل "أجبته نسميها كوفية أو عمامة "ثم مدّ الرجل يده داخل جلبابه وأخرج ضبّة من المال ليقول بنظرة هلع عظيم "ثم أعطاني هذا المال وهتف الشاب (ربحت جائزة معنا)! "

تتسع عينا أيوب وهو ينظر إلى ضبّة المال وقد بدت أوراقاً نقدية جديدة لامعة كأنها مصروفة من البنك للتو، تتناقض بشكل غريب مع الجلباب القديم المُهلهل الذي

يرتديه الرجل، حتى اللحظة لم يفهم أيوب ما المشكلة؟! مؤكد هي إحدى البرامج لغرض الإعلان للقنوات الفضائية فيطرحون اسئلة بسيطة للمارة وعندما يجيبون يمنحونهم (جائزة نقدية)، فما بال الرجل المسن هلوع من (الجائزة) هكذا؟! ألا يجب أن يطير فرحاً ليعود بالمال إلى عياله؟!

تفاجأ أيوب للغاية والمُسن الفقير تهطل دموعه وهو يرفع ضبّة المال يهزّها بكفه وهو يرتجف حرفياً ويسأل الشيخ "بالله عليك يا شيخ؛ أحلال هذا المال أم حرام؟!»

***

# الفصل السادس عشر
# قربان أيوب

«بالله عليك يا شيخ، أحلال هذا المال أم حرام؟!»

قلب أيوب يهتز بعنف في صدره، عيناه لا ترمشان وهما تحدّقان في المسن المرتجف وكيف ترفع يده ضبّة المال، ذاك المال ينادي كلمة (حلال) كي يهنأ به مالِكُه، أو تلقي به كلمة (حرام) إلى قعر جهنم ليُحرق من يفتنه وعلى عياله يُنفِقُه.

لم يعد أيوب يسمع رد الشيخ لذاك الرجل الفقير، فليس مهماً الرد! المهم أنّ أيوب واثق بشكل غريب بأنّ هذا الرجل مهما بلغ احتياجه فلن يأخذ ورقة نقدية واحدة إذا لم تكن ممهورة بختم الحلال.

تاه أيوب في ملكوت آخر فيرى نفسه اليوم وكأنه يقف على حافة نهاية الدنيا وحيداً وشريط حياته يمرّ أمامه، ليس حياته هو فقط، بل وحياة إخوته وأين آل مآلهم، وقبلهم حياة أبيه وجده، ولا ينسى دموع الجدة المشفقة التي لم يكن يفهمها! إلحاحها.. توصياتها، محنتها الكبرى لأنها مُجبرة على العيش معهم في قصر فخم يضجّ بالترف

والخدم.

مضى المزيد من الوقت ليغلق عينيه ويتعمّق في المأساة! ذاك الحريق الذي سلب منه حياته الماضية ووضعه في جوف حياة أخرى، حياة ظنّ أيوب دوماً أنه هو من اختارها بإرادته يوم قرّر معاقبة (المال الحرام) بأن لا يقربه! ليعتزل ها هنا في حي الخاتون يعيش وهم (القدرة).

أهو قادر بالفعل؟ أم هناك قدرة تفوق حتى خياله؟! أهو مُعتزل بإرادته، أم مجبور على مشيئة خالقه؟! أهو مُعاقِبٌ للحرام، أم مُعاقَبٌ مِمّن شرّع الحلال والحرام؟!

شعر بيد تربّت على ذراعه ليفتح أيوب عينيه فلا يرى إلّا وجه الشيخ عبد المُعز، يتبسم وهو يسأل برفق "ماذا كان سؤالك يا سيد كي أردّ عليه بمشيئة الرحمن؟»

تطلعت عينا أيوب يميناً ويساراً فلم يجد أثراً للفقير المسن، عاد لينظر إلى الشيخ وبدلاً من أن يطرح ذات السؤال طلب منه بهدوء "احكي لي عن المال الحرام»

وكأن الشيخ كان ينتظر منه السؤال! ينتظره منذ الزيارة السابقة عندما سأله أيوب عن معنى كلمة (ضريع)، ردّ الشيخ بعد البسملة والصلاة على النبي قائلاً "إن كنتَ

تسأل عن أبوابه فالغالب في المال الحرام اليوم أن يأتي من باب الربا، وقد يأتي من باب الرشوة سواء الراشي أم المرتشي، وأيضاً باب السرقة وباب المال المغصوب "

الشيخ يسطّر صحيفة أعمال أيوب دون أن يدري! كل صفقات العريم تقوم على موارد من تلك الأبواب، وبمبالغ طائلة قد لا تخطر في بال هذا الشيخ.

يسترسل الشيخ بالشرح "من تجرأ على الله عز وجل وجمع المال من هذه الأبواب وغيرها من أبواب الحرام فقد عرّض نفسه لأنواع العقوبات العاجلة منها والآجلة»

وكأنّ آثار الحروق على جلد أيوب تنطق! كأنها أكفٌ تُرفع للتعريف عن ذنوب أصحابها عند مناداتها، وكم من حروق لا ترّى بالعين ولا تفضحها كرمشة جلد! بصلابة يسأل أيوب "احكي لي عن تلك العقوبات يا شيخ "نظر إليه الشيخ مطولاً ثم قال بنبرة صوت مشفقة "المال المُحرّم ممحوق البركة والعياذ بالله، مُعرّض هو وما خالطه من الحلال للتلف والزوال، وإن بقي فلا يُقبل الله منه صدقة ولا حجّاً ولا صلة، وإنما يقاسي صاحبه أتعابه، ويتحمّل حسابه، ويصلى عذابه، فلا يمكن حصر ما سيحلُّ به وبأمواله من البلاء والمصائب، وأسباب التمزيق والتلف، لأن جنود الله الخفية كثيرة ومتنوعة: (وما يعلم جنود ربك إلّا هو)»

تتحجّر نظرات أيوب ويتجهم وجهه وذكرى ألسنة النار من حوله تشتعل في مخيلته، يتمتم دون شعوره "جنود الله الخفية!»

لم يكن سؤالاً لكن الشيخ يمدّ يده إلى العمق يقرأ ما يلهمه الله من هذا الرجل البائس أمامه فيشرح له المزيد "لله جنود لا يدركها البشر يا سيد، فقد يسلّط ظالماً على ظالم ليكون يده التي تبطش بالجبّارين، الذين غرّتهم الحياة الدنيا بما ملكوه فيها»

(يسلّط ظالماً على ظالم)؛ يا لها من عبارة! تذهله حقاً هذه العبارة، لو ثبت ما يبحث عنه حول حادث الحريق فقد ثبتت تلك العبارة عليه.

بعناد وكبر العاصي يرد على الشيخ بما يراه الحجّة "لكني رأيتُ الكثيرين يرتكبون ما هو أفظع وأشنع، يُزهقون الأرواح ويتاجرون بالبشر ويبيعون السلاح لمجاميع إرهابية تجنّد الأطفال للقتال، ولم يمسّ أحد منهم خيط عِقاب!»

كانت تعابير وجه الشيخ السمحة تزيد من ضراوة الصراع داخل أيوب ثم يأتي رده كصفعة تحاول إيقاظ أيوب "تخلف العقوبات عن بعض الناس في الدنيا قد يكون شرّاً من نزولها بهم، فإذا رأيت العاصين والقتلة

والمجرمين آمنين في أهلهم وماهم فلا تظن أنّ الله تاركهم، ولكنه يُملي لهم، حتى إذا حان أخذه لهم، أخذهم أخذاً شديداً مباغتاً، فقد قال جل وعلا: (وأملي لهم إن كيدي متين) وقال: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين)»

تقبض كفا أيوب ونظراته تشعّ بالغضب ورغبة الإنكار! غضب مستعر رهيب يمدُّ فيه الشيطان من نار التشكيك، يقرأ الشيخ كل هذا فيزيده إشفاقاً على أيوب، لكنه لم يمتنع عن إكمال حديثه عن العقاب بالقول "ومن يؤجله سبحانه لعقاب الآخرة دون عقاب الدنيا فهذا هو الخسران المبين، إنه الخطب العظيم والمصاب الجسيم، وأي مصيبة أعظم من أن يعرّض أحد نفسه لسخط الله فيكون من الذين: (تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون)»

هدر أيوب بانفجارٍ مدوٍ "لقد لفحت وجهي النيران ألا يكتفي؟! أحرقت زوجتي البريئة من الحرام ألا يكتفي؟! "دموع تجمعت في عينيه لم يملك لها حكماً وهو يضيف بنفس العنف والثورة "تفحّم جسد ابنتي بتلك النيران.. ألا يكتفي؟!»

استغفر الشيخ وصبر على القول الجلل! ثم تحمّل عصيان عبد من عباد الله في بيت في بيوته سبحانه، تحمّل الجرأة على خالق الأكوان من عبد ضئيل تقتله ذنوبه ولا يحتمل

عقابه الدنيوي!

كان أيوب ينهت والشيخ ما يزال صامتاً، ثم أطرق برأسه عندما سالت دمعته على خده وعيناه لا تريان إلّا جسد ابنته، قال الشيخ عبد المُعز أخيراً "مُصابك عظيم يا سيد، أنتَ في هوّة عميقة وقعت فيها بآثامك، وبدلاً من أن تلوم نفسك وتحاسبها، ها أنت تعاند وتكابر كما فعلها قبلك من يوسوس لك الآن! "ثم وقف الشيخ على قدميه وأضاف "بيت الله مفتوح لك على الدوام يا سيد، وأنا بمشيئة الرحمن سأكون هنا كلما شئت الحديث»

ثم تمتم بالسلام وترك أيوب في محنته، لقد شعر الشيخ أن هذا الرجل المبتلى يحتاج الكثير حتى يبرأ، كثير من الصبر، كثير من التأني والحكمة.

***

## بيت الحاج كرم

تزغرد منى حالما أغلقت الاتصال مع والدة حمزة، ترمش سارة بعينيها وكأنّ زغاريد أمها فاجأتها! فتنظر نحو جدتها ياقوت لتجدها تبتسم بحنو وشفتاها تتمتمان بالحمد والشكر، لكن نظرة عيني الجدة حملت قلقاً! تغمض سارة عينيها وهي تستسلم لحضن أمها التي أخذت تقرأ المعوذتين

وتصلي على النبي.

لم تكن سارة تفكر إلّا بجهاد، تجمع الكلمات التي ستكتبها لها حالما تختلي بنفسها في الغرفة، يجب أن تحرّر جهاد.. يجب أن تفعل.

شعرت بيد الجدة تسحبها من معصمها لتبعدها عن حضن أمها وهي تقول "بخّري البيت يا منى، ستُر البنتين فضل ونعمة "كانت تسحبها بالفعل باتجاه غرفتها بينما منى ترد بطيبة قلب "كل الجيران محبّون لنا أمي "تهز الجدة ياقوت رأسها وهي تقول بيأس "بالله عليك منى انزلي إلى الأرض! وكما قال أهلنا قديماً في الأمثال (العين لا تحب الأرجحُ منها) "ثم تصل مع حفيدتها إلى باب الغرفة فتضيف "سآخذ مقاس سارة لأتأكد، يجب أن أخيط لها المزيد من الفساتين»

***

رائحة دخان البخور تخدّر أعصاب سارة المشدودة بينما تجلس على حافة سريرها، تشعر بصمت الجدة ياقوت قد طال وهي تجلس قبالتها على حافة سرير جهاد، لم تأخذ لها المقاسات كما زعمت، بل أجلستها هكذا وغرقت في الصمت البليغ.

عادت رغبتها بكتابة رسالة لجهاد تلحّ عليها فتقول لجدتها بقلّة صبر "ألن تأخذي مقاساتي جدتي؟ أريد أن أخبر.. جهاد "عندها فقط ظهر القلق جلياً على وجه الجدة وهي تسأل بخفوت "أصدقي جدتك القول يا سارة، هل جهاد مرتاحة مع زوجها؟ "ابتلعت سارة ريقها وهي تتذكر وجه جهاد صباح اليوم قبل أن تركب السيارة الفارهة إلى جوار أيوب وفي عينيها نظرة استغاثة! فردت على الجدة وهي تجد فرصة للتمهيد "في الواقع جدتي لا أظن أنها سعيدة "ذبلت ملامح الجدة فأشفقت عليها سارة لتضيف "لستُ متأكدة لكن هذا شعوري "فمالت الجدة بجذعها ناحية حفيدتها لتمسك بيدها وتقول برجاء "أنتِ العاقلة يا سارة، كلّميها.. أفهميها أنها إذا تطلّقت هذه المرة فستقضي على سمعتها ولن تجد رجلاً يطلبها للزواج مرة ثالثة! "حاولت سارة الكلام "لكن جدتي.. "قاطعتها الجدة لتقول ببؤس حقيقي "أمك لن تحتمل، وعليّ الاعتراف يا ابنتي أني كبرتُ على الاحتمال "حاولت سارة أن تكون قوية وهي ترسم ابتسامة على وجهها لتقول للجدة "بالله عليك جدتي ألا يفترض أن نفرح بـ.. زواجي؟ لماذا نتكلم بأمور مزعجة كهذه؟! "تهز الجدة رأسها ثم تتحرك لتقف على قدميها وتقول "معك حق يا سارة، لكل حادثٍ حديث، ومن يدري ماذا سيحصل غداً بين جهاد وزوجها "ثم تمتمت وهي تسرح بنظراتها "سأنذر نذراً لأجلها»

تماسك سارة وهي تتشبّث بالابتسام، كلمات الجدة

الأخيرة أثّرت بها، وجدت نفسها فجأة تفكر في حمزة! أ تراها أمه قد نذرت النذور لأجله أيضا كيّ ترضى به سارة زوجاً لها؟! أ يحدث كل ما حدث في ترتيب عجيب ليحصل مُراد حمزة منها؟

***

خرج حمزة من المقهى وهو يستمع لأمه تزغرد عبر الهاتف وتبشّره، لم يستطع قول شيء، بل رفض أن يكون معها حين تتصل بوالدة سارة، فجاء الى المقهى ولحسن حظه وجد الاستاذ هلال الذي شغله بلعبة الدومينو، وسط الطريق يقف بعد أن أنهى المكالمة مع أمه وهو يتعثر بالكلمات معها فتضحك هي منه، الهاتف في يده ولا شعورياً يرفع رأسه للمبنى القريب المجاور؛ مبنى قصر الخاتون، الشقة في الطابق الثاني مظلمة وكأنّ لا بشر فيها!

أخذ نفساً ثم زفره بقوة متمتماً "أ تراني أفعل الصحيح؟! "ثم هزّ رأسه وقلبه يرتج في صدره، أ ينكر أنه رغم كل شيء يكاد يصفع وجهه ليتأكد أنه لا يحلم؟! وأنّ أمه بالفعل اتصلت لتبشّره بموعد الخطبة، أ ينكر أنه يودُّ لو يركض اللحظة حتى الجامع ليطلب من الشيخ عبد المُعز عقد قرانه على سارة قبل أن تغير رأيها وتجد حلّا بديلاً لمشكلة جهاد الغامضة؟!

تنهد وهو يقول بخفوت "أنا أهبل! أقسم بالله أهبل "صوت أستاذ هلال يأتيه ضاحكاً وهو يرد عليه "عندما كنتُ أدرّسك لم تكن أهبلاً على ما أذكر "التفت حمزة إليه ليسأل بحيرة من نفسه "وكيف كنتُ يا أستاذي؟ "وقف هلال جواره وفي يده قطع الدومينو قائلاً "ليس مهماً كيف كنت، المهم ما أنت عليه اليوم "ثم أخذ يحثّه بالقول "هيا لنكمل اللعبة "لكن حمزة لم يتحرك، بل صارح الاستاذ بالقول "سارة قبلت بي زوجاً "

بدا حمزة لعيني الاستاذ هلال وكأنه تائه، سعيد وتائه في دروب الحزن! قال له وكأنه يصف ما يراه فيه "لكنكَ لستَ سعيداً تماماً»

في تلك اللحظة تنبّه كلاهما للقادم من مسافة، يشقُّ الظلمة وهو يتحرك مستنداً على عصاه، وجهه غريب، لا تدري أي تعبير تصفه فيه.

بصمت راقباه يصل مبنى الخاتون ليدخل عبر البوابة دون أن ينظر ناحيتهما، بل لم يكن يرى أيّاً من البشر حوله، الشيء الواضح الوحيد فيه أنه كان بجسد منهك من الآلام.

لا يدري حمزة أ يجب أن يكرهه أم يشكره! قال الاستاذ هلال بفكاهة "كنت سأذهب إليه لنلعب الشطرنج هذا المساء، لكن يبدو أنّ جهاد مفعولها خطير كزوجة،

ليومين جعلت السيد يغادر الشقة غاضباً ويعتصم في الجامع "عقد حمزة حاجبيه وهو يتساءل "وكيف عرفت أنه كان في الجامع؟! "رد الاستاذ هلال مبتسماً "جواسيس صدوق! نحن نراقبه لأجل ابنتنا»

ما يزال حمزة عاقد الحاجبين وهو يتساءل بدهشة حقيقية "وماذا يفعل بالجامع؟! غريب أمره، لسنوات يكاد لا يغادر شقته، فماذا يفعل الآن؟! أ مثله يعرف معنى اللجوء لله؟! "تمتم الاستاذ بنبرة غريبة شاردة "الربّ دوماً ينتظر منّا لحظة المعرفة "رفع حمزة وجهه تلقائياً للأعلى ليحدق في ظلام تلك الشقة الكئيبة فيقول بصدق "أنا قلق على جهاد منه "فيردّد هلال بنفس الصدق "كلنا قلقون يا حمزة.. كلنا قلقون»

***

لم تستطع جهاد النوم، الساعة ما تزال لم تتجاوز العاشرة لكنها كانت مرهقة للغاية وتحتاج للنوم مبكراً، ورغم هذه الحاجة فلم تستطع! تحاول الادعاء أن السبب هو الجوع فلم يدخل جوفها إلّا القليل من الطعام، لكنها تكذب! ليس لأنها (ليست جائعة)؛ بل لأن ما يبقيها ساهرة يُنسيها حتى جوعها!

انقلبت على ظهرها تحدق في السقف تبحث عن معالمه في

الظلمة، فردت ذراعها الأيمن وهي تمدُّ يدها ناحية المصباح الكهربائي على المنضدة جوار السرير لتضغط الزر وتشعل الضوء، فلا ترى في السقف شيئاً مميزاً فتضغط الزر مُجدّداً لتطفئه، وبعد لحظات قلائل عاودت إشعاله، تحدق في السقف مُجدداً ولا تعرف عمّ تبحث فيه!

لقد سرقت هذا المصباح بقاعدته النحاسية الأثرية القديمة من غرفة الصالة لتستخدمه في غرفتها، أحضرته مباشرة بعد خروج أيوب الغاضب من الشقة، ابتلعت ريقها وهي تفكر بسبب أرقها الحقيقي؛ أيوب ومشاعرها المتأهبة نحوه، والمشوّشة أيضاً.

لا ترغب بالاعتراف أنّ كل ما تختبره من أحداث مُكثّفة مع أيوب وأسرار عائلة العريم الغامضة المخيفة، والأسوأ هو ما تعيشه من مواقف شخصية خاصة معه وبشكل متسارع، هذا كله قد بات يُقلق قدرتها على التمييز والسيطرة.

أحسّت بحرارة في وجنتيها وهي تعترف لنفسها بالمزيد، اليوم تذكرت الأيام الاولى الحلوة السعيدة من زواجها بغيث، تفاصيل رومانسية وأخرى حميمية.. حميمية للغاية! علاقتهما كانت حلوة دون وصف مبالغ فيه حتى حصل الحمل، لقد تذكّرت بوضوح الآن كيف كانت لا تسمح له بالاقتراب منها لأسابيع أحياناً بسبب الوحام، وهو لم يكن

راضياً ولا متفهّماً، والمشكلة أنها هي أيضاً لم تكن مرنة أو لديها الخبرة الكافية، ربما كلاهما تسبّب فيما وصلا إليه في النهاية.

ضغطت الزر فجأة ليعمَّ الظلام فأغمضت عينيها لتداهمها ذكرى ملمس جلد أيوب المتعرج، ذاك الملمس ترك أثراً فيها، جعلها تفكر بشكل مختلف لأسبابه في الاعتزال هنا في حي الخاتون.

سابقاً كانت تراه مجرد رجل يختبئ من تشوهه، لكن قربها الشديد منه منذ زواجهما جعلها تمحو هذا السبب تماماً، إنه رجل جذاب بالفعل، والخطير بالأمر أنه مُدرك لجاذبيته حدّ الغرور، لا يهمه تشوهه من هذه الناحية، بل يضفي مزيداً من التفرّد والجاذبية عليه!

لا تصدّق منحى أفكارها! أ حقاً يجذبها أيوب كرجل؟! كيف وهي تكرهه؟! بل وعندما عرفت تاريخه وتاريخ عائلته المشين المخيف؛ كرهته أكثر، فكيف تنجذب لرجل تكرهه؟! كيف يمكن أن تشعر بالشفقة عليه كلما فكرت بفقدانه لابنته، كيف ينتابها شعور الحمائية أيضاً نحوه عندما شعرت بمحاولة غدر من إخوته؟! فيه خليط عجيب يجعلها تشعر بكل هذه المشاعر المتناقضة.

قلبها أوجعها وهي تلتفت برأسها في الظلمة وأبت أن

تشعل المصباح هذه المرة، لا تريد رؤية هاتفها النقّال الملقى على المنضدة القريبة، لا تريد مواجهة امتناعها الرد على رسالة سارة الأولى لها، وقد كانت رسالة طويلة، أعلمتها سارة بموعد حضور والدة حمزة لإتمام الخطبة، وأنّ بإمكان جهاد الآن بدء عدِّ الأيام لطلب الطلاق من أيوب.

شعرت جهاد بضيق في الصدر وعدم قدرة على التعامل مع سارة، كيف ستشرح لها كل التعقيدات الحاصلة معها؟ وكيف تخبرها عن تهديد ما يزال قائماً من إخوة أيوب؟

عاودت النظر للأعلى تحدق في الظلمة وهي تتمتم تكلم نفسها بصوت خافت "ماذا جرى لك يا جهاد؟ لم تكوني يوماً مشوّشة هكذا! دوماً تتخذين القرارات وتنفذينها بسرعة حاسمة تميل للتهور أحياناً»

تنبهت حواسها بغتة عندما سمعت صوت باب الشقة يفتح، أخذ قلبها يدقُّ بقوة وهي تتذكر محاولات أيوب معها، بغباء أخذت تتساءل هل أقفلت باب غرفتها؟! أم نسيتها وهي مشغولة بسرقة (المصباح النحاسي) من الصالة؟

تجمّدت في سريرها حتى أنها كتمت أنفاسها وهي تسمع صوت خطوات أيوب الثقيلة، عند كلمة (ثقيلة) هبّت

جهاد بجذعها ترتجف وهي تفكر أن خطوات أيوب ليست هكذا أبداً! بل إنها خفيفة للغاية وأحياناً يتعمّد إخفاءها بالكامل ليفاجئها بوجوده على حين غرّة.

أخذ قلبها يدوي رعباً وهي تقرأ الآيات القرآنية وتفكر أنه مؤكد لص يتسلّل إلى الشقة.

هبطت من سريرها دون إصدار صوت وتحركت على رؤوس أصابع قدميها ففصلت المصباح من القابس الكهربائي ثم رفعته للأعلى في حالة تأهب كي تهوي بقاعدته الثقيلة فوق رأس (اللص)، تقترب من باب غرفتها المغلق ولسانها يلهج بقراءة المزيد من الآيات والأدعية لتسيطر على ذعرها.

الخطوات الثقيلة البطيئة أوشكت الوصول عند باب غرفتها بينما تقف هي على الجانب الآخر ونبض قلبها يصمّ أذنيها، تأكدت بيد مرتجفة أنها لم تقفل الباب بالمفتاح الليلة، فشكرت (غباءها) أن جاء بفائدة! استعدّت بوضع يدها على عتلة الباب وأغمضت عينيها للحظات كي تستجمع تركيزها، ثم سمّت باسم الله وفتحت عينيها مع فتحها الباب بحركة سريعة مباغتة حالما شعرت بالخطوات وصلت عندها بالضبط، وبزمجرة مضحكة أوشكت أن تهوي بما تحمل في يدها فوق رأس.. اللص!

ماذا حصل؟! لا تدري ما حصل! كل ما تعرفه أنها تشعر بدوار وهي تلهث بينما تجد نفسها في اللحظة التالية محشورة سجينة للحائط داخل غرفتها؛ وجه أيوب تميّزه في الظلمة بينما يده اليمنى تمسك معصمها عالياً تضغطه في الجدار الصلب بخشونة مؤذية، ويده اليسرى تمسك بعنقها توشك أن تخنقها! وسط الذهول الذي هي فيه كانت تتساءل أين (المصباح الأثري)؟

ضغط جسدها بجسده ليحصرها ويمنعها الحركة ثم أفلت عنقها وهو يشتم ليمد ذراعه ويشغل إنارة الغرفة الرئيسية فعمّ الضوء بينما يعاود أيوب الشتم ثم صرخ فيها "هل جننتِ؟! أ تريدين قتلي؟! "تجاوزت صدمتها على صوت صراخه لترد عليه بنفس الصراخ "ظننتك لصاً! أ تخنقني لأني أدافع عن بيتك؟! »

زفر أنفاسه بقوة وتراجع للخلف وهو يكاد يترنّح بينما يبحث عن عصاه، فسارعت جهاد بتلقائية لتنحني وتلتقط العصا التي أوقعها ثم تسلمها له وهو يستند بكفه على الحائط.

تنبهت لأنفاسه المتسارعة ووجهه الشاحب، فسألته بشعور الذنب "هل أنت بخير! وجهك شاحب للغاية، أنا آسفة لأني أخفتك هكذا "ضحك رغم شحوبه وهو يتمتم "لم يكن ينقصني إلا نملة تهدّد حياتي! "عاوده الترنح فأمسكته خشية أن يقع فشعرت بحرارة جسده المشعة عبر قماش

قميصه لتقول بارتباك "جسدك ساخن، هل أنت مريض؟ "كانت حبات العرق قد بدأت تتجمع عند صدغيه ثم أغمض عينيه وقال بصوت منخفض "احضري لي الماء وحبتيّ دواء من المسكن الخاص بي، تجدينه في الدرج جوار سريري "كان يتمايل دون شعوره فقالت له "تعال واجلس على سريري أولاً، ستقع مني أرضاً ولن أستطيع حملك! "

يتبسم من كلماتها رغم ما هو فيه بينما يتركها تقوده حتى جلس على جانب سريرها، ثم هرولت لتحضر له الدواء.

بعد دقائق كانت تجلس جواره وهي تمسك بقدح الماء الفارغ وتسأله "هل تشعر بتحسن؟ "وقبل أن يرد أضافت "شحوب وجهك بات أسوأ! «

لقد كان حقاً بوضع سيء، نظر إليها بمنامتها المحتشمة الصفراء وللحظة خالجه شعور لم يستطع نكرانه، أنه سعيد لوجودها الليلة معه! شعر بالتوعك يثقل عليه والعرق يتصبّب من جبينه وهو ما يزال ينظر إليها هكذا وقد بدت قلقة بالفعل.

لم يعرف أ هو فضول، أم رغبة تأكيد لحقيقة، أم ببساطة أراد الاستمتاع بإحراجها وهو يطرح سؤاله بجدية "لماذا تزوجتني يا جهاد؟ ليست الفضيحة هي السبب

"عقدت حاجبيها لترد عليه بتهور غاضب يشعّ صدقاً وتحدياً شجاعاً "لأجل أختي سارة، كانت تقع في هواك بينما أنت.. "قاطعها ليكمل الجملة على طريقته ويزيد من استفزازها "أنا لم ولن أهواها! بل لم أهوَ امرأة في حياتي، حتى سارة زوجتي «

زالت عقدة حاجبيها وبدت كأنها صُدِمت من كلامه! وقد قرأ سبب صدمتها بسهولة، صدمها أنه أفصح عن مشاعره، أو الأصح عن انعدام مشاعره نحو زوجته، قال وهو يميل برأسه ليستند بخدِّه فوق قمة عصاه مضيفاً بصدق "توأمتك تذكّرني بها "بدت مرتبكة الآن وهي تشير لنفسها ولتوأمتها وهي تقول بتساؤل "تعني أنّني وشقيقتي نُشبه زوجتك؟ "أرخى أجفانه ونظراته المتراخية علقت بتلك المنامة الصفراء ليوضح لها بسلاسة "لا أتكلم عن الشكل الخارجي، فزوجتي سارة كانت بارعة الجمال ولو أنها جسدياً تشبهكما»

كأي أنثى شعرت بالإهانة وهي تدير نظراتها بعيداً وتزمُّ شفتيها فتبسم أيوب وهو يفكر (ما أسهل التأثير في النساء!)، ثم أضاف ليعود إلى الكلام بجدية وألم رأسه يشتد "لكنّ الروح.. الصفات، تشبه توأمتك فقط، نفس البراءة في نظرة العينين، نفس الطيبة والصبر، نفس الوقوع في هوى من لا يستحق! "هتفت وهي تعود للنظر إليه بعبوس "ستنساك، إنها لم تحبك حقاً، ست.. "قاطعها

بالقول الجاف "أتظنين أني لا أعرف؟!»

بدت متفاجئة الآن، حرّك رأسه ليستند هذه المرة بجبينه فوق قمة عصاه ثم أغمض عينيه مستسلماً لنبض الألم وقهر الحمى لقوته، مرّت لحظات وقد تاه في الماضي ووجه زوجته سارة الحزين البائس يطارده من خلف النيران التي التهمت حزنها وبؤسها وبراءتها! همس بحشرجة "أنا مجرد لعنة يا جهاد، لعنة تعمي البصيرة وتشوّش المشاعر، فهنيئاً لمن يبتعد عني وينجو مني!»

شعر بيدها فوق كتفه وهي تسأله باهتمام انسانيّ صادق "أين كنتَ يا أيوب؟! ماذا جرى لك؟ "

لا يعلم لماذا ذكّرته بالشيخ عبد المُعز! كيف يملكان هذه القدرة على إعطاء الاهتمام بمصائب الآخرين؟! وإن كان يتفهّم مصدر هذه القدرة لدي الشيخ وتدريبه الديني الروحاني؛ فماذا عن جهاد؟! إنها مجرد فتاة عادية، بل إنها شريرة وأنانية أحياناً! ويشعر بكرهها له رغم تأثرها به، أ حقاً هناك بشر من هذا النوع؟! فيهم الخير والشر؛ قد يملكون أسوأ الطباع لكن يهتمون بمساعدة حتى الغرباء؟!

شعر بعدم قدرته على التفكير أكثر، ما عاناه الليلة لم يحسب حسابه، ولديه ما هو أهم ليعطيه طاقته، فاللعب مع الصغار يحتاج تدقيق وتخطيط.

قال وهو يرفع رأسه "اذهبي وكلي البيتزا "ثم التفت إليها مضيفاً "إنه مال حلال يا جهاد، مال جدتي الذي أعطته لي وقالت (انجُ بنفسك وبذريّتك)؛ لكني لم أفعل ساعتها "

لا يعرف لماذا قال ما قاله! ربما لأنها كانت شاحبة أيضاً كما وصفته هو، مؤكد أنها جائعة وقد عانت من يوم طويل صعب في قصر العريم.

وقف على قدميه مستنداً على عصاه وهو يشعر بالثقل ورغبة التنفيس، لكن هذه المُفلفلة لم تعتقه وهي تلح بالسؤال "لماذا لم تفعل؟! لماذا لم تأخذ بنصيحتها "كانت قد وقفت هي الأخرى فتحرك أيوب مبتعدا خطوة وهو يقول "لأني لم أؤمن بالحلال والحرام بتلك الطريقة "ثم توقف وسط الغرفة يتمتم مضيفاً كأنه يحدّث نفسه "ولا أدري إن كنت أؤمن اليوم أم لا!»

ما تزال تقف عند سريرها بينما تقول له "انت تؤمن ما دمت تفكر "التفت إليها برأسه وقد بدت واثقة بشكل عجيب مما قالته! منحها ابتسامة غاضبة ونظرة متوهجة وهو يقول بلؤم "أنا أضعف منك الليلة يا نملاوي، فلا تستغلي الأمر»

قالها وتحرك، لكن جسده تمايل منه حتى فقد اتزانه ليقع رغماً عنه فوق السجادة المفروشة على الأرضية، أخذ يشتم والغضب تمكّن منه، يفتح عينيه فيصاب بالدوار ليغلقهما ويعاود الشتم، سمع صوتها وشعر بكفيها يحاولان مساعدته على النهوض وهي تسأله بقلق "أيوب! هل أنت بخير؟! قم بالله عليك "رفع كفه دون تركيز وهو يرد عليها بغضب مستعر من نفسه "جسدي اللعين بات أضعف مما أريد منه! "ردّت عليه بحنق وهي لا تزال تحاول مساعدته "احمد الله على نعمه وكفَّ عن التذمر والشتم! ثم أنك أوشكت أن تلصقني كورقة في الجدار قبل دقائق؛ فبالله عليك ماذا تريد أكثر لتشعر أنك رجل بكامل صحتك؟!»

حالما قالت كلماتها المتهور؛ تجمّدت! بينما تفاعل جسد أيوب على نحو غير عادي مع تلك الكلمات، لتدبّ القوة وتتضح الرؤيا وهو يفتح عينيه فيرى وجهها، وبدلاً من محاولاتها السابقة للنهوض به؛ أخذت تحاول التملّص للنهوض بنفسها فقط، لكن الأوان قد فات!

بطحها على السجادة بخشونة وانقلب فوقها، حاولت مقاومته بذراعيها فأمسك معصميها يسجنهما فوق مستوى رأسها، همس وشفتاه تقتربان من عنقها "كل هذا الهلع على وجهك يا جهاد سيتحول إلى متعة لا تُضاهى "تحرك رأسها وهي تواصل المقاومة بشراسة "لا أيوب.. لا "يقبّل عنقها بخشونة وهو يهدر "الليلة.. يجب أن يكون الليلة، لقد

قدمتُ قربان الحرمان لأربع سنوات وهذا يكفي! "أخذت دموعها تسيل والضعف يتسلّل بخبث إلى جسدها فتتأوه وهو يلامسها بحرارة فتلجأ للتوسل "لا تفعل.. سأكره نفسي "حرّر معصميها المتراخيين ليدسّ كفيه تحت منامتها هامساً بنيران الغضب التي تحرقه من الداخل "الكره عاطفة خطرة جداً يا جهاد، لكنها مفعمة بالشغف»

لقد كان هو الخطر، خطر داهمها وشلّ قدرتها على مقارعته، سال المزيد من الدموع وهو يخلع عنها ملابسها، قطعة.. قطعة!

***

تتمدّد سارة فوق سريرها والهاتف في يدها، قلبها يوجعها بقوة وتشعر أن جهاد في ورطة! تهمس بحرقة "اكتبي أي شيء يا جهاد، لماذا تصمتين هكذا الليلة؟»

تحتضن الهاتف لصدرها وكأنها تحتضن جهاد، إنها متأكدة! جهاد في ورطة كبيرة، أخذتها سِنَةُ نوم فغرقت في حلم منسوج من شريط الذكريات، عندما كانتا في السادسة وجهاد فقدت أسنانها الأمامية قبلها، كانت تدلّلها باسم (سوسي) لكن بفقدانها لتلك الأسنان تحوّر التدليل إلى (ثوثي)، سخر منها الأولاد في المدرسة وأتت إليها جهاد باكية تلجأ لحضنها تشكوها، وقد لقنت سارة

أولئك الأولاد درساً لكنّ جهاد لم تعد تناديها باسم التدليل، حتى بعد نمو الأسنان الجديدة واستعادتها النطق الصحيح للحروف! وسارة لم تخبرها يوماً كم آلمها أن نتوقف عن مناداتها بـ (سوسي)، تحمّلت ألم الافتقاد حتى تناست الاسم واندثر في قعر الذكريات.

اليوم ستفعل المثل لأجل جهاد، ستتناسى؛ بل وستنسى إلى الأبد كلّ ما حدث مع أيوب وتأخذ جهاد في حضنها، همست والألم يشتد حتى نزلت دموعها "لماذا تبكين يا جهاد؟! أشعر أنك تبكين!»

***

**قصر آل عريم، عند حوض السباحة..**

يمدُّ هارون ساقيه أمامه باسترخاء فوق الكرسي الطويل بينما يُرخي ذراعه الأيمن إلى الأسفل خارج الكرسي فيسند قاعدة قنينة الخمر الفاخر التي يحملها إلى الأرضية، عيناه تحدقان بسطح الماء ويتذكر تلك الأيام البعيدة حين كانوا أطفالاً يلهون! مجرد لهو بريء، ولم تمض سنوات كثيرة بعدها حين أحضر أول فتاة عاشرها، هنا عند حوض السباحة، كان هو في الخامسة عشرة بينما الفتاة تعدت العشرين، ولم تكن فتاة! لقد كانت امرأة مُجربة، ابتسامة غريبة مرّت على ثغره وهو يتذكر تلك التفاصيل

الصغيرة في تجربته الأولى التي انتهت باكتشاف أمره وقد ظنّ هو أن قصر العريم خالٍ من أصحابه، ولم يكن إلّا والده من كشفه! لا تزال ضحكات أبيه الفخورة ترنُّ في أذني هارون حتى اليوم وقد بلغ الخامسة والثلاثين، وها قد مرّ عشرون عاماً عاشر خلالها عشرات النساء وتزوج الكثيرات حتى لم يعد يحصي العدد ولا يذكر الوجوه! ملل.. ملل لا يقتله إلّا ورق اللعب على المائدة المستديرة، وكم يخشى أن يتسرّب الملل يوماً إلى تلك المائدة فيزهد إثارتها! عندها.. سيتحول إلى نسخة من أخيه آدم.. ميت حي!

سأل هارون فجأة "لماذا أنت صامت دائماً يا آدم؟ "ثم التفت بابتسامة شقيّة إلى أخيه الأصغر الذي يتمدّد على كرسي مشابه جواره يشرب من قنينة خمر مشابهة لقنينته، أسرف آدم في شرب المزيد دون أن يرد على هارون وقد بدا بحال غريب الليلة وهو يشرب على غير عادته ويصمت على أكثر من عادته!

لم يرد على السؤال فينصحه هارون بالقول "كفاك يا آدم، أنت لم تعتد الشرب وسيتعبك! "

مُجدّداً لم يرد، ولم يكن هارون ينتظر منه استجابة، ليطرح السؤال الحقيقي الذي يدور بخلده "ما الذي دار بينك وبين أيوب ليقلب كيانك هكذا؟!»

تجرّع آدم ما تبقى من القنينة ليسيل بعض الشراب خارج فمه ويتقاطر على قميصه المفتوح، وعندما انتهى رمى القنينة في حوض السباحة، ثم همد جسده المثقل فوق الكرسي وتشخص عيناه للسماء.

تحرك هارون من جلسته المسترخية وأنزل ساقيه ليجلس على حافة الكرسي ويشوح بالقنينة قائلاً بنبرة مثيرة "أأخبرك بسر وتخبرني أنت في المقابل؟ "التفت إليه آدم ينظر نحوه ويقول بكلمات ثقيلة "أنتَ لغز.. كبييير "يبتسم هارون ليقول بنظرة غريبة "أنا فرضت على كل زوجاتي تناول حبوب منع الحمل، وجعلتهن يوقعن ورقة بهذا "وكأنّ ما قال هارون للتو جعل آدم يفيق من سكرته فيعقد حاجبيه دهشة! فقال هارون بنفس النظرة "أجل.. لا تستغرب هكذا، أ تريدني أن أنجب المزيد من هذا السلسال؟!»

تمتم آدم بعنف "إن كنتَ ترفضه فلماذا لا تعتزل كما فعل أيوب؟ "رد هارون ببرود جليدي "إنه مرض.. وباء مستحكم يا أخي، ولهذا لا أريد لنفس الوباء الاستمرار في نسل مني "ثم تألقت عيناه بلمعة عجيبة وهو يضيف "فقط أيوب من فعلها ونجا!»

هتف آدم والكلمات تترنح على لسانه "أيوب.. أيوب..

لقد نجا ويراقبنا كيف نغرق! "ثم تحرك من كرسيه ليقف على قدميه فيتمايل قليلاً في خطواته حتى وصل حوض السباحة ورمى نفسه فيه!

مرت لحظات هدوء تام وآدم لا يخرج من الحوض ولا يصدر صوتاً، ينتظر هارون خروج أخيه من تحت الماء بصبر، حتى تنفس الصعداء برؤية وجهه يطلّ من عند حافة الحوض.

خرج آدم عاري الصدر وقد خلع قميصه كما يبدو في الحوض ثم تحرك نصف عارٍ بسرواله المبلل عائدا إلى كرسيه وقد استعاد وعيه، لكنه بدا مُنهكاً وهو يرمي بجسده فوق الكرسي ليعود مستلقياً عليه بظهره.

قال هارون وهو يواجه آدم بالقول "أنت تثق بأيوب رغم أنك تكرهه "ثم صمت للحظة ليعترف مضيفاً "أنا أيضاً أثق به، لكن.. "لم يُتمّ جملته فسأله آدم وهو يغمض عينيه "لكن ماذا يا هارون؟ "بتركيز ملفت شرح هارون بعبارة غريبة "داخلي اثنان يتصارعان، أحدهما يبطح الآخر في كل ساعة! أحدهما يثق به والآخر ينتظر الأسوأ منه! «

ليسأل آدم "وماذا عن قابيل؟ "ارتفعت نظرات هارون إلى شباك جناح قابيل في قصر العريم، يرى خيالاً أسوداً يعربد خلف الستائر التي لا تخفيه كفاية! ليقول هارون "أ

سمعت عن قصة ولديّ أبي البشر آدم؟ القربان الذي تُقبّل من هابيل ولم يُتقبَّل من قابيل "فتح آدم عينيه ليلتفت باهتمام بينما يكمل هارون "أيوب هو بمثابة (هابيل) لأخينا قابيل، والقربان هنا لم يكن لله، بل لأبينا.. سلطان العريم "تمتم آدم مُكرّراً الاسم وعيناه تظلمان "سلطان العريم "أما هارون فأكمل الحكاية قائلاً "ومات سلطان العريم فظنّ قابيل أن فرصته قد آن أوانها، لكن العالم المظلم كلُّه لم يتقبل قربانه وفضّل قربان أيوب عليه!»

***

# الفصل السابع عشر
# الشبكة المظلمة

**بعد بضعة أيام**

تراقب جهاد غليان الماء في الإبريق بشرود، لم تعد تحصي الأيام، منذ تلك الليلة مع أيوب لم تعد تحصيها، تحاصرها التفاصيل وتشوِّكها الذكرى، على تلك السجادة في غرفة نومها لم تكن مستسلمة فحسب، بل كانت متفاعلة وبقوة! أطبقت أجفانها وقلبها ينعصر، إنها خائنة.. خانت آخر انسان يمكن أن تخونه، سارة.

« أ يمكنني طلب كوب شاي لي أيضاً يا نملاوي أم سترمين الماء المغلي في وجهي؟ لكن تذكّري أني كل يوم أترك لك الكثير من البيتزا لتأكلي بمفردك»

فتحت عينيها تحدق في الجدار أمامها بينما كلمات أيوب المشاكسة تأتيها من الخلف، لقد تغيرت نبرة صوته! إنها امرأة وتعرف، وهو بات.. رجلها الذي عرفته! هناك شيء تغير بينهما ورفع مستوى العلاقة إلى مكانة مختلفة، وهنا مكمن الخيانة.

أطفأت الأبريق ثم استدارت لتواجهه، عيناها في عينيه وكفاها يستندان إلى حافة الخزانة خلفها، كان يجب أن تفعل، مهما صعُب عليها مواجهة فعلتها، إنها لا تطيق الهروب ولا تملك صبراً عليه، تفضل القيام بعملية انتحارية متهورة على أن تختبئ طويلاً آمنة، وقد اختبأت لأيام تعتزل الجميع حتى سارة، تدّعي انشغالها بكتب كثيرة طلب الناشر ترجمة لبعضها وتدقيقاً لغوياً للبعض الآخر، توقفت تماماً عن إرسال الرسائل الليلية لسارة، وسارة بالمقابل كأنها تشعر بها فتركتها لحالها.

أمّا أيوب فقد انشغل هو الآخر وبنشاط عجيب! حتى بات لا يفارق غرفة مكتبه، فيقضي ساعات وهو يغلق عليه الباب وتسمعه أحياناً يتكلم بعدة لغات! تظن جازمة أنه كان يعقد لقاءات مصوّرة مع عدة شخصيات مجهولة لها.

« أخيراً امتلكتِ القدرة والشجاعة لتنظري مطوّلاً هكذا في وجهي»

أخرجها بجملته المشاكسة من شرودها وأفكارها، فمنحته نظرة عفوية وكأنها تعاتبه دون شعورها! فيقترب أيوب ليرفع كفه يحاوط خدها قائلاً بخفوت "أنتِ لم تخوني سارة يا جهاد»

دفعت يده وهي ترتعش، تشتم نفسها وتشتمه بينما تتحرك مبتعدة عنه، وسط المطبخ تقف لتقول ثائرة "لماذا أتعب نفسي معك؟! فمثلك لن يفهم "ارتكز بكفيه فوق قمة عصاه ليسأل بابتسامة حلوة ضايقتها "ما الذي لن أفهمه؟ "ردت وشفتاها ترتعشان "لن تفهم علاقة الأخوة كيف تكون، وعلاقتي بسارة تحديداً "يحرك حاجبيه بمعان نقلتها كلماته أيضاً "لدي ثلاثة وأحدهم هدّدكِ بالقتل إن كنتِ تذكرين "هتفت بأسلوب هجومي وكأنها تفجر كل ما اختزنته لأيام داخلها "وأنتَ عاملتني أمامه كجارية كي تدفع أذاه عني، ونِعْمَ الأخوّة! "ضحك بخفة وهو يقول بمزيد من المشاكسة "دعك من علاقتي بإخوتي واعترفي أنكِ فشلتِ فشلاً ذريعاً في دوركِ أمامهم، هارون كشفك ببساطة "شحبت وهي تقول بخفوت "أ تعني أننا ما نزالُ في خطر؟! "سألها بنبرة غريبة "من تعنين بـ (أننا) هذه؟ "ردت بتلقائية "أنا واختي وامي وجدتي بالطبع "

أطرق أيوب وهو يقول "أنا أعمل ليل نهار كي آمنكم من أيّ خطر "ثم رفع نظراته إليها ليسأل بوقاحة "ألا أستحق شيئاً في المقابل؟ "نظراته تلك عرّت جسدها في لحظة فصرخت به والحرارة تغزوها "تستحق صفعة على وجهك!»

ضحك وهو يتقدم منها وقد أبت جهاد التراجع كفأرة مذعورة أمامه، وقف قريباً للغاية ورفع يده إلى عنقها

يلامس أثراً لم يُمحَ بعد من قبلاته الخشنة تلك الليلة فيهمس بصدق "أنتِ لذيذة للغاية يا جهاد "تحاول إبعاد يده مجدداً فيمسك كفها ويرفعه عنوة إلى جانب وجهه المشوه فيراها ارتبكت وكأنه يستغل إنسانيتها فلا تبعد يدها كي لا يظن أنها تشمئز، والواقع أنها لا تشمئز، تلك الليلة لامست ما هو أبشع بكثير ودون أن تشمئز.

تنهدت وهي تنظر إليه تائهة تتساءل "ما الذي نفعله مع بعض؟! لماذا نحن معاً؟ "يكتفي بالابتسام وهو يمرّر راحة كفها إلى عمق التشوه تحت أذنه بينما جهاد تكاد تبكي وهي تضيف بعجب من نفسها "أنا لستُ هكذا! أنا اريد زواجاً طبيعياً من رجل مناسب "تمتم بخفوت وهو يضغط أناملها في جلده المتعرج "غير مشوّه؟ "

كان يتلاعب بها ويلعب مع نفسه في ذات الوقت! تحدٍّ له لذة لم يشعر بها من قبل، حتى أنه لا يعرف ماذا يتحدّى بالضبط، لكنه يعرف (من) يتحدّى، إنه يتحدّى نفسه.

جهاد ترد على تمتمته اللئيمة "أنتَ تعرف أني لم أقصد هذا "تتسع ابتسامته وهو يحرك يدها أسفل عنقه قائلاً "أجل.. أعرف، لكني أحب إحراجك "

وصل بيدها إلى أول زر من قميصه فتوترت يدها وبحركة دفاعية أرادت سحبها لكنه تشبّث وهو يشغلها بالسؤال

"أ كنت تفضلين أستاذ الألعاب الرياضية؟ هل هذا هو الزوج المناسب؟ "

لم نتفاجأ من معرفته، وربما كانت مشوّشة كي تتساءل كيف عرف، لترد بتلك التلقائية التي تفضحها أحياناً "ظننته هكذا حتى.. "ارتفع حاجباه عندما توقفت عن إتمام جملتها لينظر إليها نظرة ذات معنى وهو يعتصر كفها ويسأل "حتى ماذا؟ أ كانت بينكما علاقة؟ "

عقدت حاجبيها وباتت يدها تقاوم للتملص من سجن يده وهي ترد هادرة "احترم نفسك وأنا أرى في عينيك ما تعنيه بكلمة (علاقة)! "ضحك باستخفاف وهو يقول "اعفيني من المسمّيات "انفجرت فيه وبنظرة اتهامية قالت "ليكن في علمك أنّ وائل طلبني للزواج في نفس اليوم الأغبر الذي.. "لم تقلها وهي تزفر أنفاسها بتوتر ليقول أيوب باختصار "فهمت "هتفت بضيق "دع يدي، عظامي ستتكسر»

لم يدعها، لكنه أرخى ضغطه عليها وهو يختبر مشاعرها ناحية ذاك الرجل قائلاً "إذن حالما وصله خبر (زيارتك المسائية) المفترضة لي؛ تخلّى عن طلبه "اكتفت بهز رأسها وهي عابسة ليسألها أيوب "أ نادمة؟ "وقد فهمت جهاد عن أي ندم يتكلم فردت باندفاع صادق "أمران يجعلانني لا أشعر بالندم، الأول أني لم أتورط بزواجي من وائل وهو

بهذه العقلية، والثاني أني.. "توقفت وهي تنظر في عينيه ليكمل هو بابتسامة خبيثة "أنكِ أنقذتِ سارة من براثني الشريرة "هذه المرة دفعته بقوة وتخلصت منه وهو يضحك!

عادت الى الأبريق لتعد الشاي (لها وحدها) بينما يلاحقها أيوب بالقول اللئيم "لكن اعترفي أني انتقمت منكما وانتما لا تطيقان بعض هكذا "التفتت إليه تصرخ في وجهه "حقير.. "تعلو ضحكاته أكثر ثم يقول بانتعاش "تعجبني كلمة حقير منك! أحبُّ الوقحات "زفرت أنفاسها بقوة بينما يضيف هو بخفوت مستفز "هذا ناهيك عن فشل مخططكِ لتزويج سارة من الميكانيكي "تلتفت إليه لتبوح بتهور بما لا تريد البوح به الآن "فلتمتْ بغيظك وقهرك يا أيوب، سارة وحمزة سيعقدان الخطبة الرسمية يوم الخميس»

رفعت يدها لفمها وتعابيرها الهلعة كادت تُضحكه مُجدداً، كم هي لذيذة! وكم هي مختلفة عن توأمتها، يعترف أيوب كلتاهما حلوتان بطريقة ما، وكلتاهما لعبتان بالنسبة إليه، وهو لم يتعود أن يأخذ أحد منه لعبته رغماً عنه، خسر سارة وغضب جداً لهذا، خاصة وهو لم يكن مستعداً بعد لانتهاء دورها في حياته، لكن اللحظة كل ما يشعر به أنه لن يسمح لأحد بأخذ لعبته الجديدة (جهاد)، في الواقع وجودها معه في الشقة قد بعث الحياة في أركانها الميتة الكئيبة، وقد دخلت في هذا التوقيت وهو مُقبل على

الكثير من اللعب الحقيقي، اللعب القذر مع الكبار وليس الصغار فحسب!

استدار أيوب عن عمد ليوليها ظهره فلا ترى تعابيره بينما يقول بخبث ساخر "أول خسارة أُمنى بها في حياتي، تأتيني من مخطّطات نملة! "تحرك ناحية باب المطبخ وهو يضيف بابتسامة "تحياتي لكوكب النمل الذي تحكمين»

لاحقته لتسأل بجدية وقلق حقيقي "ألن تفسد عليهما؟ "تمتم وهو يخرج للممر "لا "ما تزال تلاحقه بإلحاح لتطمئن "ألن تحاول التفريق بينهما؟ "يكاد يصل إلى غرفة مكتبه وهو يرد بمراوغة "اممم.. أظن يكفيني أني فرّقتك عن توأمتك "هتفت به وهو يفتح باب المكتب "أنتَ لم تفرقني عنها! "يدخل وسط تلك الغرفة وهو يرد ببساطة "سيحدث عندما أخبرها بما حصل فوق السجادة "قالها واستدار ليواجهها فيراها ممتقعة وهي تهمس باختناق "لا تفعل أيوب "لم يقاوم ابتزازها وهو يطلب بخفوت "إذن ليلة أخرى، وفي سريري هذه المرة "

لم يكن جاداً بالابتزاز لكنه جاد باشتهاء جهاد، ولولا أنّ لديه الكثير من العمل لأغواها بنفسه اللحظة! وعلى سجادة غرفة مكتبه هذه المرة ودون حاجة ليتلاعب بأعصابها هكذا. تلك الليلة معها كانت مذهلة! هي امرأة نحيلة جذابة مُفلفلة نثيره، لكن الأمر لا يقتصر على

انجذابه لجهاد فحسب، شعوره كان مختلفاً، وكأنّ جسده خلال سنوات الحرمان قد نظف من الأدران ليستقبل الالتحام بجسد جهاد بتلهف المعرفة، معرفة الحلال الصافي دون أي اختلاط بحرام! أتراه ذاك الشيخ قد تلاعب بعقله؟ أم هو نداء الجدة ودعواتها؟! أم هي زوجته الراحلة البريئة التي لم يتساءل يوماً عن شعورها وهي تشاركه مع الغانيات، فيتساءل أيوب للمرة الأولى، أ تراه كان السبب لعدم الانسجام الجسدي بينهما؟! أ كانت ترفضه حتى وهي تحبه وتعشقه؟! نبه لدموع جهاد وهي تنظر إليه بقهر ثم قالت بحشرجة "ربما بالنسبة لك مجرد تسلية وقضاء وقت، وربما إرضاء غريزتك كرجل وأنا امرأة متوفرة بالحلال! لكن الزواج ليس هكذا يا أيوب.. وعلاقتنا أيضاً لن ترقى يوماً لزواج حقيقي»

ثم استدارت لتغادر الغرفة وعينا أيوب تتبعانها.

***

كانت سارة متوترة للغاية، كل عشر دقائق تجد نفسها خارج المكتبة وترفع رأسها للأعلى تنظر إلى الشقة في الطابق الثاني من مبنى الخاتون، تكاد تسمع صوت جهاد يناديها فلا تعرف سارة ماذا يجب أن تفعل!

« ألن ينتهي خروجك ودخولك هذا؟! أعصابي لن

تحمل المزيد "

التفتت مجفلة إلى حمزة الذي يقف خلفها مباشرة وعيناه ترعدان بالغضب وجسده في غاية التوتر، تمتمت وهي تتحرك نحوه تناديه "حمزة "زفر أنفاسه بعنف قائلاً "نعم "عاقد الحاجبين متجهم المحيا وهو ينظر لعينيها المرتبكتين! بينما تسأله "أنت غاضب مني؟ "

رد قلبه عنه "لا "كذب قلبه وقرأت هي كذبته! لتقولها له بإحباط "أنت تكذب "فرمى بقلبه عرض الحائط ويرد بالحقيقة "نعم»

اقتربت أكثر وهي تسأله بتوتر هذه المرة "لماذا غاضب؟ "نظر مطولاً في عينيها وبنفس التجهم قال بغيرة حارقة لا يملك أن يطفئها أو حتى يخفي نيرانها "لا أريدك أن تذهبي مجدداً إلى قصر الخاتون كي تسلمي وارد المكتبة "بدت وكأنها هي نفسها تفكر بالأمر منذ مدة ولا تعرف كيف تحلّها، لتقول بتمتمة "أنا لم أذهب منذ.. "قاطعها قائلاً بخشونة "سلّميه لجهاد "رفعت يدا مرتبكة لتمسّد جبينها قائلة باضطراب وحيرة "لا أستطيع "لم يكن حواراً صريحاً بينهما، ولم تستطع سارة نكران حرج الموقف برمته وثقله الذي يجثم فوق صدرها، هتف حمزة فجأة ليتسبب بإجفالها مُجدداً "أعطِه لي وأنا أسلمه بنفسي "كان عرضاً غير منطقي! هو يعرف كما هي تعرف.

أخذت نفساً عميقاً وهي تغمض عينيها، قلبها مقبوض بشدة، ليتها لم تستمع لنصيحة أبيها كي تعمل لدى المالك الجديد لقصر الخاتون، ليتها لم تتورط هكذا ولم تورط أختها ثم تنتهي بتوريط حمزة، وها هي لم تعد تفكر حتى بما كان يشدّها لأيوب، بل كل ما يهمها أن تنقذ المتورطين!

دموع تجمعت خلف الأجفان المطبقة بينما تهمس اسمه كأنها تستنجد به "حمزة "نبرته الخشنة غير المراعية لم تساعد وهو يهتف "نعم! "فتحت عينيها وهي تكتم البكاء بشقِّ الأنفس لتصارحه بالقول "أنا خائفة "أجل كانت خائفة، تشعر أنّ الوضع سينتهي بكارثة، وليس لها إلّا حمزة كي تصارحه وتطلب دعمه، ليتها تعود لطفولتها، كان من السهل إيجاد الحلول الخيالية!

سألها حمزة بنفس الخشونة التي تفلت منه نحوها "ممَّ تخافين؟! "ردت بحشرجة لعلّه يفهمها "لا أدري! قلبي مقبوض "قالتها وهي ترفع قبضتها إلى صدرها، صمت حمزة لبضع لحظات قبل أن تقدح عيناه وهو يقول من بين أسنانه "أخرجي قلبك من الحِسبة كلها، سلّميه لي فقط، لا تكوني غبية! "بدت يائسة وهي تحدّق فيه ليأمرها بمزيد من الخشونة والغباء "عودي للمكتبة ودعينا لأرزاقنا!»

***

**بعد ساعة**

كانت نظرات أيوب تبرق بشكل حاد وهو يقول عبر الهاتف "قل الاسم يا توفيق "

على الجانب الآخر بدا وجه توفيق شديد الشحوب وهو يكتم انفعالاته الشخصية كي لا يظهر أثرها في صوته الثابت بينما يرد على أيوب بالقول "خالد المشاري، هو من أمر ودفع لمحترفين كي ينفذوا "صمت أيوب لحاول توفيق أن يتجرّد من مشاعره ليضيف بمهنية "تذكر يا أيوب، إنه تحت حماية المنظمة لذلك لا تسـ..» قاطعه أيوب بالسؤال "متى الموعد؟ "لم يتبين توفيق شيئاً من نبرة صوت أيوب فرد دون إبطاء كي لا يثيره "موعدك مع المنظمة يوم الخميس مساء، أنا لن أستطيع الحضور معك، تعرف القواعد المتبعة»

هذه المرة صمتُ أيوب طال كثيراً، ولم يكن صمتاً تاماً، بل أنفاسه تصل إلى مسامع توفيق بحشرجة غريبة! لم يستطع الصمت وهو يسأله بقلق "هل أنت بخير؟ "

يقولها توفيق وهو أيضاً لم يكن بخير! يجعّد الأوراق على طاولة المكتب أمامه بعنف، آخر ما خطر بباله أنّ سارة ماتت بفعل فاعل، اللعنة.. عاد ذات الألم لينهش فيه.

مرّ وجه (سارة) في مخيلة توفيق، فيغمض عينيه بقوة يتذكر ابتسامتها الذابلة وروحها الهائمة في قصر العريم، ليته حاول انتشالها، حتى لو كان مستحيلاً!

فجأة شعر بقشعريرة وأيوب يسأله بنبرة خافتة تجمد الدم في العروق "من خانني يا توفيق وأفشى عنوان المكان الذي كنتُ فيه مع عائلتي؟ "رمش توفيق وهو يتساءل باضطراب "أ تشكُّ بوجود خيانة؟! ربما أحد العاملين في مجموعة العريم مثلاً؟ "نبرة أيوب باتت أشدُّ وقعاً وهو يأمره بالقول "ابحث عن أيّ متورط بهذا، لن أترك بشراً شارك فيه دون أن ينال القصاص "تمتم توفيق وعقله يفكر بكل الاحتمالات "سأفعل»

***

### يوم الخميس، عصراً

تجلس جهاد على سريرها القديم في بيت أبيها وهي تفكر بحال أيوب الغريب، منذ ذاك اليوم عندما تكلما فيه وهو يبدو غريباً، لا تظن حوارهما من أثر فيه بهذه الطريقة، مؤكد لا؛ فقد كان مبتهجاً وهو يتلاعب بها، شيء ما حصل بعدها وجعله بتلك الحالة، وكأنّه لا يراها حتى وهي تمرُّ من أمامه صدفة، عادت لتطبخ الطعام وتنزل للسوق

وهو شارد عنها يكاد لا يفارق غرفة مكتبه، وإن خرج منها، لازم الصالة ليشغّل اسطواناته المريعة فتصدح في ضوضاء مرعبة!

أتاهم الاستاذ هلال مرتين وشارك أيوب لعبة الشطرنج، لكن أيوب ظل طوال الوقت صامتاً كالحجر، حتى أنّ الاستاذ هلال سألها سرّاً ماذا به (زوجها) فلم تعرف جهاد ما ترد عليه!

حالة أيوب تخيفها على مستوى مختلف، لا تدري كيف تصف خوفها الجديد هذا، إنه غاضب.. غاضب للغاية، لكن غضبه لا يثور ولا يصدر حتى الهمس! إنه في العمق السحيق من داخله المظلم.

تشكّ جهاد أن الأمر متعلق بعائلته، فهل فعلوا به ما أغضبه بهذه الطريقة؟ هل ورطّه هارون بمصيبة؟ أم ربما أخواه الآخران؟ وربما.. جميعهم اشتركوا بمؤامرة ضده.

«جهاد»

أجفلت قليلاً من نداء سارة لها، نظرة خاطفة في عيني توأمتها التي دخلت الغرفة للتو لتبعد جهاد نظراتها بعدها وهي تقول بابتسامة واهية "هل أنهيتِ حمامك يا عروس؟ "

بخدين متوردين من أثر الحمّام الساخن تقدمت سارة لتجلس على حافة سريرها مقابل جهاد وتسألها بجدية "لماذا تهربين مني؟! "أطرقت جهاد فشعرت سارة كأنها تفقدها، أوجعها وقتلها قلقاً هذا الإحساس، مالت للأمام تمسك بيد جهاد فتشعر بانكماشها! قالت لها بحنو تحاول سحبها إليها "افتقدت رسائلك المسائية، كانت تطمئنني أنك بخير"

ما تزال جهاد منكمشة والتواصل مقطوع، عندها قالت سارة بقوة "لا شيء سيفرقنا جهاد، صدقيني، مهما ماجت بنا سفينة الدنيا فتفصلنا وتحاول إبعادنا عن بعض؛ سنعود لنلتقي؛ الحضن في الحضن»

دون أن ترفع جهاد وجهها قالت "هل تذكرين يا سارة عندما كنّا طفلتين وأصابنا الهوس بفكرة أننا سنصبح مهمتين في الكبر وسيختطفنا الأعداء! "تبسّمت سارة وهي تكمل الذكرى "كنّا نتدرب على فكِّ القيود، أشدُّك بالحبال وأحسب لك كم دقيقة لتستطيعي تحرير نفسك "عندها فقط رفعت جهاد رأسها لتنظر الى وجه سارة وتقول بنظرة غريبة "ثم يأتي الدور عليكِ لتفعلي المثل، هل تذكرين.. لم نكن نساعد بعض، بل كل واحدة منا كان يجب أن نتعامل بالموقف بمفردها وتحرّر نفسها بنفسها "أخذ قلب سارة يقرع بقوة وهي تسحب يدها من فوق يد جهاد لتسألها بقلق شديد "الى ماذا سنصل يا جهاد؟

"ردّت جهاد بنفس النظرة التي لا تفهمها سارة "لا تسأليني كيف سأحرّر نفسي ولا متى "انقبض قلب سارة بقوة وهي تهمس "لكنكِ طلبتِ مني الزواج من حمزة؟! "أخذت جهاد نفساً عميقاً ثم أطلقته وهي تقول بعزم "وبزواجك منه سأبدأ بفكِّ حبالي، قبلها.. لم أحاول إلّا الصمود! "تحرك سارة رأسها في حيرة وهي تقول "انا لم أعد أفهم، هناك شيء فيك تغير، منذ ذلك اليوم عندما أخذك بتلك السيارة الفارهة»

غشا عينيّ جهاد الحزن وبدت كمن لم تعد تهتم لمصيرها! وعندها تذكرت سارة كلمات جدتها ياقوت عن جهاد قبل أيام (لن تجد رجلاً يطلبها للزواج مرة ثالثة)، شعرت بالاختناق من هذا الظلم، ولم تعد تدري ماذا يفترض أن تفعل، تشعر بالعجز وبطريقة ما تشعر أنها أفسدت حياتها وحياة جهاد معها.

وكأن جهاد استطاعت قراءتها لتقول لها "كوني سعيدة سارة، أنتِ وحمزة تستحقان بعض "وحالما أرادت سارة فعل المثل؛ أزاحت جهاد عينيها بعيداً لتسألها سارة بإلحاح "لماذا لا تنظرين إليّ يا جهاد؟ لماذا تقطعين الاتصال؟ "ثم شوحت بيدها وهي تضيف بحرارة "حمزة يفعل هذا لأجلك أيضاً"

عندها وقفت جهاد على قدميها وهي تقول "إنه يفعلها

لأجلنا نحن الثلاثة "ثم تحرّكت مضيفة بنبرة مختلفة كلياً تفيض ببهجة مصطنعة "هيا يا عروس لنلبسك الفستان الأحمر، أحبُّ رؤية وجه (الثور) حين يراه عليكِ»

***

**مساء**

تعلو الزغاريد بعد قراءة سورة الفاتحة كمباركة للخطبة التي تمّت، عينا حمزة لا تفارقان سارة المشعة باللون الأحمر لينعكس على خديها، تحشر نفسها في أختها جهاد كأنها تطلب دعمها وقد بدت نظراتها تائهة بين الزغاريد ومباركة العم عبد الصادق، لكنها أبدا لم تنظر نحوه؛ هو العريس الغبي الأهبل المتلهف!

ابتلع ريقه وكفه يلامس جيب سرواله الكحلي، يتأكد مرة أخرى من وجود علبة الخواتم فيها، عيناه تلتقيان بعينيّ العم عبد الصادق فيتذكر توصياته قبل أن يصلا إلى بيت الحاج الكرم أن يتروّى قليلاً، ألّا يتعجّل سير الأمور، لكنه لم يستطع إلّا المجازفة وليحصل بعدها ما يحصل!

دسّ يده في جيبه وأخرج العلبة دون مزيد من التردّد، نظر في الوجوه ليعلن بخشونة يغطي بها على ارتباكه "أحضرت خاتميّ خطبة! سألبس سارة خاتمها بنفسي "

قالها دون أن يقدم عليها! كان ينتظر الإذن رغم كل شيء، أمه بدت متأثرة لتهوره حتى دمعت عيناها، أما منى فقد شعرت بالارتباك وهي تبتسم بحنو بينما الجدة ياقوت عبست وأوشكت أن تقول شيئاً عندما حسمت جهاد الموقف لتسحب سارة المشوشة من يدها وتدفعها نحو (خطيبها) قائلة "خير البرِّ عاجله، هيّا حمزة ألبسها الخاتم»

أخذت بضع حبات عرق تجمع على جبينه وهو يفتح العلبة وأوشك أن يوقعها مرتين لكنه لم يفلتها، وأخيراً أخرج الخاتم الذهبي وسلّم العلبة لجهاد ثم مدّ يده ليمسك يد سارة المنكمشة وقبل أن يدسّ الخاتم في بنصرها همست سارة بارتباك شديد "اليد اليمنى.. وليست.. اليسرى! "تكتم جهاد ضحكتها بينما يهمس حمزة بغيظ والعرق بات يتصبّب منه "كفى جهاد! "وبمزيد من الخشونة ترك اليسرى ليمسك اليمنى ثم دسّ الخاتم في البنصر دون مراعاة لتتوجع سارة فيهمس وهو ينظر في عينيها مباشرة "« آسف! هل آلمتك؟»

ابتسمتْ.. فابتسمتْ له الحياة كلها، ليقول وهو غارق بغرامها "مبارك سوسي "

وسط الزغاريد بهتت سارة وجهاد معاً! لم تتخيل كلتاهما أنّ حمزة يتذكر اسم التدليل هذا، بل لم تتخيلا أنه يعرفه!

ابتلع ريقه بينما يمدّ يده اليمنى نحو سارة ويطلب "دورك "لتسارع جهاد بإخراج الخاتم الفضيّ من العلبة وتعطيه لأختها وهي تحثّها بالقول الرقيق المشاكس "هيا سوسي، في البنصر مباشرة»

بدا مرتبكاً من ملامستها ليده، أصابعه خشنة الملمس وقد وجدت بعض الصعوبة لتضع الخاتم في بنصره، لاحظت التشققات فيها وبعض الآثار الرمادية ليقول حمزة فجأة "حاولت جهدي محوها، لكني سأحاول أكثر!»

اكتفت سارة بهز رأسها دون معنى! بينما قرصتها جهاد خفية لتسارع سارة للقول "مبارك "ثم تعاود النظر بعيداً بينما تتجرأ جهاد على اختيار اسم تدليل له "مبارك ميزو "لتهتف بها سارة همساً "كفى جهاد! الجدة ستغضب»

تضحك جهاد وتبدو لمن لا يعرفها أنها مستمتعة بالفعل، لكنها في واقع الحال كانت تخبّئ توترها الشديد خلف تلك الضحكات، لقد تمّت الخطوة التي تمنّتها لسارة، حتى لو لم تكن سارة حتى اللحظة تدرك قيمة حمزة، لكن ما يوتّر جهاد حقاً، كيف ستواجه سارة عندما تعلم بما حصل بينها وبين أيوب؟ والأسوأ.. ما هي مشاعر سارة بالضبط نحو أيوب الآن؟! هل انتهى أثره بالكامل؟

***

في بيت منعزل على أطراف المدينة، وسط منطقة خالية محمية على أعلى المستويات، جرى ذاك اللقاء الذي كان أيوب يستعد له طوال الفترة الماضية، حتى قبل لقائه بإخوته في قصر العريم.

لقد قال كل ما عنده لثلاثة من أعضاء المنظمة الذي يجرون اللقاء الليلة حول طاولة مستديرة وبضعة حرس مسلحين يقفون على مقربة، لم يعرف الأسماء فمثلهم يكونون كالظلال، لا يُعرف لهم هوية أو دين، وجوههم مظلمة وقد انطفأت فيها آخر معالم الانسانية، يكاد أيوب لا يرى من ملامحهم إلا تلك الشفاه الشاحبة.

سأل الأول بكلمات باردة "تنازلك عن نسبتك لنا مقابل ماذا يا سيد العريم؟ "بلا أدنى تردّد قال أيوب وهو ينظر دون أن ترفّ أجفانه "لي مطلبان؛ أولاً حرمان إخوتي من آل عريم من الدخول، ومدى الحياة "فعلّق الثاني "لا يهمنا إخوتك، لَكُنّا سعينا إليهم وقد حاولوا التقرب مراراً "فيكمل أيوب طلباته "وثانياً؛ خالد المشاري "شبح ابتسامة مرّ على شفتيّ الأول وهو يقول ببساطة "نصف ساعة وستتم تصفيته "برقت عينا أيوب وهو يقول بخفوت "لا.. أريده حيّاً؛ حيٌّ في عِداد الأموات! ولي حرية اختيار التوقيت "عندها فقط نطق الثالث "مرحباً بك أيوب العريم، المنظمة ترحب بك كوسيط أساسي»

***

## آخر الليل

شعرت جهاد بالوحشة في الشقة بمفردها! تكاد تقارب منتصف الليل وأيوب لم يعد بعد من مشواره الغامض، تنقلها خطواتها في أرجاء الشقة تطوف فيها على غير هدى، رغم فرحتها بخطبة سارة وحمزة إلّا إنها قلقة على نفسها، يُقلقها مصيرها، ويُقلقها مصير أيوب نفسه!

تشعر أنه في خطر داهم، خطر خارجي قادم من ماضيه الذي لا يعرفه أحد في حيّ الخاتون ويتربّص بحاضره، وخطر من داخله هو.. من نفسه الغريبة وأين ستقوده هذه النفس.

همست جهاد وقد وجدت نفسها في غرفة المكتب "وماذا عنك أنتِ يا جهاد؟ ألا تخافين أن يرتبط مصيرك بمصيره أكثر من هذا؟ ألا تهابين التورط معه لتنغمس رجليك في رمال مجهولة متحركة قد تنتهي بدفنك؟!»

شعرت بالخجل والخزي وهي تتذكر ليلتهما معاً قبل أسبوع، لقد تورطت عميقاً بالفعل، وأيوب استطاع سحبها إلى المجهول وها هي عالقة معه لا تعرف ما الذي ينتظرها!

جدتها استاءت لعدم حضوره خطبة سارة، بينما أمها تجد له الأعذار بعمله الذي لا تعرف شيئاً عنه! وسارة صامتة، وكأنها تقرأ على وجه جهاد تأثير تلك الليلة المُخزية دون أن تعرف التفاصيل، أجل تأثرت.. حتى لو هربت من حضنه وصرخت في وجهه بعد أيام من الهروب، لقد تأثرت، إنها ليست من حجر، وأيوب له طريقة غريبة في التأثير أشبه بالمخدر، مخدر تخافه ولا تريد الاقتراب لكن حالما نتذوق منه لا تستطيع الابتعاد!

عينا جهاد تدوران في الغرفة وقلبها مقبوض بشدة، تتمتم "أين تأخرت يا أيوب؟ أشعر بالخوف وحدي في هذه الشقة الكئيبة!»

نظراتها استقرت على طاولة المكتب، كان حاسوبه مغلقاً لكن لفت انتباهها دفتر جلدي أنيق، تقدمت بفضول فالتقطت الدفتر وفتحته، عقدت حاجبيها بتركيز وعيناها المتمرّستان تمران بالنظر فوق الأسطر المكتوبة بخطٍّ أنيقٍ أسود، كان العنوان في أول الصفحة (الشبكة المظلمة)، ثم تعاقب الكلام في باقي الصفحات ليوضّح اتجاه الموضوع وأبعاده، عفوياً جلست على كرسي أيوب وهي تقرأ بتركيز، لقد كانت يتكلم عن الاقتصاد العالمي والمافيات الخفية التي تقود وتحرك هذا الاقتصاد وتعاملها المخفي مع حكومات العالم، كانت المرة الأولى التي تقرأ فيها جهاد

عن هذه المواضيع فلم تُثِرْ اهتمامها من قبل، وصلت إلى هذه الفقرة فأعادت قراءتها مرتين لتستوعبها:

**(قديماً كانت أموال المخدرات تخضع للغسيل بالفعل لتنظيفها من أيادي المدمنين، لكن مصطلح غسيل الاموال ارتبط حرفياً بالشهير آل كابوني الذي أسّس محلاً لغسل الملابس للتغطية على تجارته غير المشروعة.**

**غسيل الأموال هو عملية تحويل الأموال غير المشروعة الى أموال شرعية، وتخضع هذه العملية لثلاثة مراحل؛ مرحلة الإيداع حيث يتم خلالها تحويل المبالغ غير المشروعة الى ودائع مصرفية صغيرة، ثم مرحلة التغطية لتجميع الأموال ضمن مجموعة من الاستثمارات المالية بهدف التمويل، وأخيراً مرحلة الدمج حيث يتم خلالها خلط الأموال غير الشرعية مع الأموال الشرعية، وباختلاطها تنتهي المهمة ليكون الناتج الكلي النهائي، أموالاً نظيفة لا غبار عليها.**

**قد يحقق غسيل الأموال أرباحاً مهولة لمستخدميها، إلّا إنها ستبقى أخطر وأكبر جريمة تهدّد اقتصادات الدول)**

«ما الذي تفعلينه؟»

أجفلت بقوة من صوته لتهبّ دون شعورها من الكرسي ويقع الدفتر على سطح طاولة المكتب، رأته يتقدم من

باب الغرفة حتى وسطها وهو يتكئ على عصاه، بدا غريباً وهو ينقل نظراته بينها وبين الدفتر، لتتحرك جهاد من خلف الطاولة الضخمة وهي تشعر بالحرج، لتقول ببعض الارتباك "اسفة.. أتيت أبحث عن كتاب لأشغل به نفسي فلفت نظري الدفتر»

حسناً كذبت عليه ولم تصارحه أنها كانت هائمة في الشقة لا تقو على النوم وحيدة، أرادت وجود انسان معها ليبدّد وحشة الشقة، حتى لو كان هذا الإنسان هو أيوب الذي تخافه!

كان يدّقق النظر فيها فزاد ارتباكها وهي تفكر بقميصها الباهت وسروال الجينز الملتصق بساقيها، كم تكره جدتها هذا السروال!

رفعت يدها نتلاعب بخصل شعرها بينما تسأل كأنها تغير الموضوع "هل أنتَ من كتب هذا؟ "ردّ وهو ما يزال على وقفته وسط الغرفة "نعم "تقدمت منه وهي تسأل بفضول حقيقي هذه المرة "أ تؤلف كتاباً أم مجرد أفكار؟ "يعاود التدقيق فيها من تحت لفوق، ثم تستقر نظراته على وجهها الذي حمل بعض آثار التبرج فسألها بغموض دون أن يرد على سؤالها "ما رأيك؟ "حماسة المهنة أخذتها لتقترح "لماذا لا تكتبه على الحاسوب؟ "بدا للحظة مُتعباً أو باله مشغول ربما لكنه قال بهدوء "لم أكن أمتلك

حاسوباً عندما بدأتُ فيه قبل عام "لا تدري كيف باغتها إحساس بالشفقة عليه، كيف كان يعيش بمفرده في هذا (القبر)؟! ابتلعت ريقها لتقول بلطف كأنها تطبطب على الوحدة التي تظن أيوب يعيش فيها "حاول نقله على الحاسوب فهذا أفضل "نظرته غريبة لم تفطن جهاد لمعناها وهو يسألها "أتستطيعين المساعدة؟ "ردت دون لحظة تفكير وبنية طيبة للغاية وكأنها تشجعه "مؤكد، يمكنني نقله لك وتدقيقه لغوياً لو شئت "

نظرته مظلمة للغاية اللحظة وعيناه لا تفارقان وجهها، شعرت بقلبها يخفق بقوة حتى قبل أن يقول جملته الصريحة الرهيبة "أريدك الليلة "ابتلعت ريقها وهي تمايل بارتجاف تلقائي لتقول بمحاولة هرب "تصبح.. على خير "لكنه أمسك ذراعها بقوة يوقفها مكانها ومال نحوها يقول بعرض مُلح مفاجئ "الأريكة هنا.. مريحة "تخونها نظراتها وهي تتجه خلفها إلى تلك الأريكة القريبة وهي تتمتم باعتراض مرتجف "أيوب.. "

أوقع عصاه أرضاً ووقع بجسده مع جهاد فوق الأريكة، هكذا دون مقدمات! كان يفكُّ أزرار قميصها وقميصه في نفس الوقت! زرٌ من هنا وزر من هناك، متلهف لها وهي ترتجف بضياع لا تدري ما يحدث لها معه! يهمس بقوة "لا تهربي مثل المرة السابقة، ابقِ معي حتى الصباح»

لم تستطع المقاومة، كان غاضباً ويحتاجها، هذا كل ما استطاعت أن تفهمه اللحظة، تحاول التنفس وهي تسأل بارتعاش "ماذا هناك؟! أنتَ غاضب منذ أيام "لم تستطع منع السؤال حتى وسط المشاعر الصاخبة غير المحددة بينهما ليرد هادراً "أنا غاضب منذ سنوات! لكني كنتُ أوجّه غضبي في الناحية الخطأ "همست وهي تنظر لوجهه "ماذا تقصد؟! "هتف بأنفاس هادرة "كنتُ مخطئاً! الأريكة ليست مريحة.. تعالي إلى غرفتي»

تحرك من الأريكة ليقف بينما يده تمسك بمعصم جهاد، ثم انحنى للأرض التقط عصاه وهو يلهث، ودون مزيد من الكلمات كان يجرُّها معه إلى غرفته وهي مستسلمة، خائفة مما يجري بينهما لكنها تشعر بالانجذاب والإثارة والرغبة في منحه دعمها.

وبين أحضانه وعلى سريره كانت قد فقدت السيطرة وهي تريده كما يريدها، تشعر بحاجته إليها فتعطيه بسخاء لتشعر بفقدانه السيطرة هو الآخر، وكما أراد حصل؛ نامت جهاد حتى الصباح في حضنه.

***

# الفصل الثامن عشر
# لا يُبتلى المرءُ إلّا فيما يُحب

**ظهر اليوم التالي..**

في غرفة مكتبه وعلى كرسيه الجلدي المريح يبدي جسده بعض التوتر والقلق بينما يجري محاولة اتصال جديدة بجهاد لتفشل مرة أخرى، ألقى هاتفه جانباً ببعض الحدة ثم أغمض عينيه قائلاً بخفوت "إلى أين هربتِ؟ ليس هذا وقته على الاطلاق وأنا مقدم على الكثير»

رفع أجفانه ببطء ولمعت عيناه بذكرى جسدها الناعم الصغير، لقد أخذ كل الوقت الذي يحتاجه لينظر الى تفاصيلها مع اشراقة شمس الصباح قبل أن يعود للنوم مجدداً وهو يضمُّها إليه، وعندما عاود الاستيقاظ متأخراً على غير عادته كانت قد هربت! تركت الشقة بأسرها.

هل هربت لأنها نفذت رغبته بالبقاء حتى الصباح؟ في الواقع هو لا يعرف لماذا فعلت بالضبط! قد تضعف كامرأة أمام رغبة جسدها خاصة وهي منجذبة إليه فتبادله مشاعر حميمية، لكن بقاؤها حتى الصباح لا يعرف تحت أي بند يضعه! لقد كان الأمس يوماً عصيباً وسيكون

بداية للمزيد مما هو أشد وأصعب، وهي أعطته دون أن تسأل الكثير، رغم شخصيتها الوقحة فقد بدت بريئة للغاية لا تعرف شيئاً عن عالم العريم الأسود، أو على الأقل لا تدرك مدى خطورته، كل ما تعرفه أنه انسان تعيش معه تحت سقف واحد، حتى لو كانت مرغمة، وعند الضرورة واحتياجه للدعم سارعت لتقدمه دون تفكير، لقد تربّت على هذا طيلة حياتها، ابتسم أيوب وهو يتمتم "أي نملة حمائية أنتِ يا جهاد؟! "سمع صوت باب الشقة يُفتح فيتنفس الصعداء ثم التقط عصاه ليقف مستنداً عليها وهو يتمتم "لم يكن ينقصني إلّا أن أقلق عليك!»

تحرّك ليغادر غرفة المكتب وبينما يسير في الممر ناحية باب الشقة رآها تقف هناك بتوتر تنظر نحوه بعبوس! سألها بهدوء وهو يصل إليها "أين كنتِ؟ "ردت وشفتاها ترتعشان "في المقبرة "ثم استدارت وأولته ظهرها وخطت لتبتعد، لكنه سارع ليمسك ذراعها فيوقفها وهو يسأل بفضول وبعض الدهشة "أ ذهبت لزيارة قبر أبيك؟! لكن ما الذي ذكركِ به؟ "أخذت أنفاسها تحشرج لتنفجر بالقول "لأني احتجت أن أكلّم احداً أثق به دون أن يحاكمني "لا يعلم لماذا شاكسها بالقول "هل كنتِ ستجرئين على فعلها لو كان حيّاً؟ "هتفت به بانفعال "لا "لم يملك إلّا أن يبتسم بينما يتركها تنفجر بالمزيد "دوماً لم يكن لي إلّا سارة "

أحس بالتعاطف معها فعلاً فيمدُّ يده ليداعب خدها

هامساً "وسارة تحديداً لا تستطيعين حتى الآن البوح لها بما يحصل بيننا "لم تدفع يده أو ترفض لمسة المواساة منه، بل نظرت إليه بعينين لامعتين كأنها توشك على البكاء لتهمس "أنا أفتقدها! وهي تفتقدني أيضاً "شفتها السفلى انبرمت كبرطمة طفلة لحرك يده ليلامس تلك الشفّة ويقول بدعابة رقيقة "يبدو أني أفسدُ حياة بنات كرم» كانت مرتبكة ومنفعلة بنفس الوقت، لكنه شعر أنها تريد الكلام معه فمن الواضح لم تجد المواساة في زيارة قبر أب لم تعد تسمع صوته ولا تطمئن بوجوده، قالت بحرقة "لو كان أبي حيّاً لصرخ في وجهي قائلاً أني أنا من أفسدتُ حياتي! دوماً كان يراني السبب في أي مشكلة نقع فيها نحن الاثنتين، بينما إذا فعلنا تصرفاً مناسباً فيمدح سارة وكأنها كانت السبب في هدايتي! كذاك اليوم عندما كنّا في العاشرة وذهبنا في سفرة مدرسية إلى.. "استرسلت جهاد في قصتها بانفعال بينما يستمع أيوب وهو يكاد لا يصدق أنه يترك التحضير لحروبٍ خطيرة بانتظاره ليستمتع بسماع قصص طفولية كهذه تسردها امرأة يقيم علاقة حميمية مميزة معها، ثم اتسعت عيناه قليلاً وهو يحدّق بشفتيها يتذكر القبل منهما فيتمتم في سرّه "لماذا لا تقولها يا أيوب؟ جهاد زوجتك وليست مجرد امرأة تعاشرها في الحلال "انتهت من قصتها وصدرها يعلو ويهبط فسألها بصوت خافت "ماذا أخبرتِه عني؟ أم تريدين مني الذهاب إليه بنفسي لأشرح ملابسات الحكاية؟ ربما سيلقي عليّ كل الذنوب كما استحقها ويسامحك أنتِ "تفاجأ أيوب بشهقة بكاء من

جهاد وهي ترتمي في حضنه وتلف ذراعيها حول جذعه، كانت تحتضنه بقوة وتشدُّ قميصه من الخلف بأصابعها لتبكي بحرقة تفرغ كل توترها ومشاعرها السلبية التي تختزنها.

يده تحركت ببطء حتى ظهرها بشعور تلقائي، لقد أراد هذا، أراده بقوة! شعر أنه مسؤول عنها بطريقة ما.

ظلا هكذا لدقائق قبل أن تبتعد جهاد، بل انسلخت عنه وتمتمت بكلمات شكر ركيكة ثم صرّحت بحاجتها للنوم دون أن تنظر إليه، مضت إلى غرفتها وأيوب يقف مكانه للحظات بينما تأخذه أفكاره لمنحى جديد.

خطا عائداً إلى غرفة مكتبه وهو يستعيد تركيزه بالكامل مع القادم، يجب أن يصل إلى خالد المشاري قبل وصول الخبر إلى إخوته (الصغار)، وكلٌّ بأوانه؛ الأهم ثم المهم.

***

**بعد يومين، عصراً**

بابتسامة باهتة تراقب جهاد ما يجري بين سارة وحمزة، منذ حضوره المباغت بوجهه العابس وهو يتهامس مع سارة بانفعال عند باب الشقة! بدت سارة بتعابير عنيدة عابسة كعبوسه بينما حمزة كان مُصرّاً دون أدنى شك.

التفتت جهاد إلى أمها التي تجلس جوارها على الأريكة ولا تهتم للمشاحنة الجارية عند باب الشقة، بل تنشغل بالقراءة في كتابها، مالت لتقبل كتفها ثم وقفت على قدميها وهي تعلن أنها ستعدُّ الشاي.

تحركت ناحية المطبخ مع عودة الجدة الى الصالة وقد وضعت قالب الكيك في الفرن، أوقفتها الجدة ياقوت وهي تسألها همساً بقلق حقيقي "ما به زوجك يا جهاد؟ لقد ابتعد عنّا منذ خطبة سارة وحمزة، هل هناك خطب ما بينه وبين خطيب شقيقتك؟ "حاولت جهاد أن تبتسم وهي تطمئنها بالقول "مؤكد لا جدتي، من أين لك هذا الاعتقاد؟! أيوب فقط قرّر البدء بعمل تجاري جديد بات يأخذ معظم وقته»

في الواقع لم تكن تكذب تماماً؛ أيوب بالفعل مشغول للغاية بأمر شديد الأهمية وربما الخطورة! بات أكثر انعزالاً ولم يعد حتى يهتم بإغاظتها حول سارة، بل تشعر جهاد إنه انفصل تماماً عما يجري حوله في حي الخاتون برمته، وبات في عالم آخر يتواصل معه؛ عالمه الأصلي، عالم آل عريم المُخيف الغامض بأسراره، تحاول تفسير كلماته في تلك الليلة عندما طلبها لتبقى معه حتى الصباح، لقد كان مشوشاً بغضب من نوع مختلف، كانت تشعر سابقاً أنه غاضب ثائر على نفسه وعلى وجوده، ناقم على كل البشر

ولن تجرؤ أن تقول أنه ناقم على من خلقه، لكن كل ذاك الغضب تحوّل مساره نحو هدف مُحدد، هدف تجهله جهاد، لكنها متأكدة من وجوده، كما متأكدة أن أيوب يسعى منذ أيام لانتقام من نوع ما، انتقام حقيقي وليس مجرد لعبة كالتي لعبها معها هي وسارة.

« انت شاحبة يا ابنتي "صوت جدتها نبهها لترد عليها بابتسامة ذابلة "مجرد أرق جدتي لا تقلقي عليّ "كانت من المرات النادرة التي تظهر الجدة نوعاً من التراخي والحنان وهي تقول لها "انت حزينة! ليتك تخبرينني بما يجري معك "لم تستطع جهاد منع دمعتها وهي تهمس بصوت مجروح "اشتقت لأبي "تمتمت الجدة وهي تأخذها في حضنها "رحمه الله "

أغمضت جهاد عينيها بقوة وهي تتذكر حضن أيوب، كيف تشبثت به بعد عودتها من المقبرة، أ تراها تتعلق به عاطفياً دون أن تدري؟ لكن ماذا عن سارة؟! هل نجح مسعاها بدفع سارة ناحية الارتباط بحمزة؟ إن اطمأنت حقاً أنّ عاطفة سارة تحركت بالاتجاه الصحيح نحو ذاك الثور خطيبها فهل ستكون جهاد حرّة لتفكر بجدية حول مستقبل زواجها الغريب من أيوب؟

ابتعدت جهاد عن حضن جدتها وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة عريضة وتقول "لا تقلقي عليّ سأكون بخير

"نظرت إليها الجدّة مُطولاً ثم قالت "ابتسامتك أكثر كذباً من كلماتك "تجمدت نظرات جهاد للحظة ثم ذابت بالضعف وهي تلتفت ناحية توأمتها قائلة "المهم أن سارة ستكون بخير، ستكون سعيدة مع.. "توقفت كلمات جهاد وهي ترى حمزة يمدُّ يده إلى حقيبة سارة المعلقة على مشذب قرب الباب ثم يفتحها رغم محاولات سارة لمنعه، ثم أخرج منها بعض المال وسارة توبخه بوجه محمر "كيف تفتح حقيبتي دون إذني؟! أعد إليّ المال "لكنه لم يستمع إليها، بل تحرك بخطى عازمة ناحية جهاد فيقدمه لها وهو يقول بفظاظة "هذا إيراد المكتبة خلال الفترة السابقة؛ سلميه لزوجك بنفسك، لا تحتاجان لساعي بريد كي يوصله حتى باب شقتكما "كانت سارة في إثره وهي تهتف به "حمزة لا يحقُّ لك التصرف هكذا! إنه عملي أنا "أخذت جهاد المال منه وقبل أن تقول شيئاً كان حمزة يزمجر "زوجته هنا لا أفهم تردّدك! "فقدت سارة أعصابها وهي ترد بقوة "جهاد ليست.. "قاطعتها جهاد بحزم وهي تتقدم خطوة "حمزة مُحق يا سارة؛ الإيراد سأستلمه منك عند نهاية كل أسبوع "حاولت سارة فتح فمها لتعترض لكن جهاد أضافت بقرار جفائي "وصيانة وشكاوى سكان قصر الخاتون أنا من سيتابعها منذ الآن، هذه الأمور لم تكن من واجبات عملك من الأصل "اتّسعت عينا سارة بصدمة بينما يلوّح حمزة بكفه نحو جهاد قائلاً "أ رأيتِ؟! حُلّت المشكلة ببساطة! "

شعور غريب بالراحة تملّك جهاد اللحظة، ربما هذا كان دورها بالضبط بزواجها من أيوب، أن تقطع كل الروابط الوهمية، قالت وهي تبتّسم ابتسامة حقيقية لحمزة "أجل حُلّت وانتهت يا ميزو »

بدت سارة حائرة، لا تدري ماذا يعني كل هذا الجهاد، إنها لم تعد تفهم توأمتها، لكن كل ما تشعر به أن جهاد في خطر، ابتلعت ريقها وهي تقول لشقيقتها التوءم "جهاد لا تتدخلي بهذا، لا أريد من أحد منكما التدخل "هتف حمزة "هل لديكِ مشكلة في التمييز؟! أين (التدخل) الذي تتحدثين عنه؟ هل هناك غريب بيننا؟! "ثم أشار إلى جهاد "هي زوجته "ليحرك يده ويشير لنفسه "أنا زوجك "هتفت سارة في خطيبها بغيظ "لستَ زوجي "لترد جهاد باستهجان "لكنه خطيبك، ما الفرق؟! "ليعاود حمزة التلويح نحو جهاد قائلاً لسارة "ها قد شهد شاهد من أهلها! "زجرت سارة واستمر النقار بينهم بينما تهزّ الجدة رأسها وهي تتمتم "ما لعب الأطفال هذا؟! "لتتركهم وتعود ناحية ماكينة الخياطة وهي تفكر بثوب جديد لسارة.

***

**بعد مغيب الشمس**

في سيارة سوداء فارهة مُظللة النوافذ، يجلس أيوب وهو

يسأل توفيق بنبرة جليدية عبر الهاتف "ألم تعرف الخائن؟ "جاءه صوت توفيق مُرهقاً على غير العادة وهو يرد عليه "أيوب لماذا تصرُّ على وجود خائن؟ هل وصلتك معلومة؟ "رد أيوب بنفس النبرة "الأموال التي تصلك من حسابي كأيوب العريم ليست لأجل أن تسأل، بل لأجل أن تنفّذ "

للمرة الأولى يشعر أيوب أن توفيق غير مهتم حقيقة للمال، لكنه لا يريد معرفة أسباب حالة محاميه، آخر ما يهمه هذا اللحظة.

قال توفيق بتلك النبرة اليائسة "ما زلت أبحث، أنت تعرف مرّت أربع سنوات والوصول إلى إثباتات أصبح أصعب "رد أيوب بصرامة حادة يعرفها توفيق جيداً "اجعله سهلاً "فيرد توفيق بطاعة "نحن بإمرتك سيد أيوب "ثم أضاف بنبرة عملية "أردت إعلامك أنّ إخوتك سيصلهم خبر عقد الصفقة خلال ثمان وأربعين ساعة كحد أقصى "

لمعت عينا أيوب وهما تنظران عبر النافذة والسيارة تدخل باحة فندق نخم من أهم فنادق المنظمة وأكثرها تأميناً ليقول لتوفيق بخفوت "بل غداً صباحاً سيصل "تمتم توفيق ببعض الارتباك "لكن كيف؟! لقد جهزنا كي.. "قاطعه أيوب بالقول "انتظر اتصالاً مني "ثم قطع الاتصال

والسيارة تتوقف.

***

في أعلى جناح في الفندق، ينسحب الحرس الخاص لخالد المشاري وقد انتشر حرس بمرتبة أعلى وسلطة أوسع تمثل المنظمة، وسّعوا الطريق لأيوب العريم وهو يخطو داخل الجناح وسط صوت صرخات رهيبة قادمة من غرفة النوم، لم تهز قلباً واحداً من قلوب أولئك الرجال.

كان باب الغرفة مفتوحاً، فلا حياء ولا خشية وقد رفع الفاسقون الغطاء فجاهروا بالمعصية والفجور، فتمرضُ الشهوات بالانحراف عن فطرتها، وتُبتلى الغريزة بداء الـ(لا شبع) حتى في ذروة التخمة!

لم يتنبه خالد المشاري لمن دخل عليه وسط صرخات رفيقة سريره التي لم تحسب حساب قدرتها على تحمل تعذيب (الزبون)، يطفئ في جسدها المزيد من السجائر وحنجرتها تعلو بصراخ أشد وأطرافها مُقيّدة إلى زوايا السرير الأربع، كان يتلذّذ بما يفعل ويشمُّ رائحة جلدها المحترق فينتشي! ثم فجأة تأوّه من ألم حاد مُباغت في رأسه ليقع مغشياً عليه فوق بشرة الغانية المُحترقة.

***

## مستودع مهجور

صمت يعمّ المكان الواسع الخالي، لا يقطعه إلّا أصوات خافتة لهرولة بضعة جرذان خرجت من جحورها بحثاً عن بعض قوتها، رائحة العفن تسود فتمحو رائحة الربيع القادمة من خلف الجدران.

كفا أيوب فوق قمة عصاه في وقفة مهيبة وقد حمل السطوة والقدرة ليأخذ القصاص من قاتل ابنته وزوجته، يحلّق حوله رجال بملابس داكنة كالغِرْبان السود، يرهفون السمع لأمره ويُبدون الطاعة لتنفيذها مهما كانت فلا يراجعونه في شيء.

لا يعلم أيوب أي إرادة يملك اللحظة فيستطيع أن يصلب طوله بتماسك هكذا وهو كلّه من الداخل يرتعد! صوت خطوات ابنته يراوده كالهلوسات مُجدداً فيشعر وكأنها تدور حوله في هذا المكان تنتظر من أبيها أن يقتص لأجلها من الجاني الخسيس، أمّا صورة عينيّ البريئة سارة فتدمعان لتكون آخر ذكراها في مُخيلته وكأنها تودّعه في طلب أخير ألّا يضيّع حقها، ومن خلف هلوسات الأصوات والصور يحدّق أيوب في القاتل؛ كان كما أخذوه من سريره وهو يعذّب الغانية، وها هو سيخرج من الدنيا كما أتاها، عارياً!

ما يزال خالد المشاري فاقد الوعي، مربوط إلى كرسي حديدي مثبّت إلى الأرضية، لا يعلم ما الذي جرى له وسيجري عليه!

الرجال ينتظرون إشارة البدء من الآمر المُطاع، وأيوب ينتظر استكمال قدرته كي يأمر، قطرة عرق سالت من جبينه وهو يتذكر تفاصيل تلك الليلة الضبابية قبل أربع سنوات، كان مخموراً لا يقو على حمل نفسه، سارة تخنقها العبرة وهي تلومه، وأفنان تركض حوله وهي تناديه بمرح طفولي، ربما براءتها صوّرت لها أن أباها المترنّح كان يلعب لعبة ما، وقد حاولت مشاركته تلك اللعبة وهي تقلّد حركاته الخرقاء حتى سقط على الأريكة ضاحكاً ولم يشعر بعدها إلّا بصوت الصراخ!

اكتملت القدرة؛ فأمر أيوب بنبرة حادة "أيقظوه!»

خلال لحظات كان خالد المشاري يسحب أنفاسه مجفلاً وقد أيقظه دلو ماء بارد! أخذ يشتم وهو يتطلع حوله للغربان السود حتى ميّز وجود آمرهم؛ أيوب الغُريم، خرس خالد وعقله يستوعب وهو يقرأ نهايته في لحظة! لقد تخلّت عنه المنظمة وسلّمته لغريمه القديم.

أخذ يرتعد في مواجهة مِيتَةً حلم بها في أحد كوابيسه، مِيتةٌ آن أوانها وقد تجرّد من الهيلمان والسلطة، منذ انتشار

خبر عودة (أيوب العريم) إلى الشبكة المظلمة وقد شعر خالد بحدس غريب أنها النهاية، كان يجب أن يبحث عن أيوب قبل أربع سنوات ويتأكد من مقتله بنفسه، لقد اغترّ وتهاون ورضي بانتصاره عندما انسحب غريمه معتزلاً، كم أخطأ التقدير!

دون إضاعة وقت بالإنكار قالها كاذباً وكأنّه يتشبث بقشة "لم أقصد قتلهما! كنتُ.. "قاطعه أيوب بنبرة خافتة للغاية وهو يتقدم إليه "إيّاك "كلمة واحدة كانت كافية ليعلم أنها قشّة وهمية لن تنقذه.

وقف أيوب أمامه مباشرة ليسأل سؤالاً محُدّداً "من الخائن الذي أخبرك بمكاني ليلتها؟! "اتّسعت عينا خالد وللحظة أوشك أن يفاوض أيوب؛ حياته مقابل اسم الخائن، لكنه تراجع وقد علم أن لا فائدة، فموته محسوم ووشيك!

رد خالد على السؤال بالإنكار "لا يوجد خائن، أنا علمت فقط بطريقتي "يحدّقان في بعض، كان جسد خالد يرتعد رغماً عنه، لكن إحساس خبيث جعله يوشك على الابتسام! ليبتسم أيوب نيابة عنه وقد قرأ أفكاره ليقول "أ تظن بإخفائك لهويته سيكون خنجرك الذي تطعنني به في ظهري بعد موتك؟ "ثم يميل أيوب بجذعه نحو خالد وهو ما يزال ينظر في عينيه ليقول بقساوة مرعبة "أنا سألتك

لأتأكد فقط، أعدك سأعرفه وسينال ضعف عذابك»

ابتلع خالد ريقه ثم قال بارتجاف جسده الذي يفضحه "ما الذي تنتظره يا أيوب؟ اقتلني وأنهي المسألة "ارتفع حاجبا أيوب بحركة ساخرة وهو يعتدل بجذعه ويقول بتسلية غامضة "كنتُ أنتظر أن تجف!»

تحرّك أحد الغربان ليحضر جالوناً محكم الإغلاق ثم تقدم من خالد ليفتح الغطاء فتفوح رائحة وقود البنزين! تضاعف ارتعاد خالد وهو يسأل بخفوت "ماذا ستفعل.. بي؟! "

بنبرة لا رحمة فيها قال أيوب "تحبُّ رائحة الجلد المحترق أليس كذلك؟ سأجعلك تشمُّ رائحة احتراق جلدك فربما ستنتشي بها أكثر! "ابتعد أيوب خطوات للخلف بينما الرجل الذي يحمل الجالون يصبُّ فوق جسد خالد الذي أخذ يصرخ بهلع رهيب "لا يا أيوب! لا تقتلني هكذا»

رد أيوب ونظرات عينيه جامدة "لقد شممتُ رائحة جلد ابنتي المحترق، سمعت صرخاتها وانا لم أكن بوعيي لأنقذها وأمها "ثم أغلق عينيه والعرق أخذ يتصبّب منه بينما يحرّك سبابته بأمر لينُفذ، فتتحول صرخات خالد المتوسلة الى صرخات ألم رهيب مع نشوب النيران في جسده!

استدار أيوب كي يغادر المستودع وقبل أن يفعل همس

لظل أسود يتبعه "أوقف صراخه "وخلال لحظتين جاءت طلقة الرحمة وهمد الجسد وكفّ الصراخ.

وخارج المستودع ركب أيوب السيارة الفارهة وهو يقول للرجل الظل "أوصل تحياتي للمنظمة "فيرد عليه الرجل "فريق الحماية السرية سيكون حولك دائماً سيد العُريم ودون أن تشعر بنا»

***

### غرفة جهاد

أجفلت جهاد على صوت مكتوم يناديها ففتحت عينيها لترى خياله قرب سريرها، همست اسمه "أيوب "عرفته دون أن تميز ملامحه، أوقع عصاه أرضاً ثم مال إليها بينما هي تسأله بقلب يخفق بعنف "أين كنت؟ "لم يرد عليها وهو يزيح عنها الغطاء ثم استلقى بجسده فوق جسدها تقريباً وفمه عند أذنها وهو يهذر بصوت خافت مرتجف "هل تعلمين ما هو أسوأ من موت طفلك يا جهاد؟ أن تريه كيف يموت أمامك، أن تسمعي صراخ ألمه وأنتِ عاجزة عن إنقاذه، صرخات أفنان في أذني حتى الساعة "كان جسده متخشباً مشدوداً ويهتز بقوة، حاوطته تلقائياً بذراعيها كأنها تسنده فتتلمس تلك البرودة الجليدية وهي تهمس بقلق شديد "أنت ترتعد! رباه.. جسدك مثلج! "يضغط

بجسده أكثر وهو يهمس برجفة أشد "فقط ضميني إليك، أريد الشعور بدفء جسدك كله "كانت تحاول جهدها استيعاب حالته غير المسبوقة فتحرك كفيها فوق ظهره تدلكه كي تمنحه بعض الدفء بينما تهمس بحشرجة "أخبرني فقط ماذا جرى؟ ما الذي ذكّرك؟ "حرّك قبضته وأخذ يلكم السرير بقوة وهو يهدر بعنف "ليتني أشم رائحة احتراق جلده ألف مرة ومرة، لكنها لا تكفي.. لا تكفي! "كانت كلماته مروّعة لجهاد فتهمس مصدومة "ماذا تقول؟! "ما يزال يلكم بقبضته ثم علا صوته وكأنه يصرخ من جوف الألم "صوتها.. رباه.. ما هذا العذاب! ما الذي سيطفئ الألم؟! "توقفت عن السؤال ولم يهدها تفكيرها إلّا لقراءة الآيات القرآنية، فاقتربت بفمها من أذنه تقرأ وهي تشدّد من احتضان جسده علّها توقف ارتجافه، ظل يرتعد ويتشنج على نحو مُخيف أرعبها، لكنها لم تيأس وهي تقرأ بصوت أعلى ودموعها تسيل على خديها من فرط التأثر بحالته، لقد كان يتألم بقوة.

مرّ وقت طويل حتى همد جسده واستكان فوق جسدها، فمدت يدها لتسحب الغطاء فوقه ثم تتحرك قليلاً لوضع أفضل كي تستطيع التنفس براحة، لكنها لم تتركه، ظلت ملتصقة به وتعيد قراءة المزيد حتى أخذتها الغفوة، ولم تصحُ إلّا مع صوت أذان الفجر لكنها لم تجد أيوب جوارها.

***

## صلاة الفجر، جامع عبد الفتاح باشا

انتهت الصلاة والمصلون يتفرقون، ينظر الحاج عبد الصادق إلى تلك الزاوية حيث يجلس السيد أيوب دون أن يشاركهم الصلاة، لم يعد يعرف أ هي دلالة خير يفرح بها أم دلالة جزع تقلقه على مصير جهاد مع زوجها؟! الوضع بينهما بات مُقلقاً وغير واضح، لقد كان هلال مُحقاً بمخاوفه حول هذا الرجل الذي يزداد غموضاً كل اليوم.

ترددت خطوات عبد الصادق ما بين الذهاب إليه والتحدث معه أو تركه لشأنه لعلّه يحتاج لوحدة في بيت الله يتفكّر فيها، ثم حُسِم الخيار عندما لمح عبد الصادق الشيخ عبد المُعز يتقدم نحو تلك الزاوية المنعزلة، فتنهد ثم استعان بالله دعاءً ليكتب الخير لجهاد المسكينة في زواجها الثاني.

ألقى الشيخ التحية ثم انحنى ليجلس متربعاً جوار أيوب، يتمتم أيوب برد السلام وعيناه عالقتان على طفل في السابعة أو ربما الثامنة يمسك بيد أبيه بكفه الأيمن بينما عيناه على تفاحة بحوزته يحملها بكفه الأيسر ويضمها إلى صدره بحرص كي لا تقع منه، نظرات الطفل لامعة بالبراءة وهو يشتهي أكل التفاحة، لكن كما يبدو ينتظر مغادرة الجامع

بصحبة أبيه.

« هو تفاح نوزعه على الأطفال الذين يأتون لصلاة الفجر، تشجيعاً لهم وتكريماً»

التفت أيوب ناحية الشيخ الجالس جواره، كان مبتسم الوجه كعادته وهو يتكلم، لكن بعض الشحوب والتعب كسا محياه على غير العادة، لم يعلق أيوب بشيء على جملة الشيخ، بل أخذ يتفكر بتلك التفاحة وما تحمل من معنى بالنسبة إليه، سأله الشيخ بتودد "لماذا لم تصلِ معنا يا سيد؟ "تمتم أيوب وصوت صراخ خالد المشاري يضجُّ في رأسه "أنا عاصٍ غارق بالذنوب، لن يتقبل مني شيئاً «

بنبرة تسامح ولطف علّق الشيخ "من قال لك هذا الكلام؟! يقول تعالى في محكم كتابه (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) "هذه المرة كان صراخ ابنته من يعلو ليقول بنبرة مختنقة "لكنه لم يرحمني! سلبني ما لا يعوضه شيء، عاقبني لأني كنتُ أعصيه "أوضح الشيخ عبد المُعز بذكر آية أخرى "وقال جلّ في عُلاه (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين) "شعّ الألم المبرح من أيوب وهو يحدق أمامه في الفراغ متسائلاً "الصابرين؟! أخبرني يا شيخ، أيحبنا الله حقاً وهو يبتلينا بما لا نطيق ثم

يطالبنا بالصبر؟ "فيرد عليه الشيخ بثقة مطلقة "مؤكد يحبنا، وإن عاقبنا في الدنيا على جرم ارتكبناه فهو يريد لنا الهداية، ويريدها لأجل أنفسنا وليس لأجله فهو غنيٌّ عنها وعنّا "تمتم أيوب بحشرجة "لا أستطيع أن أفهم! كيف يحبني ويبتليني في أغلى من أحب؟! "بإشفاق قال الشيخ "سُئل شيخ جليل (وهل يُبتلى المرء فيما يُحب؟ قال: لا يُبتلى المرءُ إلا فيما يُحب) "تقبّضت يد أيوب وأخذ يضرب فوق فخذه الأيسر المعلول كأنه يعاقب نفسه بمزيد من الألم، يشعر بالتخبط وهو يجلد ذاته "صغيرتي أفنان كانت مجرد طفلة! احترقت أمام عيني، لم أطعمها إلّا حراماً فاحترقت بذنب ما أطعمتها إياه "تمتم الشيخ "لا حول ولا قوة إلا بالله "ليلتفت إليه أيوب ويقول بانفعال "حُلها لي يا شيخ! كيف يعاقب الله طفلة بذنب أبيها؟! "بتأن قال الشيخ "أنا لا أحلُّ وإنما أتفكّر لأفهم، وحسن ظني بالله يسبق "برفض يهز أيوب رأسه وهو يقول بمزيد من الانفعال والثورة "لماذا لم يحرقني أنا حتى الموت وينجيها هي؟! أ لأنها بذرتي أنا فلم تستحق الحياة؟!»

بدا وجه الشيخ مُرهقاً أكثر وأيوب غافل عنه، لكنه كان أكثر صبراً وحُلماً وهو يوجّه أيوب لمنحى آخر "في سورة الرحمن مذكور اسمها (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)، أفنان هي أغصان نضرة في الجنة، بذرتك في دار الفناء أراد الله لها مساراً آخر في دار البقاء، ربما مشيئته أن يوجعك بها لترتدع وتعود إليه فيُكرمك بظلال أغصانها في الجنة "ثم

يصمت لحظة قبل أن يضيف "وربما أراد أن يرحمها من ذاك الحرام الذي كنتَ تُطعمها، فالحرام يا سيد يتسلّل للّحم والجلد والعظم؛ كما يتسلّل بخبثه للنفوس، فمن يدري لو عاشت طفلتك وكبرت كيف ستكون»

اتسعت عينا أيوب وكأنه يشعر بفجيعته للمرة الأولى فيتمتم "إذن أنقذها مني! "فيعلق الشيخ بفطنة المؤمن الحق "وربما يحثّك لتنقذ نفسك معها "عادت عينا أيوب لحجمهما الطبيعي وقد غمر الشكُّ نظراته "أنقذ نفسي؟! لا أدري إن كنتُ سأفعلها "لكن الشيخ لم ييأس منه ليقول له بصدق "أنت رجل ذو إرادة وذكاء يا سيد فاستعن بهما وتوكل على الله»

نظر أيوب مُطولاً للشيخ وبدا للحظة كأنه مُحتار أو متردّد، السؤال يحوم على تعابير وجهه قبل أن ينطقه لسانه "لماذا ابتلينا بهذه الحياة؟ لماذا عاقبنا جميعاً بذنب أبينا؟! "عقد الشيخ حاجبيه وهو يتساءل بحيرة "من تقصد بأبينا؟! "فرد أيوب وعيناه في عيني الشيخ تبحثان عن إجابة "أبو البشر آدم، من ندفع ثمن فعلته "انحلت عقدة حاجبي الشيخ ليرتفعا قليلاً بدهشة حقيقية ثم تمتم عفوياً "استغفر الله العظيم "تنهّد ثم فسّر بصبر يشقُّ عليه وهو مرهق عليل "يا سيد لم يكن خروج سيدنا آدم وزوجه من الجنة عقوبة "هذه المرة أيوب من عقد حاجبيه وهو يتساءل بتشكيك "كيف؟! وما هو دليلك؟ "رد الشيخ بهدوء المعرفة

"الهبوط إلى الأرض حصل تزامنًا مع التوبة التي ألهمها الله إلي آدم، وقد قُبلت توبته عليه السلام وتم اصطفاؤه، فلا يُعقل أن يلهمه الله التوبة وقد أراد له العقوبة» فيُحاجّه أيوب بالسؤال "إذن لماذا لم يُعِده إلى الجنة إن كان سامحه؟ "فيرد الشيخ حجة أيوب بالقول "هبوط آدم وزوجه إلى الأرض لحكمةٍ أزلية، فقد خُلق من الأساس ليكون خليفةً في الأرض "لكن أيوب لم يقنع، بل يلقي المزيد من التساؤلات التي تدور في خلده "أنا لا أفهم! لماذا إذن أدخله الجنة وجعله يمرّ بتلك الغواية، فيأكل التفاحة التي منعها عنه؟! إن كان خُلق لخلافة الأرض فما الداعي لكل ما حصل؟! "بعقل راجح وفكر منير متفتح قال الشيخ "تساؤلاتك في محلها يا سيد؛ لكنك تغفل أنّ كل هذا سبق في علم الله الأزلي يعلم ما كان وما سيكون، وهذا هو المغزى من خلافة الإنسان في الأرض ليختار الصواب حتى لو مالت نفسه إلى إغراء تلك الغواية، لو تفكّرنا الآن؛ فيمَ إذن كانت تلك الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟ يقول أحد علمائنا الأجلّاء في هذا: لعلّي ألمحُ أن هذه التجربة أنها كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً له، كانت إيقاظاً للقوى المدخورة في كيانه وتدريباً له على تلقّي الغواية وتذوّق العاقبة، وتجرُّع الندامة ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين، ولقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقرِّ خلافته، مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً استعداداً للمعركة»

نظرات أيوب شردت في جمود وهو يتمم جملة مُحدّدة من كلام الشيخ "تلقّي الغواية وتذوّق العاقبة!»

لم يخرجه من شروده إلّا كلام الشيخ "هل تعلم ما هي أكبر نعمة في حياتي يا سيد؟ "نظر أيوب إليه فيراه متبسماً ليرد عليه بما يظنه (الرد البديهي) لأمثاله من المؤمنين القانعين "ستقول لي الصحة والستر "اتّسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول "هي نِعَمٌ كبيرة، لكنها ليست الأكبر "فيقول أيوب كأنه الخيار الثاني من الردود البديهية "إذن الاطفال؟ "يتحمّد الشيخ لرب العالمين ثم يقول بنظرة عميقة لم يفهمها أيوب "لي ثلاثة عيال لكنهم ليسوا النعمة الأكبر "قال أيوب وقد استعصى عليه الرد "احترت معك يا شيخ! ما هي النعمة الأكبر؟!»

تلألأ نور عجيب في عينيّ الشيخ عبد المُعز حتى أبهر أيوب، ثم قال بما أبهر أيوب أكثر "إنها حُبّه "تمتم أيوب وهو لا يستوعب الرد "حُبّه؟! "فيهزُّ الشيخ رأسه بتأكيد ثم يقولها وجوارحه تنطقها قبل لسانه "أنا أحبُّه فيُغنيني حبّه عن علّة الأجساد وفقد الأكباد "عينا الشيخ فاضتا بالدموع رغم الابتسام لم يفارق محياه، يحدق فيه أيوب وصراع يشتد داخله وهو يسأل "علّة الأجساد وفقد الأكباد؟ "ظهر التعب الشديد على الشيخ لكن وجهه منشرح وهو يخبر أيوب على استحياء رقيق "جسدي معلول يا سيد، فساعة طريح الفراش وساعة تدبُّ في أطرافي القوة فأهرول، وفي

كلتا الخالتين أحبه وأحمده على حبّه "لم يجد أيوب ما يقوله بينما يكمل الشيخ بلمحة ألم لا يخلو من الرضا "فقدتُ ولدين؛ وأولادنا أكبادنا تمشي على الأرض؛ فبكيت وأنا أقول له أحبك يا ألله»

أخذت دموع الشيخ تسيل على خديه حتى بللّت لحيته، لكن الابتسام لم يفارق محياه الشاحب، كان أيوب مذهولاً بما يراه ويسمعه، يتساءل بذاك الذهول "لماذا لا أستطيع حبّه مثلك؟! "فقال الشيخ بحنو "ستحبّه عندما ترى نعمه؛ وأنت لديك الكثير لو تبصر! "ثم مسح دموعه وأضاف بنبرة مؤثرة تسللت خلف أسوار الصراع الذي يخوضه أيوب "قال أمير المؤمنين الامام علي ابن ابي طالب في أحد أبياته العظيمة (**دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ، وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ، أَتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغير وَفيكَ اِنطَوى العالَمُ الأَكبَرُ**)، دواؤك فيك يا سيد، إنه فيك لو تعلم!»

***

## المقبرة، مع إشراق الصباح

كانت المرة الأولى التي يزور قبر صغيرته، لم تدمع عيناه حتى؛ حدّة الألم فوق دموع البشر، زار قبر أمها قبلها فلم يجد ما يقوله لها! فماذا يقول لتلك البريئة التي أحبتّه وأنجبت له فلذة كبده لتصبح كلتاهما هدفاً لانتقام أعدائه

وتدفعا حياتهما ثمن ارتباطهما باسمه، أيوب العريم! جثا على ركبتيه ثم مدّ يده يلامس صندوقاً زجاجياً مثبتاً عند شاهد قبر الصغيرة وقد تراصّت داخل الصندوق ثلاث ديناصورات صغيرة بأشكال مختلفة مما يلهو به الأطفال، عادت به الذاكرة لوجهها الصغير المتحمّس وهي ترفع ديناصورها الجديد في وجهه لتجبره أن يراه!

همس والغصّة تخنقه "من وضعها لكِ فاني؟ "الصندوق كان متسخاً لكن من الواضح أن هناك من يعتني به قدر الامكان، سيسأل الدفّان المسؤول عن المقبرة عند مغادرته، فلا يُسمح بالعادة بدخول الغرباء إلى مقبرة العريم.

استند أيوب على الشاهد بكلتا يديه ليقول بحرقة قلب أب مكلوم "لا يُبتلى المرءُ إلا فيما يُحب، وأنا لم أحب بشراً كما أحببتك، فأيُّ ابتلاء هذا؟! "أرخى جبينه فوق حافة الشاهد فيهمس مُعترفاً لها بما اقترف "مهما فعلت في حياتي من ذنوب قد أندم عليها، فلن أندم أبداً على إنزال القصاص العادل بمن سلبك حياتك بتلك البشاعة، العين بالعين! وقد نال قصاصه في نفس اليوم صغيرتي»

« أيوب! ماذا تفعلُ هنا؟ "

تفاجأ أيوب وهو يلتفت للخلف ليرى أخاه آدم يقف على

مقربة منه وهو يخلع نظارته الشمسية، فاتكأ على الشاهد ليقف على قدميه وسأل بعجب وبعض الشك "ما الذي تفعله أنت هنا يا آدم؟! "تلاشت الدهشة عن محيا آدم ليقول بهدوء "هذه سنوية أفنان "اتّسعت عينا أيوب بينما يتقدم آدم مضيفاً بنفس الهدوء والسيطرة "لا تستغرب هكذا؛ لم تكن ابنتك وحدك "ثم وضع النظارة الشمسية في جيب سترته الخارجي قبل أن يدسّ نفس اليد في جيبه الداخلي وهو يقول "كنتَ تهملها؛ وفي أوقات فراغك تفضلُ عليها التسكّع مع النساء "بانشداه كامل كان أيوب يراقب الديناصور الصغير الذي أخرجه آدم من جيبه للتو قبل أن يحني ويفتح الصندوق الزجاجي ثم يضعه جوار باقي الديناصورات قائلاً بحشرجة خاصة أفلتت منه "موتها قتلني وكأني فقدتُ ابنتي الوحيدة التي لن أنجب غيرها!»

وبنفس الانشداه راقب أيوب كيف رفع آدم كفيه ليقرأ سورة الفاتحة! وحالما انتهى سأله أيوب "هل أنت من يضع هذه الديناصورات؟! "لسنوات طويلة لم ير أيوب أخاه الأصغر وهو يبتسم! كانت ابتسامة من القلب، تحمل حبّاً حقيقياً جمّاً وهو يتمتم بإجابة غير مباشرة "كانت تحبهم بجنون وتطلق عليهم اسماء مضحكة "وأخيراً أنهى آدم مراسيم زيارته بأن طبع قبلة على أصابعه ثم مسح بها على شاهد القبر في لمسة حانية هامساً "اشتقتُ لآخذك في حضني فاني»

لم ينطق أيوب بحرف وهو يراقب آدم يعود إلى هيئته الجامدة، يرفع يده إلى جيبه ويلتقط منها نظارته الشمسية فيعاود ارتداءها، وحالما استدار ناداه أيوب بالقول "ألن تسألني عن الصفقة؟ "لم نتلكأ خطوات آدم المبتعدة وهو يرد عليه "عند قبر أفنان لا أجرؤ أن ألوثه بقذارة آل عريم"

ثم مضى آدم تاركاً أيوب خلفه يتّخذ قرارات لا رجعة فيها.

***

## فوق سطح مبنى شاهق، مقرُّ مؤسسة العريم

شمس الصباح تسطع فتنعكس على جسد هارون العريم وهو يقف بمحاذاة حافة السطح الأبيض، يفكر أنّ من يراه ويعرف هويته يظنُّه جسوراً مُغامراً، لكنه في الواقع كان جباناً انتحارياً! يغمض عينيه ويفرد ذراعيه ويترك تيارات الهواء تتلاعب بجسده، مرت دقائق وهو على هذه الحالة، ثم قرر فتح عينيه لينظر إلى الأسفل، علو شاهق يغريه! رؤية الناس والسيارات بأحجامهم الصغيرة يجعله يبتسم وهو يتخيل وجوههم المصدومة عندما يستقبلون جسده الهاوي!

الاغراء يشتد ويناديه بصوت أعلى، فتتحرك قدماه في

استجابة، كان يلهث بأحاسيس شتّى عندما جاءه صوت حارسه الشخصي جبل الذي يلازمه "لو سمحت سيد هارون تراجع الى بقعة آمنة»

اتسعت ابتسامة هارون وهو يشعر بوقوف جبل خلفه مباشرة، بل ويشعر بتأهبه الكامل لأداء المهمة (عند حصولها)! قال له وهو يمعن النظر في أمواج البشر تحته "ماذا سيحصل لو لم تستطع منعي وسقطت؟ "رد جبل ببساطة "عندها سأخسر أهم زبون في حياتي "ينفجر هارون ضاحكاً ثم التفت إليه ليقول بنظرة تسلية "ألا تتساءل عن غرابة أطواري يا جبل؟ لم تبدِ اي ردة فعل منذ أن استخدمتك كحارس شخصي بمهام إضافية غير تقليدية؛ كمنعي من الانتحار مثلاً "بوقفته العسكرية ونظارته السوداء التي لا تفارقه يرد جبل على مرؤوسه "انت لا تدفع لي المال كي أسأل سيدي»

تشتّت نظرات هارون في لحظة ليحدّق هذه المرة في السماء يدور بعينيه فيها وهو يسأل بغرابة "لماذا أتشبث بهذه الحياة؟ أهو خوف من الموت؟ أم خوف ممّا بعد الموت؟ "لم يسمع ردّاً هذه المرة فأغلق عينيه وترك جسده يتمايل حتى التفت ذراعا جبل حوله لينزله عن الحافة وهارون يضحك ساخراً ويقول بمرارة ساخرة "يبدو أني عالقٌ يا جبل!»

لم تمضِ دقيقة على (إنقاذه) حتى رنّ هاتفه، فضحك هارون وهو يرى اسم أخيه قابيل على الشاشة ليفتح الخط وهو يغمز لجبل بدعابة ما بينما يرد على أخيه بابتهاج مسرحي ودعوة ساخرة "مرحبا سيدي قابيل العريم، الجو رائع هذا الصباح هل نذهب في رحلة سفاري عائلية؟! "نبرة صوت قابيل لفتت انتباه هارون أكثر من كلماته وهو يقول له "كفَّ عن قول الحماقات هارون! لدينا مصيبة، بل كارثة "بهدوء أعصاب سأل هارون "ماذا فعل أيوب هذه المرة؟ "فتمتم قابيل لاهثاً "كيف عرفت؟ الخبر وصلني للتو "رد هارون بذكاء فطري "أنت لا تنتظر الكوارث من (غيره) "عندها قال قابيل بنفس النبرة التي تدقُّ جرساً معيناً عند هارون "تم التعرف على جثة خالد المشاري، لقد وُجد محروقاً في مستودع مهجور بمنطقة نائية "يضيّق هارون عينيه وللحظة يتساءل "وما علاقة أيوب بخالد.. "ثم صمت! وفي لحظات كان الرد حاضراً في رأسه، لطالما كان خالد المشاري أكثر المرشحين لفعلها، لكن قابيل من أخذ على عاتقه دحض أي شكوك أنّ حادث الحريق كان مُدبّراً، قال هارون أخيراً وعيناه تبرقان بالبغض والتشفي "خالد كان دوماً قذراً وخسيساً، وها قد نال عقاباً من جنس فعله، فليحترق للأبد في نار الجحيم، لو كنتُ مكان أيوب لقطّعتُ أوصاله ببطء "لم يقل قابيل شيئاً، ليتنبأ هارون بالكارثة الحقيقية (المتوقعة) "لكن هذا يعني أن أيوب عقد الصفقة بمفرده وأخرجنا من اللعبة "عندها فقط قال قابيل باضطراب غير مسبوقٍ منه "مؤكد

دفع للمنظمة ثمن رفع الحماية عن خالد المشاري، لقد بتنا مكشوفين كلُّنا أمامه! "

لمعت عينا هارون وأفكاره تتسارع لتجمع قطع الصورة بينما يقول لأخيه بخفوت "صوتك فيه رجفة لا تعجبني يا قابيل "لم يسمع إلّا صوت لهاث قابيل كرد! فتحرك هارون وهو يسأل بجدية عن (الكارثة الحقيقية) "ما علاقتك بخالد المشاري وما فعله مع أيوب قبل سنوات؟ أخبرني بمدى تورطك قبل أن يفلت الأمر منّا جميعاً»

***

# الفصل التاسع عشر
# وداع وتفاحة

يد قابيل ارتجفت مجدداً فأخفاها في جيبه والخوف يتضاعف إلى درجة لا تُحتمل، دخل عليه هارون بوجه جدّي قلق، نادراً ما يُرى هارون العريم بهذا الوجه! تطلّع إليه قابيل بنظرة جانبية وهو يتحرك نحو كرسيه ليعاود الجلوس فشعر للحظة أن مشيته غير طبيعية! لكنه امتنع عن التفكير في هذا الآن وهو يملأ كرسيه ينتظر ما سيدلي به أخوه.

«ماذا عنيت بأنك لك صلة غير مباشرة وغير مقصودة؟!"

سؤال هارون كان هادئاً للغاية لكنه حمل المعنى الواضح لمدى خطورته وخطورة الإجابة المُنتظرة، اكتفى قابيل بالقول "ننتظر وصول آدم لنتكلم بما هو مهم الآن "مرّت لحظات طويلة وهارون يمعن النظر في أخيه فتلهّى قابيل بالتكلم عبر الجهاز إلى مديرة مكتبه الجديدة قائلاً "عند وصول السيد آدم امنعي عني أي اتصال مهما بلغت أهميته، ولا أريد من أحد الاقتراب من مكتبي نهائياً»

بهدوء شديد مع ابتسامة صغيرة ساخرة تحرك هارون

ليجلس على أريكة مريحة في جانب المكتب الفخم ثم التزم الصمت وتعابيره الساحرة لا تفصح عما يفكر فيه أو يضمره.

مرّت دقائق ثقيلة حتى وصل آدم أخيراً ليدخل وهو يخلع نظارته يسأل باقتضاب "ماذا هناك؟ "قبل أن يرد قابيل كان هارون يفرد ذراعيه على ظهر الأريكة وهو يقول بنفس الابتسامة "أجلس يا أصغر، فقابيل لديه الكثير ليطلعنا عليه»

أرخى قابيل نظراته وهو ينتظر آدم كي يجلس على كرسي قريب ثم قال "ليس هناك ما هو أهم من الصفقة، وقد بات واضحاً أنّ أيوب فعلها وأخرجنا منها لأسبابه الغامضة "ثم تشنّج قليلاً وهو يضيف بكراهية "كالعادة يحبُّ أن يلعب معنا حتى في أمر شديد الأهمية كهذا! "تتسع ابتسامة هارون بينما يسأل آدم بهدوء أعصاب "هل أنت واثق يا قابيل؟ "ضحك هارون عالياً قبل أن يرد هو "قابيل واثق حد الاحتراق!»

هتف قابيل بانفعال "كفاكَ سخرية فالأمر لا يحتمل منك هذا! "لمعت عينا هارون وهو يسأل بغموض "وماذا تقترح؟ "شمخ قابيل بذقنه قائلاً "نختطف زوجته ونضغط بها عليه "ثم لامست ثغره ابتسامة خبيثة قبل أن يضيف "ألم تفكر بهذا قبلي يا هارون؟»

لم يشعر هارون بذرّة إحراج وهو يفسر الوضع بمنطقية "مؤكد خطرت لي بعض الأفكار المشابهة! لكن تلك النحيلة جهاد لم تعد بيدقاً ذا قيمة في اللعبة، صحيح أنّ أيوب حاول إعطاءنا انطباعاً أنها لا تشكّل له أهمية، وهذا في حدِّ ذاته يُظهر أنّ لها أهمية ما، لكن تقديري أنّ أهميتها تلك لن تنافس بأي طريقة حجم الصفقة، ولن تدفع أيوب للتنازل عن غروره وقد اتخذ قراره بإخراجنا، جهاد كانت تلائم وضعه السابق وهو متخفٍ في حي الخاتون، لذلك أرجّح أنه سيتخلص منها وقد عاد إلى مُلكه "توتّر قابيل بينما هارون يكمل بسلاسة "نحن سحبناه من العزلة عنوة، وربما هو يعاقبنا على طريقته بحرماننا من الصفقة لفترة مؤقتة، لكن في المستقبل أظنه ينوي أن.. "قاطعه آدم فجأة وهو يقول بنبرة غريبة "أشعر أننا بعيدون تماماً عن تحديد نواياه "بتنبّه كامل تساءل هارون "ماذا تقصد يا آدم؟ "رد آدم بتلك النظرات التي لا تحمل حياة ولا موتاً "وكأني أشعر به سيقدم على عمل لن يكون في حسبان أحد "

ارتفع حاجبا هارون وشردت نظراته في تفكير مكثّف بينما انفعل قابيل وهو يهدر "إنها الحرب إذن معه! لا يمكننا أن نسكت على تعامله هذا معنا! "ثم أخذ يشتم قبل أن يضيف بنظرة حادّة "إن كان يظنُّنا مكشوفين أمامه ليتلاعب بنا، فلنريه من نحن حقّاً، لسنا (الصغار) الذين

تركهم قبل أربع سنوات "

عندها قال هارون وقد التمعت عيناه في حدة "قبل أربع سنوات؟! أ تريد إعادة ما حصل قبل أربع سنوات يا قابيل؟ "فيرد قابيل بانفعال موجّه لهارون "لا تدّعي الشرف أمامي وقد اعترفت للتو باستعدادك لاختطاف زوجته وأذيتها للضغط عليه "يعقد آدم حاجبيه ببعض الدهشة وهو يشعر أن أمراً فاته بين أخويه بينما هارون يميل بجذعه للأمام وهو يرد على قابيل بهدوء يخفي عاصفة خلفه "اختطفها وأهدّد عائلتها ممكن، لكن أن أقتلها فـ (لا) "ينقل آدم نظراته بينهما وهو يتساءل بإحساس غير مريح "عمّ تتكلمان؟! "لكن هارون وقابيل لم يلتفتا إليه وقد كانا يتواجهان بالنظرات وهارون يضيف بنبرة خشنة "أن أقتل ابنة أخي فـ (لا) "تجمّدت نظرات آدم وهو يتمتم كالمصعوق "ماذا تقول هارون؟! "أنفاس قابيل تتسارع وصوت هارون يرتفع مع قبضته التي ضرب بها فوق طاولة بيضاوية أمامه "أن أقتل أخي فألف (لا)!»

هبّ آدم على قدميه بعنف غير مسبوق منه وبدا كالمجنون وهو يسأل بعينين متسعتين "ماذا يجري هنا؟! ومن تقصد بابنة أخي؟! أ تقصد فاني؟! "لم يستطع قابيل النطق بحرف وهو ينظر إلى هارون بحقد بينما يعود هارون بظهره للخلف ويفرد ذراعيه مجدداً على ظهر الأريكة وهو يقول "أخبره يا قابيل، أخبر آدم عن مقتل خالد المشاري الذي وُجِدَ

محروقاً حتى الموت في مستودع مهجور فجر اليوم "كان آدم يلهث وهو يحاول استيعاب ما يسمع فيتمتم "خالد.. المشاري؟! "رد هارون يكشف جزءاً من الحقيقة "أجل، ذاك الخسيس هو من دبّر حادث الحريق الذي أودى بحياة سارة وأفنان وكاد يودي بحياة أيوب أيضاً، لكن جاء اليوم ليردّها له أيوب ويذيقه نفس الألم وحتى الموت "

لم يستطع آدم الاستيعاب حتى اللحظة من هول الصدمة، التفت ببطء إلى قابيل الصامت ويواجهه بالقول وأنفاسه تلهث "لكن.. انت قلت وقتها إنه مجرد حادث بسبب تماس كهربائي والكوخ لم يكن مؤمناً ضد الحرائق، ألم تقل هذا؟ "

تقبّضت يدا قابيل وهو يشعر بالحصار يشتد عليه، لا يمكن أن يخسر الآن كل شيء!

كان هارون من فسّر الحقائق لآدم وهو يرد على تساؤلاته بالقول "أجل هذا ما قاله لنا، لكني دوماً شككتُ أنّ الحريق بفعل فاعل، واعترف أني لم أهتم كفاية لأتأكد، لكن منذ عودة أيوب وبدأت أوقن أنه ليس بشك "ثم أشار لقابيل بحركة من رأسه مضيفاً "أنتَ من أكدّ لي شكوكي القديمة يا قابيل، كنتَ مكشوفاً للغاية! وقد راهنت أنكَ أخفيت آثار الفاعل كي لا يعود أيوب إلى

الساحة مدفوعاً بثأره "

رفع آدم كفيه لرأسه دون شعوره يشدُّ شعره كأنه في كابوس؛ عيناه جاحظتان من هول الفاجعة، وكأنّ أفنان ماتت للتو، لقد كان هو من حمل جسدها بنفسه ليُدخلها قبرها الصغير الموحش، تغلي أحشاؤه وهو يتمتم "مستحيل! "

وقف هارون على قدميه ليقول أخيراً بنبرة ساخرة حملت مرارة وقرفاً "ليس مستحيلاً يا آدم، أخونا العزيز قابيل لم يمحُ الآثار فقط كما توهمتُ أنا بغباء وقلة تقدير أُحاسبُ عليه؛ بل كان مُشاركاً في الفعل! لقد تذكّرت الآن أنه هو من اقترح الكوخ لأيوب كي يقضي فيه إجازة مع ابنته يعوّضها إهماله لها "

كان انفجاراً مُدوياً من آدم وهو يلتف حول طاولة مكتب قابيل ليصل إليه في كرسيه ثم يباغته وهو يمسك رأسه من الخلف ليرطمه بسطح المكتب في عنف رهيب ثم يصرخ بجنون "ألك يد بمقتل أفنان؟! "يعاني قابيل كي يفلت بينما يراقب هارون بغضب مكتوم وقد كان آدم يفعل ما يتمنى هارون فعله اللحظة، ظل آدم يدعس رأس قابيل وهو يصرخ "أجبني قابيل.. أجب! "يحاول قابيل الفكاك وهو يقول باختناق "ستقتلني! اتركني "عندها قال هارون بقسوة "رد عليه يا قابيل؛ ماذا كان دورك

بالضبط؟ "كانت يد قابيل تبحث بجزع عن ذاك الزر السري لاستدعاء حرسه بينما يتمتم "لم.. أفعل.. "لكن آدم يكاد يقتله بالفعل بينما هارون لا يبدي أي حراك لإنقاذه، بل يضغط عليه ليعترف "انطق قابيل ورد علينا؟ أ كنت شريكاً مع خالد المشاري؟ "بينما يصرخ آدم "أ وصلنا إلى هذا؟! أ تقتل أخاك وعائلته؟!»

عندها فقط اعترف قابيل لاهثاً بتقطع من شدة الألم "لقد خدعني.. قال سيلقّنه درساً فقط "أخيراً وجد الزر اللعين ليضغطه بينما جن جنون آدم وهو يضرب رأس قابيل مراراً وتكراراً في هستيرية حتى حضر الحرس لينقذوا قابيل من بين يديه ويكبلوا ذراعي آدم الثائر وقد فقد كل تحكمه بنفسه وهو يصرخ "سأقتلك.. سأقتلك يا قابيل! ستدفع ثمن حياة أفنان»

أخرجه الحرس بينما يسعل قابيل وهو يرتجف رغماً عنه، اقترب منه هارون وهو يقول له "أ حقاً كنت تظنه سيلقنه درساً فقط؟! وحتى لو كان صحيحا ما تقول، كيف تسمح له؟ "رفع قابيل عينين تفيضان بكره رهيب وهو يرد "لأنه لم يعد هناك مكان يسعنا نحن الاثنين، إما أنا أو هو "نظر إليه هارون طويلاً ليهدر قابيل مضيفاً بالقول الغاضب "هل أنتَ راضٍ الآن يا هارون؟! "فيرد هارون بنبرة غريبة وهو يتحرك ليترك المكتب "راضٍ؟! لقد وصلنا لما تحت القاع! «

***

بعد أن أغلق الاتصال المُؤّمن مع أيوب العريم؛ طلب توفيق من سكرتيرته أن تلغي جميع المواعيد لهذا اليوم وتحوِّل الطارئ والمُستعجَل منها إلى أحد المحامين العاملين لديه في المكتب.

نهض عن كرسيه وهو يحلُّ ربطة عنقه بيد مرتجفة، تحرك نحو زاوية المكتب حيث براد مجهز بكل المشروبات لينتقي منها ما يرجو أن يبرد جوفه المحترق! تجرّع المشروب البارد دفعة واحدة وحالما انتهى كان يلهث وعيناه تقدحان بالشرر وهو يتمتم "اللعنة عليك يا قابيل! كيف استطعت؟!»

أغمض عينيه ليمنح نفسه حق استعادة ذكراها، تلك النحيلة الوديعة بجمالها الباهر، فراشة بهية محبوسة في قنينة زجاجية مغلقة لا يستمع أحد لحشرجة صوتها وهي تنادي بانكسار.

(« ماذا لم تتزوج حتى الآن يا توفيق؟ "« لم أجد امرأة تحملني يا سيدة سارة "« أنتَ رجل طيب فابحث عن ابنة حلال ترعاك وتنجب لك الذرية»)

كان هذا أطول وأرقّ حوار أجراه معها، تلك الليلة لم ينم ولم يستطع محو تأثيرها عليه، نظرات عينيها الجميلتين، وتلك الطيبة المشعّة منهما كانت غريبة في قصر العُريم، لماذا زوّجوها لأيوب؟! لماذا؟!

رمى توفيق الكأس بعنف ليرتطم بالجدار ويتهشّم بينما يهمس توفيق من بين أسنانه "إن تأكّد الخبر حقّاً فليت أيوب يمزقّك إرباً يا قابيل، وسيفعلها أنا واثق»

***

قرابة منتصف النهار والشمس بدت ساطعة حارقة أكثر مما يلائم فصل الربيع، في سيارة أجرة تقلّب جهاد في صفحات التواصل الاجتماعي دون تركيز حقيقي، لقد كانت بمزاج سيء للغاية، الواقع كانت بمزاج قلق، والقلق يجعلها في اسوأ حالاتها، تعاملها مع الناشر كان فظّاً خشناً، صحيح أنه يراوغ ويناور لكن لم يستوجب أن تتصرف بهذا الشكل.

زفرت وهي ترخي يدها بالهاتف المحمول إلى حجرها ثم تدير وجهها تنظر عبر الشباك وهي تفكر بأيوب، رعشة مرت بجسدها وهي تتذكر ما حصل في وقت متأخر من ليلة الأمس، قلبها موجوع منقبض، ماذا قصد بكلماته تلك؟! ما الذي اكتشفه وما الذي فعله بناء على ذاك

رن الهاتف في حجرها فالتفتت إليه لترى اسم سارة، شعرت بالحنين يقتلها والحاجة الماسة تضنيها، فتحت الخط بلهفة هامسة بتعب "سارة "لكن رد سارة المباشر الخافت أقلقها "أين انت جهاد؟ "حاولت إنكار شعورها بنذير سيء من نوع ما فردت على توءمتها بالقول الساخر "كنت في نزاع مع الناشر كي يدفع مستحقاتي المتأخرة "لكن صوت النذير علا وسارة تخبرها بقلق "اتركي كل شيء وتعالي على الفور "ابتلعت جهاد ريقها وهي تسأل بارتباك "ماذا حصل؟ "ردت سارة بتردد واضح وحيرة أوضح "هناك شاحنة نقل غريبة مقابل مبنى الخاتون؛ إنهم ينقلون صناديق وبعض الأغراض من شقتك، أقصد شقة أيوب "بتأهب غريزي تمتمت جهاد "هل أيوب موجود؟ "فجاء رد سارة أكثر حيرة وقلقاً "لقد حضروا برفقته منذ قرابة ساعة أو أقل، لا نعلم ما يجري والعم عبد الصادق غير موجود "أغمضت جهاد عينيها وهي تستعيد كلمات أيوب ليلة الأمس مجدداً بينما لسانها يتمتم "انا في الطريق، قادمة»

***

بعد ثلث ساعة أو تزيد؛ عندما وصلت جهاد، وجدت أختها تقف خارج المكتبة وإلى جوارها حمزة، كلاهما

ينظران إلى أولئك الرجال الغريبين في بدلات سود وهم ينقلون الصناديق إلى شاحنة بيضاء ليس عليها أي علامة أو دلالة لشركة نقل.

بعض المارّة كانوا يلقون نظرات مرتابة لكنهم لم يجرؤوا على التساؤل أو حتى إبداء الدهشة، كان هناك هالة من نوع ما تجعل الجميع متوجسين ويفضلون عدم التدخل.

تقدمت جهاد لتقف جوار سارة وحمزة وحالما تنبها لها قالت "سأذهب لأعرف ما يجري "عرض حمزة بجدية "دعيني آتي معك "لكن جهاد رفضت بنبرة قاطعة "لا.. لا أحتاج لأحد يا حمزة، لا أنت ولا سارة ولا حتى العم عبد الصادق إذا عاد، لا أحد منكم أريد منه التدخل «

ثم شمخت بذقنها لتتقدم نحو المبنى تبدي شجاعة ظاهرية لا تشعر بها حقيقة في داخلها، لقد كانت خائفة، تشعر أنها ستكون المرة الأخيرة التي ستدخل بها إلى تلك الشقة في الطابق الثاني.

***

لم يعترض طريقها أحد، بل على العكس، أولئك الرجال ألقوا تحية صامتة نحوها، مجرد حركة من الرأس لا أكثر، حتى عيونهم مطفأة خلف نظارات شمسية داكنة فلا

تعرف مشاعرهم وانطباعاتهم، لكن جهاد أدركت عن يقين أنهم يعرفون من هي بالضبط ليسمحوا لها بالمرور.

أبواب السكان في الطابق الأرضي مواربة تراقب بينما جهاد ترتقي درجات السلم، وحالما وصلت للطابق الأول كانت أم أدور تغادر شقتها لتقترب من جهاد وعيناها تحومان بتوجس حولها "ماذا يجري عندكم يا جهاد؟ هل ستنتقلان إلى دار جديدة؟ "اكتفت جهاد بالنظر إليها بينما تسمع صوت باب شقة أم إسطفان يُفتح، لكن أم أدور قالت بنزق "لماذا لا تردّين؟! "لم تجد جهاد ما تقوله فتحركت لتكمل طريقها إلى الدرجات المؤدية للطابق الثاني بينما أم إسطفان تقول لأم أدور ببعض التوبيخ "دعيها وشأنها يا أم أدور، لا تتدخلي بشؤونها "علقت أم أدور بصوت خافت "قلتُ لك أن هذه الزيجة لم تُبنَ على أساس متين "عبست أم إسطفان بشدة وهي ترد عليها بتوبيخ جديد "بدلاً من هذا الهذر صلّي لأجلها، فمن يعرف ماذا يجري بالضبط بينهما "ثم رفعت أم إسطفان رأسها لتتابع خطوات جهاد للأعلى وهي تمتم بدعاء وصلاة "يا عذراء كوني معها»

***

باب الشقة كان مفتوحاً ليخرج منه أحد أولئك الرجال وهو يحمل جهاز الجراما فون فأوشكت جهاد على البكاء!

لا تعرف تفسيراً لإحساسها المفجوع وهي ترى الجهاز القديم يغادر المكان، دخلت الشقة فتراها تقريباً كما هي، لكنها تستطيع الشعور باختفاء أغراض مهمة، أغراض تخصّ أيوب وتعني له شيئاً، كتلك اللوحة التي كانت مُعلقة هناك، الأريكة الصغيرة المقابلة لباب الشقة، أغراض أخرى لا يشعر باختفائها وأهميتها إلّا من عرف أيوب عن قرب وعاشره.

أصوات تأتيها من جهة غرفة المكتب فتقدمت نحوه وحالما وصلت تبينت صوت امرأة وهي تقول بنبرة عملية احترافية "أغراض السيدة جهاد تم جمعها بالكامل كما أمرت سيد العريم "دخلت جهاد بصمت دون أن تلقي حتى تحية، عيناها اتحدتا مباشرة في نظرة مع عيني أيوب الجالس على كرسيه خلف طاولة المكتب، لم تنفصل النظرة بينهما وهو يشير بيده فقط نحو تلك المرأة التي ترتدي بدلة رسمية "فلتُنقل إلى بيت عائلتها مباشرة كما أمرت "تمتمت المرأة "مؤكد سيدي، نحن بانتظارك في الأسفل»

حنت المرأة رأسها في طاعة باردة قبل أن تنسحب، مضت ثوانٍ بسيطة قبل أن يسمعا صوت غلق الباب إيذاناً بمغادرتها ليسود الهدوء التام في الشقة، عندها فقط حركت جهاد نظراتها من وجه أيوب الشاحب بوضوح لتتطلع فيما حولها، غرفة المكتب هذه أكثر ما يعبر عن حالة الرحيل!

لقد اختفت كل الكتب.. كل الأغراض على سطح طاولة المكتب، لكن مهلاً، ما يزال هناك الدفتر الجلدي! تحدق جهاد في ذاك الدفتر وهي تسأل بحشرجة "ماذا يجري يا أيوب؟ "

تحرك في كرسيه ثم استند على عصاه ليقف، استدار حول طاولة المكتب وقد بدا متعباً بوضوح بينما يهمس "تعالي اقتربي "بردة فعل آلية تحركت لتلاقيه منتصف المسافة ليمدّ يده إلى خدِّها فترتعش رغماً عنها وهو يحاوط ذاك الخدّ قائلاً "أين كنتِ؟ "ردت بارتجاف واضح وهي تتحاشى النظر إليه "انتظرتُ عودتك، ثم لم أحتمل التوتر فخرجت لدار النشر كي.. "توقفت وأغلقت عينيها تأخذ بضع أنفاس وهي تشعر بكفه تتحرك بملامسة رقيقة، فتحت عينيها لتنظر مباشرة إليه وتسأله بحزم "أيوب.. فقط أخبرني ماذا يجري؟!»

كان وجهه مُرهقاً شاحباً لكن هناك شيء في تعابيره يخيفها، تشعر أن أمراً جللاً يحصل معه ولا يطلعها عليه، قال أخيراً "أنا سأترك حيّ الخاتون "خسف قلبها دون أن تملك قدرة على السيطرة عليه أو التساؤل حول ما يجري في نبضاته، اكتفت بالسؤال المُختصر في شجاعة "لماذا؟ "نظرات أيوب بدت مُخيفة للغاية وهو يقول "اللعبة كبرت أكثر مما تخيلت يوماً، صار هناك دم وثأر "قلبها يقرع بعنف ولم تجرؤ على سؤاله عمّ يتكلم، شعرت بحدس غريب ألّا

تسأل!

أصابعه حول خدها تقلصت في غضب واضح يكتمه بكل طاقته، فاكتفت أن تناديه "أيوب "سرعان ما تراخت تلك الأصابع لتعود إلى رقة اللمسات وهو يقول بهدوء "يجب أن أحتجب وأنا أكمل اللعبة لآخرها "لم تستطع منع السؤال على لسانها "وماذا عني؟ "نظر مُطولاً لتقاطيع وجهها فأدركت أنه يودّعها قبل أن يقولها صراحة "ستعودين إلى بيتِ أبيكِ "لم يعد هناك قلب ينبض في صدرها! شيء ما حصل بينهما لكن أيوب أحكم سيطرته ليعود إلى واجهته المشاكسة الساخرة قائلاً "ألم يكن هذا مُرادك ومخطّطاتك الجهنمية حالما تطمئنين بارتباط سارة والميكانيكي؟ "تهمس وهي لا تستجيب لفكاهته "سننفصل؟ "

لم يستطع المقاومة وهو يحني لشفتيها في قبلة محمومة، كلاهما يقاوم التمادي غريزياً! حتى إن أيوب لم يفلت عصاه، بل يتشبث بها، لكن تلك القبلة حملت الكثير مما تشاركاه الأسابيع القليلة الماضية فيعبر عنها أيوب وهو يبعد شفتيه بصعوبة قائلاً بخفوت "عشرون يوماً عشتها معك واختبرت حياة أخرى، رأيت فيكِ مرآة لي وللماضي، جعلتني أراها من زاوية لم تخطر في بالي، توقيت عجيب يا جهاد، لولاكِ ما كنتُ سعيتُ ولا علمتُ ولا سألتُ "أرخت أجفانها وهي ترتجف وغصة بكاء تخنقها بينما

تسمع أيوب يضيف بنبرة أكثر صلابة "ربما هذا هو ما كان مقدّراً من الاساس، أن تكوني بديلة لتوأمتك في فضيحة لم تذنبا فيها، فتحملين الذنب وحدك وتضحّين لأجلها بارتباطك برجل مشوّه حقير مثلي "تمتمت في حمائية تلقائية "أنتَ لستَ مشوّهاً "رغماً عن كل شيء يحصل يضحك أيوب قائلاً "إذن حقير؟!»

فتحت عينيها تقاوم الدموع بشجاعة وهي تنظر لوجهه الساخر عن قرب، تحدّق في ندوبه وتشوهاته التي لامستها كثيراً حتى باتت تحفظها! وكأن أيوب يتأثر بتلك النظرات منها فيحشرج صوته وهو يوضح بما لا يقبل الشك "أنتِ في خطر كبير إن استمريتِ معي، والقادم أخطر بكثير، لولا هذا.. "صمت ولم يتمّ جملته بينما جهاد تطرق وهي لا تريد التفكير بما يعقب (لولا هذا).

أزاح يده عنها وتحرك خطوتين للخلف وهو يقول بصوت بدى بعيداً رغم صدق نبراته "أنا آسف لكل ما تسبّبت لكِ فيه، وآسف لأنكِ مضطرة لاختبار موقف أصعب لا أملكُ تخفيف أثره وتبعاته، لكني اعتمد على شجاعتك يا نملاوي»

قلبها كان يخبرها قبل أن ينطقها بهدوء تام "أنتِ طالق يا جهاد "اعتصرت أجفانها وهي تطبقهم بقوة، أوجعتها الجملة أيّما وجع! بينما يضيف أيوب بنفس النبرة "ورقة

الطلاق الرسمي ستصلك خلال أيام، أخبري الجميع أني مجرد حقير أصابه الملل من حياة الحي الرتيبة وقرّر العودة لحياته السابقة»

ثم استدار بجسده ليميل ناحية طاولة المكتب فيلتقط الدفتر الجلدي ويعود به إلى جهاد يقدمه لها قائلاً "إنْ قُتِلت فانشري كتابي "دون ان تملك قدرة النظر إليه أخذت الدفتر منه وتحرّكت بخطى ثقيلة لتغادر وآخر همس منه يصل مسامعها "سأفتقدك "

***

خرجت جهاد من بوابة مبنى الخاتون وهي تسيطر على ترنّحها بشقِّ الأنفس، كلمات أيوب تطنّ دون وضوح، كطلق ناري مرّ قرب أذنها فأصابها بالصمم بعده والتشوّش.

رأت من مسافة شقيقتها تهرع إليها وفي إثرها حمزة بوجهه المتجهم، كم تحبهما معاً هكذا! أمسكتها سارة من كتفيها وهي تهمس اسمها بلهفة القلق الشديد "جهاد "تتمتم جهاد بابتسامة تمزق القلب "أنا بخير "دمعت عينا سارة رغماً عنها فتهز شقيقتها وهي تهمس بانفعال ثائر "أنتِ مُنهارة! ماذا فعل بك؟! "أبعدت جهاد كفي سارة عن كتفيها وهي تقول باستنزاف "أنا ذاهبة إلى بيت أبي

"هتفت سارة بحرقة "سأوصلك، لن أتركك وحدك "

هذه المرة كانت جهاد من تهتف بانفعال "لا "عندها تدخّل حمزة ليحسم الأمر بالقول "إذن أنا من سيوصلك ولن تقولي لي لا "همست جهاد بمزيد من التعب "حمزة.. "قاطعها بنبرة ووعود مريحة لأقصى حد "أعدكِ بشرفي لن أسأل ولن أنطق بحرف "نظرت في عينيه بامتنان لا يوصف فاكتفت بالقول وهي تتحرك ببعض الترنح "شكراً»

التفت حمزة ناحية سارة المفجوعة بحالة شقيقتها ليقول لها بثقة وعزم "ستكون الأمور بخير، أعدك، فقط ابقي هنا ودعيها تستريح "ثم رافق خطوات جهاد وعينا سارة تشيعهما بعجز وقلق يقتلانها.

***

**بعد ربع ساعة، جامع عبد الفتاح باشا**

في نفس الزاوية المعتادة جلس أيوب بانتظار الشيخ، لقد احتاج المجيء إلى هنا قبل أن يغادر حي الخاتون، أ تراه يرى في هذا الجامع وشيخه لجاماً لـ (أيوب العريم)؟! أ يخشى مما سيقدم عليه في القادم، وماذا يخشى بالضبط؟ أ يخشى نفسه إن ثبت تورط قابيل؟!

« السلام عليكم ورحمة الله "

التفت أيوب تلقائياً نحو الوجه البشوش الذي أتاه مهرولاً على عجل وكأنه سيلاقي حبيباً لم يره منذ أشهر لا كان معه عند صلاة الفجر! كم هو رجل غريب هذا الشيخ!

جلس الشيخ جوار أيوب يتبسم في وجهه قبل أن يقول له "تبدو مرهقاً للغاية يا سيد "اكتفى أيوب بهز رأسه كرد ثم قال "جئت لوداعك يا شيخ "لم يسأله إلى أين وكأنه كان يتوقع رحيله فاكتفى بالقول بمحبة لا يعرف أيوب مصدرها "الوجوه الطيبة تتلاقى "فصارحه أيوب بما نوّه لجهاد عنه "ربما لن أبقى حيّاً لأراك ثانية، ومؤكد بعد الممات لن نكون في مكان واحد "

قالها بعفوية دون سخرية، بل إنه يؤمن بقدره، عارضه الشيخ بالقول "أحسِنْ الظن بربك، قال تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي)»

شردت نظرات أيوب وكلمات توفيق تعود لترن في أذنيه **(قابيل متورط على ما يبدو، لقد أوصلت لك ما دار حرفياً بين إخوتك قبل أقل من ساعة، أنا آسف يا أيوب)**

« أنت تحمل كرباً يا سيد "

تنبّه أيوب على جملة الشيخ فنظر إلى وجهه السمح وواجهه بالسؤال "ماذا ستفعل يا شيخ لو اكتشفتَ أن شقيقك متورط بمقتل طفلك وزوجتك؟ "للحظة بانت الصدمة على وجه الشيخ ثم استغفر وحوقل قبل أن يسأل "أ تأكدت أنها ليست وشاية للإيقاع بينكما؟ "فرد أيوب وعيناه تظلمان بالنوايا الانتقامية "ليس بعد، لكن ماذا إنْ تأكدت؟ أهناك من سيلومني إنْ قتلته؟!»

ارتفعت سبابة الشيخ وهو ينهاه بالقول الصارم "إياك ودم أخيك، حتى لو كان له يد فلا تقتص منه بالدم، دم الأرحام نار يا سيد ليس كمثلها نار "ما تزال عينا أيوب مظلمتين ليضع الشيخ يده فوق يد أيوب ثم أضاف كأنه يحاول إطفاء جذوة الانتقام "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "تجمدت عينا أيوب وهو يتمتم بعجب "هذا دعاء جدتي "ارتاح الشيخ قليلاً وهو يرد عليه "رحمها الله فاقتدِ بها، وردّده من قلبك يجعل الله لك به مخرجاً "تقبّضت يدا أيوب وهو يقول بصراع عنيف مع النفس "لا أملك ما تملك "فيحاجّه الشيخ بالقول "كلنا نملك نفس الفطرة، موجودة داخلنا منذ الولادة، انما تنحرف بفعل المعاصي والأهواء، لكن العودة للأصل ليس بالمستحيل "ثم مدّ الشيخ يده في جيب جلبابه الأبيض وأخرج تفاحة حمراء قدمها لأيوب قائلاً "خذ هذه التفاحة، من نصيبك اليوم "

أطال أيوب النظر إلى تلك التفاحة، دوماً كانت عنده رمزاً للذنوب والمعاصي، الآن وهي في يد هذا الشيخ يتحيّر بها وتقلب بعض الموازين الراسخة! أ كل الأشياء لها وجهان متنافران وصفتان متضادتان؟ تمتم بالسؤال وهو يمدُّ يده ليأخذها "من أين لكم هذا التفاح الذي توزعونه على الناس؟ "رد الشيخ بابتسامة منيرة "من رجل طيب لا يتخيّر عنك»

رفع أيوب عينيه إلى الشيخ وقال "أنا اعرف ما تفعل يا شيخ؛ أنت تستحثُّ في داخلي ما ترجو أن يكون موجوداً، لكنه غير موجود! "لم يعارضه الشيخ، بل قال له "كُل تفاحتك، هنيئاً مريئاً، زادك الله من فضلك وأطعمك من ثمار الجنة "

لكن أيوب لم يأكل منها، بل تحرك ليقف والشيخ يقف معه، ثم أخذ عصاه وقال وهو يرخي نظراته كأنه لا يجد ما يقوله في وداع كهذا "شكراً لك "لم يكن الشكر للتفاحة وكلاهما يعرف هذا، فقال الشيخ وهو يفاجئ أيوب بأخذه في حضنه بوداع مؤثر "سأدعو لك ربي، عسى أن ينير بصيرتك، ولا تنس الدعاء يا سيد، من خلقك أعلم بك وبما تحتاجه»

***

عند بوابة الجامع وقف أيوب، كانت السيارة السوداء والحرس بانتظاره على مسافة ليست بالقريبة حسب أوامره، وحالما تحركوا نحوه أشار لهم بالبقاء حيث هم، ثم انتحى جانباً وأسند ظهره للحائط، وضع عصاه جانباً قبل أن يخرج هاتفه ويتصل، عيناه لا تفارقان النظر الى تلك التفاحة الحمراء في يده الأخرى، يحدّق فيها وكأنه يبحث عن مزيد من الإجابات.

جاء صوتها مُرتاباً مُرهقاً وهي ترد على الاتصال (المجهول) “من معي؟ “رد أيوب “أنا أيوب يا سارة، آسف إن أقلقتك بسبب حجب هوية المتصل “هتفت فيه بانفجار غير مسبوق منها “ماذا فعلت بأختي؟! “لم يهتم بثورتها وانفعالها، بل قال في اعتراف تمهيداً لغرضه الأساسيّ من الاتصال “أنا آسف لكل ما فعلته معك “لم يسمع إلّا صوت أنفاسها اللاهثة بينما يضيف بصدق يحمل قسوة من نوعاً ما “تلاعبت بكِ واستغليتُ براءتك وطيبتك لأغراض مريضة مقرفة في نفسي! “أيضا لم ترد، ليختم كلامه بما اتصل لأجله وعيناه تحدقان بالتفاحة “اعتني بجهاد، ربما تكون هي الشجاعة الجسورة بينكما، لكنكِ الأقوى والأكثر حكمة، وستبقيان دوماً لَحَمَةً لا تنفصم»

هذه المرة سألت سارة بنبرة قوية “ماذا فعلت بجهاد؟! “يقلّب أيوب التفاحة في يده بينما يقول بنبرة غريبة حتى على أذنيه “للأقدار أحكامها يا سارة، وقد جرت عليّ كما

جرت عليكما وكما تجري كل يوم على ملايين البشر "تتقلص أصابعه حول التفاحة وهو يفكر بقابيل بينما يسمع سارة تقول بنفس النبرة القوية "أريد أن.. "قاطعها بحسم "أنتِ مطرودة من العمل لجدي لنفسك مصدر رزق آخر، وداعاً سارة خاتون»

أغلق الاتصال ثم تناول عصاه ليسير نحو سيارته والتفاحة في قبضة يده الأخرى تتأرجح، أفكاره متزاحمة لكنه يعيد تنظيمها بتركيز عالٍ، ووسط كل هذا الذي يجري ومدى خطورته؛ يجد نفسه يغوص في الماضي فينظر لكل من حوله بعمق مختلف، هل زوجته سارة ماتت مقتولة؛ ضحية لمؤامرة مشتركة بين عدو وأخ؟ أم أنّه قتلها هو بنفسه قبل هذا بكثير! لقد قالها له آدم يوماً.

فتح أحد الحرس باب السيارة وهو يطلعه على آخر ما ورد إليه "السيدة جهاد وصلت إلى بيت عائلتها، هل هناك المزيد بخصوصها سيد العريم؟ "رد أيوب ببرود تام ولامبالاة متعمدة "لا انتهى، لم تعد تعنيني في شيء، لا مزيد من الحماية لها»

ثم صعد إلى المقعد الخلفي بتعابير جامدة، وعندما انطلقت السيارة به ليغادر حي الخاتون؛ قرر أن يجري اتصالاً آخر.

***

## قصر العريم

في أحد الجوانب المفضلة لجيلان وتحت ظل عريشة بهية تجلس بمفردها وهي ترتشف العصير البارد، عيناها لم تغفلا عن خادمتها وهي تلاعب ولدها سيف على بعد أمتار، دوماً هي حريصة على حماية ولديها بحدس أمومي أمني عالٍ للغاية.

رنّ هاتفها لتلتقطه فتعبس قليلاً وهي تجد هوية المتصل محجوبة، لم يخطر ببالها إلّا إحدى السفيهات من عشيقات زوجها! لقد اعتادت هذا وتواجهه ببرود ثلجي، بل أنها تردُّ عليهم وبدلاً من أن يغيظونها؛ تجعلهن يحترقن بغيظهن من برودها الساخر.

تبسمت وقد وجدت في مزاجها اليوم روقاناً لتتسلى بإحداهن، فتحت الخط وهو تمطُّ صوتها بحلاوة مستفزة "هاي Hi "فيأتيها صوت تميزه بين عشرات الأصوات "مرحباً جيلان "شعرت بقلق مباغت وعيناها على ولدها بينما تتمتم "أيوب؟! "سرعان ما طمأنها وهو يقول لها "أريد إجراء حديث هام معك ودون أن يسمعك أحد فهل أنت حرة للكلام؟ "تلاشى عبوسها تماماً وتراخت في جذل وهي ترد بسخرية ناعمة باردة "معك بالتأكيد أنا حرة

"جدية صوته فاجأتها وهو يسأل دون مقدمات "أريدك أن تخبريني عن سارة، أعلم أنّكما لم تكونا متقاربتين لكنكِ ذكية ولمّاحة وكنتِ فضولية أيضاً نحوها، لذلك أريدكِ أن تصفيها لي "ارتفع حاجبا جيلان بمفاجأة! بينما يواصل أيوب بنفس النبرة "أريد أن تخبريني كل ما تعرفينه، حتى عن علاقتها الخاصة بي»

قست ملامح جيلان بينما تبتسم بمرارة وهي تتساءل "هل ستحتمل إجابتي يا داهية كما يصفك هارون؟ "رد بغرور تلقائي لا يتجزأ من شخصه "أنا أيوب العريم "بنباهة وفطنة قالت جيلان "مؤكد ما تزال أيوب العريم الذي أعرفه، لكن فيك شيء تغير، وكأنك بتَّ أرق! "لم تنجح باستفزازه حتى، بل رد بتلك النبرة الغامضة التي لا تحمل أي مشاعر واضحة "أنتظرُ الإجابة "

وقفت جيلان على قدميها لتتحرك خطوتين وعيناها ساهمتان بعض الشيء، كانت تستذكر تلك الحوارات التي جمعتها بسارة، أيوب مُحق عندما قال لها أنها كانت فضولية نحو سارة، والواقع جيلان كانت فضولية نحوه هو، أرادت أن تعرف كيف يعامل زوجته، وقد نجحت لتعرف ويا ليتها لم تنجح! وكأن ما اكتشفته جيلان كان نبوءة أو فأل سيء عليها هي الأخرى!

قالت بقساوة ساخرة بعض الشيء "(سارة الإنسانة)

كانت أضعف وأقل حيوية بكثير من أن تجاريك، و (سارة المرأة) كانت تعشقك وتهيم بك حبّاً ولم تفقد الأمل من صلاحك خاصة وقد كانت تؤمن بالعمل بالوصية "الدهشة واضحة في صوت أيوب وهو يسأل "أي وصية؟! "

تذكرت جيلان وجه سارة الرقيق الباكي في إحدى انهياراتها وهي تخبرها عن تلك الوصية، وقد حان الوقت لأيوب كي يعرف كم كان محظوظاً غبياً! ردت جيلان "وصية الجدة أفنان، لقد أوصتها وجعلتها تحلف على المصحف ألّا تتركك مهما حصل»

شعرت جيلان بألم مبرح، كرامتها تؤذيها، فامرأة ضعيفة مثل سارة لولا مشاعرها النبيلة والتزامها بوصية من عجوز ربما خرفة لكانت تركت أيوب رغم عشقها له! بينما هي جيلان المُراد؛ تعجز حتى عن أخذ الاحتمال وترتضي البقاء هنا؛ ترمي كرامتها عند حاوية نفايات قصر العريم.

برغبة انتقام وثأر لنفسها قالت "أمّا الجزء الأفضل الذي سيعجبك يا أيوب فهي (سارة الزوجة) "ثم ضحكة قصيرة كريهة قبل أن تضيف "كزوجة؛ كانت تقرف منك ومن نفسها بعد كل تقارب جسدي بينكما "قالتها وهي تصف مشاعرها الشبيهة بمشاعر سارة، كلما اقترب منها قابيل تشعر بحاجة لاستفراغ كل ما في معدتها!

سؤال أيوب استفزها أكثر "لماذا؟! "لتنفجر فيه وعيناها الزرقاوان تتأجّجان لتزيحا الجمود الظاهري "أ تظنون أننا دواب يا رجال آل عريم؟! أ تظنون أنّ مشاركة أجسادكم مع الغانيات القذرات أمر سهل علينا نحن نساؤكم؟ نتقبله بروح رياضية ونحن نمثل أنّنا زوجاتكم المصونات ربّات المجتمع الراقي؟! لقد كُنّ يتصلن بها ويتبجحن بما يفعلنه معك بالسرير "كانت تنهت بعدما قالته، ساد صمت كأنه طويل جدا رغم أنه لم يتجاوز الدقيقة الواحدة، ليقطعه أيوب بالسؤال "أ تتكلمين الآن عنها أم عنكِ يا جيلان؟ "لم تهتم اللحظة بفضح كل مشاعرها التي تخفيها لتهتف به "وما الفرق؟! لستَ بأفضل من قابيل ولا حتى هارون "صوت أيوب كان ثابتاً وقوياً وهو يطرح السؤال التالي "لماذا لا ترحلين؟ "ارتجف جسدها ودارت عيناها في المكان ذي الترف الباذخ، هيلمان عظيم يمنحها الكثير، حتى لو أخذ الثمن أضعافاً! قالت بهمس "لأنّ لعنة سلطان العريم أصابتني "تمتم أيوب ببعض الحيرة "سلطان العريم؟ "فردت توضح له ما التبس عليه "لا أقصد والدك، بل أقصد السلطان والجاه والنفوذ، إنه إدمان يا أيوب، ولا أعلم كيف استطعت الافلات منه!»

***

# الفصل العشرون

# مال كالبحر!

**بعد ثلاثة أسابيع**

**بيت الحاج كرم/عصراً**

عند باب الشقة المفتوح كانت الجدّة ياقوت تودّع الحاج عبد الصادق الذي لم ينقطع عن زيارتهم منذ طلاق جهاد الصادم واختفاء (السيد) بذاك الشكل المُريب.

أطرق عبد الصادق قائلاً لينهي حديثه الخافت معها "هلال يحاول الوصول إلى معلومات جديدة عنه، لكن حتى الآن ليس هناك ما يفيدنا "ثم صمت لحظة قبل أن يضيف بأسف "أشعر أني خذلتكم وخذلت صديقي الحاج كرم في تربته "تنهدت الجدة ياقوت وهي تهوّن عليه "لا تقل هذا يا حاج عبد الصادق، لقد فعلت الكثير لأجل جهاد ولحماية سمعتها، وبذلت كل ما تستطيع لمنع الناس من الاساءة إليها وإلينا، ذاك (السيد) من كان قليل الأصل والرجولة "تنهد عبد الصادق وهو يحرك رأسه في أسى قبل أن يسأل "هل وصلتها كلّ حقوقها؟ "ردت الجدة "نعم.. أرسل كل شيء "

« السلام عليكم "التفت الاثنان نحو حمزة الذي وصل للتو، فيردّان له السلام بينما ينسحب الحاج عبد الصادق لينزل درجات السلم وهو مهموم يقتله شعور الذنب.

أغلقت الجدة باب الشقة بعد دخول حمزة، وخلال ربع ساعة بثّ وجوده الحيوية والصخب في الشقة، هو الوحيد الذي يستطيع إخراج جهاد من عزلتها في غرفتها، فمنذ عودتها (مطلقة) وهي تلتزم الصمت ومنعت بإصرار رهيب أي حديث عن أيوب، لم ترها الجدة يوماً بهذا الإصرار العجيب، كما لم ترها بهذا الضعف والانكسار! أ تراها أحبته؟ لكنها كانت تحب غيث أيضاً ولم ترها هكذا عندما تطلقت منه، ربما كانت مشاعرها مشغولة بفقدانها لجنينها، مع هذا لا تعلم الجدة بالضبط ماذا يجري مع حفيدتها، هناك شيء ما مختلف هذه المرة.

تتجرع الجدة مذاق الهوان المُرّ وهي تفكر بكسرتهن جميعاً بهذا الطلاق، كلّهن انكسرن مع جهاد، وكل واحدة تتعامل بشكل مختلف، فمنى اتخذت موقفاً حالماً خيالياً يناسب طبيعتها، فتؤمن أن أيوب رجل طيب وربما له أسباب خاصة وسيُعيد جهاد إلى عصمته حالما يستطيع! أما سارة فقد كانت كـ (أُمٍّ) حقيقية لجهاد، تدعمها بالصبر والاحتواء وتسهر على راحتها وتسرّي عنها دون أن تثقل عليها بالأسئلة حول أسباب ما جرى، وفي الليل تنام

جوارها على نفس السرير تضمها إليها حتى تغفو.

شغّلت الجدة ماكينة الخياطة لتنهي خياطة قميصاً حريرياً جديداً لجهاد، كان بلون الكريم ويناسب قدّ جهاد الذي امتلأ قليلاً، فمنذ ثلاثة أسابيع وجهاد لا تتوقف عن الأكل! هذه طبيعتها عندما تكتئب، وبالمعدل الذي تأكل به تستطيع الجدة القول أنّ حفيدتها في أعلى مستويات الكآبة!

على طاولة الطعام اجتمع الثلاثة كالعادة، حمزة يخلط قطع لعبة الدومينو بينما سارة تولّي جهاد جلّ اهتمامها فتراقب خلجاتها مُراقبة (أُم) تريد الاطمئنان أن ابنتها تحسن، وجهاد لا تحسن! حتى في ضحكها الصاخب بوجود حمزة المبهج عيناها تدمعان فجأة لتسيل الدموع وحمزة يتجاهل الأمر كلياً ليواصل اللعب ويتحدّاها هي وسارة في منافسته والفوز عليه.

لا تصدق سارة أن ثلاثة أسابيع مضت على ذاك اليوم الأسود، كانت لطمة على الوجه جعلت كل مشاعرها تجفل! مشاعرها نحو الجميع دون استثناء أصابها الإجفال، وكأنها كانت تائهة بينهم غارقة في ضبابية مشاعر مختلطة وضغوط مُرهقة، وفجأة اتضح لها الطريق، كلمات أيوب الأخيرة لها في تلك المكالمة ظلت ترنُّ في أذنيها لأيام، وحالما اتضح ذاك الطريق كل الامور أخذت تنجلي تباعاً

والاكتشافات تتوالى، وأولى تلك الاكتشافات هو حمزة!

لثلاثة أسابيع تواجد بشكل يومي في بيتهم، وبكل صدق تواجده كان لأجل جهاد، وهذا أذهل سارة، صحيح أن حمزة دوماً كان شاباً طيباً شهماً لكن ما يفعله مع جهاد يتعدّى هذا بكثير، لقد كان ببساطة رجلاً صبوراً يُستند إليه في الأوقات الصعبة، رجلاً أصيلاً من معدن بات نادراً اليوم، أخرس ألسُناً كثيرة حاولت النيل من جهاد فوقف لهم وقفة رجل صنديد وكسر أنوف المغتاظين لأنه حتى لم يفسخ خطبته من سارة، فقد كانوا ينتظرون منه هذا بالفعل!

وقد واجهتهم سارة وهي تخرج كل يوم للبحث عن عمل جديد، فترى في عيونهم نظرة قبيحة حتى أنّ البعض لم يعد يلقي إليها بالسلام، ورغم هذا لم تهتم، كل ما كان يشغل بالها هو جهاد، وأقسمت بالله في سريرتها أنها ستفعل أي شيء يجعل جهاد سعيدة.

« أشعر بالملل يا ميزو، أليس لديك لعبة أخرى؟ "قالتها جهاد وهي تميل برأسها لتضع خدها على سطح الطاولة فتبتسم سارة بحنو وهي تمدُّ يدها لتداعب خدّ شقيقتها قائلة "أ تريدين أن نلعب لعبة مونوبولي؟ أنت تحبينها»

أغمضت جهاد عينيها ولم ترد، ثم أخذت دموعها تسيل

والكل صمت، حتى ماكينة الخياطة للجدة توقفت، قلب سارة ينزف ألما شديداً حتى دمعت عيناها، فتحبس البكاء وهي تفكر في سرّها "أ كل هذا الألم في قلبك؟! لماذا تتألمين بهذه القوة يا جهاد؟ ماذا فعل بكِ أيوب؟ بل ماذا فعلتُ أنا بكِ وقد ورطتك معه وأوقعتك في فخه «

من ضمن عواقب (الإجفال) أن سارة أدركت بالفعل أن أيوب كان يتلاعب ببراءتها، هناك فرق بين أن يخبرك أحدهم بشيء وبين أن تدركه بنفسك، لم تعد تتساءل لماذا فعل هذا بالضبط، كما لم تعد تهتم، جلّ اهتمامها الآن أن تعرف ما فعله بجهاد ولا تصارحها به، تلجأ إليها بحاجة مُضنية لكنها لا تخبرها، كل ليلة تنام في حضنها وتتعلق بها كتعلق طفلة فتشعر سارة حقاً أنها (أمها) ومع هذا لا تخبرها! أ تعلقت به؟ أتراها أحبّته؟ أ هذا ما يضنيها ولا تستطيع البوح به؟!

قال حمزة ليقطع الصمت ويوقف الانتظار "لدي اقتراح آخر "ثم التفت نحو سارة مضيفاً بلمعة حلوة فيها مشاعر خاصة جريئة "إن وافقتْ سوسي عليه "وهذا اكتشاف آخر! أن حمزة ليس فظاً غليظاً بطبيعته، ربما لا يجيد الكلام كثيراً ويكون خشناً بكلماته وتصرفاته عندما يرتبك لكنه ليس بفظ، طوال الوقت لم تكن سارة تفهمه بشكل صحيح، هو ببساطة كان يشعر بالرفض منها وهذا كان يوتِّره فلا يُجيد التعامل معه.

ردت سارة وخداها يتوردان "أنا موافقة على أي شيء "ما تزال جهاد كما هي وسارة تداعب خدها بينما حمزة يقترح والجدة تتأمل أن ينجح "إذن دعونا نخرج، هناك مقهى جديد تم افتتاحه بإطلالة على النهر "شعرت سارة بتوتر جهاد حتى قبل أن ترفع رأسها لتواجههم بالقول "لا أريد "سألتها سارة بصراحة "ألا تملكين الشجاعة الكافية للمواجهة؟ "ردت جهاد بصدق "لا أملك الرغبة الكافية في المواجهة "عندها قال حمزة بحمائية "إذن أنا سأمنع عنك أي مواجهة واتصدّى لها، فقط دعينا نخرج "فشجعتها سارة بالقول "يجب أن تخرجي، أنا اعتمد على شجاعتك "تعجبت سارة من ردة فعل جهاد عندما قالت آخر جملة؛ شيء ما توقّد في عينيها وبعث فيهما الحياة! وكأن جملتها ذكّرتها بأمر ما أو حدث فمنحها بعض التحفيز.

نقلت جهاد نظراتها إلى حمزة قائلة "أهذا وعد ميزو؟ "هزّ رأسه بتأكيد "وعد.. لكنه لهذا اليوم فقط يا جهاد، بعدها ستواجهين كما أعرفك»

أطرقت بينما حمزة يدفع الكرسي وهو يقول "أرى جهاد تحتاج لتجهيز نفسها لذلك سأنتظر في الأسفل "قالت الجدة عندها "رافقي خطيبك يا سارة وانتظري معه بالأسفل، سأثبّت الأزرار لقميص جهاد الجديد وستلحق بكما "

احمرت سارة طوعاً بينما عينا حمزة لا تفارقانها لتضيف الجدة بتساؤل حاسم "ألم يئن الأوان لعقد القران ما دام هذا الخطيب بات زائراً يومياً شبه مقيم عندنا؟! "التفتت سارة نحو الجدة والحرارة تشع منها "جدتي! "هتفت منى بحماسة "أجل، دعونا نفرح "كانت جهاد تراقب بصمت بينما يعلن حمزة في خطوة جريئة منه "أنا جاهز يا جدة "ثم نقل نظراته لسارة مضيفاً "فقط سوسي تأمر "عندها قالت الجدة بعبوس "لا أدري من أين عاد إلينا اسم التدليل (سوسي) هذا؟! لكن دعنا نتكلم بالمهم؛ أنا التي تأمر يا ولد، فتشاور مع والدتك حول أقرب موعد، نقيم احتفالاً بسيطاً في بيتنا هنا»

***

أغلق حمزة باب الشقة بنفسه بعد خروج سارة بصحبته، أرادت أن تنزل الدرجات دون أن تتطلع نحوه فأمسك ذراعها يوقفها وهو يقول لها بخفوت "لا.. دعينا ننتظر هنا، لا أريد أن تنزل جهاد بمفردها وتلتقي بأم وجدان الثرثارة "تنحنحت سارة وهي مرتبكة من امساكه بذراعها بينما ترد "نعم.. حاضر "

سحبها الى إحدى الزوايا ويقف قربها وأنفاسه المتسارعة تفضحه، سأل بنفس الخفوت "كيف تشعرين نحوي

سوسي؟ ألم تتغير مشاعرك؟ "ما تزال يده تمسك بذراعها وكأنه نسيها هناك، بينما سارة تغرق في الخجل من السؤال المباغت الذي لم تفكر فيه حتى اللحظة التي قاله فيها، تمتمت وهي في غاية الارتباك ونظراتها للأرض "أنت شاب طيب، وما فعلت وتفعل مع جهاد لا يُقدّر بثمن، ولن أجد شاباً.. يحبني مثله.. "قاطعها وهو يضغط بأصابعه في خشونة "هل ستتزوجينني جبر خواطر؟! "

شعرت بالبلاهة والسخافة في كل ما قالته! وضيق حمزة منها تستحقه وأكثر، زاد ارتباكها وهي تحاول الشرح "لماذا تقول هذا يا حمزة؟ لم أقصد أبداً، كنت فقط أشرح "يقترب أكثر فتلتصق بالجدار وهو يقول لها بحرارة "الحب ليس فيه شرح يا سوسي، أحبيني قليلاً وأنا راضٍ، هو غباء مني أنا أعلم هذا، لكني راضٍ بهذا النصيب الذي ابتليتُ فيه معك! "خرج صوتها همساً خائفاً "ابتعد.. حمزة "فردّ بغيظ عاطفي "ضعي في حساباتك عندما نعقد القران لن تقولي ابتعد، لن يكون حرماناً من الجهتين! قلبكِ و.. "قطعت جملته وهي تدفعه وتهرب منه لتعود ناحية باب الشقة قائلة بارتعاش "جهاد تأخرت "ثم فتحت الباب بمفتاحها ودخلت بينما حمزة يضرب الجدار بكفه وهو يوبخ نفسه بالقول "غبي وستظل لآخر عمرك غبي! حرمان من الجهتين يا أحمق القلب والعقل؟!»

***

الحمى تفتك بجسد الشيخ عبد المُعز وهو طريح الفراش في بيته، شعر بخطوات أحدهم تقترب منه ففتح عينيه بصعوبة يحاول التركيز، ومن بين الرؤيا الضبابية ميّز وجه (السيد)، تبسّم وهي يهذي "ألم أقل لك الوجوه الطيبة ستتلاقى يا سيد "شعّ وجه السيد بالابتسام دون أن يرد بشيء للحظات ثم شعر الشيخ بيد السيد فوق جبينه تتحسس حرارته ليقول أخيراً "الطبيب سيهتم بك أيّها الرجل الطيب»

يحرك الشيخ رأسه والحمى تشتد فتتراخى أجفانه ويشعر بعدها كأنه يتوه في بحر متلاطم بينما عقله يتشبّث بالنجاة وهو يتعلق بفكرة مُلحّة تراوده كرؤيا "المال الحرام يا سيد كماء البحر، كلما شرب منه الانسان زاد عطشه وزهد ارتواؤه "وسط الأمواج يتراءى له البشر وهم مرتعبون يوشكون على الغرق فتهتاج إنسانيته ليرفع ذراعه ويحاول مّدها نحوهم وهو يرمي لهم أطواق نجاة "من ابتلي بشيء من المال الحرام فله باب التوبة، تخلصوا من المال الملعون، ردُوه لأصحابه، وإلّا فاصرفوه في وجوه البرّ والإنفاق، طهروا أنفسكم يرحمكم الله "هذيانه يشتد مع اشتداد العلّة في جسده فتختلط بما يدور في سريرته من رغبات في إنقاذ المساكين المبتلين بذنوبهم، جاء صوت السيد قريباً من مسمعه "كلامك ككلام جدتي يا شيخ، وهذه المرة سأُصغي لكما، سأطهّر إخوتي من ماء البحر، وأكسر لعنتهم

وسر ابتلائهم»

بعدها لم يعد يشعر الشيخ بما يدور حوله، يعوم بين الأمواج يحاول إنقاذ من يمكن إنقاذه، وجوه كثيرة التقى بها في حياته فيدعو لهم بالرحمة والهداية والغفران.

وبعد رحلة مُضنية فتح الشيخ عينيه فجأة ليرى أمامه رجل غريب بشعر رمادي يرتدي نظارة طبية ويبتسم له بلطف، فسأله الشيخ عبد المُعز "من أنت؟! "رد الرجل "أنا الدكتور معتصم، من سيباشر علاجك ابتداءً من اليوم، أنت الآن في المستشفى التخصّصي لإجراء الفحوصات اللازمة لمعرفة أسباب حالتك "فيتلفت الشيخ حوله وقد بدا تائهاً وسط غرفة غريبة بينما يردّد "انا لا أفهم! من نقلني؟ أين زوجتي؟! "أخذ الطبيب يربت على كتفه ليطمئنه بحرفية "اهدأ يا شيخ، زوجتك عادت للبيت كي تحضر لك بعض الحاجيات وتطمئن على الأولاد، لقد تم نقلك بسيارة إسعاف إلى هنا "بدأ الشيخ عبد المُعز باستيعاب المكان وقد أدرك أنها ليست غرفة مستشفى عادية، بل من الواضح أنها على أعلى طراز، بينما يضيف الطبيب موضحاً وكأنه يعلم ما يدور في خلده "لا تقلق من شيء، فاعل خير يبدو أنّ لك عنده معزة خاصة هو من تكفّل بعلاجك "

تحرّك الشيخ ليحاول النهوض لكن قواه تخور فيحاول

الطبيب إعادته إلى وضع الاستلقاء وهو يحذره بالقول "لا تتحرك الآن، تحتاج بعض الوقت لاستعادة طاقتك "تمتم الشيخ وهو يدير رأسه جانباً بشكل عفوي "أين هاتفي؟ "بينما يرد الطبيب "على المنضدة هنا جوارك "كان الشيخ بالفعل يرى الهاتف هناك وإلى جواره تفاحة حمراء!

اتّسعت عينا الشيخ وهو يتساءل "من وضع هذه التفاحة هنا؟"رد الطبيب "فاعل الخير طلب وضعها لك هنا، وهو يقرؤك السلام "رجفة تأثر مرّت بجسده الواهن وهو يحدّق في التفاحة ويتمتم "إذن لم يكن حلماً أو هذياناً! إنّه السيد»

***

## في المقهى

حول طاولة مستديرة صغيرة اجتمعوا وقد طلبوا بعض العصير البارد، رائحة النهر ولون الغروب كان لهما أثر سحري على جهاد، أثر أشبه بمخدر كانت تحتاج إليه بشدة كي تحتمل الآلام وتوقف التفكير.

كانت في مزاج متوازن، الواقع أن ما فعله حمزة مع أم وجدان جعل جهاد تبتسم للمرة الأولى منذ أسابيع! فحالما هبطوا الى الطابق الأرضي خرجت أم وجدان من شقتها

وكأنها كانت تعلم بنزول جهاد تحديداً وحالما اقتربت لتفتح الحوار المتوقع سارع حمزة ليقف في وجهها ويتصدّى لها بجسده الضخم ثم قال بعبوس "أشم رائحة حريق قادمة من شقتك يا خالة "فسارعت المرأة المسكينة تولول عائدة إلى شقتها.

نظرت جهاد إلى شريكيها حول المائدة، وقد بدوا غريبي الأطوار منذ مغادرتهما البيت، يراعيانها بشكل مبالغ فيه لكن حالما تتلاقى الانظار بينهما يعبسان في وجه بعض!

رشفت جهاد من كأسها ثم سألت وهي تتطلع إليهما بالتعاقب "ما بكما؟ "كلاهما هتف بوقت واحد "لا شيء! "تنهدت وهي تسترخي بظهرها للخلف لتقول بفكاهة "متى ستبدأن التصرف كخطيبين بدلاً من أخذ دور أبي وأمي! قد يطول الأمر معي والعمر يجري سريعاً "تأفف حمزة كمن فاض به بينما سارة تعقد حاجبيها لتضيف جهاد بمشاكسة رائقة "أنتَ تموت حباً فيها وهي أيضا تحبك "هتفت سارة "جهاد! "بينما حمزة ينظر إلى خطيبته بغيظ لتقول جهاد بنفس المزاج الذي يجمع الجد بالفكاهة بالشجن "مشكلتها فقط أن الاتصال بين قلبها وعقلها مقطوع فلم تصله النبضة المتسارعة كي يفسرها لها "وقبل أن تسمع اعتراضاً جديداً من سارة، وقفت جهاد على قدميها وقالت "ذاهبة للحمام "ثم تحركت لتتركهما في صمتهما، ولا تدري جهاد متى سيتكلمان، أو الأصح متى

ستتكلم سارة الغبية وقد أوشك حمزة على اليأس.

ابتعدت نحو المبنى الداخلي للمقهى وعندما بلغت الباب سمعت من يكلمها "مرحباً جهاد "باستغراب ودهشة التفتت جهاد إلى صاحب الصوت المألوف لترى وائل يقف خلفها وبدا جلياً أنه لحق بها، ردت بتوتر وعيناها تبحثان عن حمزة تلقائياً كي ينقذها كما وعد "مرحباً "ثم تركته واستدارت مبتعدة ليلحق بها وائل وهو يلح في بدء حوار "كيف حالك يا جهاد؟ "

ما تزال تبحث عن حمزة وتكاد شجاعتها تخونها وهي تجيب على سؤاله "أنا بخير الحمد لله، عن اذنك أريد العودة لـ..» قاطعها بالقول "رأيتك منذ دخولك للمقهى بصحبة سارة وحمزة "ثم تبسم ليلقي فكاهة "في الواقع كان صعباً التمييز بينك وبين سارة لكن في النهاية ميّزت "زفرت جهاد نفساً وهي تسأل بشكل مباشر "ماذا تريد يا وائل؟! ما الذي جعلك تأتي خلفي الآن؟ "وكأنها ضايقته عندما قالت (تأتي خلفي) فرد بترفع "لا شيء، فقط أردت إلقاء التحية، كنتُ جالساً مع خطيبتي.. "فجأة ظهر من العدم شاب قوي البنية غامض السمات، أنيق شبابي الملبس، ليمسك بخناق وائل وهو يهتف به "هل تتحرش بها؟! "وقبل أن يسمع الإجابة أو التوضيح كان ينهال على وائل بالضرب! أصاب جهاد الصدمة لثوانٍ وهي ترى وائل رغم بنيته الرياضية عاجزاً عن مجاراة هذا الشاب العجيب!

لكنها تجاوزت صدمتها سريعاً وبدأت بالدفاع عن وائل وهي تحاول دفع الشاب عنه "يا إلهي توقف، إنه جاري وجاء ليسلم عليّ، توقف.. توقف! "

وقد توقف، هكذا فجأة كما بدأ فجأة! لكن بعد أن تسبب بنزيف من أنف وائل وفمه! لتتغير تعابيره ويبدي الاعتذار "آسف جداً، ظننته يتحرّش "اقترب نادل مسرعاً بفوطة نظيفة ليمسح وائل وجهه بعد أن ساعده الشاب المعتدي كي يقف.

قال الشاب بلطف غريب "اعتذر منك، وهذا رأسك أقبله "حاول وائل دفعه بخشونة لكن الشاب أصرّ ليقبل رأس وائل عنوة، بل تمادى وأخذه في حضنه وهو يعتذر مراراً بصوت مسموع، لكن في لحظة خاطفة كان الشاب يهمس في أذنه بنبرة خطيرة مهدّدة "لا تقترب من السيدة مرة أخرى! "ثم ابتعد وهو يعتذر لجهاد ويبتسم في وجهها تاركاً وائل في ذهوله لا يرد على سؤال جهاد إن كان يشعر بتحسن!

توارى الشاب في زاوية ما دون أن يغادر، أخرج هاتفه وأتصل برقم محدّد وحالما انفتح الاتصال قال بنبرة محترف "تم ما أردته سيدي ووصلت الرسالة للشاب، وشكراً لمساعدتك لي كي أميّز السيدة جهاد عن توأمتها، لولا اختلاف الملابس لما استطعت التفريق "جاءه الرد

باقتضاب "ابعث لي باقي صورها وواصل متابعتها حتى عودتها إلى بيتها، وأيّ شخص آخر يقترب منها أرسل لي على الفور "تمتم الشاب "أمرك»

***

كان هلال يسير في الشارع وقد مرّ للتو بمبنى قصر الخاتون عندما سمع ابنة خالته تناديه "هلال انتظر "توقفت خطوات هلال واستدار إليها فوجدها تقترب منه في حالة ارتباك، خطا نحوها وهو يسأل بقلق "ماذا هناك يا أم إسطفان؟ هل سمعتِ شيئاً عن السيد؟ "كان كلاهما يساعد بما يستطيع للوصول إلى أيوب، وحتى اللحظة لم يصلا لأي معلومات تؤدي إليه، قالت ام إسطفان بصوت خافت كي لا يسمعها أحد من المارة "جيد أني رأيتك الآن، كنت سأتصل بك للتو كي أعلمك أن السيد باع كل شيء "ارتفع حاجبا هلال وهو يتساءل "كيف علمتِ؟ "ردت ام إسطفان بتأكيد "المُلّاك الجُدد تواصلوا معنا قبل قليل ليعلمونا "

شعر هلال بالضيق الشديد فيتساءل بحيرة أو ربما رجاء "ربما فقط باع قصر الخاتون؟ "لكن أم إسطفان نسفت كل آماله بالقول "لقد باع كل شيء يا هلال، السيد لن يعود إلى هنا "أرخى هلال نظراته للأرض؛ ضيقه زاد مع شعور غضب من قلة الحيلة لمساعدة تلك المسكينة التي

اصبحت سيرتها على كل لسان، كم كان يأمل أنّ الطلاق وقع بشكل مؤقت وأن السيد سيُعيد التفكير فيما فعله، لكن لا فائدة كما يبدو، كيف سيخبر صدوق بهذا؟!

***

بصمت ارتقى الثلاثة السلم حتى الطابق الأول، حمزة وسارة يراقبان صمت جهاد دون أن يقولا شيئاً، فتحت جهاد باب الشقة وهي تتمتم "تصبح على خير حمزة "ودون أن تسمع رده دلفت عبر الباب تاركة سارة خلفها مع خطيبها خارج الشقة.

قال حمزة بتوصية مُشدّدة "لا تكلمي جهاد عما حصل في المقهى مع وائل "التفتت إليه وهي تقول بضيق "لن أفعل ويبدو جلياً أنها أيضاً لا تريد "ثم زمّت شفتيها قبل أن تضيف "لقد كانت أفضل بكثير قبل رؤية ذاك التافه "مدّ حمزة يده ليردّ الباب كي لا تسمعهما الجدة ياقوت أو الخالة منى بينما يخفض صوته وهو يقول "لا تخبري الجدة عمّا حصل، أما وائل فقد كان تصرفه منتهى السخف ولي كلام معه في الغد، كان الأولى به أن يأتي لإلقاء التحية علينا جميعاً ويحترم وجودي معكما، لا أن يلحق بجهاد وهي بمفردها "بتردد صارحته سارة بالقول الخافت "لقد كان يريد الزواج منها "لم يتفاجأ حمزة، بل قال ببساطة "أعلم هذا "ارتفع حاجبا سارة وهي تسأل بدهشة "كيف

علمت؟!" ردّ حمزة «لا يهمّ كيف علمت، ومثل هذه الأمور تنكشف في حيّنا دوماً»

أطرقت سارة وهي تتنهد بهمّ ثم أجفلت وهي تشعر بيد حمزة تمسك مرفقها وهو يسألها بخفوت "إذن أخبريني كيف أُعيد الاتصال؟ "رفعت وجهها إليه تتساءل بحيرة "أي اتصال؟!" عيناه تضجّان بغيظ عاشق وهو يخبرها "بين قلبك وعقلك يا سارة "احمرت وهي تحاول تخليص مرفقها من بين أصابعه المتشبثة في خشونة بينما تقول بارتباك "جهاد تشاغب بالكلام.. وتوقف عن إمساكي بهذه الطريقة "لكنه لم يفلتها، بل يرد بخشونة وهو يعقد حاجبيه "بل تقول الحقيقة، أنتِ فقط من لا تدركين هذا "ينظر في عينيها وتلك النظرات المرتبكة منهما فيرتفع وجيب قلبه الأهبل وهو يقول بنفس الخشونة "انتظرت سنوات كي تشعري بي، قلبي كان يُعلمني دوماً أنك ستكونين من نصيبي في النهاية "ترمش فيشعر بروحه ترفرف معها بينما يضيف "في قمة يأسي كان هذا الأمل اللعين يحييني! "بصوت مرتعش حاولت الهرب منه بالقول "جدتي.. ستغضب من وقفتنا هنا في هذا الوقت، وستغضب ضعفاً إذا رأتك تمسك مرفقي هكذا "

زفر بقوة بينما يحررها كارهاً ثم قال بنبرة حانقة "سأحضر صباحاً لأوصلك بنفسي إلى مقابلة العمل، عسى أن تحظيّ بالوظيفة هذه المرة "اكتفت بالهمس ويدها

ترتفع للباب "شكراً "رغماً عنه حاول تأخير دخولها بالقول "هل تحضرتِ جيداً؟ "فقالت بهمس "حمزة كفّ عن تعطيلي، يجب أن أدخل "ثم دفعت الباب وهي تقول "تصبح على خير»

أغلقت الباب خلفها على عجل وحمزة يقف مكانه وهو يتمتم بحنق أكبر "تصبح على خير! أي فتاة تودّع خطيبها بجملة باردة كهذه؟! وألوم نفسي أني لا أجيد الكلام معها وهي من تكاد تصيبني بالشلل الرباعي!»

***

**قصر العريم، مساء**

كان قابيل يرتجف حرفياً وهو يصرخ بالحرس في غضب مهول "إن غفلتم لحظة واحدة عن القصر قطعت أعناقكم، لا نوم على الاطلاق، مفهوم؟! "تمتم كبيرهم بتوتر شديد "أمرك سيد قابيل "ثم صرفهم بحركة من يده ليغادروا قاعة الاجتماع في القصر.

يعود قابيل إلى كرسيه بينما تتقدم جيلان منه وقد شهدت حالته غير الطبيعية، لم تشعر به يوماً هكذا، زوجها خائف.. مرعوب! قد يخدع الآخرين ويتوارى خلف ثورات الغضب، لكنه لن يخدعها.

هي الأخرى مرعوبة، تشعر أن ولديها في خطر مُحدق! للمرة الأولى تشعر أن هيلمان العريم لا يوفر الحماية المنشودة.

استندت بكفيها فوق حافة طاولة المكتبة، تنظر بكره شديد لا تخفيه نحو زوجها، عيناها الزرقاوان تموجان بغضب ذئبة شرسة قادرة على النهش، حتى شعرها الناعم الأشقر كان مشعثاً بطريقة ما، بدت في اهتياج وعلى استعداد للقتل!

هدرت في زوجها بنبرة غير معتادة منها "اريد أن أعرف من يهدّد ولديّ؟ "يشوّح قابيل بكفه الأيسر بينما يقول وهو منشغل بفتح أحد الأدراج بالأيمن "فقط نفذي ما أقول ولا تغفلي عنهما لحظة واحدة "رفعت كفيها لتضرب بهما على الحافة في عنف ثم قالت بتهديد تعنيه "إن مسّ أحدهما شيء يا قابيل؛ سأقتلك! أنت مسؤول عمّا يجري، أستطيع أن أرى مصيبة ارتكبتها وهناك من يهددك بسببها، لكن ولديّ لن يدفعا ثمن مصائبك "

كلمة (ولديّ) من فمها مميزة للغاية، قوية مؤثرة، هكذا يراها هارون الجالس على أريكته المفضلة وورق اللعب يجمعه في قبضته، ثم أخذ يراقب ردة فعل شقيقه الذي كان يحدق في جيلان قبل أن يقول صارخاً "كفّي عن جنونك هذا لا ينقصني إلّا هلعك! اتركيني مع هارون

"اعتدلت جيلان في وفقتها لتشمخ بذقنها ثم قالت "سأنام جوارهما منذ الليلة، وأنا جادّة في كل كلمة قلتها لك وأُشهِد هارون على هذا »

بعد انتهاء ثورة جيلان العاصفة ومغادرتها الشامخة للقاعة، أخذ هارون ينثر أوراق اللعب حوله بشكل عشوائي عبثي وهو يصفّر ثم قال "لم أر جيلان بهذه الوحشية من قبل! "لم يهتم قابيل على الاطلاق بالحديث عن زوجته، لقد كان هو المصاب بالهلع لا زوجته! قال بكلمات مُضطربة "لقد أجريت التحريات، أنتَ كنتَ مُحقاً حول البنتين جهاد وسارة، أيوب من كان يتلاعب بهما، وعندما أراد العودة لعالمه الحقيقي طلّق الأولى وطرد الثانية من العمل "

علّق هارون بابتسامة ساخرة "يا لها من صورة مكتملة الأركان! "عقد قابيل حاجبيه وهو يتساءل بحيرة "ماذا تقصد؟ "أرخى هارون نظراته إلى ورق اللعب المبعثر حوله وفوق حجره ثم قال بلا مبالاة "لا شيء مهم»

اعتدل قابيل في جلسته على الكرسي ليحاول استعادة سيطرته على نفسه وهو يتكلم في الموضوع الأهم عنده حالياً، فسأل "الآن أخبرني، أ متأكد أنّ أيوب في المكسيك؟ "رد هارون دون أن يرفع نظراته نحو أخيه "لا لستُ متأكداً، مجرد تخمين من بعض المعطيات، ولدي

تخمينات أخرى لن أقولها الآن، المهم أنّ المنظمة أرادته هو تحديداً كي يكون الوسيط لفتح قناة هناك، وأنت تعرف علاقته الخاصة مع صديقه القديم المكسيكي "ثم رفع هارون نظراته إلى قابيل فجأة ليقول له بتسلية وتلاعب "إنه يقتلك ببطء أليس كذلك؟! لم أتوقع منه انتقاماً كهذا "كان وجه قابيل شديد الشحوب بينما يهدر في عنف يدافع عن نفسه "لا معنى لكل الأدلة التي يواصل إرسالها لي! إنها لا تثبت أني متورط في التخطيط للحادث، أنا فقط.. "قاطعه هارون بالقول المُشمئز "أنت فقط تآمرت عليه مع ألدّ أعدائه، وكان الثمن حياة زوجته سارة المسكينة وابنته أفنان "وقبل أن يرد قابيل بشيء أضاف هارون بنفس النبرة "أخبرني يا قابيل، ماذا كنت تتوقع من خالد النذل؟! أن يرسل إليه بضعة رجال يضربونه حتى يصيبوه بعاهة مستديمة مثلاً! "أخذ قابيل يضرب بقبضته على طاولة مكتبه وهو يردّد بإصرار "أنا لم أرد قتله ولا قتل زوجته وابنته "بحركة متشكّكة من حاجبيه قال هارون وعيناه في عيني أخيه "ربما.. لكن أيوب مُقتنع وقد أرسل لك تلك الأوراق كأدلة وإشارة لقناعاته "يواصل قابيل إصراره بالدفاع عن نفسه قائلاً "تعاملي مع خالد والتسجيلات الصوتية لا تعني أني كنت أعلم بنيته للقتل "يطرق هارون ويبتسم ساخراً بينما يحاول قابيل كسبه إلى صفّه بالقول "هارون.. المؤسسة تحتاج إلينا، يجب أن نعيد آدم، يجب أن نحي جانباً أي خلافات بيننا "هذه المرة كان اشمئزاز هارون أقوى مخلوطاً بيأس عجيب

"أنا اشعر بالغثيان من كل شيء! أما آدم فانسَ أمره لأنه لن يعود، أعطِه فقط ما يريد "انفعل قابيل فرفع كفاً مرتجفة دون أن ينتبه لها وهو يهدر بالقول "لا يمكن أن أسمح بتفكيك صرح العريم ابداً "عينا هارون تعلقتا للحظة بيد أخيه قبل أن يقول بهدوء وواقعية "ولن نتبوأ قمة هذا الصرح مهما حاولت، حتى لو قتلتنا جميعاً أخي "ثم وقف على قدميه فتناثرت بعض أوراق اللعب على الارضية دون أن يهتم بجمعها ليضيف بابتسامة لا حياة فيها "انا راحل، لدي موعد مع.. أصدقاء! "يتحرك هارون بينما يقول قابيل باستنكار "إلى أين تذهب؟! هل هذا وقت الأصدقاء؟! لم ننهِ كلامنا "وصل هارون إلى باب القاعة ليلتفت إلى قابيل وهو يقول بنفس الابتسامة "ذاهب لألعب في نادي السامريّ "زفر قابيل بقوة ثم قال "مرة أخرى! لقد خسرتَ ألوف الدولارات هناك خلال الأيام الأخيرة فقط "نظرات عيني هارون كانتا فارغتين وهو يرد بالقول "ومن يهتم؟! إنه مال ملعون ومكانه على طاولات القمار "وقف قابيل على قدميه يحاول معه وقد كان هارون آخر ما تبقى له "توقف عن هذا الهذر، أنا أحتاجك، إنه وقت عصيب على العريم "رد هارون بنفس النظرات والنبرة "دوماً كان عصيباً لكننا لم نكن نعترف! "صمت لحظة قبل أن يضيف "أنت لا تحتاجني، أنت فقط خائف، خائف من أيوب، صمته بعد معرفته بجريمتك يقتلك "

ثم ترك قابيل ومضى، يشعر هارون الليلة أنها ستكون

مختلفة للغاية، ولا يعلم لماذا؟! ربما سيسجل رقماً قياسياً في الخسارة على الطاولة الخضراء.

***

## نادي السامري، قبيل الفجر

« لقد خسر نصف مليون دولار للتو!»

يسمع هارون هذا الهمس من حوله ولا تهتز فيه شعرة! يحدق أمامه ولا يرى إلّا أشباه بشر يعومون في القذارة ويبحثون عن المزيد! أين القبور لتنظف سطح الأرض من بعض هذه القذارة التي طال تراكمها؟!

شعر بخيال السامريّ يراقبه عن قرب، يستطيع أن يشمّ رائحته العفنة، رفع هارون يده وفرقع بأصبعيه آمراً "احضر لي ذاك الصحن يا سامريّ "

التمعت عينا السامريّ كمن حصل على غنيمة العمر، لا يريد فقط أن يجرّ هارون العريم إلى الادمان، بل آماله تتخطى هذا بكثير، مؤسسة العريم لها صفقات سرية مشبوهة حول غسيل الأموال منذ سنوات طويلة وقد وصلته بعض الأخبار عن دخولهم مؤخراً في صفقة سريّة مهولة تعتبر نقلة أخرى لهم، مؤكد لن يمانعوا عقد صفقات

مخدرات أيضاً.

حرّك السامريّ رأسه لهارون بطاعة وهو يشير لإحدى العاملات "أمرك»

نزل الصحن بالمسحوق الأبيض يتوهج بالإغراء، يراقب الجمع هارون العريم وهو يوشك على تجربته الأولى، السامري يكاد لعابه يسيل وهو أشدّهم انتظاراً، ثم تذكر أمراً لينبّه هارون عليه "تنشق بعضه فقط يا سيد هارون، لن يحتمل جسدك جرعة أولى عالية «

اشتدّت اللمعة في عينيّ هارون، وقبل أن يتحرك حارسه جبل كي يمنع (محاولة انتحار) كان هارون يتنشق محتوى الصحن بكل ما فيه، ثم يقع رأسه في اللحظة التالية فوق الطاولة وهمد جسده كالأموات وسط هلع الحضور وصدمة السامريّ.

***

**شروق الشمس، مقبرة الفقراء**

يقف آدم عند بوابة المقبرة المتهالكة وينتابه نفس الشعور كما في كل مرة يأتي بها إلى هنا؛ شلل في جسده وبرودة في ساقيه، وهو ذات الشعور بالضبط في كلِّ مرة عندما

(كان) يحاول معاشرة امرأة قبل أن يفشل!

أربعة عشر عاماً مرّت على موت ريم، وبدلاً من أن تدفن في مقبرة العريم كما يفترض، تم نفيها إلى مقبرة الفقراء حيث تتزاحم القبور، أرادت الخروج من حي الفقر فعادت إلى مقابرهم وهي في زهوة صباها.

يده المرتجفة اتكأت على حافة البوابة وقد فشل مُجدداً بتخطيها، قال وعيناه تدمعان خلف نظارته السوداء "متى سأجد القوة لدحر عجزي والدخول لأزور قبرك يا ريم، أحتاج أن أطلب منك السماح، ربما إن أحسستُ أنكِ سامحتني فسأتحرّر من شقائي»

فجأة شعر آدم كأن هناك من يراقبه! فالتفت بحدة للخلف فلم يرَ إلّا شاباً يوزع أكياس الكعك على الاطفال مما يوزع كثواب للأموات، ظل يحدق في ذاك الشاب للحظات فلم يبدر منه ما يريب، عينا آدم تحركتا نحو سيارة الشاب القريبة فلم يجد فيها شيئاً مُلفتاً، مجرد سيارة عادية لذوي الدخل المتوسط.

رن هاتف آدم فانشغل به عن متابعة ذاك الشاب، نظر الى شاشة الهاتف ليرى اسم أخيه قابيل، تلاشى كل أثر للشلل والبرودة حالما ابتعد آدم عن تلك البوابة ليفتح الخط وهو يقول لقابيل بكره شديد "ماذا تريد؟ "كانت نبرة

صوت قابيل غير مسبوقة وهو يهتف كمجنون "مصيبة يا آدم! "لكن آدم لم يتأثر وفكر أنها ربما طريقة قابيل لمحاولة إعادته إلى المؤسسة فرد عليه ببرود جليدي "اتصل بهارون وأخبره بمصائبك، أرسل لي حقي فقط "

كان سيغلق الخط عندما سمع قابيل يقول بمزيد من الجنون: "هارون لا يردُّ علي، ولا حتى حارسه جبل، لا أدري ما الذي جرى له! "عقد آدم حاجبيه وهو يقول "سأبحث عنه بنفسي "لكن قابيل كان غارقاً في مصيبته وهو يصرخ بهستيرية "أسهم العريم نزلت للحضيض في أسواق البورصة، لقد فعلها أيوب وباع كل أسهمه برخص التراب!»

***

# الفصل الحادي والعشرون
# أفعى سامة أم طوق نجاة؟!

## المستشفى

النظارة السوداء لم تفارق عيني جبل وهو يستمع للسؤال عبر الهاتف "هل استقرّت الحالة؟ "بوجهه الشاحب يقف في آخر الممر منعزلاً وهو يرد "ما يزال في العناية المركزة سيد أيوب، المهم أنه استفاق، لقد أنقذوا حياته بأعجوبة "يتجهّم وجه جبل للذكرى بينما يسمع توصيات أيوب العريم "أخبرني بالمستجدات أولاً بأول، ولا تترك المستشفى أبداً، أبقَ على تواصل دائم معي "اجتاح جبل غضب كالجحيم قبل أن يقول بخفوت "آسف لكني مضطر للمغادرة؛ هناك ما أمرني سيد هارون أن أنجزه "حمل صوت أيوب الدهشة وهو يسأل "هل تكلمت معه؟! ظننتك قلت لم يسمحوا لك "فأوضح جبل بشكل جزئي "أجل لم أكلّمه بعد؛ لكن هذا الأمر أوصاني به منذ أن وظّفني، وقد حان موعد تنفيذه "صمت دام للحظات قبل أن يقول أيوب "لن أسألك عمّا ذاهب لأجله، لكن عندما تنتهي منه عُد إلى هارون على الفور "تمتم جبل وهو يتحرك لتنفيذ المهمة "ولن أفارقه "لكنه وقبل أن يغلق الهاتف أضاف بنبرة خاصة "السيد هارون كان يعرف دوماً أنك ستكون في

ظهره سيد أيوب "فاكتفى أيوب بالقول "لا نتأخر عنه، ليس بمقدوري التواجد قريباً حالياً، لذا أنا أعتمد عليك "ردّد جبل "أمرك سيدي، لن أتأخر كثيراً، أعدك»

***

### مكتب قابيل العريم

في أحد جوانب غرفة المكتب يستبد القلق بآدم في حدس غريب أنّ مكروهاً حصل لشقيقه هارون، يواصل محاولة الاتصال به أو بحارسه الشخصي جبل دون أن يصل لرد، كلاهما اختفى وكأنهما تبخرا! لم يعد أمامه إلّا انتظار أي خبر من رجال أرسلهم للبحث.

وفي وسط الغرفة عينا قابيل تكاد تخرجان من محجريهما بينما يتلقّى مزيداً من الأخبار الصاعقة عبر هاتفه النقال، ثم رمى هاتفه بعنف ليرتطم بالجدار وهو يطلق صرخة مدوية كزمجرة حيوان مفترس ثائر، تجمّد آدم مكانه وهو يلتفت لقابيل فيرى تعابير وجه أخيه المريعة ليسأله بانقباض "هل وصلك خبر عن.. هارون؟ "صرخ قابيل وقد بدا في حالة هستيرية "أيوب تخلّص من كل أصول العقارات والسندات، لقد حطّمنا! "تتسع عينا آدم ويمتقع وجهه وهو يهمس كمن لا يستوعب "ماذا؟! "قابيل كان قد فقد صوابه وأخذ يخلع سترته يكاد يمزقها وهو يصرخ

“سنُشهر إفلاسنا! كله بسبب أبينا وما منحه من سلطة علينا»

استغرب آدم من نفسه وهو يفقد أي اهتمام اللحظة بما يحصل من انهيار خطير في المؤسسة! أطرق بنظراته للهاتف في يده وقال ما يجول بخاطره وكأنه يجمع الأخبار التي وصلته “هناك أمر سيء حصل لهارون؛ السامري يحاول إخفاءه “ما يزال قابيل يتكلم في صراخ وهو يهدر في أخيه الأصغر “أجننت! أهذا وقت هارون؟! “

عندها رن هاتف آدم فسارع لفتح الخط ليتكلم مع أحد رجاله متسائلاً في حدة “هل وجدتموه؟ ماذا عن جبل؟ حسناً.. أنا قادم “قالها وهو يغلق الخط ويتحرك بخطوات واسعة ليقطع غرفة المكتبة نحو الباب بينما يناديه قابيل في ذهول مجنون “إلى أين تذهب؟! “عند الباب التفت آدم وهو يرد بجمود فقط عيناه تنطقان بما يموج داخله “هارون في العناية المركزة، حالته خطرة، سأذهب إليه “تحرك قابيل نحوه وهو يشوّح بذراعيه في حركات حادة هادراً “ما هذا البرود الذي أنت فيه؟! أقول لك سنشهر إفلاسنا، أيوب دمرنا! “ثم أخذت كفا قابيل ترتجفان وعيناه تزيغان وهو يتمتم “لكن قسماً بالله سأدمره معنا.. سأدمره! “

ما تزال عينا آدم تحملان الكثير مما لا يراه قابيل قبل أن يقول بذاك الجمود الثلجي “أترى ما نحن فيه؟! انت حاولت

قتل أخيك قبل سنوات فماتت زوجته وابنته، اليوم هارون بين الحياة والموت بينما أنت لا تهتم إلّا بالانتقام من أيوب الذي يجرّدنا من مركز قوتنا ويمرّغ أنوفنا في التراب "ثم أخفض نظراته إلى كفّي قابيل مضيفاً "يداك ترتجفان دون توقف، ربما أنت أيضاً تحتاج للعناية المركزة! "قابيل كان في وادٍ آخر وقد تحجّرت نظراته وهو يتمتم كمن أصابته صدمة أفقدته توازنه "تلك الصفقة كانت شؤماً علينا، ليتنا لم نُخرجه من بجره، أخرجناه ليلدغنا كأفعى سامة! "فتح آدم الباب وهو يقول باشمئزاز "لم أعد أطيقك يا قابيل؛ أنت مهووس مقرف»

***

بدا داوود السامري متوتراً وهو يجلس على كرسيه أمام طاولة مكتب فخمة في غرفة خاصة معزولة لا يصلها إلّا حرس محدودون من حراسه، يحدّق أمامه وقد تكوّمت فوق سطح الطاولة عشرات الأكياس من المسحوق الأبيض البراق، يشعر بالانزعاج الشديد مما آلت إليه الأمور مع هارون العريم، أخذ يشتم وهو يتلاعب بالأكياس في يده في شرود، يحاول التخطيط للتعاطي مع الموقف الذي حصل وتسبّب بحالة ذعر وفوضى في ناديه.

فجأة فُتح باب الغرفة؛ وقبل أن يوبّخ من اقتحم خلوته دون استئذان كان جبل يقفل الباب خلفه ثم يتقدم

نحو السامري الذي تجمد على كرسيه بينما شفتاه تتمتمان "كيف دخلت؟! "خلع جبل نظارته السوداء للمرة الأولى ليضعها في جيبه، برزت عيناه الحادتان والغضب يشعّ منهما وهو يرد بخفوت "لا يهم كيف؛ المهم أني سبق وحذرتك "اصفر وجه السامري وقبل أن يفعل شيئاً لحماية نفسه كان جبل يصل إليه في لحظة ويمسكه من رقبته، يرتعد السامري وهو يحاول إنقاذ نفسه بالقول "لكني لا أستطيع منعه من التعاطي، هو من طلب بنفسه.. هو من طلب! "في حركة واحدة كان جبل يضرب برأس السامري فوق أكياس المخدرات ويميل إلى أذنه قائلاً "وأنا لا أستطيع منعه من التعاطي، لكن كان يجب أن أمنعه من قتل نفسه»

التقط جبل أول كيس والسامري يتوسل "لا تفعل هذا.. لا تفعل.. هو من أمرني "مزّق جبل حافة الكيس بأسنانه قبل أن يلوي رأس السامري ليجبره على فتح فمه هادراً "وهو من أمرني! ألا تذكر ما قلته لك سابقاً؟ "وفي اللحظة التالية كان جبل يفرّغ محتوى الكيس الأول في جوف السامري ليتبعه بالثاني والثالث وحتى العاشر!

***

## بيت الحاج كرم

كانت تشعر بحركة سارة في الغرفة لكنها لم تفتح عينيها، شمّت رائحة عطرها بعد لحظات من سماع صوت رشّتين أو ثلاث، دوماً سارة تتردد كم رشّة تحتاج!

ثم شعرت باقتراب توأمتها منها ثم جلوسها على حافة سريرها، ليعمّ روحها إحساس الاطمئنان حالما شعرت بكفِّ سارة يملّس شعرها وصوتها الحنون يداعبها بالقول "كفاك نوماً يا كسولة، الساعة تقارب الحادية عشرة، جدتي أوصتني أن أوقظك قبل أن أخرج لمقابلة العمل "

لم تبد جهاد أي ردة فعل، لان ببساطة ليس هناك ردّة فعل داخلها، الحياة من حولها باتت باللونين الأبيض والأسود، كفيلم قديم باهت قد نتفرج عليه لكنها لا تشعر بالانتماء إليه.

شعرت بقبلة سارة على خدها ثم همسها الرقيق "أمي وجدّتي خرجتا قبل قليل إلى سوق القماش وستتأخران ربما حتى العصر، فلماذا لا تأتين معي بدلاً من بقائك بمفردك؟ "عندها فقط تكلمت جهاد لكن دون أن تفتح عينيها وهي توبّخ سارة ضمنياً لدعوتها "اذهبي سارة وارحمي حمزة من هذه المقترحات! "صوت سارة مفضوح بالخجل وهي ترد بانفعال نجول "نحن لسنا ذاهبين كي نتنزّه! أنت تعرفين جدتي لا توافق على هذا "

هذا هو اللون الوحيد الذي يظهر في الصورة الباهتة، لون وردي خجول يليق بالمشاعر الرقيقة لتوأمتها الغبية ناحية خطيبها الميكانيكي! غصّة وجع خنقت جهاد وكلمة (الميكانيكي) تتردّد في رأسها بصوت أيوب الساخر، لكنها هربت من ألم الغصّة كما دأبت أن تفعل طوال الفترة الماضية لترد على سارة بالقول العنيد "بعد أيام سيصبح زوجك وعندها لن تملكَ جدتي حقّ الرفض أو القبول»

وكما أحست جهاد بذاك (اللون الوردي) المتنامي داخل سارة، فإنّ توأمتها أحست بغصّة وجعها التي تداريها بشقِّ الأنفس دون أن تنجح، في العادة سارة تتجاهل وكأنها تمنح ذاك الألم فسحة وخلوة دون أن تتلصّص عليه، لكن هذه المرة يبدو أن سارة قرّرت المواجهة لتقولها بشكل مباشر صريح "أنتِ تشتاقين إليه يا جهاد "انكمشت جهاد تلقائياً فأضافت سارة "لماذا تخفين نفسك عني عندما نصل إلى هذا؟"

لم يكن سؤالاً وإنما فتح باب طال غلقه، كلتاهما كانتا تشعران بقوة ببعض، حتى لو لم تتكلم جهاد فسارة كانت تشعر بها دون شروح، وحتى لو لم تواجهها سارة فجهاد كانت تعرف أن توأمتها باتت.. تعرف!

بقول صريح أضافت سارة "أيوب لم يعد يعني لي شيئاً، لكني خائفة مما أصبح يعنيه لكِ "أخذ قلب جهاد يقرع

بقوة ولم تسعفها شجاعتها اللحظة ثم بعقلانية وهدوء أضافت سارة بقلق "أشعر أن هناك الكثير تخفينه عنّا، ليس مشاعرك وحسب، أنتِ صامتة للغاية حول ما جرى وكيف جرى، ولماذا "هذه المرة قلبها كان ينبض خوفاً! رعباً وقلقاً، وهي عاجزة تماماً عن فعل أي شيء أو إخبار أي انسان حول ما جرى مع أيوب وأسبابه.

أجفانها مغلقة في رفض التعاطي بهذا الموضوع تحديداً بينما سارة تحاول معها باللين "أين اختفى أيوب يا جهاد؟ العم عبد الصادق والاستاذ هلال لم يجدا له أثراً، وهذا غريب للغاية "لتطرح سارة السؤال الأهم "من هو هذا الرجل بالضبط؟! أنت فقط من تعرفين؛ أكاد أقسم على هذا»

استكان جسد جهاد وكأنها نامت بالفعل! لكنها كانت ردة فعل تلقائية للحماية، ليس حماية نفسها، بل حماية أيوب، وحماية عائلتها من أخطار يجهلونها تماماً.

تنهدت سارة أخيراً وهي تقول "أعلم أنك تسمعينني بأذن مرهفة، ولا أريد منك الإجابات بالغصب، أريدك أن تخبريني بنفسك عن كل هذا "ثم لثمت رأسها مرة أخرى قبل أن تنهض مضيفة وهي تستعد للمغادرة "أراك لاحقاً، أعدك لن أتأخر "وحالما ابتعدت خطواتها قالت جهاد بمشاكسة "أوصلي سلامي لميزو وحاولي ألّا تقتليه بنوبة

قلبية "ضحكت سارة وهي تقول "مخادعة جبانة! لا أعلم من أين تأتيك الشجاعة فجأة في المواقف»

لم ترد جهاد وحالما سمعت صوت مغادرة سارة للشقة فتحت عينيها وعادت الألوان الباهتة حولها، الأبيض والأسود وما بينهما من تدرجات رمادية، تغرغرت عيناها بالدموع وهي تضمّ قبضتها إلى قلبها وتهمس "يا إلهي كم هذا موجع!»

***

أخذتها غفوة في السرير فلم تصحُ إلّا على صوت رنين الجرس، ترمش بعينيها تستوعب في أي وقت من اليوم هي فلم يسعفها عقلها تماماً وجرس الباب يعاود الرنين، سحبت نفسها من السرير وهي تشعر بجوع فظيع، مدت يدها الى هاتفها النقال لترى كم الساعة الآن فوجدتها تشير للثانية عشرة ظهراً! أصابها الصداع ما بين جوع وخمول وتعذيب صوت الجرس.

نهضت وهي تترنح قليلاً ثم تحركت تبحث عما تلبسه فوق منامتها فلم تجد إلّا إزار الصلاة فوضعته فوق جسدها ثم جرّت خطواتها نحو باب الشقة وهي تتذكر كلام سارة قبل خروجها.

عندما فتحت الباب صدمتها رائحة الطعام وجعلت معدتها تتقلص بينما تحدق في علبة البيتزا التي يحملها شاب يافع يرتدي ملابس خاصة بإحدى مطاعم البيتزا المشهورة، قال لها بابتسامة لطيفة "هذا طلب البيتزا باسم جهاد "رفعت جهاد عينيها إليه بتساؤل وهي تتمتم بغباء "لي أنا؟! من أرسله؟ أنا لم أطلب شيئاً "نظر الشاب في هاتفه للحظة كأنه يراجع شيء قبل أن يرد بسلاسة "الطلب مدفوع الثمن مرسل من الانسة سارة كرم إلى جهاد»

ابتسمت جهاد ببلاهة وهي تحدق في العلبة ومعدتها تزغرد ثم خطفت البيتزا من يد الشاب على عجل وأغلقت في وجهه الباب دون أن تشكره! لقد كان جوعها قاتلاً وتكاد تقع مغشياً عليها.

تحركت نحو الطاولة وهي تفتح العلبة على عجل وتتمتم "تعلمين كيف تجبرينني على النهوض يا سوسي»

في اللحظة الاولى لفتحها العلبة مشاعرها اختلطت وهو تلتقط قطعة مثلثة منها، أخذت تلتهمها ودموعها تنسكب! إنها نفس البيتزا التي كان أيوب يطلبها، تأكل وتأكل والدموع لا تتوقف حتى أخذت تشهق بالبكاء وفمها ممتلئ بالطعام.

فجأة أجفلت من صوت رنين غريب! تلقائيا كانت

تبتلع ما في فمها بينما عيناها تبحثان عن مصدر ذاك الرنين القريب، ثم صدمها أن الرنين مصدره شيء ما ملفوف بعناية وحماية وملصق في زاوية علبة البيتزا! ولغبائها لم تتنبه له إلّا اللحظة.

مدت يداً مرتعشة لتفكّ اللصق ثم تفتح الملفوف لتتأكد من تخمينها أنه هاتف نقال صغير الحجم! الرنين كان قد توقف ليعاود مرة أخرى فيظهر رقماً لا تميّزه وحالما فتحت الخط وهي تقول بهمس مرتجف "من معي؟ "حتى أتاها الصوت من أحلامها اليومية "قميصك بالأمس كان خلّاباً يا نملاوي كم وددتُ لمس نعومته وفتح أزراره "جسدها كله يرتجف وهي تغمض عينيها بقوة تهمس باسمه "أيوب! "قلبها ينتفض بجنون بينما يسألها بنبرة رائقة حملت بعض الحنق اللذيذ "ماذا قال لك ذاك التافه وائل؟ "تقاوم ارتجافها وتستوعب صدمتها وهي ترد عليه بخشونة رغم ارتجافها المتواصل "أ تراقبني؟! "صمت للحظات قليلة كأنه يمنحها فرصة التنفس قبل أن يلقي قنبلته في وجهها "أنا لا أراقبك فحسب، أنا أعيدُك لعصمتي يا جهاد كرم "دون شعورها رفعت يدها الحرّة إلى فمها تكتم شهقتها بينما يضيف أيوب بأسلوب كلامه المألوف الذي تفتقده "منذ اللحظة أنتِ عدتِ زوجتي، لكنه سيبقى سرّنا الصغير يا ابنة الحاج كرم فلا تخبري حتى توأمتك سارة»

كانت تشعر بغضب فظيع اللحظة، لا تعرف لماذا

بالضبط، لكنها انفجرت فيه "لماذا تفعل هذا؟ "يرد ببساطة "لأني أريد "تصرخ فيه ودموعها تعاود الانسكاب بغزارة "أين أنت؟ "رد بنبرة قد تبدو نبرة هزل لكن جهاد عاشرته عن قرب شديد ومعرفة في ظروف خاصة جعلتها تعرف متى الكلام عنده يكون هاماً كما اللحظة "لا يهم أين أنا، المهم أني واثق أنك تتابعين وتقرئين وتبحثين، ومؤكد ستسمعين أخباراً مخيفة عن مؤسسة العريم اليوم، لكن لا تقلقي منها "صدرها كان ينتفض بالأنفاس الثائرة المهتاجة وهي تعاود السؤال بإلحاح والقلق يقتلها "أين أنت يا أيوب؟ "رد بهزل حقيقي هذه المرة "أنا على كوكب الأرض، أجري اتصالاً لذيذاً مع كوكب النمل "هذه المرة كانت تبكي بشهقات منفلتة فيسمعها أيوب ليصمت لحظات قبل أن يقول بخفوت "لا تبكي فأنا لا استحق بكاءك، على الأقل حتى الآن "من بين شهقاتها تسأل بحيرة "ماذا تعني؟! "لكنه لا يرد على سؤالها، بل يوصيها بنبرة غامضة "الكتّاب يا جهاد، ابدئي العمل به منذ اليوم "أخذت تمسح وجهها وتسيطر على بكائها وهي تقول بجدية "أنت ترعبني! هل انت في خطر؟ "رد مؤكداً بصدق "والقادم أخطر! خذي حذرك والتزمي بما اتفقنا عليه، لا تخذليني "فار الدم في عروقها وهي تهتف بحمائية عنيفة "اقسم بالله إن كان إخوتك خلف ما يجري فلن أسكت عن أولئك الأنذال البغال "انفجر أيوب ضاحكاً ثم قال بحّة خاصة "اللعنة كم اشتقت إليكِ»

أنفاسها ما تزال ثائرة في صدرها وعقلها يحاول إيجاد وسيلة لمساعدته عندما قال لها بنبرة خاصة للغاية حملت معانٍ قوية "أنتِ الآن زوجة أيوب العريم، وستظلين هكذا حتى الممات "دون تفكير ردّدت بجدية ووعد "حتى الممات "تمتم بحلاوة "كم أحب تهورك وشجاعتك "

سألته وهي تقف على قدميها وتتحرك في محيط الصالة "هل ستكلمني مرة أخرى؟ "رد بنبرة عملية وكأن لا يملك مزيداً من الوقت "لا أدري، لكن اكسري هذا الهاتف وارميه في قمامة الجيران "تمتمت وهي تستجيب لنبرته "حاضر، سأكسره بيد الهاون لا تقلق وارميه مع قمامة أم وجدان "قال لها بنبرة أمر "لا اريد رؤيتك شاحبة، رغم امتلائك قليلاً لكنك شاحبة "فسّرت ببساطة تصف حالتها منذ افتراقهما "آكل كثيراً وأنام قليلاً "ضحك بخفة قبل أن يقول بغرور "هذه أعراض افتقادي فلا بأس "زفرت أنفاسها بقوة وهي تعلق بحنق انثوي "يا ربي! اتمنى لو لدي نصف غرورك! "بنبرة لم تسمعها في صوته من قبل قال لها "غيّري تسريحة شعرك، لا اريد ذاك الميكانيكي أن يتوه بينك وبين خطيبته، خاصة وهو ملازم في بيت الحاج كرم»

تهز رأسها وتشعر بالحرارة في جسدها باستجابة تلقائية وهي تهمس "حاضر "تنهد وهو يقول "انتهى وقت المكالمة، أنا أراك دوماً، وأقرب إليكِ مما تتصورين "قلبها

يوجعها لفراق صوته لكنها تبثُّه دعمها بالقول "سأدعو لك الله أن ينجيكَ "رد "ولأجلكِ فقط أتمنى أن أنجو "ثم أضاف ممازحاً بعد لحظة "كلي البيتزا لكن حافظي على نحولك لأني أحبه "تجاوز ردة فعلها العاطفية نحو كلماته لتسأله بجدية "هل هذا رقم هاتفك؟ "نفى ذلك بالقول "بل مجرد خط اتصال مؤقت سأتخلص منه حالما أنهي المكالمة معك "سألته بإلحاح "ألن نتصل مجدداً؟ "يوبخها بأسلوبه قبل أن يرد على طلبها "كثيرة الاسئلة والازعاج! لدي خطوط أخرى لكن لا أدري متى سأتمكن من الاتصال بك مرة ثانية "صمت لحظة قبل أن يودّعها "سلام يا نملاوي، تذكري دوماً أني اعتمد على شجاعتك "ابتلعت ريقها وقلبها ينقبض لكنها ردت عليه بدعوة من القلب "أستودعك الله؛ في أمانه وحفظه»

***

توقفت عند الدرجة الثانية من السلم قبل أن تستدير إليه قائلة بارتباك خجل "لا داعٍ لإيصالي إلى فوق يا حمزة "نظر إليها مطولاً قبل أن يضع يده على الدرابزين ويقول برجاء يمسُّ القلب "أكملي جميلك ودعيني أطيل بقائي معك لدقائق زيادة "احمر خدا سارة وهي تطرق بنظراتها وتقول بخفوت "أنتَ معي منذ ساعات؛ رافقتني لموعد المقابلة وانتظرتني حتى انتهيت وأصررت أن نذهب إلى ذاك المطعم لنأكل (الشاورما) "يقاطعها دون أن يشعر وهو

يعلق بعفوية "أنتِ تحبين (الشاورما) منذ صغرك"

ابتلعت ريقها وهي ترفع نظراتها إليه، كل يوم تكتشف كم أنّ حمزة متعلّق بها! ليس اليوم ولا البارحة ولا قبل سنة؛ بل منذ طفولتهما، فكيف لم تشعر بمدى قوة هذا التعلق؟!

قالت له وكأنها تكلم طفلاً متشبثاً تحاول إقناعه "أجل أحبها؛ لكنه ليس هذا هو الموضوع "يقاطعها مُجدداً وهو يسأل بارتباك بات يجذبها نحوه أكثر "هل خاب ظنك لأني لم اشترِ لك الورد مثلاً؟ جهاد مرة طلبت مني فعل هذا لأجلك "لم تستطع أن لا تراضيه فتغلّبت على خجلها وهي تقول بصدق "كل ما تفعله لأجلي.. يعجبني "صعد درجة نحوها وهو يهتف بسعادة عفوية ولهفة للمزيد "الله أكبر "مع اقترابه منها صعدت درجة مبتعدة عنه وعيناها تدوران حولهما خشية أن يسمعهما أحد بينما تهمس له برجاء "حمزة أخفض صوتك "لقد اكتشفتْ للمرة الأولى أنها تحتاج لدرجتين مرتفعتين تفصلهما عنه كي يصل مستوى رأسها لمستوى رأسه! إنه أطول منها بكثير!

عيناه تصرخان بعواطفه نحوها لكنه يخفض صوته مُستجيباً لطلبها ويطلب في المقابل "هل يمكنك أن تطيلي شعرك قليلاً؟ "بدت شديدة الارتباك وهي ترفع يدها لتلامس أطراف شعرها تحت حد الكتفين ثم قالت

"تعوّدت على هذا الطول! منذ سنوات أنا وجهاد نقصُّه سوّية هكذا، سأسألها "عبس في وجهها وهو يتقدم درجتين معاً قائلاً بخفوت "(منذ سنوات) لم تكوني زوجتي! ثم ما دخل جهاد بما أريده لشعرك؟! "كان قريباً للغاية يشرف عليها بتفوق طوله ويحجبها بضخامته، رمشت سارة وأذناها تطنّان "أعتقد يجب أن.. نصعد "شوّح بيده في نزق وحنق "هيا اصعدي أمامي»

ففعلت لتستدير وتتسلق الدرجات وهي تتعثر، بينما حمزة خلفها يزمجر مع نفسه.

***

حالما فتحت سارة باب الشقة نسيت تماماً حمزة خلفها وهي تحدق بفم مفتوح عبر الباب الى جهاد الجالسة على كرسي وأمامها حاسوبها المحمول تضعه فوق طاولة الطعام.

التفتت جهاد إليهما بابتسامة عريضة من الأذن للأذن وهي تقول ببشاشة "مرحباً! لحسن الحظ وصلتما قبل وصول جدتي وأمي "تتقدم سارة وعيناها متسعتان من الصدمة وهي تحدق في شعر أختها هامسة بذهول "ماذا فعلتِ بشعرك؟! "بفخر كانت جهاد تلامس شعرها الذي اختارت له (قصة البوب) القصيرة لتبرز رقبتها من الخلف ثم قالت بسعادة عجيبة وطاقة إيجابية عالية "هذه قصّتي

الجديدة التي سألتزمها "ثم غمزت ناحية حمزة مضيفة "كي لا يتوه ميزو بيننا "رفع حمزة كفه وهو يقول "الحمد لله، للتو أخبرت سارة أن تطيل شعرها أكثر، بل تطيله جداً حتى خصرها "احمرت سارة وهي تهتف به "اسكت حمزة هذا ليس وقتك، جدتي ستصاب بهستيرية عندما ترى قصر شعر جهاد "عقد حمزة حاجبيه وهو يتساءل "ولماذا تصاب بهستيرية؟! أُنظري إليها، تبدو بأفضل حال "عندها استدارت سارة الى توأمتها وعيناها مرّتا على الحاسوب ولم يفتها حركة يد جهاد السلسة وهي تغلق الشاشة! قالت بتشكّك "تبدين مختلفة "وقفت جهاد على قدميها وهي تخصر وتقول "إنك حقاً كئيبة اختي! ميزو يقول إني أبدو بأفضل حال وأنت تقولين مختلفة؟! "عينا سارة لم تفارقا عيني جهاد وهي تسألها بشكل مباشر "ماذا جرى في غيابي؟! "هزّت جهاد كتفيها وهي تقول ببساطة "لم يجر شيء، فقط قررتُ الخروج إلى صالون التجميل القريب وقصِّ شعري، لحسن الحظ كان خالياً فلم أحتَجْ للانتظار "ضيّقت سارة عينيها وأصرت على القول "بل حصل الكثير وأنتِ تخفين عني "حاولت جهاد إثارتها بالقول المشاكس "لا تكوني تراجيدية سوسي، فميزو لا يحب هذا النوع»

لم تستطع جهاد إلهاء توأمتها عن الشعور بالتغيير لتتقدم منها سارة وهي تقول "البارحة فقط كنتِ تتشبثين بذيل حمزة تخفين خلفه من الناس "كانت جهاد تعلم أنّ عليها

إقناع أختها لكن لم تعرف كيف بالضبط، فلجأت مُجدداً للإغاظة والتشويش بالمزاح "هذا كان البارحة ثم أنّ حمزة ليس له ذيل "عندها قال حمزة "دعي حمزة لحاله! أنا راحل قبل أن تصل الجدة وعندها ستصاب بهستيرية مؤكدة لوجودي وحدي معكما "ثم التفت إلى سارة وأضاف "ألن توصليني إلى تحت؟! "بغيظ قالت سارة "هل سنظل نلعب لعبة توصلني فوق وأوصلك تحت؟! "انفجرت جهاد ضاحكة وحمزة يتمتم بغضب قبل أن يغادر بمفرده "خسارة الشاورما التي اشتريتها لكِ أقسم بالله! "لتقع جهاد أرضا من شدّة الضحك وسارة تنظر إليها بذهول تام من حالتها العجيبة! حدس مؤكد داخلها يعلمها أنّ جهاد لن تطلعها على شيء مهما حاولت استنطاقها.

***

**بعد عشرة أيام، المستشفى، بعد العصر**

ترتّب الغطاء فوق جسده فلا يفوته ذاك الارتعاش في كفيها بينما تسأله بهدوء "متى ستخرج يا هارون؟ "رفع عينيه لوجهها فيرى كم تبدو شاحبة وكأنها لم تنم منذ أيام، قال لها بفكاهة "ولماذا أخرج يا جيلان؟! أنا عاطل عن العمل حالياً "هتفت به وهي تقاوم بوضوح كي لا تفقد تماسكها "كفاك تهريجاً! يجب أن تخرج وتقف على قدميك في أقرب وقت لإنقاذ ما يمكن انقاذه، قابيل

فقد صوابه وبات أقرب لمعتوه هستيري الأفعال "ثم ترفع تلك اليد المرتعشة الى شعرها المبعثر على غير العادة وعيناها ترنوان إلى حيث طفليها في زاوية الغرفة يلهوان بصحبة الخادمة لتضيف بخفوت "إنه حتى لم يعد يهتم لتأمين سلامة ولديه، مهووس بفكرة إنقاذ المؤسسة ويأبى الاعتراف أنّ الأوان قد فات "تحركت عينا هارون لينظر للولدين قبل أن يقول بجدية ونبرة تبثُّ الثقة "لا تخافي من أي تهديد جيلان "التفتت إليه بحدة لتسأل بضراوة "ماذا تقصد؟! ألم يقل قابيل أنّ.. "قاطعها هارون ليطمئنها بكلمات مُحدّدة مقتضبة "ما يحدث الآن وانهيار مؤسسة العريم هو الرد، ولداكِ خارج اللعبة "نظرت إلى وجهه الشاحب المرهق من أثر الأزمة الصحية التي مرّ بها لتسأله بقلب أم مرعوب "أأنت واثق؟! "رد بهدوء وحسم "كلّ الثقة "تغرغرت عينا جيلان ببعض الدموع وهي تتمتم بحشرجة "الحمد لله "تفاجأ هارون بتلك التمتمة العفوية من فم جيلان، لم يسمعها يوماً تذكرها، كم البشر ضعفاء مهما بلغت قوتهم ونفوذهم، عُميان بالغطرسة حتى يبصروا ورؤوسهم محنية بالإذلال والعجز.

استعادت جيلان واجهة تشبه واجهتها القديمة الباردة المألوفة ثم انحنت لتقبل خدّ هارون بعفوية وهمست له "شكراً، نحن بانتظار خروجك كي تعيد بعض العقل إلى أخيك "تبسّم لها بشقاوة قائلاً "وهل أملكُ العقل لأعيد بعضه إلى قابيل؟ انظري إليّ وأين أنا وستعرفين كم أملُكُ

من التعقل! "قالت تدعمه "لكل جواد كبوة "فارتفع حاجباه وهو يسأل بممازحة "وماذا عن الجواد الثالث؟! منذ يومين لم يزرني "شردت نظرات جيلان وهي ترد "آدم تائه يا هارون، وهذا سبب آخر كي تقف على قدميك سريعاً "فقال بممازحة جديدة لكنها لم تخلُ من الجدية "إن وقفت سريعاً سأقع يا جيلان "فقالت وهي تضغط بيدها فوق ذراعه "أنا مستعدة كي أكون عكازك، فقط عد وأنقذنا "قالتها ونظرات عينيها الزرقاوين تؤكدان صدق عرضها بالدعم.

غادرت جيلان مع ولديها لكن كلماتها ظلت حاضرة في ذهن هارون، أغلق عينيه مستسلماً لما يشبه الغفوة، غفوة تعيده مُجدّداً إلى تلك اللحظة التي فقد وعيه وغاب عن الدنيا حتى أوشك أن يغادرها، وما بين غيبوبة وبين وُشوك مُغادرة؛ يذكر تفاصيل ما عاشه بدقّة عالية، كان عارياً! شعر بالعري حتى وهو لا يرى؛ فالظلام من حوله دامس، جسده يرتعد من خوف لم يختبره في حياته، وحيد وليس بوحيد؛ فقد شعر بوجود من يجهل كنهم وهو لا يراهم، ليس لهم أنفاس بشر لكنهم حاوطوه في تلك الظلمة في انتظار!

أهذا ما ينتظره بعد الموت؟ أ هؤلاء من سيأخذونه إلى نار جهنم التي تنتظر أمثاله؟

سمع صوت باب غرفته يفتح ثم تبعه صوت خطوات جبل تقترب منه، سأل دون أن يفتح عينيه "ماذا هناك يا جبل؟ "رد عليه حارسه الشخصي "اتصال لك من السيد أيوب "فتح هارون عينيه لينظر مباشرة إلى يد جبل الممدودة بجهاز هاتف صغير، فيسأله "ما هذا؟! "ليرد جبل "إنه جهاز هاتف محمول أرسله السيد أيوب كي يكلمك "مدّ هارون يده فيأخذ الهاتف ثم يشير إلى جبل بحركة من رأسه لينصرف، فيمتثل جبل ويخرج من فوره بينما ترتسم ابتسامة على وجه هارون وهو يضع الهاتف على أذنه ويقول ساخراً بمشاكسة "ما كل هذه السريّة يا داهية؟ "كانت المرة الأولى التي يكلّم فيها أيوب بعد الحادث لكنه كان يعلم أنّ أخاه الأكبر يتواصل مع جبل ليطمئن عليه، جاء رد أيوب مباشراً وهو يقول "المنظمة باتت تراقبني عن كثب حتى معكم "تساءل هارون بانتباه "لماذا؟ "رد أيوب بنبرة عملية "تطالبني بتفسير لما فعلتُه بمؤسسة العريم، يشعرون بالقلق والتوجس من نواياي، فأريد التحرك قبل أن يشعروا بي»

صمت كلاهما في إدراك متبادل أنّ هناك خطر عظيم يهدّد أيوب، سأل أيوب قاطعاً الصمت "كيف تشعر؟ "رد هارون وعقله يفكر بتركيز في محاولة ايجاد حل لما يخمّنه "بخير، وأنت؟ "فيضحك أيوب ضحكة قصيرة قبل أن يقول "ما زلتُ حيّاً، فأظن أني بخير "تتسع ابتسامة هارون وهو يقول بصدق "أحب مزاجك الرائق، حتى

لو كنت وسط كوارث فلك مزاج خاص للغاية "سأل أيوب "متى ستغادر المستشفى؟ "رد هارون بمزحة "عندما أدفع مصاريف علاجي، هل تظن أني أملك ثمن ما يكفي أم عليّ أن استدين؟ "علق أيوب "تعرف أنك وأخويك تملكون في بنوك سويسرا ما يكفيكم لتعيشوا بأفضل حال "تلمع النظرات في عيني هارون وكأن الحياة تدبُّ فيهما وهو يواجه أيوب بأسلوبه "أجل تكفينا، لكن لا تكفي مؤكد لإنقاذ مؤسسة العريم من الإعلان الوشيك للإفلاس، لقد قصقصت ريشنا يا داهية فأوقعتنا من السماء العالية! "كان صوت أيوب غريباً للغاية وهو يقول "وهل كنتم تحلّقون حقاً يا هارون؟ لم أركم إلّا غارقين! رميتُ لكم طوق نجاة فهل من متمسّك به لينجو؟»

لا يعلم هارون لماذا استعاد إحساسه بذاك الظلام الدامس وهو يقف عارياً يرتعد وهناك من ينتظره! دون تفكير وجد نفسه يسأل أيوب في عجب "ما الذي جرى لك حقاً في عزلتك في حي الخاتون؟ "فيرد أيوب بنفس النبرة "لا يهم ما جرى لي، بل المهم ما سيجري لكم "تشتد لمعة عيني هارون وهو يسأل بذكاء حاد "وماذا عن جهاد؟ "لم يرد أيوب هذه المرة، فأكمل هارون "لا أظنك تستخدم شركة مراقبة احترافية معروفة كما تفعل معنا وتعدُّ علينا أنفاسنا، فأنت لا تريد الكشف عن اهتمامك بمتابعتها، تخفيها عن أعين الخطر الذي بات يهدّدك مباشرة "بطريقته الخاصة اعترف أيوب قائلاً "استخدمت مكتباً

صغيراً لمراقبتها، شاب مغمور يعمل بمفرده، لكنه ذكي طموح ومجتهد وله مستقبل في هذا المجال، جبل من أرشدني إليه "هنا كانت مفاجأة هارون وهو يتمتم "جبل؟! "فقال أيوب مؤكداً "نعم جبل، هو أهل للثقة يا هارون فلا تفرط به أبداً»

غامت عينا هارون وهو يقول "أما تزالُ تؤمن بالبشر يا أيوب؟ "تجاهل أيوب سؤاله ليقول له بتشديد على كل كلمة "جهاد وجيلان والولدان وحتى آدم مسؤوليتك منذ الآن "فسأل هارون بجدية "وماذا عن قابيل؟ أ ستجعله يدفع الثمن للنهاية؟ "رد أيوب ببرود "إنه يدفع الثمن منذ البداية وسيدفع المزيد عندما يصله خبر نتائج الفحوصات صباح الغد "عقد هارون حاجبيه وهو يتساءل "أيّة فحوصات؟! "لكن أيوب اكتفى بالقول "ليس الآن، فكر فقط أن تقف على قدميك وتحمّل مسؤولياتك، سأدعمك لتنشئ شركة من الصفر، شركة حقيقية بأعمال تجارة قانونية "ارتفع حاجبا هارون هذه المرة وهو يتساءل بدهشة "أتثق بي؟ "فيقولها أيوب صريحة وهو يعنيها "وأشدُد بك أزري "لحظة تأثر من هارون جعلته يصمت قبل أن يبتلع ريقه ويقول بتخمين "أنت راحل أليس كذلك؟ ستختفي عن الأنظار "فأكّد أيوب تخمينه مع شرح المزيد "أجل، سأرحل خلال أقل من ساعة، لقد دفعت ثمن خروجكم من الصفقة القذرة بدخولي وحدي إليها، والآن لدي طريق أسلكه لأحاول إخراج نفسي

بأقل الخسائر "صمت أيوب لحظة قبل أن يضيف "قد لا أعود هذه المرة يا هارون إن لم أنجح بإقناع المنظمة، لا تنسَ وصيتي لك "

سأله هارون "إلى أين ستذهب؟ "لكن أيوب لم يرد على سؤاله، بل فاجأه وهو يقول بنبرة رجاء حقيقي "استفق مما أنت فيه يا هارون، استفق لأننا جميعاً بحاجة إليك "شعر هارون بالمحاصرة وهو يتمتم "ما بالكم اليوم يا آل العريم؟! جيلان للتو قالتها لي! هل أبدو لكم بهذه القوة؟! "عندها قال أيوب "نقطة ضعفك ليست القمار ولا النساء ولا أي من الشهوات والغرائز، كلها واجهة كذابة للحقيقة التي تداريها "شريط حياة مُترعة بالمجون والفسق وأموال كسبوها من تجارة مشبوهة اختلط فيها الشرعي بغير الشرعي؛ الحلال بالحرام، ليصرفوها على ملذاتهم ونسائهم، كل هذا مرّ أمام ناظري هارون وهو يسأل بجمود "اذن ما هي نقطة ضعفي يا أخي؟ أخبرني أنت "فقالها له أيوب بكلمات ستظل ترنُّ في أذنيه لآخر عمره مهما طال أو قصر "نقطة ضعفك معقدة وواضحة في نفس الوقت! أنت تائه رغم أنك مُخطط بارع، تعيش يوماً بيوم رغم قدرتك اللامعة على التنبؤ بمستقبل التجارة العالمية، تُقبل على القذارة بإسراف وأنتَ تقرف منها، لا تحتمل أن تصاب بمرض بسيط وأنت لديك ميولٌ انتحارية، التناقضات داخلك تكاد تقضي عليك، لكنك تعرف أنك أقوى منها بكثير "ثم صمت قبل أن يضيف جملة عجيبة لم يسمعها

هارون في حياته "**دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِر**" تمتم هارون "دوائي فيّ أنا؟" ليقول أيوب "كلنا نحمل الدواء يا هارون، نحتاج فقط أن نعرف العلّة ونبصر ذاك الدواء داخل أنفسنا "

صمت هارون ولم يجد ما يقوله، كان مرهقاً من شدة التيه! بينما يضيف أيوب على عجل "يجب أن أنهي المكالمة فلدي من أكلمهم غيرك قبل المغادرة، فقط تذكر دوماً كلامي اليوم، تذكّر ما أوصيتك به، آدم لن يكون معك على الأقل في المرحلة الأولى؛ فلديه ما يخوضه ويجتازه ثم يختار بداية هو الآخر، معك أو بمفرده، المهم ألّا تتخلى عنه مهما حصل، أ تسمعني يا هارون؟ لا تتخلَ عن آدم، لا تتخلَ عنهم جميعاً، دواؤك أن تتحمل مسؤوليتهم، إنهم حبل نجاتك "ثم انقطع الخط..

***

**الباحة الخارجية لقصر العريم**

طلبت جيلان من الخادمة إنزال الولدين وأنها ستلحق بهم، ظلت جالسة جوار آدم وقد بدا جامد التعابير صامتاً كتوماً كعادته، لكن في العمق تستطيع جيلان الشعور بحالة التيه الثائرة داخله، لم تعد تفهم ما يجري مع آل عريم، لكنها باتت جزءاً منهم، ومصير أولادها معلق بهم.

قال آدم دون أن ينظر إليها "لماذا أصررتِ أن أحضر بنفسي كي أعيدك إلى قصر العريم؟ هل هذه طريقتك لمحاولة إقناعي بالعودة؟ "يدها تتشبث بحقيبتها الواسعة التي تحملها، دوماً تحب هذه الحقائب وتفضلها، قالت أخيراً وهي ترد على حميها "أعلم أنك لن تعود أبداً يا آدم "تمتم وعيناه تشردان "نعم لن أعود "سألته وهي تنظر إلى جانب وجهه بإمعان "هل أثّر بك لهذه الدرجة محاولة هارون قتل نفسه؟ "لم يرد، ولم ترمش حتى عيناه! تنهدت وهي تضيف "أنت لا تبالي بخسارة مؤسسة العريم أليس كذلك؟! "أرخى رأسه للخلف وبدا مرهقاً أكثر من هارون الذي تركته في المستشفى! ثم قال بصوت متعب "لماذا جيلان؟ فقط أخبريني، ليس لدي طاقة لأفهم، حتى هارون لم أعد أستطيع التعاطي معه ومع ما يعانيه»

وكأنّ الارهاق عدوى! وباء يستشري بينهم، طالما ذاك الارهاق فلم تعد تريد إلّا النزول والذهاب إلى غرفتها لتنال قسطاً من النوم بعد ليالٍ طويلة مضنية عاشتها في رعب من أجل ولديها.

بحرص ألّا تلفت انتباه أحد كما وصلتها التعليمات مع الظرف من أيوب، أخفضت حقيبتها ثم فتحتها بخفة لتخرج ظرفاً كبيراً أسمراً مطوياً بعناية لتضعه تحت مقعدها بحركة سريعة قائلة "هذا لك، لا تنظر إليه الآن، افتحه عندما تكون وحيداً "تساءل آدم وهو يكتفي بالنظر لوجه

جيلان دون ما خبأته للتو تحت مقعدها "ما هذا؟! "فردت توضح "لا أدري ما هو بالضبط، لكن مؤكد هي أوراق، لقد وصلني من أيوب بسريّة وبحرص شديد أن استلمه باليد وأنا في طريقي لأزور هارون "ببرود سأل آدم "لهذا السبب طلبتِ مني الحضور بإلحاح؟ "هزّت كتفيها وهي تقول ببساطة "اقتراح أيوب "تمتم آدم ساخراً "أجل.. اقتراح أيوب، ومن يراقبنا الآن سيظنُّكِ مجرد زوجة تحاول اقناع إخوة زوجها للمساعدة في إنقاذ المؤسسة "لم تستطع جيلان منع السؤال على لسانها "من يخيف أيوب العريم هكذا يا آدم ليجعله يتصرف بكل هذا الحذر والحيطة؟! "ظنّت أنه لن يجيب ليفاجئها بالقول "من منعنا بالقوة الانضمام إليهم "قلبها انقبض فسارعت لتقول في حذر "لا أريد أن اعرف المزيد، يجب أن أحمي أولادي بقلة المعرفة "ودون أن تنتظر رده مالت لتطبع قبلة على خده قبل أن تترجل من السيارة وتواجه بنظراتها قصر العريم المهيب فلا ترى فيه إلّا انعكاساً لزوجها، قابيل العريم! الغضب، النفس السوداء.. حافة الانهيار! هي المرة الأولى التي تشعر بهذا الشعور فداهمتها حالة اختناق وهي تفكر بمصير ولديها، تمتمت وهي تتحرك لتدخل القصر "ليس الآن يا جيلان، نامي جوار ولديك واستعيدي بعض طاقتك لتفكري جيداً بالمستقبل»

***

شمس العصر تلامس صفحة وجه آدم وهو يقف جوار النافذة الكبيرة لشقته، يمسك الورقة الأولى التي ظهرت له من الظرف الكبير الذي كان مغلقاً بختم، ولم تكن الورقة إلّا رسالة! رسالة بخطِّ يد أخيه أيوب:

**(مرحباً آدم، أحرق هذه الرسالة حالما تنهي قراءتها، لقد حجزتُ لك في عيادة خاصة في (..)، كل التفاصيل والمعلومات بالأوراق المرفقة داخل الظرف، أنت أحد أهم الأسباب التي جعلتني أقدم على تحطيم مؤسسة العريم دون تردد، كلنا كنّا مسجونين فيها فكان يجب أن نتحرر لنبدأ من جديد ويكون لنا حق الاختيار بإرادتنا، لا مفروضاً علينا من تركة أبينا وجدنا، لقد أزلتُ القيود عنك فلا توهم نفسك أنك ما تزالُ مسجوناً بسرّك الذي يعذبك، تعالج يا آدم وتغلّب على ذنبك القديم، لستُ ضليعاً في علم النفس لكني أظنُّك تحمّل نفسك مسؤولية موت ريم بسبب ما حصل بينكما في لحظة ضعف، وقد لا يعجبك كلامي لكنها شريكتك فيما حصل وكلاكما وقعتما في الحرام سوية، فكّر يا آدم أنّ كلّ تجربة ذنب نتعلّم منها، كما تعلّم أبو البشر من أكله التفاحة المحرمة، ونقل تلك المعرفة إلينا لنعتبر ونختار، فأرني يا أخي ماذا سيكون خيارك)**

أغمض آدم عينيه وسيل العذاب يجرفه، لا أحد يعلم.. حتى أيوب لا يعلم؛ أنه حتى اللحظة جسده رغماً عنه

يرتجف كلما تذكر جسد ريم! استجابتها المفرطة له وهو ابن السادسة عشرة، كانا صغيرين.. رباه.. لقد كانت زوجة أبيه! كيف فعل هذه الخطيئة؟ بل كيف فعلاها سوية؟! تتقبّض يد آدم فتتجعّد الرسالة وهو يتمّم آخر جملة فيها **"فأرني يا أخي ماذا سيكون خيارك»**

***

## حي الخاتون، بيت الحاج كرم

منذ إتمام عقد القران والجدة ياقوت لم تتوقف عن إطلاق الزغاريد، وكيف لا تفرح الجدة بشكل خاص والعروس هي حفيدتها المفضلة العاقلة! تبتسم جهاد بتسامح ويدها تتلاعب بأطراف شعرها القصير، لم تنزعج يوماً من هذا الإحساس أنّ توأمتها سارة هي المفضلة، يغيظها ربما لكن لا تنزعج ولا تشعر بالغيرة، بل كانت تشعر دائما بالتميز لأنها قادرة على إثارة حنق الجدة!

تتسع ابتسامة جهاد وهي ترى حمزة يلف ذراعه بقوة حول كتفيّ سارة الجالسة جواره ويشدّها إليه بخشونة واضحة كأنه يخاف أن تطير! مسكينة سارة وهي تحاول الإفلات منه وحمزة لا يسمح لها، بل يعبس في وجهها ويتمتم بكلمات في أذنها تجعل سارة تعبس بدورها!

كانت جهاد تقف في زاوية تتجاهل نظرات نسوة الحي والأقارب، والدة وائل كانت حاضرة ولم تكف عن مدح خطيبة ولدها، جمالاً وأخلاقاً وسمعة طيبة، وتحت جملة (سمعة طيبة) حرصت أم وائل على وضع ثلاث خطوط وهي تؤكدّها للنسوة حولها وترمق جهاد بنظرات مُستهينة، لا تلومها جهاد على عقليتها وتتفهم احساسها بالراحة وقد اختار وائل فتاة مناسبة، فمن حقها كأم أن تفرح بولدها مع زوجة ترتضيها له، وقد كانت ترى في جهاد (مصيبة) تهدّد أركان تلك العقلية التي لا تستطيع تغييرها.

لحسن الحظ أنّ غيث بعيد عن محيط الحي والأقارب، فلم يصلهم خبر زواجه قبل أسبوع، وكأنه كان ينتظر طلاق جهاد الثاني كي يكسرها بزواجه من أخرى، كم هو أهبل غبي!

شعرت جهاد بمن يربّت على ظهرها فالتفت لترى وجه أم حمزة وقد أطلت نظرات التعاطف من عينيها، ابتسمت لها جهاد فمالت المرأة الطيبة نحوها لتقبل خدها وتقول "سيرزقك الله بمن يعرف قدرك يا ابنتي، لا أحد يعلم ماذا يكون نصيبه "اكتفت جهاد بهز رأسها في صمت وهي تبتسم بامتنان، لتبتعد الخالة أم حمزة وتشارك الجدة في الزغاريد.

كتمت جهاد ابتسامة شقية صغيرة وهي تفكر بأيوب، لم

تظن أنّ مشاركته الأسرار سيكون ممتعاً لها بهذا الشكل، ترى في عيون عائلتها الاستغراب والدهشة والاسئلة الحيرى من انقلاب حالها، فبعد أن كانت في حالة اكتئاب وانعزال باتت شعلة نشاط وحركة! أنجزت الكثير من أعمال الترجمة الخاصة بدار النشر وحصلت على حقوقها من الناشر كاملة، وهذا لوحده كان إنجازاً عظيماً! كما أنها تخرج كل يوم إلى مقهى قريب تعمل في سرية على تجهيز كتاب أيوب (الشبكة المظلمة)، إنها متفائلة كثيراً رغم كل المخاوف التي تقلقها عليه، لكنها ترفض التفكير فيها وقد قررت أن تعيش يوماً بيوم فلا تفكر بالقادم.

فجأة كان هناك من يجرّ فستان جهاد وعندما التفتت وجدت طفلاً في السابعة من أطفال الحي وهو يقدّم إليها علبة بحجم الكف ملفوفة بورق الهدايا وهو يهمس لها "هذه لك "وحالما أخذت منه العلبة كان يهرول مبتعداً ليضيع بين باقي الاطفال، ابتلعت ريقها وقلبها الخافق بعنف يخبرها أن العلبة من أيوب.

تحركت بخطى متوازنة وهي تخفض يدها بالعلبة تداريها حتى وصلت إلى غرفة نومها مع سارة وحالما دخلت أغلقت الباب خلفها بالمفتاح ثم أخذت تمزق ورق الهدايا على عجل، وقد صدق حدسها وهي تفتح الهاتف لترى رسالة نصية بانتظارها (اتصلي بهذا الرقم حالما يصلك الجهاز).

اتصلت بالرقم المرسل منه الرسالة ليأتيها صوت أيوب مُحمّلاً بالكثير "أخيراً وصلت للجزء الحلو النحيل من المكالمات "يضحك قلبها في فرح غامر وهي تتحرك إلى أبعد نقطة عن باب الغرفة لتسأل برعشة صوت "لماذا لا تتصل مباشرة بهاتفي؟ "فيرد بخفوت "كي لا يسألك أحد من صاحب هذا الرقم يا ذكية! "كانت تسمع أصواتاً من جانبه بينما ترد بعناد على حجته "سأقول مجرد متصل أخطأ في الرقم "تنهد ثم سأل بنبرة مسّت قلبها "لماذا تضيعين الوقت بهذه السخافات؟ "الأصوات زادت وبدا واضحاً أنه يمشي في مكان خارجي وحوله حركة ناس لتسأل بتوتر "ما هذه الأصوات؟ "رد وهي تكاد تسمع صوت خطواته "أنا أركب الطائرة "خرس لسانها وتمرّغ قلبها بالوجع وكأنها تراه اللحظة يتسلق الدرجات نحو طائرة ما، سألها والأصوات تخفت وتتباعد "لماذا تصمتين؟ "تجري دموعها وقد أدركت أنه بات الآن داخل الطائرة وقد اختفت كل الأصوات لتقول بحشرجة "لقد قصصتُ شعري "كانت جملة لا معنى لها، كأنها تتشبث فقط به وتشغله بحديث آخر لتطيل بقاءه، كانت تفعل هذا مع أبيها كلما سافر لعمرة أو حج، رد أيوب بحة خاصة "أحببته جداً، يليق بملكة كوكب النمل "

لم تعد تجد ما تقوله! احتاجت منه أن يتكلم، ولم يخذلها وهو يفصح لها عن اعترافات مذهلة "اردتُ أن أقول لك

أنك غلبتني، جميعكم التففتم حولي كعصابة وغلبتموني، أنتِ واللحمة التي ربطتك بسارة ولم تنفصم؛ فكانت كصفعة على وجه غروري، حماتي منى ذات الطيبة العجيبة لتصدق نذلاً حقيراً مثلي، جدتك ياقوت التي تدّعي الغلظة والشدّة في التعامل وهي أرق القلوب ولم تكن تريد إلّا أن أكون زوجاً جيداً معك، صاحب المقهى البسيط الجاهل والأستاذ هلال المحب؛ كلاهما تعاونا ليتآمرا عليّ بلعبة شطرنج! الشيخ عبد المُعز.. وما أدراكِ ما فعله بي هذا الشيخ! كلكم كنتم (لحمة) حولي لا تنفصم، حتى الميكانيكي وام إسطفان و.. "قطعت ثرثرته العجيبة وهي تسأل بأنفاس مخنوقة "هل تودّعنا بالأسماء؟ "ليصارحها برقة "ربما يكون وداعاً يا نملاوي "زمّت شفتيها وهي تقول بقرار "سأنتظرك "وكأنّه يحذرها مما ينتظرها معه فيقول "لا أدري إن كنتُ سأستطيع الاتصال أو التواصل معك مجدداً "رفعت يدها تضغط بأناملها الحائط وهي تصرُّ بالقول "سأنتظرك "ليخبرها بما قد لا يخطر ببالها قائلاً بجدية "ربما سأعود إليكِ نصف رجل لو بقيتُ حياً "لم تهتز شعرة في قرارها وهي تؤكده "سأنتظرك "

الصمت طال بينهما للحظات قبل أن يقول بنبرة خافتة كسهم انغرز في فؤادها "إن عدتُ سأخبركِ بشيء "يخفق قلبها بجنون وهي تهمس له "وأنا سأنتظرك كي تخبرني وجهاً لوجه "ضحك بخفة قبل أن يقول بنبرة مشاكسة "ألم أقل لك؟ "تجاريه في شقاوته وهي تدعي الحنق وتقول

"أنت قلت الكثير منذ ابتليت بك وتزوجتك؛ فأيُّها تعني؟ "قالها وكأنه يهمسها بشفتيه في أذنها مباشرة "قلت لك ستقعين في غرامي "امتلأت عيناها بالدموع وهي تهتف به تتصنع الغضب "مغرور لا يطاق لا أريد أن أسمع صوتك مجدداً "صوت ضحكاته الرنانة كان آخر ما سمعته قبل ان تنهي هي الاتصال، كلاهما أرادا دون اتفاق أن تنتهي المكالمة بهذا الشكل، دون وداع مباشر.

وقفت جهاد وسط الغرفة وكلُّ جزء منها يرتجف، انهارت للأرض جاثية على ركبتيها وصدرها يجيش برغبة البكاء لكنها تمنع نفسها بالقوة، تشدُّ على الهاتف الذي ما يزال في يدها وهي تقرّر أنها لن تسمح لدموعها أن تنهمر، ستكون قوية ولن تبكي، لأجل سارة وميزو وفرحتهما اليوم، لأجل ألّا يكون فأل سوء على أيوب، ذاك المغرور الكريه سيعود رغماً عنه كي يخبرها وجهاً لوجه بما وعدها به.

أخذت تتمتم بدعاء "يا رب.. أعده إليّ»

***

**صباح اليوم التالي، قصر العريم**

مُستنزف، بكل معنى الكلمة يشعر بالنزيف يطال كل

مورد لقوته، إنه في حالة هستيرية يدركها ولا يستطيع السيطرة عليها، يخدع نفسه أنه سينقذ المؤسسة وأن بنيانها الصلب أقوى من أي شيء، لكنه في العمق يكشف عن أكبر خديعة في حياته، فالمؤسسة كبيت رمال هش غمرته موجة بحر لم يحسب لها حسباناً فحطّمته قبل أن تبتلعه، وأول ما تحطّم هو أركان المؤسسة؛ أبناء العريم، وهو الوحيد بينهم ما يزال يتشبث بذرات الرمل التي تتسرب من بين أصابعه.

ينظر قابيل إلى الهاتف الساكن أمامه وهو ينتظر، ما يزال هناك نزف جديد يوشك أن ينال منه، لم يعد يستطيع إنكار رعبه، فكيف سيتعامل مع هذه الضربة؟

رنّ الهاتف ليمدّ قابيل يده المرتجفة فيفتح الخط وهو يأمر بشكل مُحدد "أخبرني النتيجة يا دكتور "فردّ الطرف الآخر من الاتصال "أنا آسف سيد قابيل، إنه مرض باركنسون (الشلل الرعاش) بلا أدنى شك "

***

# الفصل الثاني والعشرون (الأخير)
# نهاية المطاف!

**بعد شهر، قصر العريم، صباحاً**

« تفضل سيد توفيق»

اكتفى توفيق بإيماءة من رأسه لأحد حراس بوابة القصر بينما يتحرك سائق سيارته كي يدخل إلى الباحة الأمامية، بنظرات هادئة غامضة يتطلع توفيق إلى حدائق القصر من الجانبين وقد بدت مهجورة لا حياة فيها، عندما وصل مبنى القصر ترجّل السائق ليفتح له الباب بينما استقبله حارس آخر قائلاً بنبرة عملية "أهلا بك سيدي، السيد قابيل في القاعة الخاصة»

سأل توفيق وهو يغادر المقعد الخلفي للسيارة "أين السيدة جيلان؟ "فرد الحارس بنفس النبرة "لقد غادرت نهائياً بالأمس مع الولدين "تمتم توفيق "إذن السيد قابيل بقي لوحده في القصر "أكد له الحارس وهو يسير معه للباب الأمامي للقصر "أجل سيدي "فالتفت توفيق إليه ليسأله "ماذا عن السيد هارون والسيد آدم؟ ألم يزوراه على الأقل؟ "لم تتغير تلك النبرة على الاطلاق والحارس يرد

"السيد آدم لم نره منذ أكثر من شهر، والسيد هارون حضر فقط لأخذ حاجياته الشخصية بعد خروجه من المستشفى ثم غادر "فتح الحارس الباب لتوفيق ليسأله أخيراً "أرى أن عدد الحراس قد تضاءل بشكل كبير! "أومأ الحارس قائلاً "هذه أوامر السيد قابيل، حتى الخدم صرفهم قبل أيام "ارتفع حاجبا توفيق قليلاً لكن لم يعلق بالمزيد، دخل القصر الخالي والحارس يغلق الباب فيعمّ الصمت الكئيب وكأن القصر قد مات!

تقدّم توفيق بخطوات هادئة نحو قاعة الاجتماع الخاصة بينما يصله صوت قابيل يغني بلسان ثقيل، دخل توفيق عليه القاعة فيراه جالساً على كرسيه في حالة يرثى لها، ثم اتّسعت عينا توفيق وهو ينظر ليدي قابيل؛ اليسرى تحمل زجاجة خمر واليمنى تحمل مسدساً!

لم يتردد وهو يقف عند الباب المفتوح ليلقي التحية بهدوء "مرحباً قابيل "فيلتفت إليه قابيل وهو في حالة سُكر شديد فيرفع كفيه بما تحملانه ويهتف "مرحباً إيّها المحامي الفذّ! تعال واشهد لحظة انهزامي!»

دخل توفيق وأغلق خلفه الباب.

***

بعد دقائق دوى صوت طلقة! فدخل الحارس مهرولاً وهو ينادي باقي الحرس عند البوابة، بتوتر شديد كان الحارس يركض نحو قاعة الاجتماع حيث مصدر صوت الطلقة، وحالما فتح الباب وجد قابيل العريم جثة هامدة فوق كرسيه وقد فجّرت طلقة رأسه ليتناثر الدم على الحائط خلفه، زجاجة الخمر تحطّمت على الأرضية جوار قدميه، التفت الحارس ليرى المحامي توفيق يقف على مسافة بوجه شديد الشحوب وهو يحدق في جثة قابيل في حالة صدمة.

سارع الحارس ليُخرج هاتفه ويتصل، وحالما أتاه الرد من الجانب الآخر قال بشكل مباشر وعيناه تنظران بدقة لتفاصيل الجثة "سيد هارون؛ آسف لإبلاغك أنّ السيد قابيل توفي للتو، يبدو أنه أطلق رصاصة في فمه ليفجّر رأسه»

***

## حي الخاتون، بيت الحاج كرم

تحدق جهاد في اختبار الحمل وهي لا تستوعب النتيجة! هذا ثاني اختبار لتحصل على نفس النتيجة؛ إيجابي! كان من الغباء اجراء اختبارين والدلائل كلها واضحة وصريحة، صحيح ليس لديها وحام لكن التغيرات في جسدها وحساسية جلدها واضحة، نفس الأعراض بالضبط في

حملها الأول، الفترة الماضية لم تتنبه حتى لتأخر دورتها الشهرية وقد انغمست تماماً في تجهيز كتّاب أيوب من جهة ومساعدة سارة في التجهيز لعرسها من جهة أخرى، لم تشعر بمرور الوقت والأسابيع إلّا عندما نظرت إليها جدتها ليلة الأمس نظرة فاحصة وهي تتساءل عن سر تغير معالم جسدها ومفاتنها! عندها فقط فكرت، أو الأصح تساءلت عن آخر فترة طمث مرّت بها، فأصابتها صدمة صاعقة عندما حسبت حسبتها لتعرف الجواب، فكان أول ما فعلته صباحاً أن ذهبت إلى صيدلية خارج الحي كي لا يراها أحد ممن يعرفونها ويكتشفوا ما تشتريه، ثم عادت إلى البيت لتختلي بنفسها في الحمام وتواجه سراً جديداً تتشاركه مع أيوب، والمفارقة أنْ حتى أيوب لا تستطيع الوصول إليه وإخباره.

وضعت جهاد كفها فوق بطنها وهي تهمس بارتجاف "أنا حامل! "شعور الفرح التلقائي خنقه الخوف وكتم أنفاسه، فماذا ستقول سارة؟ وكيف ستخبر امها والجدة ياقوت بوضعها الجديد كـ (مطلقة وحامل من زوجها النذل الذي رماها واختفى)؟ ماذا ستقول للناس في الحي وكيف ستكون نظرتهم إليها وهي ما تزال حديث جلساتهم حتى اللحظة بعد طلاقها الثاني السريع؟ لن تستطيع اخبار أحد حتى عائلتها أنّ أيوب أعادها لعصمته، والأهم من كل هذا، ماذا سيكون شعور أيوب نفسه حيال الأمر؟!

رفعت يدها إلى فمها في حالة صدمة وذهول وخوف قابض، أصابتها حالة هستيرية ولم تعد تعرف كيف تفكر، أغمضت عينيها ثم أخذت نفساً عميقاً لتهدأ وبعدها اتخذت قراراً سريعاً ينقذها بشكل مؤقت فهمست لنفسها بخفوت "اهدئي جهاد، لن تخبري أحداً، انتظري عودة أيوب أو اتصاله، لن تخبري أحداً قبل أن تخبريه هو أولاً «

شعرت بارتياح لهذا القرار، لكن القلب له شؤونه، لن تخدع نفسها، إنها تناور وتراوغ لتهرب من مخاوفها حول مصير أيوب، والآن ومع هذا الطفل تتضاعف المخاوف لأجله ولأجل مصيرها ومصير طفلهما.

***

لفّت سارة أصابعها حول عصا مكنستها في شعور غامر بالاشتياق والفرح لا يمكنها وصفهما، لم تظن وهي قادمة صباح اليوم بصحبة حمزة والعم الصادق للقاء المالك الجديد (السيد رشيد الكيلاني) أن تسير الأمور بهذه السلاسة ليسلمها المالك مفتاح المكتبة ويخبرها أنها تستطيع فتحها والبدء بالعمل منذ اليوم!

أخذت تكنس أمام المكتبة والابتسامة تشقّ شفتيها، الشيء الوحيد الذي بقي من الماضي الغريب الذي جمعها بأيوب هو جهدها في هذه المكتبة، إنها مكتبتها، حتى لو

لم تملكها! كل شيء تغير إلّا شعورها نحو مجهودها الذي بذلته هنا.

رفعت سارة عينيها للطابق الثاني من مبنى قصر الخاتون فرأت امرأة في الستين تجلس في الشرفة وبيدها مصحف تقرأ فيه، إنها السيدة راضية زوجة السيد رشيد، امرأة بسيطة طيبة كزوجها، يعيشان مع مُطلقة ابنهما الوحيد وأطفاله الأربعة! قد يبدو غريباً أن تعيش مطلقة ابنهما معهما لكن يبدو أن السيد رشيد وزوجته لم يرتضيا فعلة ولدهما فاحتضنا مطلقته مع أولادها.

ما تزال سارة تكنس وهي سارحة تفكر في الحياة وغرابتها، لا شيء يبقى على حاله، كل شيء قابل للتغيير أو الرحيل وربما الزوال.

«مبارك يا ابنتي»

رفعت سارة رأسها في ابتسامة تلقائية وهي تستقبل تهاني الخالة أم إسطفان التي أخذتها بالأحضان وهي تضيف بفرحة كبيرة "كم أنا سعيدة أن السيد رشيد قرر استخدامك لإدارة المكتبة من جديد، هذا تعبك وانجازك خلال السنوات الماضية"

يراقب حمزة بغيظ ابتسامة سارة الواسعة وهي ترد على

الخالة أم إسطفان بالقول المبتهج "شكرا يا خالة، الحمد لله وكأني عدتُ إلى بيتي "تتقلص أصابعه حول قطعة المكابس التي يحملها بينما يتمتم في سرّه "ليتني أضرب هذا المكبس فوق رأسك!»

لا يزال يراقب أو ربما ينتظر حتى انتهت من الكلام مع الخالة أم إسطفان ورحلت المرأة لشأنها، وبعد صبر التفتت إليه سارة أخيراً نخفق قلبه وأوشك أن يتقدم منها ليدعوها للغداء (بمفردها) في بيته لكنها أخذت تلوح له ببشاشة وكأنها تلوح لـ (صديقتها المفضلة)؛ لا خطيبها وزوجها، ثم عادت لتكنس!

رمى المكبس أرضاً بخشونة فوقع فوق قدم أحد العمال ليهتف العامل بعفوية "آه.. ما بك يا حمزة! "ليهتف حمزة "قسماً بالله سأضربه برأسك إن لم تغرب عن وجهي اللحظة "تأفّف العامل وهو يبتعد إلى داخل الورشة وعندما التفت حمزة مُجدداً ناحية سارة وجدها تدخل المكتبة للتو، زفر أنفاسه بقوة ثم أخذ يشتم.

لم تمر لحظات إلّا والأستاذ هلال أمامه يحمل باقة ورد كبيرة وهي يقول بابتسامة عريضة "أحضرت لك باقة الورد التي اتفقنا عليها، سارة تحب الأبيض "أخذ حمزة يحدّق في الباقة وهو يشعر باليأس! شهر كامل منذ عقد القران وهو في هذه الحالة، لم ينفرد بسارة ولا حتى لساعة

زمن! وكله في كفّة وجدتها ياقوت في كفة أخرى؛ لقد باتت الحارس الخاص الأمين الذي يلازم سارة ليل نهار، وكأنه سيغتصب حفيدتها في أول فرصة بعد عقد القران!

تساءل الاستاذ هلال بعبوس "لماذا تتسمّر مكانك هكذا؟ خذ الباقة واذهب إليها وبارك لها عودتها للعمل في المكتبة "تمتم حمزة وعيناه تحيدان ناحية المكتبة "هل سينفع الورد؟ "رد الأستاذ هلال بخفوت "سينفع، ثق بعمك هلال "تنهّد حمزة ليصرّح بما في داخله "المشكلة أني لا أثق بنفسي معها! أخشى دوماً أن أتجاوز الحدود معها فتنفر، والمصيبة كلما حاولت فتح بابٍ لبعض العواطف والرومانسية بيننا تسارع هي لسدّه في وجهي والهروب من الانفراد بي، هذا إن لم تسبقها الجدة ياقوت لفعلها! "كتم هلال ضحكته لتعليق حمزة حول الجدة ليركز على مشكلة حمزة الحقيقية وهو يقول له بنبرة توبيخ رقيق "لأنك غشيم! "يعقد حمزة حاجبيه وهو يعترف بالقول "أنا غشيم معها فقط، ثور بمعنى أدق! "هذه المرة ضحك هلال ثم مدّ يداً ليربّت على كتف حمزة قائلاً "أعلم هذا "ثم دفع إليه بالباقة وحثّه بالقول "خذها إليها، ستفرح كثيراً لأنك فكرت بها هكذا "تحرك حمزة وهو يتمتم متنهداً بإحباط "سأغسل يدي وأعود إليك»

***

بوجهه العابس يدخل حمزة المكتبة وهو يحمل باقة الورد الأبيض، يشعر أنه يبدو مثيراً للسخرية وهو بملابس العمل المتسخة يحمل تلك الباقة الأنيقة! يشتد عبوسه وهو يبحث بعينيه عن سارة ولا يجدها! فينادي وهو يتقدم لعمق المكتبة "سارة! أين أنت؟! "أتاه الرد من تحت طاولة المكتب "أنا هنا يا حمزة، تعال وساعدني من فضلك "يخطو حمزة نحوها وهو يعجز عن رؤيتها حتى اللحظة ليتساءل "ماذا تفعلين هناك؟! "يلتف حول الطاولة الخشبية ليرى سارة محشورة هناك تحتها وقد بدت دامعة العينين وهي ترد على تساؤله "كنت أنظف تحت الطاولة فعلق شعري بمسمار!»

كأبله ظل يحدّق فيها، بدت صغيرة جداً وهي متكورة محشورة هكذا في الفسحة الصغيرة أسفل الطاولة، هدر قلبه وهو يهبط إليها جاثياً على ركبتيه والباقة ما تزال في يده، وبدلاً من أن يفعل شيئاً لتحرير خصلة شعرها العالقة قال لها وهو ينظر في عينيها "أحضرت لك هذا الورد "ثم صمت لحظة قبل أن يضيف بحرقة عاشق "ليتني أملك مسماراً كهذا لأجعلكِ تعلقين بي "تحمر سارة وهي تهمس اسمه "حمزة! "عيناه تحركتا لشفتيها الرقيقتين فيبتلع ريقه وهو يشعر بالحرارة ليهمس بحنق "بعد شهر كامل لا أنفرد بكِ إلّا تحت طاولة قديمة بمسامير نائتة؟! ما هذه الزيجة يا ربي؟! "حاولت سارة تحرير خصلة شعرها مجدداً وبارتباك شديد لتفشل مرة أخرى فتهتف في حمزة بصوت

مرتعش "ألن تفعل شيئاً لتساعدني؟! "يعقد حاجبيه وهو يرد بصبيانية "سأفعل إن وعدتني أنك ستأتين لتناول الغداء عندنا اليوم، وبدون جدتك! ولا أي فرد من عائلتك، أنت وحدك "هتفت به مجدداً "حمزة! "لكنه أصرّ بالقول الخشن "قولي ما شئتِ لن أتزحزح من هنا، ولن أحرّك ساكناً لإنقاذ شعرك المنتوف! "هذه المرة شهقت في حنق وهي تقول باستهجان "شعري المنتوف؟! أنا شعري منتوف؟ "دون أن يتراجع قال "أجل منتوف وإن شئتِ التقطتُ لك صورة لتري بنفسك "هتفت به "دعني! لا أريد مساعدتك، وخذ هذا الورد معك لا أريده "فغضب منها ليرمي الورد في حجرها بخشونة قائلاً "بل ستأخذينه رغماً عنكِ! "

تجمعت دموع في عيني سارة وبدت رقيقة للغاية وهي تنظر إليه كأنها تعاتبه على قسوته عليها وأسلوبه الخشن معها، دون تفكير كان يميل إليها بغتة ليحاول تقبيل شفتيها لكنها تدير رأسها لتهرب من قبلته الخشنة وهي تهمس "لا "ثم تأوهت متوجعة وخصلة شعرها العالقة تنشد لتؤلمها بينما حمزة يقبل خدها وعنقها وكل جسده يرتجف في لهفة مجنونة، قوائم طاولة المكتب تصدر ما يشبه الصرير وهي تتزحزح من مكانها باندفاع حمزة الأهوج، قلب سارة يخفق بجنون وهي تتوسل إليه "حمزة توقف... توقف بالله عليك "

لكنه كان يعاني الوصول إليها وجسده الضخم مع ضيق المكان لا يساعدان، فبدا وكأنه يصارع طاولة المكتب لتصدر المزيد من صرير الاحتجاج! فاضت مشاعره ويداه تمسكان بجسدها النحيل ليهمس بهيام "أحبك سوسي.. آه لو تعرفين كم أحبك "شعرت سارة بالدوار لكن عقلها لم يكن مُغيباً لتدرك أن أمرهما سيفتضح في أية لحظة بدخول أحدهم للمكتبة، فلم يخطر ببالها لإنقاذ الموقف إلّا أن قالت بارتجاف "ابتعد حمزة وأعدك سأتغدّى عندكم اليوم "رفع وجهه ليسأل بلهفة "وحدك؟ "ابتلعت ريقها ثم هزّت رأسها بـ (نعم) وهي تمنحه الوعد "وحدي "وقبل أن يتهور بالمزيد سارعت لتضيف "أرجوك أنقذ ما تبقى من شعري الآن "

كان سعيداً مرتبكاً كطفل في العاشرة وهو يبدأ بتحرير تلك الخصلة اللعينة، أطرقت سارة بنظراتها في خجل رهيب مما حصل، وبينما هي مطرقة هكذا لمحت باقة الورد تحت ركبتي حمزة وقد سُحقت وتقطّع الكثير من بتلاتها، ولا تدري سارة كيف وقعت الباقة من حجرها لتلقى هذا المصير!

وأخيراً ساعدها لتخرج من تحت الطاولة بعد أن حرّرها، لكنه لم يفلتها وكفاه تمسكان كفيها بقوة فينظر في عينيها ويهمس "حتى لو كنتِ بشعر منتوف كما الآن سوسي، سأظل أحبك بجنون حتى آخر عمري "تبادله

سارة النظر وقلبها يدوي في صدرها قبل يعلو فجأة صوت رنين هاتفه، أفلتها وهو يُخرج هاتفه من جيبه ليفتح الخط بابتسامة عريضة، تحرك مبتعداً عن سارة بينما يرد على المتصل قائلاً "في وقتك أمي، اليوم سارة ستتغدى عندنا "يصمت للحظة قبل أن يستدرك ليضيف ببعض الخشونة "ولوحدها!»

تلتفت سارة إلى طاولة المكتب لتعيدها إلى موضعها الصحيح، ثم تجمع الورود المبعثرة لتختار ما يصلح منها كي تحتفظ به وترمي ما تلف، تفعل كل هذا وجسدها النحيل لا يكفُّ عن الانكماش بقشعريرة، لا تجرؤ على لمس مواضع حارة من بشرتها حيث ترك حمزة آثار قبلاته الأولى لها، تعضُّ شفتها السفلى وقلبها يدوي من جديد، تشعر بالارتباك، لكنه ارتباك حلو، بل لم تشعر بمثل حلاوته من قبل.

***

### قرابة العصر، شقّة حمزة

«هل أعجبك الطعام يا ابنتي؟ "بابتسامة خجول كانت سارة ترد على حماتها الجالسة جوارها على الأريكة "سلمت يداك يا خالة، أنا لا أجيد الطهو رغم محاولاتي، بينما جهاد بارعة فيه بالفطرة دون أن تسعى لتعلمه مثلي، أشعر

بالخجل من هذا "تمدُّ حماتها يدها لتربّت على ساق سارة تقول لها بفرح وطيبة "ما دمتُ أنا هنا فلا تحملي همَّ الطعام، اهتمي فقط بإسعاد حمزة، إنه يحبك جداً "

احمرت سارة وهي تطرق بنظراتها، حمدت الله أن حمزة خرج لإحضار بعض الحلويات من محل أسفل المبنى، طوال فترة الغداء لم يكفّ عن النظر إليها وعيناه تذكرانها بتلك القبلات المسروقة وتعدها المزيد! أتاها صوت حماتها مُهتماً بنبرة تعاطف حقيقي "كيف حال جهاد؟ أفكر بها دوماً وأدعو لها "رفعت سارة نظراتها لتقول ببعض الاندفاع "هي بحال جيد والحمد لله، تشغل نفسها بعملها ولم تعد تهتم بكلام الناس في وجهها أو همسهم من خلف ظهرها "قالتها في حمائية عفوية نحو توأمتها، صحيح أن حماتها امرأة طيبة لكن هذا الشعور برغبة الحماية والدفاع نحو نصفها الثاني تلقائي، وكأنّ حماتها تشعر بها لترد بتأكيد وتأييد "هذا أفضل، فليضع كلّ منهم لسانه في فمه! "ثم مالت نحوها لتضيف "سترين أن رب العالمين سيرزقها بالرجل الصالح الذي يعوضها خيراً عن تجربتيها الأولى والثانية "هزّت سارة رأسها وهي تتمتم "إن شاء الله»

قالتها سارة وهي تفكر في حال جهاد بجدية، أمور كثيرة في توأمتها تغيّرت، لقد باتت كصندوق مقفل، تشعر سارة عن يقين أنّ جهاد تقفل ذاك الصندوق بحرص وتخفي محتوياته عن الجميع، فماذا تخبئ يا ترى؟ وما سر

تلك الإيجابية العالية التي تتحول أحياناً لنوبة قلق مُستتر غير مفهوم؟! في كل الأحوال هي تدعمها مهما كان ما تخبئه عنهم جميعاً من أسرار.

خرجت سارة من أفكارها مع عودة حمزة للبيت وهو يحمل علبة الحلويات، ثم تقدّم ليضعها على الطاولة القريبة وهو يقول لأمه "لا أظنكِ صلّيتِ حتى الآن أمي، اذهبي وأنا وسارة سنعدُّ الشاي مع الحلوى»

خفق قلب سارة بذاك الارتباك الحلو بينما ترى حماتها تستجيب وهي تقف على قدميها وتستأذن كي تصلي في غرفتها، يرتفع مستوى الخفقان في صدرها وهي تنظر لحمزة وترى في عينيه أنها الفرصة التي كانت ينتظرها.

اقترب منها ومدّ يده ليدها فيجرها لتقف عنوة وهو يقول بخفوت "تعالي للمطبخ "أخذت تهز رأسها بارتعاش وحمزة يقرّب جسدها من جسده ببعض الخشونة بينما تتمتم "لا.. لا أريد الشاي "باندفاعه العاطفي الخشن كان يلف ذراعيه بقوة حول جسدها يعتصرها كلها إليه وهو يهمس "لا يحتاج الذهاب للمطبخ، أمي سمعها ثقيل "عجزت عن رفع يديها لتبعده بينما تتهرب من فمه وهو يحني إليها "حمزة لا تفعل، أرجوك أنا أستحي "هالها تهوره وهو يقبل عنقها بجنون ويرتجف جسده الضخم كارتجاف جسدها العاجز، حاولت ردعه بالهمس "عيب يا حمزة، ماذا

ستقول والدتك.. عني "شهقت وحمزة يتمادى ليقع بها فوق الاريكة ليهمس بتوسل رقيق "فقط القليل بعد يا سوسي، لقد أوشكت أن أيأس! "حتى اللحظة تهرب من قبلاته فلا يطال فمها، حتى لم تعد تحتمل وهي تفكر بوالدته التي قد تعود في أية لحظة فهمست بحشرجة "إن كنت تحبني توقف الآن، سأموت خجلاً إن رأتنا والدتك هكذا»

كان ثقيلاً للغاية وهو يحشرها تحته، أنفاسه لاهثة وهو ينظر لوجهها عن قرب وقد توقف عن تقبيلها، لم تستطع النظر إليه أكثر فأغلقت أجفانها وهي تعاود الهمس "أرجوك "هذه المرة لم تره كي تتجنب قبلته لشفتيها، قبلته المحمومة لم تكن خشنة هذه المرة على الأطلاق، أصابها دوار كالسحر فتتراخى وتستسلم لبضع لحظات حتى فاض إحساس الدوار لتشعر وكأنها ستفقد الوعي! جمّدها شعور بالرعب أن يحصل هذا فوجدت القوة لتقاوم ففتحت عينها ورفعت كفيها لتدفعا كتفيه بينما تفلت بشفتيها من قبلته وهي تهدده بحزم "ابتعد حمزة قبل أن أصرخ مستنجدة بوالدتك، قسماً بالله سأفعل!»

كلاهما كان ينهت، ما تزال تدير وجهها جانباً ويداها تدفعانه في كتفيه بمقاومة، حتى سمعته يقول بخفوت "أريدك أن تعتادي على قربي سارة، هذا سيجعلني أكثر صبراً وأقل غباء وخشونة "ببطء أعادت وجهها إليه لتنظر إلى وجهه القريب وقد بدت تعابيره مختلفة عمّا تألفه منه،

لقد كان صادقاً صريحاً للغاية وهذا أثر بها أكثر من أي فعل عاطفي منه نحوها.

مال ليقبل خدها قبل أن يهمس "قبلة على خدك كانت حلماً بالنسبة لي وأنا مراهق "قال جملته الحلوة تلك ثم تحرك ليبتعد ويسحبها معه ليقفا معاً، يرخي نظراته وهو يعتذر "أنا آسف لأني كنت كالثور معك! لكني سأعتاد أنا الآخر على قربك الحبيب مني "ثم أفلتها وابتعد بصمت نحو الطاولة ليفتح علبة الحلويات بينما تحركت سارة دون تفكير ناحية الحمام لتستعيد حالتها الطبيعية قبل أن تراها حماتها وتخمّن ما جرى بينهما، وطوال فترة بقائها في الحمام ظلت كلمات حمزة ترنُّ في أذنيها وتتلاعب بخفقات قلبها.

***

## بيت الحاج كرم

الجدة ياقوت تواصل مناداة جهاد من خلف باب الغرفة المقفل "ماذا جرى لك اليوم؟! ستظلين معتكفة طوال اليوم حبيسة الغرفة؟! "ثم تصمت قليلاً لتتمتم بحنق موجّه لسارة ربما (للمرة الأولى) "وشقيقتك الأخرى! كيف تضعنا أمام الأمر الواقع هكذا وتذهب بمفردها للغداء في بيت حمزة؟!»

ظلت الجدة تتذمر بجمل متفرقة وهي تبتعد عن الباب وقد يئست من جهاد.

داخل الغرفة تتربع جهاد فوق سريرها وحاسوبها مفتوح أمامها، عيناها متحجرتان بصدمة ويدها على فمها وهي تقرأ الخبر على المواقع الإخبارية التي تتابعها على الانترنت! شعرت بألم فظيع في قلبها، خبر وفاة قابيل العريم صباح اليوم كان صادماً شديد الوقع، ولا تدري كيف سيكون تأثيره على أيوب، فمهما كان الخلاف بينه وبين إخوته ستظل رابطة الدم تجمعهم.

خبر الوفاة كان غامضاً للغاية ولا أحد يعلم كيف حدث، هل هو قضاء وقدر بحادث غير مقصود أم انتحار أم ربما.. بفعل فاعل، انقبض قلب جهاد وهي تفكر "هل يمكن أنه قُتِل؟!" ثم عادت لتفكر بأيوب، إن كان انتحاراً فهل سيشعر بالذنب لموت أخيه؟ حتى اللحظة لا تصدق جهاد كيف فعلها أيوب وحطّم مؤسسة العريم بهذا الشكل! لكنها تثق به وبما يفعله، وذاك الكتّاب الذي ألّفه وهي تدقّقه لأجله وتجهّزه للنشر الورقي قد أمدّها بالكثير من المعلومات البشعة حول غسيل الاموال القذرة وتجارة الشبكة المظلمة حول العالم، توسيع معرفتها حول هذه الأمور جعلها تشعر بالفخر لقوة أيوب كي يفعل ما فعل، إنه يطهّر نفسه وآل العريم جميعاً من المال الحرام.

وضعت يدها على بطنها وعيناها تدمعان بتأثر "والدك لن يطعمك من حرام أبداً "ترتعش بقوة وهي تكلّم طفلها للمرة الأولى! وأن يكون أول الكلام عن أبيه، ثم هطلت دمعة على خدها وهي تضيف "آسفة لوفاة عمّك يا صغيري، لكني قلقة على أبيك، لا أريده أن يشعر بالذنب، ترا ماذا يفعل الآن؟»

***

**بعد أسبوع، مساء، شقة آدم**

فتح آدم الباب لأخيه هارون كي يدخل بينما حارسه الشخصي جبل يتمتم "أنا سأقف عند باب الشقة سيد هارون "اكتفى هارون بهزة من رأسه بينما يتقدم للداخل وآدم يغلق الباب.

بدا متجهماً منهكاً شاحب الوجه وكأنه ما يزال مريضاً، جلس على أقرب أريكة والتزم الصمت وهو يحدق أمامه في نقطة وهمية، جلس آدم قريباً منه وهو يسأل "ماذا أرادت المنظمة منك؟ "رد هارون دون أن يبعد نظراته عن تلك النقطة الوهمية "يريدون رأس أيوب ولا يصلون إليه، إنهم يشعرون بالغيظ لأن هناك من يحميه ويمنعهم عنه، حاولوا معرفة أي معلومات مني نظير مساعدة في بناء هيكل (عريم) جديد "ثم تشوّه وجه هارون بغضب

خاص مضيفاً "الأنذال يهدّدوننا ضمنياً إن علمنا شيئاً ولم نخبرهم "قال آدم بخفوت "أخفض صوتك، جيلان هنا "التفت هارون عندها وسأل "أما تزال مصرة على البقاء في شقتك؟ "رد آدم بجمود "أجل، إنها ترتب أغراضها وأغراض الولدين مع الخادمة، ستعيش في شقتي حتى أعود، رغم أني أنا نفسي لا أعلم هل سأعود! "صمت هارون وهو يرخي نظراته فيقول آدم بنبرة لم يسمعها هارون من قبل "الحمل بات ثقيلاً عليك لكنك أكثر أبناء العريم قدرة على حمله "عندها رفع هارون نظراته ليقولها صريحة "كنتُ أريدك معي يا آدم»

نظرا في عيني بعض، منذ وفاة قابيل وكلاهما في حالة عصيبة لا يمكن تفسيرها، هارون لم ينطق بحرف حول ما جرى، بل أدّى واجب الدفن والعزاء وحاول بكل جهده منع نشر خبر (انتحار قابيل العريم) حماية لولديه يوسف وسيف، أمّا آدم فقد أظهر صدمة من نوع آخر؛ فيقرّر دون تردد أنه سيسافر! وبالفعل أتمّ كل الترتيبات وفي فجر الغد موعد السفر.

قال آدم فجأة "أنا لن أنفعك ببقائي يا هارون، لأني إنْ بقيت أكثر فسيكون مصيري كقابيل في النهاية "وكأنّ آدم باغت نفسه كما باغت هارون بهذا الاعتراف، فوضع نفسه أمام الأمر الواقع الذي يخفيه داخله منذ سنوات طويلة.

ارتفع حاجبا هارون وهو يقول بذهول حقيقي "أ لهذه الدرجة؟! "ابتلع آدم ريقه وهو يقول بخفوت "وأكثر مما نتصور "فاستعاد هارون بعض حسِّ الفكاهة الساخر وهو يقول "ظننتُ أني الوحيد بينكم بميول انتحارية! من أي علّة نشكو؟! "كانت المرة الأولى التي يتحدثان فيها عن قابيل وما جرى له، فقال آدم وهو يعود لجموده "قابيل لم يحتمل إصابته بذاك المرض، نستطيع أن نمثّل أمام الناس القوة والكمال ما دامت العلّة غير ظاهرة لأعينهم، لكن متى ما انكشفت، نتحطم! "تمتم هارون بغرابة "المشكلة أن قابيل أجبن من أن يقتل نفسه، لا أعرف كيف فعلها! "وقف آدم على قدميه وقد بدا متوتراً وهو يقول "الشيطان يمنح الشجاعة الكافية احياناً "

عينا هارون تتابعان آدم وهو يتقدم ناحية النافذة الكبيرة المطلة على الشارع، ليقف هارون ويتقدم من أخيه الأصغر حتى وقف جواره ويسأله بجدية "ألن تخبرني ممّ تشكو؟ "تمتم آدم وتوتره يرتفع "بعض الأسرار لا تحتمل المشاركة يا هارون، فقط دعني أحاول، لعلّي أنجو "دسّ هارون كفيه في جيبي سرواله ثم أخذ يحدق عبر النافذة ليطرح سؤالاً يقض مضجعه "أ تظن أن أيوب سيفلت منهم؟ "تمتم آدم "لا أدري»

«حقائبك جاهزة يا آدم، الخادمة رتّبت لك الباقي»

التفت كلاهما ناحية جيلان، كانت واقفة وسط غرفة المعيشة بملابس حداد فاخرة وشعرها الأشقر مرفوع بأناقة، رغم محاولتها إظهار الجمود والثبات بوقفتها لكن تلك الرعشة في أطراف أناملها تكشف اهتزازها الداخلي، الشرود المنفلت في عينيها يبدّد النظرة الجليدية التي تتخفّى خلفها، إنها تبحث عن أرض ثابتة آمنة لها ولولديها.

تمتم آدم بالشكر بينما تقترب جيلان بصمت فألقت سلاماً لهارون قبل أن تحتضن آدم فجأة وبتشبث غريب، ثم همست "كلنا ندفع ثمن اختيارنا أليس كذلك؟ "حاوطها آدم بذراعيه وهو يوصيها "كوني قوية لأجل الولدين "يرتجف صوت جيلان وهي تقول بحشرجة "لم تحبهما كما أحببت فاني "تجمد جسد آدم بينما هارون يراقب بصمت ما آل إليه حالهم جميعاً.

التفت هارون ليعاود التحديق عبر النافذة بينما جيلان تحاول التخفيف عن آدم هامسة "أنا آسفة لذكرها الآن، لا أريد أن أؤلمك "اكتفى آدم بالقول "شقتي لك أنت والولدين حتى تقرّري المكان الأنسب لإقامتك "ابتعدت عن آدم وهي تلقي بجملة طائفة في الهواء "قصر العريم سيُباع "نظر إليها هارون قبل أن يسأل "أما تزالين تفكرين بالقصر؟ "

تذكرت جيلان تفاصيل آخر ساعة قضتها هناك؛ في قصر العريم، كانت ختاماً لأسابيع عصيبة قضتها هناك بمفردها مع قابيل، حتى آخر يوم عندما رأت جيلان المسدس في يده، وعندما حاولت أخذه منه جنّ جنونه فطردها وهو يصرخ ويشوّح بالمسدس (ارحلي.. اخرجي.. غادري.. لا أريدك ولا أريد ولديك.. لا أريدكم جميعاً!)، رجفة مرّت بجسد جيلان وهي تتخيل نفسها هي وولديها جثثاً هامدة وقد أفرغ قابيل رصاص مسدسه فيهم!

وجدت نفسها تقول فجأة "أخي في اسبانيا عرض عليّ فكرة العيش هناك "عقد هارون حاجبيه وهو يسأل "لم تخبريني بهذا "التفتت إليه وقالت بإصرار "أنا لن أغير رأيي يا هارون، سأبقى هنا أدعمكما، ولداي مكانهما مع العريم "نظر آدم للحظة نحو هارون قبل أن يقول برفق "لا نريدك أن تعيشي في الأوهام يا جيلان، لم يعد للعريم ثقلاً ولن تقوم لهم قائمة مرة أخرى "لكن جيلان ظلت مصرّة بالقول وهي تنقل نظراتها بينهما "ستبنيانه انتما من جديد، أنا واثقة "عندها قال هارون "أنتِ لا تذكرين أيوب "لتدهشه جيلان بالقول "أيوب لن يعود، حتى لو بقي حياً "كلاهما ينظر إليها فأضافت قبل تنسحب "لا تنظرا إليّ هكذا، أنا اسمع وأرى "ثم أخذتها خطواتها الأنيقة بعيداً عنهما وكلاهما غارق في أفكاره الخاصة.

***

## مكتب المحامي (توفيق الأعرج)

في العتمة وقد اختار توفيق إطفاء كل المصابيح؛ يجلس على كرسيه خلف طاولة مكتبه، يرخي رأسه للخلف لكن دون أن يرخي أجفانه، عيناه مفتوحتان على وسعهما يحدّق في الظلمة، صورة قابيل العريم لم تفارقه منذ أسبوع، وإن غابت لدقائق عنه يستعيدها هو بنفسه!

**(مرحباً إيّها المحامي الفذّ! تعال واشهد لحظة انهزامي!)**
كان هذا تهليل قابيل له قبل أن يدخل القاعة ويغلق الباب خلفه، ظل قابيل يعربد ويشوّح يهلّل بالمزيد "ما الذي أتى بك يا محامي الداهية؟! "

وقف توفيق على مقربة من قابيل على جانبه الأيسر، لا يخيفه حمل قابيل المخمور للسلاح في يده، بل نظر إليه ببرود وهو يكتفي بالقول "سمعتُ أنك مريض "عندها رأى توفيق التحطّم الكامل في عيني قابيل وهو يتمتم "مريض وجبان! لو كنت أملك الشجاعة لأنهيت حياتي اللحظة "ثم أرخى يده اليسرى التي تحمل زجاجة الخمر ليسندها إلى فخذه بينما يحدّق بما تحمله اليمنى ليقرب المسدس من فمه هامساً "هذا المسدس في يدي منذ الأمس، أرعبت جيلان فحاولت أخذه لكني طردتها هي وولديها! "ثم رفع قابيل المسدس ليدسّ فوهته في فمه فيهتز

جسده بقوة وهو يغمض عينيها ويستمر بالهذر كأنه يكلّم نفسه "إنه جاهز للإطلاق! وقد حاولت أكثر من مرة ولم أستطع! ماذا يتطلب لأضغط على الزناد؟! "

لو فتح قابيل عينيه تلك اللحظة لرأى في عيني توفيق كُرهاً لم يره في عيني أحد! وقبل أن ينال قابيل الفرصة في الحياة كي يرى ذاك الكره، كان توفيق قد اقترب في حركة خاطفة لم يشعر بها قابيل ودون تردد انحنى هامساً بغلّ كردٍ على السؤال "أن تحرك السبابة هكذا "ومع الهمسة كان أصبع توفيق فوق أصبع قابيل على الزناد ليضغط الضغطة المطلوبة!

بعدها.. غريزة توفيق قادت خطواته ليبتعد مع سقوط زجاجة الخمر وتحطمها، وقد كانت له اللحظات الكافية ليقف على الجهة المقابلة لطاولة المكتب يحدّق في جثة قابيل ولا يملك إلّا أن يشعر بالصدمة! وعند دخول الحارس بدت صدمته طبيعية للغاية وإن كانت لأسباب مختلفة.

وسط عتمة مكتبه يفكر توفيق؛ هل الأقدار قادته ذاك اليوم تحديداً وجهّزت له كل الأدوات وهيأت كل الظروف ليفعل فعلته؟ لقد ظل لأسابيع ينتظر انتقام أيوب من أخيه، لكن لم يحصل شيء! حتى بات توفيق لا ينام وشبح سارة يطارده ويعذبه، يغلي بالغضب ولا

يحتمله، حتى عندما علم بمرض قابيل وهجر إخوته له وخسارته لكل شيء؛ فهذا كلُّه لم يشفِ غليله، ذاك الصباح طلب من السائق الذهاب به إلى قصر العريم لعلّه يجد في رؤيته لقابيل مُحطماً؛ شفاء وراحة نفس أنه نال جزاءه، لكن كل شيء حصل خلال دقائق! وكأن قابيل كان بانتظاره، بل واستعد بكل شيء فقط منحه الخطوة الأخيرة ليخطوها معه، كل شيء كان في مكانه بالضبط وبانتظاره! أجل.. لقد كانت أقدار الله ليكون توفيق هو اليد التي تأخذ بثأر سارة وطفلتها.

ما تزال عينا توفيق مفتوحتين وإيمانه بالقدر ودوره فيه يترسّخ في رأسه ليقول بخفوت كأنه يكلّم جثة قابيل أمامه "هذا حقُّ سارة وحقُّ حياتها البريئة التي أهدرتها، أيوب عجز عن فعلها واكتفى بقتلك حيّاً حين سلبك هيلمان العريم، لكن أنا لم يكن يرضيني إلّا سلبك حياتك!»

***

**مرّ أسبوعان آخران، مساء**

في زاوية مخفية كانت سارة تصارع نفسها قبل أن تصارع حمزة! لا تصدق أنها تفعل هذا معه على بعد بضعة أمتار من باب شقة أبيها، تتأوه لقبلاته وتغرق في حضنه، منذ أسبوعين وحمزة يتحيّن كل فرصة لينفرد بها هكذا في

أي زاوية لينال منها ما يشتهيه من القبلات والأحضان، لم تعد تجيد الهروب منه والأكثر لم تعد تريد الهروب! تشعر بالخجل الشديد من خفقان قلبها المتلهف كلما أحسّت به سيسرق لحظات عاطفية بينهما بعيداً عن الأنظار.

علاقتهما تغيّرت كثيراً منذ القبلة الأولى بينهما، هو نفسه تغيّر معها فبات أكثر رقة وحنوّاً في تعامله وأكثر ثباتاً وثقة في إفصاحه عن مشاعره! خلال ساعات العمل في النهار كلما تحركت في المكتبة أو خارجها كانا يتبادلان النظرات، نظراته شغوفة تفيض بالسعادة والشوق، وتكاد تجزم أن نظراتها تفضح مشاعرها التي تتضخم نحوه.

سمعت صوتاً وحركة من الأسفل فسارعت لتبعد فمها وهي تهمس بقلق وارتجاف "هناك صوت، توقف أرجوك "يغمر وجهه في عنقها ويضم جسدها إليه بقوة وهو يهمس "لا أحد سيأتي الآن إليكم، ابقي أكثر هكذا "تشعر بنبض قلبه الخافق يرج قلبها بينما ترد بهمس مرتبك "ربما جدتي ستفتح الباب، لقد تأخرتُ بالعودة، لقد باتت تشتكي مني لكثرة بقائي معك "يزفر أنفاسه وهو يقول "لكن أمي معنا على الدوام فلماذا كل هذا القلق منها؟! أنتِ زوجتي وعرسنا بعد عشرة أيام "

فجأة انقبض قلبها فصمتت ولم ترد، استغرب حمزة منها فأبعدها قليلاً عنه لينظر إلى وجهها ببعض القلق وتساءل

“هل يضايقك اقتراب موعد العرس؟ “سارعت سارة لتنفي “لا.. مؤكد لا، لكن.. “صمتت وهي تنظر في عينيه ولم تستطع الافصاح فعبس حمزة وهو يسأل “لكن ماذا؟ هل أنت قلقة لأنك ستتركين جهاد؟ “فاكتفت سارة بأن هزّت رأسها بـ (نعم)، فعقد حمزة حاجبيه كما يفعل عندما يتكلم بجدية ثم قال بخشونة “نحن لن نتركها أبداً، لا تفكري أني سأتخلى عنها وأنساها»

لم تعرف بم ترد عليه، ملأ قلبها حبّاً فيه وهو يقولها بأسلوبه الخشن كأن الأمر يمسّ كرامته، احمرت وهي تفكر بكلمة (الحب) التي ملأت قلبها اللحظة دون أن تفكر فيها، تنظر إلى حمزة ولا تصدق مشاعرها القوية نحوه، لكن ليتها تستطيع إخباره بكل شيء عن جهاد، رغم ثقتها الكاملة به لكنها لا تستطيع، تشعر وكأنها تخون ثقة شقيقتها.

الأيام الأخيرة زادت حالة جهاد انغلاقاً، اصبحت غريبة، متوترة وشاردة! حتى أنّ الجدة لم تعد تحاسب سارة كثيراً على ذهابها مع حمزة لتناول الطعام مع أمه، الجدة تشعر بذات القلق الذي تشعر به سارة، هناك أمور تخفيها جهاد وتجعلها تمضي معظم الوقت في غرفتها مع الحاسوب.

لم تعد تتكلم أو حتى تشاكس، ربما فقط مع حمزة تنفتح

قليلاً وكأنه وسيلة الإلهاء الوحيدة لها ومتنفسها، لا تدري سارة لماذا باتت جهاد بعيدة عنها هكذا؟!

ليلة الأمس كانت تحلم بكابوس فاستيقظت سارة على صوت جهاد وهي تنادي اسم (أيوب) باختناق! أيقظتها من ذاك الكابوس لكن جهاد رفضت الكلام وعادت للنوم! لقد باتت سارة واثقة أن هناك الكثير بين جهاد وأيوب وهي لا تعرفه.

« أين سرحتِ سارة؟»

تنبّهت على صوت حمزة وهو يسألها وقبل أن ترد سمع كلاهما صوت خطوات أحدهم تصعد السلم! ابتعدا عن بعض وتحرك حمزة ليسبقها فيرى من القادم في هذه الساعة، كانت سارة في إثر حمزة وتسمعه يسأل الرجل القادم عندما تحركت لترى بفضول من الزائر، تفاجأت برجل غريب لم تره من قبل وهو يصعد الدرجات ويرد على حمزة بالقول "أنا هنا لأجل جهاد، هل أستطيع أن أكلمها على انفراد رجاء؟»

توجست سارة منه وانقباض شديد في قلبها يكاد يخنقها، نظرت إليه بتمعن وهي تشعر أنها تشبّه عليه، كان مألوفاً بطريقة ما، وعندما أمعنت النظر لثيابه الفاخرة الداكنة قدحت شعلة في رأسها، ليقولها الرجل بتعابير جامدة وهو

يعرّف عن اسمه "أنا هارون العريم، أخو أيوب»

***

## في غرفة الضيوف

لمحت جهاد خيال هارون يقف حالما دخلت وأغلقت باب غرفة الضيوف خلفها، لم تنظر ناحية عائلتها ووجوههم القلقة خارج الغرفة قبل أن تغلق الباب، لقد رفضت بشكل تام أن يحضر أيّاً منهم هذه المقابلة، وقد كان ما أرادت، رغم إلحاح حمزة الشديد لكنه انصاع لإصرارها.

ظلت للحظات عند الباب تولّي هارون ظهرها، ولم تلتفت إليه قبل أن تجد القوة الكافية لتفعل، والغريب أنّ هارون لم يقل كلمة أيضا وأنتظرها حتى تجد تلك القوة، وهذا أرعبها أكثر.

تواجها.. فقرأت وجهه، للمرة الأولى تقرأ وجه إنسان بهذا الوضوح، وللمرة الأولى رفضت ما تقرأه، أطرقت وجسدها أخذ يرتجف بقوة فشابكت أصابع كفيها ببعض لتوقف الارتجاف، ثم تسلّل إليها من الذاكرة صوت أيوب فينساب في أذنها كأنها تسمعه اللحظة (أنا أعتمد على شجاعتك)، فوجدت فيه (عكازاً) تتكئ عليه، تصلب قامتها

وترفع وجهها لتواجه المقروء وغير المقروء.

دون سلام ولا تحية، لا منها ولا منه، سألته "ماذا حصل لأيوب يا هارون؟! "ألم حاد سطع في عينيه فكان كسهمٍ قاتل أطلقه ليصيب به قلبها! ثم قالها دفعة واحدة وبحشرجة غلبت غرور وكبرياء آل عريم اللذين يجريان في عروقه "أيوب قُتل يا جهاد، مات في حادث سيارة في المكسيك»

كفاها تراخيا فانحلّ تشابك أصابعها وهي تحدّق في هارون تنتظر المزيد كي ينقذها! لكن.. لم يكن هناك (المزيد)! أيوب العريم؛ زوجها ووالد طفلها قد مات!

صوته الساخر الضاحك وهو يناديها (نملاوي) كان آخر ما استوعبته قبل أن تمايل لتفقد الوعي.

***

# الختام
# دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ

**ومرت ثلاثة أشهر..**

**وسط حديقة عامة**

تحت ظل شجرة كبيرة تقف جهاد ويدها فوق بطنها المنتفخ، أناملها تربّت هناك بملل ظاهري بينما نتابع شوطاً جديداً من النقار الدائر بين سارة وحمزة، سرحت للحظة تفكر أنّ الصيف بات في آخره ورياح الخريف سبّاقة للحضور فتهبّ خفيفاً لتتلاعب بأطراف ثوب الحمل الأزرق الذي ترتديه، عادت لسلسلة النقار التي نتابعها منذ أسابيع لترفع كفها وهي تقول بحزم "كفى! أوجعتما رأسي ورأس طفلي! "التفت كلاهما إليها بوجهين عابسين لتنفجر جهاد ضاحكة وهي تقول "اقسم بالله تبدوان اللحظة كما كنتما طفلين! لا أصدق كيف أنّ عرسكما بعد أربعة أيام!»

هتفت سارة "هذه هي المشكلة؛ عرسنا بعد أربعة أيام! وأنا أريد تأجيله "أطلق حمزة صوتاً مزمجراً وقبل أن يتكلم قالت جهاد بهدوء "وأنا لا أريد تأجيله يا سارة، ليس

لمرة ثالثة! "

نظر كلاهما نحوها، حمزة بدا متردداً للكلام بينما سارة تقترب من توأمتها لتقول بتأثر "أنت تحتاجين إليّ، تحتاجين رعايتي، أن أدفعك كل يوم لتغادري السرير "بتهكم هادئ ردت جهاد "لديّ أم حنون ترعاني وجدّة حازمة ترهبني إن أطلت النوم، فشكراً لمجهودك العاطفي المبالغ فيه، لكني لا أحتاجه، وفّريه للمسكين ميزو "لم تأبه سارة وهي تواجهها بالقول "جهاد أنتِ لستِ بخير، وأنتِ تعرفين هذا»

تلقائياً أمسكت سارة بيد جهاد في تواصل وجهاد لم تمانع، لم يعد هناك ما تخفيه عنها؛ بل عنهم جميعاً، لقد علم الجميع بكل أسرارها مع أيوب، أو على الأقل معظمها، والجميع الذين تقصدهم هم عائلتها وأهل الحي، ممّن لم تكن يوماً أخبار مشاهير الاقتصاد والحوادث المدبّرة لكبار عوائل البلد تهمهم في شيء.

كانت تلك الليلة بحضور هارون كتابٍ انفتح على مصراعيه، انكشفت شخصية أيوب الحقيقية ككبير آل العريم والحادث الذي تعرض له وخبر مقتله في ظروف غامضة، وانكشف الأهم؛ أنّ جهاد حامل! فما إن وقعت مغشياً عليها ليتلقفها هارون حتى نقلوها إلى غرفتها واستدعوا الطبيب ليعلن لهم الخبر بعد فحصها.

شهر كامل ظلت لا تتكلم، لم تجد ما تقوله حتى من الداخل، حالة خرس أصابتها فزهدت في المشاعر وزهدت في التعبير، لم تشارك جهاد في عزاء أقامته الجدة واعتكفت في الغرفة بذاك الخرس وسارة تنام معها على نفس السرير لا تفارقها.

ثم مرّ شهر آخر لتجد جهاد القوة في بعثرة بعض الكلمات هنا أو هناك، لكن لم يجرؤ أحد على فتح حوارات معها حول أيوب، الكل أخرسته الأحداث التي حصلت، فباتت النسوة في بيت الحاج كرم يعشْنَ حالة ذهول من كل ما جرى، حتى حمزة لم يجد ما يقوله وهو يزورهم كل يوم.

أما الشهر الثالث فكان بداية أخرى عندما انهارت جهاد في البكاء فجأة! حاولت سارة والجدة وأمها تهدئتها لكن انهيارها كان عظيماً فالحدث كان أعظم؛ لقد كانت المرة الأولى التي تشعر بحركة طفلها في رحمها، إنها حركة الحياة في جزء منها فأحيتها كلّها من جديد.

ولم تُحييها هي فقط، بل أحيت الجميع حولها وإن كان ببطء، عاد صوت ماكينة الخياطة لجدتها وصوت أمها وهي تكلّم نساء الحي بطيبة، صوت سارة وحمزة ونقارهما، لقد كان الأمر أشبه بالعودة من الموت، لكن وسط

هذه العودة ظلّ هناك مكاناً موحشاً لا يأنس إلّا بصاحبه الغائب؛ أيوب.

هارون زارها مرتين بعد زيارته الأولى، كان يطلب منها التوقيع على أوراق لم تكن تقرأها، تكلّم عن حقوق طفلها فاكتفت أن تمنحه حرية التصرف دون أن يعود إليها، هارون كان يعرف! يعرف ما لا يعرفه أهلها حتى اللحظة.

أغمضت جهاد عينيها وباحت لسارة بذاك السر "أيوب ردّني لعصمته بعد أسابيع قليلة من الطلاق "شعرت بيد سارة تشدُّ على يدها وهي تتمتم "رباه! تقولين ردّك؟ "هزّت جهاد رأسها بـ (نعم) ثم قالت "لقد اتصل بي سرّاً وردّني، ولم يكن كلانا يعرف وقتها أنني حامل بطفله "تمتمت سارة "رحمه الله "عندها نفضت جهاد يدها من يد توأمتها بقوة وهي تقول بعنف "أريد العودة للبيت، لقد تعبت»

تبادلت سارة النظر مع حمزة فأشار لها أن تصمت ولا تجادل، تحركت جهاد وهي تمشي على مهل ومن حولها سارة وحمزة، دام الصمت لدقائق قبل أن يقول حمزة بتصميم "العرس بعد أربعة أيام، لن نغيّر هذه المرة "فأكدت جهاد كي لا تعطي فرصة لسارة "نعم، بعد أربعة أيام إن شاء الله»

***

## يوم عرس سارة وحمزة، آخر الليل

ضجة من خلف باب غرفة العروسين اللذين دخلا قبل ربع ساعة! ليعلو صوت سارة اللاهث وهي تصرخ في حمزة "ابتعد.. آآ.. ابتعد.. لا أريد!»

فتحت باب الغرفة وسط الشقة الخالية وقد تركتها لهما والدة حمزة لتبيت ليلتها عند إحدى بناتها، بتبرجها الذي فسد ترفع سارة طارفي الفستان وقد خربت تسريحة شعرها أيضا وأفلتت خصل كثيرة تنتثر على جانبيّ خديها وطرحة العروس تميل للجانب الأيسر بشكل مضحك!

يلحق بها حمزة وقد كان نصف عارٍ! بسروال بدلة العريس لا غير، يلهث خلفها منادياً بتوسل حانق وفمه ملطخ بأحمر شفاهها "سوسي أين تذهبين؟! بالله عليك لا تفسدي الليلة»

وصلت سارة الى غرفة المعيشة ودون إبطاء تهبط للأرض لتطوي ساقيها متربعة تحت الفستان الأبيض في عناد ومقاومة بينما يصل إليها حمزة ليتنهد وهو يقف قبالتها مشرفاً فوقها ثم يتخصر قائلاً "كيف سنحلُّ هذه المعضلة؟! "دون أن ترفع وجهها إليه هتفت "أن تذهب وتنام في غرفة أمك يا مُغتصب! "هتف ثائراً "مُغتصب؟!

هل تشكين من علّة ما؟! أنا زوجك وهذه ليلة عرسي "لم ترد عليه فسحق أسنانه ببعض وهو يميل بجسده ويمدّ ذراعيه ليمسك بأعلى ذراعيها يحاول رفعها عن الأرض قائلاً بغضب طفولي "قومي قلت لك! "بشكل عجيب لا يستجيب جسدها للرفع وهي ترخيه بالكامل لتجعل مركز ثقله للأرض! تحدّته وهي ما زالت لا تنظر إليه "ارفعني إن استطعت! لن تتغلب عليّ في هذه الحيلة، إنها سلاحنا السريّ أنا وجهاد ضد الاعداء! "يلهث حمزة وهو يحاول مجدداً دون أن يؤذيها لكنها كانت كهلام ليس له قوام ولا يتماسك! لم يستطع رفعها وهي متثاقلة للأرض هكذا، لتحبطه أكثر وهي تقول بانتصار "لا تحاول! جدتي عجزت عن رفعنا أنا وجهاد عندما كنا أطفالاً"

تركها متنهداً بمزيد من الإحباط لتعود هي إلى جلستها الأولى متربعة على الأرض، وباستسلام فعل المثل ليجلس متربعاً قبالتها، مدّ يده يلامس ركبتها فوق الفستان فتدفع كفه بعنف! سألها بغضب "فقط ماذا هناك؟! "أخيراً رفعت وجهها إليه لتقول بغضب مماثل "ماذا هناك؟! أنظر إليّ وأنت تعرف ماذا هناك! "يعترف أنه شعر بالذنب وهو يري كيف تلطّخ وجهها بكل ألوان تبرجها! وتسريحة شعرها الحلوة قد ولّت وأصبحت في خبر كان! حسن يعترف أنه كان (ثوراً) ولم ينتظر ما يكفي، ابتلع ريقه وهو يحاول تذكيرها بعلاقتهما العاطفية "ماذا كنا نفعل طوال الأشهر الماضية؟ "تغرق بالخجل وهي تتذكر قبلاتهما

الحميمية، لكن ما يطلبه الليلة وبهذه الطريقة مؤكد شيء مختلف، آثرت إظهار العناد والبرود وهي ترد عليه بنفس كلمات سؤاله "ماذا كنّا نفعل طوال الأشهر الماضية؟! "هتف "توقفي عن تكرار الجمل خلفي! "اغرورقت عيناها بالدموع فذاب قلبه ليميل إليها يخطف قبلة سريعة من خدها وهو يقول بحنان وكلمات لا تخلو من أسلوبه المباشر "ألم نتقارب كثيراً؟ كنت أحضّرك لهذه الليلة "مسحت خدها عند موضع قبلته كطفلة ترفض تلك القبلة بينما ترد عليه بنفس العناد "لا.. سنستمر بما كنّا عليه وانتهينا! "عاد ليصرخ فيها "هل انت غبية أم غبية؟! "لترد على صراخه بصراخ "احترم نفسك يا حمزة! "يعاود الصراخ بالقول "الليلة ليست للاحترام؛ الليلة ليلة الدخول وأنا صبرت بما يكفي لأشهر، لكن يبدو أني دلّلتك كثيراً سوسي! «

النطق باسم التدليل وهو يصرخ هكذا جعلها دون شعورها تنفجر بالضحك، فاهتاج (الثور) ليميل إليها ويأخذها بحضنه يأسرها بين ذراعيه يقبلها بلهفة عنيفة، ظلت تقاوم ودموعها تنزل، تخفّف قليلاً وهو يشعر بدموعها، أبعد شفتيه عن شفتيها لينظر في عينيها عن قرب وهمس "فقط لا تفكري بأي شيء يخيفك، دعينا نبدأ من جديد، أنا اقبلك وأضمك إليّ فحسب، ها؟ ماذا قلتِ؟ هكذا فقط "

يقبّل خديها ورقبتها بينما أنفاسها ترتجف وجسدها متقلص ودموعها تنسكب دون سبب! يواصل تقبيلها بصبر وهو يتكلم "تخيّلي أننا نقف في ذاك الركن المظلم عند باب شقتكم، أقصد جالسين على الأرض، لا يهم، المهم فقط أغمضي عينيك وركزي بالتخيل بالله عليك! لا تضيعي الليلة وإلّا سوف.. "توقف عن الكلام ومشاعره تتفاعل بقوة عندما شعر بها تستجيب شيئاً فشيئاً، يتمتم "يا الله.. سهّل الأمر يا رب ودعها ترضى، ألا يكفي عذاب السنين معها؟! "

كان يكلّم نفسه ويدعو بصوت مسموع دون أن يشعر، ودون أن يخطّط أثّر في قلبها أن يقول هذا، تذكّرته في كل مراحل حياتها يدور حولها، طفلاً وصبياً، مراهقاً ثم شاباً، ولا يلين قلب الانثى إلّا شعورها بألم من تحب، خاصة عندما يتألم لأجلها، تعلّقت بكتفيه وهي لا تفكر بما سيجري، فقط تتخيل المشهد كما وصفه هو، يقبّلان بعض في ركن مظلم، لم تشعر متى وقف بها ليرفعها معه، كانت كخرقة يحملها واقفة! يتحرك بها عائداً للغرفة، وهي ما تزال تتشبث بالصورة المُتخيلة تأبى إفلاتها كي لا تصاب بنوبة هلع جديدة.

بعدها جرى كل شيء بسلاسة غريبة، كيف استسلمت لهذا الثور المُغتصب؟ لا تدري!

***

**بعد عرس (حمزة وسارة) بأسبوعين، المكتبة، قرابة العصر**

الحياة تمضي قُدماً، أهل الحي انشغلوا عنها وعن حكايتها العجيبة، ربما يتحاكون أحياناً حول قصتها مع زوجين طلّقاها، وبمرور الوقت تفقد القصة بريقها الخاطف أكثر، لكن مؤكد ستظل وصمة لا تُمحى كسجل قيد الولادة الذي لا يتغير.

أخذت جهاد تمرّر قطعة القماش النظيفة فوق الرفوف لتنفض عنها أي آثار للأتربة، تبتسم تلقائياً وهي تفكر بحمزة وسارة، لن يتغيرا أبداً، سيظلّان في حالة نقار وعناد، لكنهما من الداخل لا يطيقان الابتعاد عن بعض! قبل يومين رفضت سارة كل محاولات الجدة لتبيت ليلة معهن، وحمزة أمسك بكفِّ (سوسي) وهو عابس يخشى أن تستطيع الجدة إقناعها، وفي اليوم التالي قرّر (الثور) أخذ سارة والسفر بها الى مدينة سياحية بعيداً عن العاصمة هرباً من الجدة ياقوت.

رفعت جهاد أحد الكتب عن الاقتصاد والسياسة؛ خنقتها العبرة وقتلها الشوق، أي كتاب يتعلق بهذه المواضيع تشعر به يخصّ أيوب بطريقة ما، ضمّت الكتاب

إلى صدرها للحظات وهي تتمتم "سارة سعيدة جدا يا أيوب، الميكانيكي خطف قلبها، كما توقّعتُ لهما بالضبط»

وبينما هي تقف هكذا تولي ظهرها لباب المكتبة المفتوح، أتاها صوت العم عبد الصادق وهو يلقي السلام، أعادت الكتّاب مكانه وتمالكت نفسها لترسم ابتسامة ثم تستدير إليه ترد السلام، ناظرها العم عبد الصادق ببعض القلق على صحتها وصحة طفلها ليقول وهو يقترب "هل تحتاجين لمساعدة في المكتبة يا ابنتي؟ إن أحببتِ أرسل لك نعمان "ردت بمحبة وهي تعاود تنفيض الكتب والرفوف "لا تقلق عماه، أنا أتدبّر أمري حتى عودة سارة "عينا عبد الصادق حادتا نحو سلم صغير من بضع درجات فأصابه هلع وهي يقول برجاء "لا تحملي ثقيلاً ولا تصعدي درجاً بالله عليكِ "تبتسم وهي تربت بيدها على بطنها قائلة "بهذه البطن مؤكد لن أفعل "تنهّد العم عبد الصادق وهو يتساءل "متى ستعود سارة من سفرها؟» فردت "الأسبوع مقبل، لن يمكثا أكثر»

ظل ينظر إليها وبدى في عينيه الكثير ليقوله! سألته باهتمام "هل هناك شيء عمّاه؟ "هزَّ رأسه بنعم ثم قال بشعور ذنب كبير "منذ طلاقك.. أقصد طلاقك من السيد، لم أجد الوقت المناسب كي أعتذر منك "أشفقت عليه جهاد وهي تقول "ولماذا تعتذر؟! أنت وقفت بجانبي دوماً "فوضّح العم عبد الصادق بالقول وهو يبدو مستاءً من

نفسه "لكنّي استسلمت لخوفي من فضيحة تمسّك وتمسُّ أهلك فدفعتُك لتتزوجي من رجل لم أتأكد منه كفاية، وبعد ما انكشف من حقيقته، أشعر أني خذلتك وخذلت أباك في قبره، ليتني استمعت إلى هلال يومها!»

كان مستاءً بالفعل ويعتصر قبضتيه بينما تنظر إليه جهاد بعينين صافيتين، شعرت أنها أخيراً تستطيع الكلام عن أيوب، أنها تستطيع قولها للجميع وليس سارة وحمزة فقط، وبدءاً من اليوم لن تدع أحد يسيء الظن والحكم على أيوب أكثر من هذا، إنها قوية كفاية اليوم كي تعلنها دون أن يقتلها الألم.

يدها ما تزال فوق بطنها وهي تبتلع ريقها لتنطق بالحقيقة قائلة "أيوب رجل جيد عمّاه، بغضِّ النظر عن ماضيه، وقد كان ممتناً لنا جميعاً لأننا ساعدناه في مرحلة صعبة للغاية من حياته، وكان سيبقى هنا في حي الخاتون لو لم يجدوه ويعرفوا مكانه "بدا العم عبد الصادق محتاراً ومشوشاً بعض الشيء وهو يسأل بانفعال "لكن من هم بالضبط؟! ألم يعرف إخوته أي شيء؟ "تهز جهاد رأسها نفياً وهي تقول المزيد لكن بحذر "أنا لا أعرف إلّا القليل واعتمد على تخميناتي، إنهم أقرب لمافيا عالمية، كانوا يعرفونه من الماضي عندما كان كبير آل عريم، ظلوا يبحثون عنه وعندما وجدوه هنا أخذوا بالضغط عليه ليكون شريكاً لهم في صفقات مشبوهة "صمتت قليلاً قبل أن تضيف

بحشرجة تغلبت عليها "لقد طلّقني ليحميني، لم يكن يريد لي مصيراً كمصير زوجته الأولى وابنته الصغيرة رحمهما الله، أراد حمايتي وحماية أهلي، لقد كنا في خطر ما دمنا نشكّل أهمية له»

ضرب الحاج عبد الصادق كفّاً بكف وهو يحوقل "لا حول ولا قوة إلّا بالله! "لتجمع جهاد شجاعتها مضيفة "هناك المزيد لأصارحك به ولم يعلمه أحد حتى الآن عدا سارة وحمزة، أخفيته لأني لم أكن مستعدة "أخذت نفساً عميقاً ثم أطلقته بينما صور عديدة من حياتها القصيرة مع أيوب تمر في خيالها، يدها ارتفعت لشعرها القصير تلامسه بينما تكشف الغطاء عن الحقيقة المخفية "أيوب.. ردّني سرّاً فيما بعد، وقبل أن يعلم بحملي، في الواقع أنا نفسي لم أكن أعلم أني حامل ساعتها "جحظت عينا العم عبد الصادق وهو يتمتم مصدوماً "ردّكِ؟! هذا يعني أنك أرمـ.. "قاطعت جهاد جملته وقد احتدت نظراتها تلقائياً لتكمل الجملة عنه باللقب الذي تختاره لنفسها "يعني أني.. زوجته، وسأظل زوجته ما حييت»

ساد الصمت بينهما، يحدّق فيها العم عبد الصادق وقد بدى عاجزاً مشفقاً! يراها ترفض لقب (أرملة) الذي أوشك على نطقه قبل أن تمنعه هي، تنحنح وهو يحاول جمع أفكاره ثم قال "جهاد يا ابنتي.. "قاطعته مُجدداً وهي ترمي قطعة القماش على الأرض "عن إذنك عماه، لقد تعبت،

هلا أغلقتم المكتبة نيابة عني؟ سأعود للبيت «

ثم سارت بخطوات متعجلة وملامح وجهها منحوتة من الصخر، تجاوزته وهو صامت لتغادر المكتبة وتتركه خلفها، تنهّد العم عبد الصادق وهو يقف مكانه وسط المكتبة بينما دخل هلال وهو يتساءل بعجب "ما بها جهاد؟! بدت غريبة للغاية وهي تغادر المكتبة "تنهد عبد الصادق وهو يلوّح بيده ويقول "تعال يا هلال وساعدني بإغلاق المكتبة بينما أكلمك عمّا جرى "تقدم هلال ليرتّبا الأمور في المكتبة بينما يقول عبد الصادق مهموماً "هل تذكر كلامنا قبل يومين وتخميناتك حول سبب حالة جهاد؟ لقد كانت كلها صحيحة! "هتف هلال بحماسة "اذن السيد رحمه الله طلقها لحمايتها؟ "يؤكدها عبد الصادق بحركة من رأسه ثم أخبره بالمفاجأة "ليس هذا وحسب؛ وإنما هو ردّها سرّاً أيضا قبل مقتله بمدة، لقد قالت إنه ردّها قبل أن يعلم أياً منهما أنها حامل "عندها توقف هلال عمّا يفعل ليقول بمزيد من الحماسة والتأثر "لقد كان متمسكاً بها، ألم أقل لك يا صدوق؟! حالة الحزن التي هي فيها ورفضها تصديق موته فيه دلالات واضحة "يضع عبد الصادق يده على خده كمن أصابه سهم الحيرة وقلة الحيلة "ظننتُها مصدومة بسبب الحمل، ظننتُ أنها لا تريد لطفلها أن يولد يتيماً "ثم صمت.. ليصمت هلال للحظات قبل أن يتقدم منه ويرفع يده ويربّت على كتف صاحبه يخفّف عنه بالقول "لا تقلق عليها هكذا، سيأتي يوم وتتقبل الواقع،

ربما هي بانتظار ولادة الطفل لتجد العزاء فيه "تمتم عبد الصادق وهو في قمة الحيرة من حالة جهاد "ربما يا هلال.. ربما!»

***

## بيت الحاج كرم

دخلت جهاد الشقة بنفس التعابير التي غادرت بها المكتبة، ولم يحركها حتى رؤيتها لهارون يجلس في غرفة المعيشة على الأريكة جوار جدتها، وأمها تقدم له القهوة. ألقت السلام وهي تنظر إليهم بينما يقف هارون وهو يضع فنجان القهوة جانباً بعد أن شكر والدتها بأسلوب رقيق! توشك أن تبتسم لتلك الرقّة منه وتتذكر لقاءهما الأول!

تقدّمت نحوه وهي تنظر في عينيه فينبض قلبها بقوة، كم تشبهان عينيّ أيوب! تحاملت على ألم الشوق والوحدة لتسأله "كيف حالك يا هارون؟ "فيرد بابتسامة صغيرة "أنا بخير، كيف حالك أنتِ جهاد؟ "فتمتمت "بخير الحمد لله "لتقول أمها ببشاشة "حموك ينتظرك منذ بعض الوقت "ليعلق هارون تأكيداً بالقول "كنت سآتي إليك في المكتبة، لكن يبدو أن حظي جيد اليوم وقد عدتِ باكراً عن الموعد الذي قالته لي الجدة "

هناك شيء يقلقها.. يوتّرها.. كلما رأت هارون ينتابها، وربما هو توتر الانتظار الذي طال، ابتلعت ريقها وهي تسأل "هل هناك.. شيء؟ "ردّ بابتسامة أوسع "لا تتوتري هكذا! إنها فقط جيلان تدعوك عندها، في دارها الصغيرة بالمزرعة "عندها قالت الجدة بنبرة تحمل (عدم الرضا) "ولماذا لم تتصل هي لتدعوها؟! "فيلتفت إليها هارون قائلاً بنبرة احترام أنيقة "اعتذر يا حاجة ياقوت، أنا من عرضت المجيء إلى هنا لدعوتها وأخذها بنفسي إلى هناك "ثم عاد بنظراته لجهاد مضيفاً "جيلان تطلب منك المبيت عندها أيضاً، هي والولدان يرغبون بقضاء الوقت معك "ذكرى الوجهين الصغيرين ليوسف وسيف جعلت قلب جهاد يذوب حناناً وهي تسأل "كيف هما؟ "رد هارون "بخير.. لكنهما لا يخرجان كثيراً، جيلان ما تزال لا تشعر بالأمان الكافي وتخشى عليهما بعدما حصل.. لأيوب»

نظراته لجهاد كانت تحمل معنى غريباً! كأنه يمعن النظر فيها يبحث عن ردة فعل، صامدة جهاد وهي تبادله النظرة بالنظرة وكأنها هي الأخرى تبحث عن معنى آخر!

فجأة سألت الجدّة "ألم تعثروا على القتلة لينالوا قصاص قتلهم لأخيكم؟ "التفتت جهاد بحدة نحو جدتها هادرة "جدتي "لتقول أمها بحشرجة حزن حقيقي "يا حسرة عليك يا أيوب، كان طيباً "أغمضت جهاد عينيها بقوة بينما ترفع كفيها لتسدّ بهما أذنيها وهي تهتف "كفى!»

مرت دقيقة كاملة والكل صامت، جهاد في قوقعة الرفض والأم تبكي بصمت والجدة تكبت انفعالاً يصيبها بالأذى وهي ترى حفيدتها بهذا الإنكار، هارون يراقب وعيناه تلمعان ببريق الدهشة! فيرخي أجفانه في تفكير.

أخيراً فتحت جهاد عينيها وهي ترخي كفّيها للأسفل لتواجهها الجدة بالإيمان الراسخ "الموت علينا حق يا جهاد، إلى متى ستنكرين موت أيوب؟! أرواحنا أمانات وتُردُ لخالقها، أم تراكِ نسيتِ يا ابنة الحاج كرم؟! "شمخت جهاد بأنفها ودون أن تنظر لأحد قالت "أنا قادمة معك هارون، امنحني فقط عشر دقائق كي أحضّر فيها بعض الحاجيات في حقيبة لقضاء ليلتي عند جيلان»

***

## في الطريق إلى المزرعة

التزمت جهاد الصمت؛ تسرح بنظراتها عبر الشباك إلى الطريق، يدور كلام الجدة ياقوت في رأسها ثم تتذكر وداعها لسارة بالأمس قبل سفرها وحديثهما السرّي بالتلامس بالأيدي والجُمل المتقاطعة فلا يفهم حوارهما أحد غيرهما، لحسن الحظ أن حمزة ليس بالرجل الفضولي، ولا الغيور من علاقتهما الخاصة، وربما لإنه اعتاد على هذه

العلاقة بين التوءم وعايشها معهما منذ الطفولة.

**الكف بالكف، والكتف للكتف، وهمس في أذن جهاد يقابله همس في أذن سارة، همس سارة قلق وهي تقول "جهاد لا تستسلمي للوهم أكثر من هذا وتقبلي الحقيقة "ترتعش جهاد لكن إيمانها ثابت فترد "الوهم يُنسج من هوى النفس، وما أشعره في قلبي هو يقين الحقيقة "في عجب تتساءل سارة "أ تؤمنين بعودته حقاً؟! لكن كيف؟! "لتقولها جهاد بيقين أشد "إنه في جوف الظلمة مُحتجِب، وأنا أؤمن أن الله سينجيه كما أنجى نبي الله يونس من جوف الحوت، هل تذكرين الحكاية؟ حكاها لنا أبونا "تمتمت سارة بتأثر وهي تذكر دعاء نبي الله يونس "لا إله إلّا أنت سبحانك، إني كنتُ من الظالمين "فتسألها جهاد بإلحاح "هل صدّقتِ؟! "لترد سارة وهي تشدّد من الضغط على كفِّ توأمتها "أنا ألمسها مشعّة بالصدق منك، أصدقها ما دمتِ تصدقينها، معك في كلِّ شي لآخر العمر»**

«لقد وصلنا»

جملة هارون الجالس جوارها جعلت جهاد تخرج من أفكارها، لم تلتفت إليه بينما تدور بعينيها عبر الشباك فتجد نفسها وسط باحة دائرية مُحاطة بالعرائش، وبعد لحظات كان الحارس الشخصي جبل يفتح لها باب السيارة كي تترجل، وقفت تتطلع حولها تتعرّف على المكان بفضول،

مزرعة هادئة ومعزولة، جميلة وبسيطة، صفوف من أشجار مثمرة على اليمين وحديقة كبيرة إلى اليسار، دار بيضاء بتصميم يشبه تصاميم القصور القديمة يتوسّط هذه الخضرة، رفعت عينيها تمعن النظر في الدار ذات الطابقين وبشرفات جميلة حفّت بها زروع متسلقة، لسبب غير معلوم قلبها انعصر تأثراً وهي تغرق بهذا الجمال الهادئ وكأنها محطّة استراحة ونقاهة بعد أشهر شديدة الصعوبة!

تمتمت جهاد بإعجاب وتأثر "إنها مزرعة خلّابة "قال هارون بابتسامة جانبية "أخيراً تكلمتِ يا زوجة أخي "كان قد ترجل هو الآخر من الجهة الثانية ليلتف حول السيارة ويقف جوارها وهي غارقة في استكشاف المزرعة، التفتت إليه تسأل وتعتذر "هل أزعجك صمتي؟ أنا آسفة "بدا وجهه كمن كان نائماً فخمنّت أنه ربما نام خلال رحلة السيارة إلى المزرعة التي أخذت ساعة على الأقل، ابتسم بانشراح وبعض المشاكسة قائلاً "أثار فضولي وليس إزعاجي»

ابتسامته ذكّرتها بأيوب، ودون شعورها كانت تمعن فيه النظر تسجل أوجه الشبه؛ استدارة الوجه، العينين، النظرة، وبينما هي تدقّق هكذا؛ لاحظت الظلال تحت عينيه وآثار سهر وتعب على محياه، ورغم هذا بدا لها مختلفاً عن آخر مرة رأته فيها، فيه شيء تغيّر! وكأنّه رغم تعبه الجسدي إلّا أنّه أكثر راحة، عبّرت عما تراه بالقول المباشر "تبدو بحال أفضل مما رأيتك عليه في آخر مرة يا هارون "لاح

الغموض على محياه وهو يقول بخفوت "كانت أشهر شديدة الصعوبة "ارتفع حاجبا جهاد لتقول بعجب "لقد كنتُ أفكر بهذا للتو! "عاد الابتسام لوجهه قائلاً "ألم أقل إنك تثيرين فضولي؟!»

تناهى لسمعها خطوات راكضة وصوت طفل ينادي "جهاد أنا هنا "التفتت جهاد بابتسامة تلقائية واسعة وهي ترى يوسف يركض نحوها في حماسة، اغرورقت عيناها بالدموع وهي تفكر بهذا الطفل المسكين الذي حُرِم من والده باكراً، لتزيد خنقتها وهي تلامس بطنها وتفكر بطفلها ومتى يمكن أن يرى.. أباه!

مالت بجذعها للمستوى الذي تسمح به بطنها كي تحتضن يوسف وهو يعانقها بلفّ ذراعيه حول رقبتها فيطلب ببراءة في صيغة سؤال "هل ستحكين لي ماذا حصل لكوكب النمل؟ ماذا فعلت الملكة هناك؟ "أوشكت أن تطلق الـ آه وهي تنظر لوجهه وترد بغصّة "قصّت شعرها قصيراً حتى يعرفها الملك عندما يعود "يعبس يوسف وهو يتساءل "كيف سيعرفها إنْ قصّت شعرها؟! "ردّت ببشاشة ظاهرية وعيناها تلمعان بالدموع "لأنه من طلب منها أن تفعل هذا، كي تتخفّى من أعدائهما، فلا يتعرّف عليها أحد غيره»

***

وسط الحديقة كانت الجلسة هادئة رائقة، تتخللها الأصوات التي يطلقها يوسف حولهم وهو (يحلّق) كطائر فارداً ذراعيه يحلم بالوصول لكوكب النمل، بينما تدغدغ جهاد الصغير سيف في بطنه وهو يضحك.

هارون غفا في كرسي الخيزران الذي ملأه بجسده، يغمغم أحيانا بكلمات غير مفهومة، تعجب جهاد من اغفاءته المتكررة وكأنه لم ينم منذ شهر! فجأة قالت جيلان بنبرة هادئة "سمعت من هارون أن أختك التوءم تزوجت، مبارك لها "طبعت جهاد قبلة دافئة على خدّ الصغير الجالس فوق حجرها ثم ردت على جيلان بلطف "شكراً لك جيلان "التفتت جانباً تنظر لهارون بإشفاق ثم تعلّق "إنه مرهق للغاية! متى سيعود آدم كي يعينه في العمل وإعادة بناء مؤسسة آل العريم؟ "لمعت عينا جيلان الزرقاوين وهي ترد عليها بغموض "سيعود، يجب أن يعود، ليس لهارون إلّا آدم، مهما اعتقد خلاف هذا! "عبست جهاد وهي تتساءل بتوتر تلقائي "ماذا تقصدين جيلان؟! "لم ترد جيلان، بل آثرت الصمت، بدت جميلة للغاية بشعرها الأشقر المُسرح وعينيها الزرقاوين، لكنه جمال منقوص يفتقد حيوية الحياة، رغم هذا بدت (حيّة) أكثر مما رأتها يوماً وسط قصر العريم.

نظرات جهاد انحدرت إلى فستان جيلان الأنيق بلونه

اللؤلؤي، فكرت للحظة (هل ارتدت جيلان ملابس الحداد على زوجها؟)، لا تعرف لماذا خطر لها هذا الخاطر اللحظة، ربما لأنها لا تفهم بالضبط ما تمر به جيلان اليوم كما لم تفهمه بالأمس البعيد!

وكأنّ جيلان تقرأ ما يدور بخلدها لتقول بابتسامة باهتة "لا تفكري كثيراً يا جهاد، ولا تقلقي بشأني، كل ما يهمني في الحياة اليوم أن أحمي ولديّ"

تلثم جهاد رأس سيف الذي توسّد صدرها وغفا، بينما تحاوطه بذراعيها وهي تقرأ في أذنه أدعية الحفظ همساً.

***

يراقبها من الشرفة من طرف غير منظور وهي تهمس في أذن الصغير سيف، تنهد بحرقة الشوق ثم رفع هاتفه وكتب رسالة من كلمة (مُلِحّة) واحدة؛ (هاتِها)..

رنين صوت لوصول رسالة نصية الى هاتف هارون جعله يفتح عينيه، وحالما فتح الرسالة وقرأها، ابتسم تلقائياً، ثم وقف على قدميه يتمطّى قائلاً "تعالي لأريكِ جناحك يا جهاد، إنه بانتظارك "ببعض الدهشة سألت جهاد والخادمة تأخذ سيف من فوق حجرها "من بانتظاري؟! "تتسع ابتسامة هارون وعيناه للحظة تطرفان ناحية جيلان

قبل أن يرد على جهاد بالقول "الجناح بالتأكيد! لقد جهزناه بشكل خاص لأجلك "وقفت جهاد على قدميها وهي تهز كتفيها باستسلام ثم تقول وهي تربّت على بطنها "لا أدري لماذا تم تجهيز جناح؟! غرفة نوم صغيرة وسرير منفرد يكفيني لليلة أنا وطفلي "تمتم هارون بجملة غريبة "رغبات الداهية أوامر!»

عقدت جهاد حاجبيها لكنها لم تهتم كثيراً بتفسير جملته، يتقدّمها هارون ليقودها إلى داخل الدار بينما تفكر جهاد كم هو رجل غريب الأطوار! إنه أغرب حتى من أيوب. ربتت على بطنها وهي تهمس لطفلها بعبوس "إياكَ أن تكون غريباً مثلهما! كوكب النمل لن يسعك أنت وأبيك بهذه الطباع العجيبة لآل عريم!»

***

«أرجو أن يعجبك الجناح»

جملة قالها هارون وهو يفتح لها باب الجناح في الطابق العلوي، خطواتها تلكأت وهي تعبر عتبة الباب، ارتفعت وتيرة شعور مدهش فوضوي أمسك بتلابيب قلبها، لقد داهمها هذا الشعور بداية حالما دخلت مبنى الدار الواسعة برفقة هارون؛ رائحة مألوفة، أنفاس مخفية لكنها محسوسة، قطع أثاث تناثرت التقطتها عيناها فشعرت وكأنها رأتهم

سابقاً في حلم! تتسع عيناها اللحظة وهما تدوران في الجناح الواسع بإحساس أقرب للهلع! فهذا الجرامافون وذاك الهاتف الأرضي قديم الطراز، وتلك الأريكة الصغيرة وذاك التمثال.. والمصباح بقاعدته النحاسية الأثرية الذي أوشكت يوماً أن تهوي به فوق رأس أيوب! التفتت بحدة الهلع الذي انتابها وقلبها يقرع بعنف لتسأل هارون "من أحضر هذه الأشياء إلى هنا؟ "بدت تعابير هارون شديدة التكتّم لكنّ عينيه كانتا تخبرانها ولسانه يراوغها "تقصدين الأغراض من شقة قصر الخاتون؟ أنا أحضرتها من المخزن الذي كانت محفوظة فيه "ما تزال عيناه تتكلمان وجهاد ترتجف وأنفاسها تتسارع، أخيراً قال وهو يشير برأسه للجانب "باب الشرفة مفتوح و.. بانتظارك "

هذه المرة كلمة (بانتظارك) كانت تحمل معنى صريحاً جعل جهاد تلهث وهي تستدير لتتحرك على عجل نحو الشرفة تاركة هارون خلفها يبتسم ابتسامة مشعّة وهو يتمتم "حان وقت الخلوة "ثم تراجع مغادراً الجناح ليغلق الباب خلفه وهو يُخرج هاتفه، يهبط درجات السلم بينما يتصل بجبل يأمره بالاستعداد للرحيل.

***

بصمت وأنفاسها محشورة فاضت عيناها بدموع فورية حتى قبل أن تراه! كانت تعلم أنها ستراه حالما تخرج

للشرفة؛ ورغم هذا شهقت وهي ترفع يدها لفمها وقدماها تسمّرتا مكانهما حالما وقعت عيناها عليه، وسط فيض الدموع ترى تفاصيله بوقفته عند سور الشرفة الواسعة، قميصه أبيض كسرواله، شعره قصير مقصوص بعناية، نظارة شمس سوداء فوق عينيه، وابتسامة مرتجفة مشاكسة ترسم شفتيه، من يراه الآن لا يتعرّف عليه ربما وقد تغيرت هيئته الخارجية ونظارته تخفي الكثير؛ لكن هي تراه من الداخل كم لم يره أحد، لسانها لم يطاوعها لنطق اسمه وقدماها لم تملكا القوة لحملها إليه.

«هل لديك وقت لتشاركيني فنجان قهوة؟ "حالما سمعت صوته؛ أجهشت بالبكاء في صوت عالٍ، انهارت تلك الأسوار المنيعة التي احتمت خلفها لأشهر وهي تدّعي الصلابة في انتظاره، هي ليست صلبة.. ليست قوية ولا حكيمة، هي التوءم الأضعف دائماً، المتهورة أبداً.

كانت ساقاها ترتجفان بقوة حتى أوشكت أن تقع، رأته يسير نحوها على عجل، وبخطوات عرجاء واضحة لكن.. دون عصاه! أغمضت عينيها وهي تشهق بمزيد من البكاء عندما انتشرت حولها تلك الرائحة المألوفة له التي شمّتها حال دخولها الدار، ارتعد جسدها وذراعاه تحاوطانها ثم.. انهارا معاً للأرض.

بلهفة شوق وجنون يقبّل كل جزء من وجهها وعنقها

وهي تفعل المثل له، كلاهما غرق في الآخر وهما جاثيان على الأرضية الرُخامية يحضنان بعض بتشبث، لسانها لا يتوقف عن التمتمة (الحمد لله)؛ لكنها لم تفتح عينيها لتراه عن قرب، حتى أمرها بقوة وهو يبتعد قليلاً "افتحي عينيك! "فعلت ما طلب دون إبطاء؛ ليهتز جسدها بعنف وهي تحدق فيه؛ وجهاً لوجه، حقيقة واقعة لا رجعة فيها، كان قد خلع النظارة وظهر بشكل جلي مدى التغيير الحاصل في تشوهات جانب وجهه، لم تختفِ؛ لكنها قلّت بوضوح، رفعت يدها لتلامس بشرة وجهه كما كانت تفعل وهما معاً لتنطق اسمه وقد طاوعها لسانها أخيراً «أيوب»

ارتجف أيوب وتمتم همساً ثائراً "الغرام صعب أليس كذلك يا نملاوي؟ اللعنة! لم يخبرني أحد أنه صعب هكذا! "يرفع كفه ليمسك بذقنها بخشونة هادراً بعينين تبرقان "صبرتُ على كل مررتُ به الأشهر الماضية فقط لأجل أن أصل إلى اليوم الذي أرى فيه هذا التعبير على وجهك عندما أعود "هبطت بضع دمعات وكلها يشعّ بالغرام لتهمس بالسؤال المغتاظ "لماذا تأخرت؟! "عيناه تضحكان وهو يمازحها بالقول "بعض الأعطال في الطريق! "ثم مال ليسند جبينه فوق جبينها متنهداً وجسده يتوتر، بدا وكأنه يعاني في ضبط نفسه، كفه تحرك من ذقنها إلى رقبتها، ثم امتدت أصابعه للخلف تداعب شعرها القصير هامساً بقلة صبر "بطنك كبرت كثيراً، لا أريد أن اؤذيك "

ضحكت وخداها يحمران ثم همست بارتعاش شوق يوازي شوقه "الغرام صعب، أليس كذلك؟ "في بعض الخشونة كان ينهض بها وهو يهتف "صعب جداً يا ملكة كوكب النمل "يجرّها للداخل وأصابعه تعبث بأزرار فستانها بينما تهمس جهاد بحرج "لكن هارون وجيلان في الحديقة "بعينيه المظلمتين بالمشاعر رد وهو يوقع عن جسدها الفستان «لقد رحلا»

***

في المقعد الخلفي للسيارة يرد هارون على آدم عبر الهاتف قائلاً بابتسامة برّاقة "لقد تركته مع زوجته، لقد فعلها الداهية وعاد! "

جيلان تستمع للحوار من طرف هارون فقط بينما تراقب وجهه الذي تغير كثيراً منذ أيام قليلة فقط، حين اتصل أيوب ليعلن أنه لم يمت، كانت صدمة لم تصدقها جيلان، وحتى اللحظة تجد صعوبة في تصديقها! رغم أنها قابلته واحتضنته وبكت بمرارة على صدره.

دون أن تشعر أمسكت بكفّ ولدها يوسف الذي يجلس بينها وبين هارون، لا تدري أ عودة أيوب تمنح مزيداً من الأمان أم العكس، مزيداً من التهديد؟! ولداها لم يلتقيا بعمهما عند عودته الوطن فجر اليوم، لقد كانت

رغبة أيوب حتى لا يكشفا ببراءة عن عودته قبل أن يعلنها هو بنفسه.

«متى ستعود يا آدم؟ "صوت هارون وسؤاله المُلح أخرج جيلان من أفكارها، التفتت نحوه وهي تسمعه يضيف بتأكيد "وأنا بانتظارك "قبل أن يغلق الاتصال ثم يضع الجهاز جانباً ويرخي رأسه للخلف، كان مجهداً للغاية، لم تكن المسؤولية فقط والمجهود الذي يبذله بمفرده منذ أشهر، هناك الكثير حول هارون وصعب إحصاؤه!

شعرت فجأة بالغيظ من أيوب، منذ عودته لم يفكر بمعاناة هارون، بل كل ما كان يشغله هو جهاد لا غير! فجأة قالت بخشونة "ألم يخش عليها من الصدمة؟! إنها حامل بطفله! "رد هارون بابتسامة شقية وهو يدير وجهه جانباً نحوها "تقصدين أيوب؟ لقد قال إنها بانتظاره! والمُلفت أني اكتشفت اليوم فقط أنها بانتظاره حقّاً! لا تسمح لعائلتها بالكلام أو حتى الإشارة لموته "عقدت جيلان حاجبيها وهي تتساءل "غريب! ربما كان يتواصل معها سرّاً بعد الحادث؟ "فدحض هارون اعتقادها بالقول الواثق "اطلاقاً، لقد أكّد لي أيوب هذا منذ اتصل بي لأول مرة قبل أيام ليعلن لنا أنه حي يرزق "فضول النساء غلبها لتتساءل بعجب وبعض الغيظ "ما أزال لا أفهم! من أين له هذه الثقة أنها لم تصدّق موته الذي صدقناه نحن جميعاً؟! "سرحت نظرات هارون وهو يقول "سألته هذا السؤال

فرد عليّ ضاحكاً لأنها لم تنشر الكتّاب "ارتفع حاجبا جيلان وهي تسأل "أي كتّاب؟! "هزّ هارون كتفيه بلا مبالاة وهو يرد "علمي علمك! أيوب لم يفصح أكثر»

ضمّت جيلان رأس ولدها يوسف لصدرها وهي تتساءل بنوع من الغيرة النسائية "ما هو المميز فيها؟! لا أصدق أن أيوب متعلق بها ومتمسك لهذه الدرجة "وكأن هارون يستغرب الأمر مثلها وهو يعلّق بالقول "لقد جازف بالعودة الباكرة لأجلها "شدّدت جيلان من ضغط رأس ولدها لصدرها بينما عيناها تلقائياً تنتقلان إلى وجه ولدها الأصغر الذي يلعب مع الخادمة في المقعد الأمامي جوار السائق، لتسأل بحشرجة القلق "هل هناك خطر على حياته؟ "عينا هارون سرحتا بالتفكير وهو يحدق أمامه قائلاً "الخطر زال تقريباً والاتفاق تم، صاحبه المكسيكي كان وفياً وسعى بكل ثقله لإنقاذه، ابتدع فكرة مقتل أيوب وأخفاه إلى حين ملائمة الظروف لعقد اتفاق، ردّ له معروفاً قديماً حينما أنقذ أيوب حياته، مع هذا كان يجب أن يبقى مختفياً أكثر من باب الحرص وزيادة الاطمئنان "صمتت جيلان للحظة قبل أن تسأل فجأة "متى سيعود آدم؟ "تمتم هارون وهو يتنهد "لا أدري.. لكنه مؤكد سيعود «

ساد الصمت بعدها ليسرح فكر هارون بعيدا عن العمل، بعيداً عن إخوته والمسؤوليات والعمل، لقد سرح في عمقه

هو، خيالات مظلمه ما تزال تراوده عن نفسه! وإحداها اللحظة، ليتخيل أنه يفتح باب السيارة المجاور له في غفلة عن حارسه الشخصي جبل، فيرمي بنفسه إلى الشارع العام السريع، جسده يرتطم مراراً بالإسفلت قبل أن تدهسه شاحنة ضخمة تمزّق أعضاءه من الداخل فينزف حتى الموت! تلمع عيناه بلمعة خطيرة كتلك اللمعة عندما كان يقف على حافة سطح مبنى شاهق يترنّح يريد الاستسلام للسقوط. يرى جبل عبر المرآة الأمامية تلك اللمعة، يفهمها وقد خَبرها مراراً، فيسأل بصوت واضح وكأنه يمدُّ ذراعه ليسحبه من الحافّة "سيد هارون، هل أنت معنا؟ "تنطفئ اللمعة من فورها وهو يرد على جبل بابتسامة "لا تقلق هكذا يا جبل، مجرد أضغاث أحلام سرعان ما استفيق منها، لم يعد شيء كما كان!»

شعر هارون بكفّ جيلان فوق ذراعه وتضغط بأصابعها وهي تحذره أو ربما تنهاه بقوة "إياك أن تفكر بالعودة إلى تلك الأضغاث! "التفت إليها ورأى الخوف الرهيب في زرقة عينيها، رفع كفه الآخر ليربّت فوق كفها وهو يقول بصبر "جيلان يجب أن تتماسكي أكثر "هتفت ببعض العصبية "أنا متماسكة، لكني أحتاج إليك وإلى آدم حين يعود بإذن الله "ما يزال يربّت فوق كفها البارد وهو يهدئها بالقول الصادق "سأحميكِ وولديكِ ولو كانت حياتي الثمن "فاض الامتنان من عينيها وخفتت نظرات الرعب وهي ترد عليه بنفس الصدق "لهذا بقيتُ هنا، لأنك تملك من

الرغبة بحمايتنا ما يكفي "ثم أضافت بشعور الخطر الذي يسيطر عليها "في أي مكان من العالم نحن مهدّدون، ولن أجارف بحياة ولديّ "

حاول مجدداً تطمينها بخفوت "لكن الأمر انتهى بالفعل يا جيلان، نحن خارج اللعبة الوسخة الآن، فلا تضغطي على الولدين بمخاوفك "رغم كل تطميناته المنطقية أصرّت وهي ترد عليه بخفوت أيضاً "لن ينتهي.. لن ينتهي أبداً، إنها لعنة! "حدّق هارون في عينيها بيأس أن ينزع هذا الرعب منها، لقد كان لكلٍّ منهم لعنته، وهذه لعنة جيلان التي يجب أن نتعايش معها إلى ما شاء الله.

***

**مساء، المزرعة**

في الشرفة الواسعة تجلس في حِجره على أريكة خيزران، يلمها أيوب إليه بينما تغمر جهاد وجهها في عنقه وتتشبث أصابع يدها بقميصه، تتطاير حافة منامتها البيضاء الخفيفة من نسائم الهواء في المزرعة فتشعر جهاد وكأنّ روحها تطير وتحلّق مع روح أيوب، صمت رقيق يدثرهما بالاكتفاء وإضاءة القمر وسط الليل تنير مشاعرهما بوهج العشق والاشتياق. همست وهي مغمورة فيه هكذا "أخبرني "يميل ليلثم فمها ثم قال "الحديث طويل، وقلة معرفتك بتفاصيله

أفضل "أبعدت وجهها قليلاً وفتحت عينيها تنظر إليه، سألت بإيجاز "هل أنتَ آمن الآن؟ "رد وأصابعه تمتد لتعبث بخصل شعرها "نظرياً نعم، لكن من يدري؟! "عقدت حاجبيها قليلاً وهي تتساءل "فقط أخبرني ما تستطيع الافصاح عنه "فشرح أيوب بأسلوب عملي محترف وذكي "أنا لم أضرّهم، وهذا كان له قيمته؛ أرادوا معاقبتي لأني تلاعبت بهم فقط، فاستخدمت آخر ورقة جوكر أملكها؛ معلومات غاية بالأهمية لهم، ومع وساطة صديقي المكسيكي ثقلت كفتي في الميزان ليمنحوني حريتي كي أعيش بأمان مع عائلتي "تمتمت جهاد "الحمد لله «

ابتسم أيوب وهو يسأل بلؤم "لماذا لم تنشري الكتاب؟ ألم تنهيه؟ "ردت بإخلاص "بل أنهيته، لكنك لم تَمُتْ "ترفع يدها لتلامس خدّه مضيفة بهمس "كنتُ بانتظار عودتك لتنشره بنفسك، قلبي كان يقول لي على الدوام أنك حيٌّ تُرزق "يميل ليطبع القبلات الحارة على خدها وشفتيها بينما تتنهد جهاد وهي تمد يدها لتلامس الجانب المشوه من وجهه فتسأله بخفوت "هل كنتَ تتعالج طوال الوقت؟! ساقك تحسنت كثيراً «غمغم بالقول "كانت رحلة صعبة للغاية جهاد، ليتكِ كنتِ معي فيها "تتعلق به ودموعها تجري بينما يد أيوب تمر فوق بطنها حيث طفلهما ينمو فتواصل جهاد تكرار الحمد دون انقطاع.

***

## صباح اليوم التالي، جامع عبد الفتاح باشا، حي الخاتون

لم يخلع نظارته الشمسية السوداء وهو يجلس في زاوية الجامع، تفاحة حمراء في يده فيقلب فيها بابتسامة رائقة ونفس راضية، رفع نظراته ليجول في أنحاء الجامع فلم يجد إلّا نفراً قليلاً من الروّاد، ما يزال الوقت باكراً جداً لصلاة الظهر.

## (وأنا السائلُ الملُح ويجلو وحشة الذُلِ أنكَ المسؤولُ)

نفحة كلمات اقشعر لها بدن أيوب، رفع رأسه فرأى شاباً يقف حافي القدمين في زاوية أخرى؛ كان ذاك الشاب يفرد كفيه عالياً وتسيل دموعه مدراراً ويتهدّج صوت في توسل مُذلٍّ مُعِز! يكرّر تلك الكلمات دون توقف وأيوب يراقب في تأثر غلبه بشكل عجيب، حتى أجفل قليلاً ويد الشيخ عبد المُعز تربت على كتفه وقد عاد إليه بعد أن تركه ليقضي مسألة ما، التفت أيوب للشيخ الذي جلس جواره ليسأله "أهذا الشاب يقرأ دعاءً ما؟! "فرد الشيخ بنظراته السمحة "بل بيت شعري للأديب الشاعر (بدوي الجبل)، ألم تسمعه من قبل؟ "يهزّ أيوب رأسه نفياً بينما ما يزال الشاب يكرر ذاك البيت الشعري وترتفع نبرة التوسل والخضوع ليسأل أيوب "ما هي مسألته؟ "فيرد الشيخ وهو ينظر نحو الشاب أيضاً "الله أعلم، منذ أكثر من شهر يدعو

هكذا وكل يوم، وكلما سألته عن حاجته، ردّ عليّ أنه لا يطلبها إلّا من (المسؤول)»

أطرق الشيخ بعدها لينظر إلى التفاحة في يد أيوب فيسأله مازحاً "أهذه تفاحة آدم في يدك يا سيد؟ "التفت إليه أيوب وهو يخلع نظارته ويرد عليه بابتسامة ونوع من الفكاهة "بل تفاحة أيوب "ثم صمت للحظات قبل أن يضيف بتفكّر "العلّة لم تكن في التفاحة ذاتها، أليس كذلك يا شيخ؟ "أدرك الشيخ ان أيوب يتكلم عن القصة القديمة للتفاحة منذ خلق آدم فرد على أيوب بالقول "مؤكد، الشجرة حرّمها الله على آدم كي يُعلّمه التفريق بين الحلال والحرام، الطاعة والعصيان، الجنة والنار، اختيارنا في النهاية هو الفيصل يا سيد، وعند مفترق الطرق تكون الخيارات الأصعب، وكلما أخطأنا الطريق يهيّأ لنا مفترقاً جديداً لنعيد الحساب ونُحسن الاختيار، وهكذا نستمر ونكون حتى نلقى وجهه الكريم»

صمت أيوب ولم يرد بشيء، بل أطال النظر إلى تلك التفاحة وكأنه يرى فيها طريقاً طويلاً سلكه، يبدأ من تلك التفاحة التي أوقعت أبانا آدم في الاغواء وحتى تفاحته هو؛ تفاحة أيوب ما بين حلال وحرام؛ جنة ونار، سأله الشيخ عبد المُعز "أأدركت محبته لنا؟ "بحشرجة تأثر عميق رد أيوب دون أن يرفع نظراته عن تفاحته "فكرت بمحبته مراراً، لكني لم أرها حقاً وأشعر بها إلّا فجر اليوم وأنا

ألمس بكفي حركة طفلي في رحم زوجتي وهي نائمة في أمان "رفع نظراته ليضيف بنفس الحشرجة وهو ينظر لصديقه الشيخ الذي رافقه رحلته "لقد طهّرت مالي ومال إخوتي كما قلتَ لي، عرفت دربي وتركت لهم خيار معرفة دروبهم، أنا ارتحت يا شيخ وقد مضى أربعون عاماً من عمري لم أتذوق فيها طعم الراحة والسلام "تمتم الشيخ بنظرات لامعة بدموع التأثر "**دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ**»

يبتلع أيوب ريقه وهو يؤكد "أجل.. دوائي معي ولم أكن أبصره! "ثم أضاف بعد لحظة "هل تعلم يا شيخ وأنا متخفٍّ من أعدائي أتلقّى العلاج لم أجد إلّا الكتب ونيساً، وبدلاً من كتب الاقتصاد والسياسة وعالم الجرائم المنظمة؛ تبحّرت في سيرة الامام عليّ ابن ابي طالب، إنه عَالَم آخر يا شيخ، لكنه في نفس الوقت؛ هو قلب عالمنا الحاضر النابض، أذهلني هذا الرجل! وكأنّه عاش كلّ الأزمنة التي بعده، أم تراه عرف ماهية البشر حقاً وأنهم لا يتغيرون في جوهرهم مهما تغيرت الحضارة ونوع الثقافة والنسيج الاجتماعي؟! وكأنّه كان يكلّمنا من زمانه إلى زماننا، من أين له هذا العلم؟! "رد الشيخ "هو ربيب المصطفى منذ صباه، سقاه علمه ومعرفته "يهز أيوب رأسه وهو يقول "مؤكد هذا هو السبب، وقد علق في رأسي من حكمته وبلاغته ما علق، لكن هذه الأبيات الشعرية منه ظلت حاضرة طوال الوقت في ذهني؛

رَأَيتُ الدَهرَ مُختَلِفاً يَـــــــــدورُ

فَلا حُـــــــــزنٌ يَـــــــــدومُ وَلا سُرورُ

وَقَد بَنَتِ المُلوكُ بِهِ قَصوراً

فَلَم تَبقَ المُلوكُ وَلا القُصورُ

بعد ترديده لتلك الأبيات علّق الشيخ بحكمة "هو الطغيان يُعيد تشكيل نفسه عبر العصور منذ بدء الخلق وحتى قيام الساعة، فلا مُعتبر! "جاش في صدر أيوب الكثير فقال يصارح صديقه بما لا يخبر أحداً غيره "لم أملك القوة لأجابه ذاك الطغيان وحدي يا شيخ، اكتفيت أن تلاعبت معهم وبعتهم معلومات نظير حياتي وحياة من يهمّونني، أأخطأت؟ أ تراني كان يجب أن أحارب؟ "فقال الشيخ بعد لحظات تدبّر "الدفاع عن النفس وحماية حياة وعرض أهل بيتك واجب له أولويته، وقد فعلت ما استطعت أليس كذلك؟ "فرد أيوب بصدق "أجل فعلت ما استطعت، إنه طوفان كان سيبلعني قبل حتى أن يسمع أحد همسي! "ثم أطرق يعاود النظر لتلك التفاحة مضيفاً باسترسال "إنهم جزء من مافيات عالمية لغسيل الأموال والتجسس وبيع السلاح والإتجار بالبشر وتوفيرهم للجنس أو مرتزقة للحروب؛ حروب بالدم لهم يد مباشرة وغير مباشرة في نشوبها، وحروب

بالفكر عبر شبكات إعلامية ومؤسسات صحفية مرموقة وشركات انتاج أفلام سينمائية ودراما على مستوى العالم وبكل اللغات، وهذه الحرب تؤدي إلى تلك وبالعكس! حكومات دول تتآمر على بعض، وشعوب مُغيبة يتم التلاعب بولاءاتها ليتخبطوا في اختياراتهم "ثم رفع أيوب رأسه لينظر للشيخ ويخبره المزيد من المعلومات المذهلة "إنها سياسة القطيع وما ثورة مواقع التواصل الاجتماعي إلّا شكلاً جديداً من أشكالها، فتحلب تلك المواقع طاقات مستخدميها وتستعبدهم، تنهكهم وتمتص رحيق صبرهم وتُضيّق معرفتهم وتحبسهم داخل دائرة التشتيت وحب الظهور فينساقون مع الأكاذيب والإشاعات والإلهاء بقصص المشاهير وفضائحهم، وقد تم تجنيد وتدريب جيوش إلكترونية بحسابات وهمية تستخدم أهواء الناس بشراسة لإثارة نعرات دينية وطائفية وعرقية، ابتداع منظمات تطرّف ديني قائمة على الفكر التكفيري العنيف لتنفيذ الأجندات الموكلة إليها فتغرّر بالشباب المندفع "يعلق الشيخ في حزن عميق "يؤلمني أنّ الدين الاسلامي السمح يتعرض لكل هذا "ليشرح أيوب أكثر بنظرات ذكية فطنة "من قال الاسلام فقط؟! لقد طال التطرّف كل الأديان ومنذ عقود طويلة جداً، ولا تظن أن غير المتدينين نجوا، بل يتم استهداف معتقداتهم الشخصية والأخلاقية ليتطرفوا بالدفاع عنها، المهم أن تنشب الصراعات بأنواعها ويُباع السلاح الخفيف والثقيل لتدمير الأرض والبشر، وعند انتهائها، يأتي دور سوق الإعمار والاستثمار التنافسي

وبيع العلاجات الجسدية والنفسية، وكله مدفوع الثمن من أرواح الشعوب وأقواتها ضمن جدول منسّق، وعلى التوازي مع كل هذا، تُفتح أسواق جديدة للدعارة وينشط تهريب المخدرات وتنمو خلايا فتية للإجرام وتجنيد الأحداث، إنها سلسلة يا شيخ وحلقاتها مترابطة بدقة»

وضع الشيخ عبد المعز يده فوق يد أيوب التي تمسك التفاحة ليحثّه بجدية "إذن أكتبْ عنه يا أيوب، انشره للناس لعلّك تغير شيئاً، لعلّك مررت بكل هذا لتكون سبباً من أسبابه تعالى كي تكشف الحقائق، صدقني إنّ لله طرقه وسبله "انشرح محيا أيوب وهو يرد براحة "سأفعل يا طيب، قريباً يصدر أول كتاب لي، ولن يكون الأخير "تهلّل وجه الشيخ وهو يبارك له» ما شاء الله، مبارك لك وجعل الله لك في كل خطوة أجراً»

زفر أيوب أنفاسه وهو يسأل "هل انت مستعد للذهاب الآن يا شيخ؟ "هزّ الشيخ رأسه وهو يقف على قدميه "كنتُ بانتظارك منذ صلاة الفجر، هيّا بنا يا سيّد "ليقف أيوب معه ويتحركان سوية كي يغادرا الجامع ودون أن يغطي أيوب عينيه بالنظارة الشمسية، صبي من الحي أخذ يهرول بين أزقة الخاتون وهو ينادي ويُعلن "السيد عاد.. السيد لم يمت!»

***

في ركن ظليل حيث قبر الجدة أفنان تحت عريشة ورد، تربّع الشيخ عبد المعز جالساً ثم أغمض عينيه وبدأ التلاوة "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ "

يكمل الشيخ القراءة بصوته الشجيّ وأيوب يستمع ولسانه يردّد دعاء جدته (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وما يزال يردّد الدعاء حتى خنقته العبرة وسالت دموعه.

وبينما عينا أيوب على شاهد القبر، احتشدت الكلمات فاحتار أيُّها يختار كي يخبر جدته، وبعد لحظات تنهّدَ وهو يقول لمن سكن جسدها ذاك القبر "جدتي.. لقد نجوت! "قالها وهو يرفع عينين لامعتين بالدموع نحو السماء الصافية.

***

تمت 2022

# تفاحة أيوب

عقد أيوب حاجبيه وعيناه لا تفارقان حفنة المال، لتتحول بغتة أمام ناظريه إلى تفاحة ! تفاحة حمراء شهية، مغرية.. مغوية يبتلع أيوب ريقه ومذاق التفاح من الماضي ما يزال عالقا في ذاكرته عالق كما علق الشيطان في انتقامه الأزلي من بني آدم، وها هو أيوب بعد كل ما جرى : وكأنه يشتهي الوقوع مجددا في سحر إغرائه ولذة إغوائه ! تفاحة تخفي في عمقها العفن حيث ينخرها الحرام من الداخل: متنعما بغفلة الغافلين

4000000002

ضياء
t.me/twinkling4

تدوين
إبداع